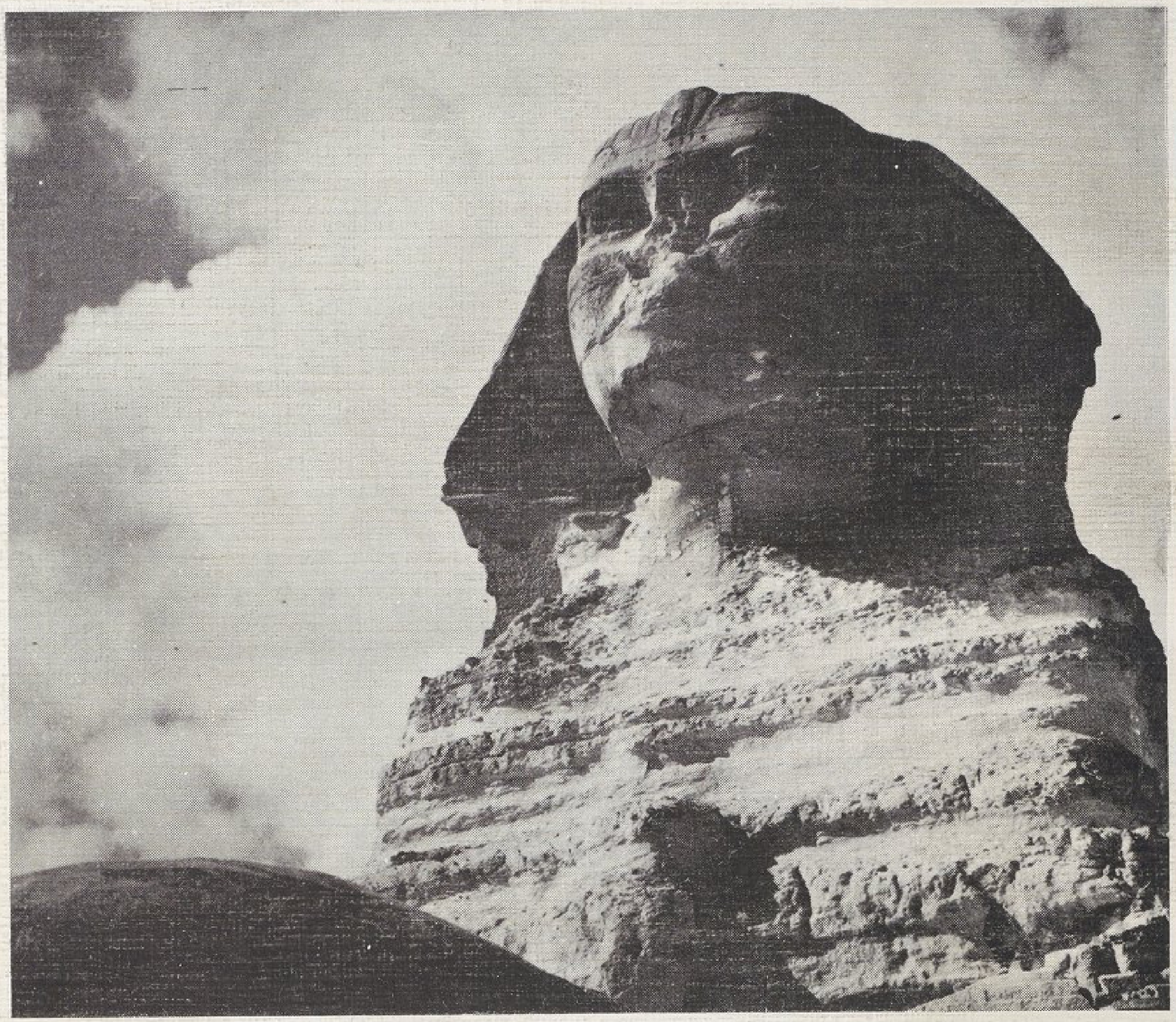

الآثار المصرية
في وادي النيل

تأليف: جيمس بيكي — ترجمة: لبيب حبشي

مراجعة: د. جمال الدين مختار — شفيق فريد

الهيئة المصرية العامة للكتاب

الآثار المصرية

فى وادى النيل

هذه ترجمة كتاب

Egyptian Antiquities In The Nile Valley
A Descriptive Handbook
By
JAMES BAIKIE

الآثار المصرية
فى وادى النيل

تأليف

جيمس بيكى

ترجمة

لبيب حبشى شفيق فريد

مراجعة

د. محمد جمال الدين مختار

شبكة كتب الشيعة
shiabooks.net
mktba.net رابط بديل

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٧

الإخراج الفني : سهير معطى شنودة

المراجعة والإشراف الفني : عفـاف توفيق

الجزء الرابع

من جنوب طيبة حتى جبل برقل

الكتاب الخامس

من طيبة إلى أسوان

الفصل الثامن والعشرون

أرمنت (هرمونتيس) والجبلين وإسنا

وإذا تركنا طيبة متجهين جنوباً ، التقينا بأول موقع قديم ، ونعنى به مدينة أرمنت الحديثة التى كان يطلق عليها قديماً اسم أون الجنوبية تمييزاً لها عن هليوبوليس التى كانت تسمى أون الشمالية[1] .

وكانت أرمنت مركز عبادة منتو أو مونت إله الحرب المحلى ، وبذلك سميت مدينته بر - مونت أى بيت مونت ، ومنها جاء الاسم اليونانى هرمونتيس التى أصبحت حالياً أرمنت .

وتقع أرمنت على مسافة ٩ ½ ميل تقريباً من الأقصر بطريق النهر ، ولكن البواخر السياحية لا تسمح بزيارتها كما أن الوصول إليها بالقطار من الأقصر شاق بعض الشىء وتقع المدينة على الضفة الغربية للنيل بينما تقع محطتها على الضفة الشرقية منه . ومن الممكن أن يغادر الإنسان الأقصر بقطار الصباح ليصل إلى محطة أرمنت بعد أربعين دقيقة تقريباً ، ومنها يأخذ ركوبة تقطع به مسافة تقل عن ميل ليصل إلى النهر حيث ينقله أحد القوارب إلى الضفة الغربية ، ومنها يأخذ ركوبة أخرى لمدة نصف ساعة تقريباً ليصل إلى أطلال المدينة . ولكن من المستحسن أن يحضر الركائب من الأقصر لهذه الرحلة رغم ما فى ذلك من مشقة لا تتناسب مع ما سيراه من المخلفات القديمة . ولكن المسافر فى «دهبية» خاصة لن يلقى مثل هذا الجهد[2] . ورغم أن الآثار الباقية ليست بذات أهمية غير أن المناظر التى تحيط بها

---

(١) طبقا للأبحاث الحديثة فقد أطلقت «أون الجنوبية» على طيبة أنظر
Kees Grientalia ; 18; PP . 427 FF

(٢) يجب ملاحظة أن وسائل النقل قد تطورت تماما عما كان سائدا عند تأليف هذا الكتاب

على جانب كبير من الجمال . ويقول «وايجل» : يختلف منظر المكان هنا كثيراً عن المنظر المألوف فى مصر ، فعلى طول ضفة النهر صف رائع من أشجار اللبخ حيث تقوم فى وسطها بقايا المرفأ الرومانى الذى يضم بين مبانيه كتلا مختلفة من معبد بطلمى ، ويفضى إلى المرفأ طريق رائع يمتد أولا من حافة النهر ، ثم يمر بعيداً لمسافة ياردات قليلة ، ويظلل الطريق أشجار كثيفة إذا اخترقتها أشعة الشمس ألقت عليه أضواء متكسرة ذات لـون أصفر . وتوجد على الجانب الغربى حقول شاسعة مزروعة بقصب السكر محاطة بشجيرات تشبه تلك التى تنمو فى أوروبا . ويتخلل هذه الحقول قنوات مائية ، وتضفى خضرة القصب فى فصل الخريف منظراً رائعاً جداً على هذه الحقول ، غير أنها تصبح عارية فى فصل الشتاء بعد موسم الحصاد (دليل آثار مصر العليا ص ٢٩٤)[١] .

ومن المحتمل أنه كان لمنتو ومدينته فى أزمان متقدمة شهرة تفوق شهرة طيبة ومن الممكن أنه كان الإله الأصلى لمقاطعة طيبة ويظن أن مدينته كـانت فى أوج مجدهـا خلال الـدولة الوسطى ، ولكن شيئاً فشيئاً طغت عليها شهرة طيبة وإلهها آمون ، ومع ذلك استمر منتو الإله الممثل برأس صقر محتفظاً بشهرته ، فقد كان له معبد بطيبة قريباً من معبد آمون رع الكبير بالكرنك[٢] ، كما كان من الطبيعى بل من المحتم أن يردد اسمه كل فرعون منتصر للتعبير عن شجاعته . وقد قال بنتاؤ ر عن رمسيس الثانى فى قصيدته التى وصف فيها موقعة قادش [٣] : «اندفع جلالته مثل والده مونت» وعندما استنجد رمسيس بآمون للخلاص من المأزق الذى وقع فيه أثناء المعركة نجده يقول : «إننى إذ أرسل صلواتى إلى حدود البلاد أجد أن صوتى وصل إلى هرمونتيس» ويتضح من ذلك أن منتو كان محتفظاً بمكانته ، ومن المعروف أن لقب «الثور القوى» الذى كان من بـين مظاهـر عبادتـه قد أضيف إلى ألقـاب الملوك الطيبيين .

وكما كان لرع فى هليوبوليس العجل المقدس «منيفس» ولبتاح فى منف العجل «أبيس» كذلك كان لمنتو فى هرمونتيس العجل المقدس «باخ» الذى كان يطلق عليه الكتاب اليونان والرومان «بوخيس» أو «باخس» ، وهذه الصفة التى تتصل بعبادته هى التى دعت الفراعنة إلى إضافة لقب الثور القوى إلى ألقابهم [٤] وكان للعجل «باخ» كما كان للعجول الأخرى

---

(١) - Weigall; Guide to the Antiquities of Upper Egypt ; p . 294 .

(٢) بلاصقالة فى الجهة البحرية حيث يعمل المعهد الفرنسى للدراسات الشرقية منذ الثلاثينات فى دراسة .

(٣) المعتقد الآن أن بنتاؤ ور لم يكن الشخص الذى كون القصيدة بل كان الكاتب الذى نقشها وقد أثبت اسمه مما أوجد الفكرة بأنه مبتدعها .

(٤) الواقع أن العجل المقدس للآله منتو كان يدعى بالعجل الشاسه وقد وجدت فى أطراف المدينة على الصحراء جبانه واسعة بها مقابر هذه العجول ولو أنه لم يوجد بها توابيت ضخمة كما وجدت فى الأماكن الأخرى التى عبدت فيها الآلهة التى رمز لها بالعجول ولكن وجدت هناك لوحات هامة أنظر :
Mond-Mayers-Fairman ; The Bucheum ; Vois . I-III.

المقدسة ، صفات مميزة يصعب غالباً العثور عليها فيما يرشح لشغل هذا المركز ، فليس من المعتاد أن تغير العجول ألوانها من وقت لآخر ، وأن يكون لها شعر طويل ينمو فى الخلف على عكس طبيعة الحيوانات الأخرى ، غير أن هذه المميزات لم تكن - حتى فى الحالات الصعبة التى كان لابد من توافرها فى العجل أبيس - حجر عثرة أمام رجال الدين ، فقد كانوا يعثرون دائماً على عجل تتوفر فيه كل العلامات الطيبة بعد فترة طويلة أو قصيرة من موت سلفه نتيجة للتقدم فى السن أو بسبب التخمة من الأكل .

وقد اختفى معبد الدولة الوسطى ، مع ما أضيف إليه فى عصر الأسرة الثامنة عشرة رغم أننا نعرف أن إخناتون قد أقام المبانى هنا ورغم أن خرطوش رمسيس الثانى وجد فى المكان . وأن «من خبر رع» الذى وجد خرطوشه هنا ليس هو تحتمس الثالث ، وإنما يحتمل أنه واحد من الملوك الكهنة الذين يحملون نفس الاسم فى الأسرة الواحدة والعشرين . وقد أقامت هنا كليوباترا معبدا لها ولابنها سيزاريون ، ويبدو أن هذا المعبد كان كبير الحجم نسبيا ، غير أنه لم يبق منه إلا بعض أجزاء قليلة ، فقد استخدمت أحجاره فى إقامة مصنع السكر ، وفى القرية بقايا حمام رومانى وآثار قليلة لمعبد من العصر البطلمى . وعدا هذا فليس فى أرمنت مايهم الزائر رغم أنه كان بها مقبرة للعجل المقدس «باخ» ، كما كان لمنفى السرابيوم بسقارة المخصص لدفن العجل أبيس وقد كشف عنها السيرروبرت موند والمستر والتر إمرى فى ١٩٢٧[1] .

ويبدأ من أرمنت خط سكة حديد إضافى يسير بمحاذاة الضفة الغربية للنيل متجها إلى إسنا . وعلى مسافة أربعة أميال من أرمنت تقع محطة الرزيقات . ويوجد إلى الغرب منها على حافة الصحراء جبانة شاسعة من عصر الدولة الوسطى وبداية الدولة الحديثة ويرجح أن هذه الجبانة هى جبانة أرمنت . ومهما كانت أهمية هذه الجبانة فى وقت ما فليس بها الآن مايلفت النظر إذ أنها قد نهبت بانتظام خلال سنين طويلة ، ولم يبق منها سوى مقابر نصف خالية تشهد بالاحترام الذى يحمله المصرى الحديث لأجداده .

ويوجد بالقرب من محطة أرمنت التى تقع على الضفة الشرقية للنيل قرية «طود» التى يظن أنها تيفيوم القديمة وهنا كان يقوم فى العصر البطلمى معبد آخر كبير للإله منتو يقابل

---

(١) أجريت حفائر بعد تأليف هذا الكتاب على نفقة سير روبرت موند وتحت إشراف أوليفر مايرر وبالأشتراك مع الكثيرين من العلماء وقد انتهت إلى نتائج طيبة . أنظر

Mond - Myers et . als . ;
- **Cemeteries of Armant;** 2 Vols ; 1937 .
- Temples of Armant ; 2 Vols ; 1940 .

معبده فى الضفة الغربية لأرمنت غير أنه لم يبق من المعبد سوى بعض أعمدة محطمة وجزء من جدار ربما كان بقايا المقصورة الأمامية للمعبد .

«الجبلين»

يمكن الوصول إلى الجبلين من محطة الشغب الواقعة على الخط الرئيسى بالضفة الشرقية أو بأخذ ركوبة أو بطريق السكة الحديد الإضافى بالضفة الغربية من أرمنت إلى محطة الجبلين . واسم الجبلين يعنى التلين حيث توجد هنا قمتان من الحجر الجيرى يكونان علامات مميزة تبدو من النهر . وهما تقعان فى الضفة الغربية . وكان يوجد أسفل هاتين القمتين فى العصور القديمة مدينتان إحداهما كانت تسمى «برحاتحور» (بيت حاتحور) وقد أطلق عليها هذا الاسم نسبة إلى الآلهة التى كانت تعبد بها ، وقد حرف هذا الاسم إلى « باثوريس » أو « باثيريس » فى اليونانية . ولما كانت حاتحور تشبه عند اليونان الإلهة افروديت ، فقد أطلق على المدينة إسم آخر هو «افروديتوبوليس» أما المدينة الأخرى فكانت تسمى «كروكوديلوبوليس» مما يدل على أنه كان هنا فى وقت ما معبد لسوبك الإله الممثل بشكل تمساح[1] . غير أن المنطقة كانت تقترن أساسا بالإلهة حاتحور التى يقع معبدها فى الطرف الجنوبى من القمتين . ويذكر هرميس ترسمجبيستوس فى كتابه عن اسكلبيوس أن اسكلبيوس إله الطب دفن فى كروكوديلوبوليس ، كما أقيم له معبد على تلال الصحراء الغربية القريبة . ومدينة كروكوديلوبوليس هذه هى المدينة الوحيدة بين المدن المصرية التى تحمل هذا الاسم وبها معبد على تل قريب منها ورغم أن الإشارة بعيدة عن الدقة ، إذ أن المعبد لم يكرس لاسكلبيوس (أو بالحرى لمعادله المصرى آمحتب) بل كرس لحاتحور فإنه يبدو أن هذا المكان هو الذى تنطبق عليه الإشارة . وليست هناك أدلة قاطعة تؤيد أو تنفى الرأى بأن امحتب مهندس الملك زوسر من ملوك الأسرة الثالثة قد دفن فعلا فى الجبلين فمن البداهة أن نتوقع أنه دفن فى سقارة بجانب الفرعون الذى ازدهر عصره بفضله ، ولكن التفكير فى ذلك عديم الفائدة مادام ليس هناك أمل فى تأييده أو نفيه[2] .

---

(١) اتضح نتيجة لبعض الاكتشافات التى تمت فى قرية المحاميد قبلى والتى تقع على مايقرب من ١٤ ½ كيلو جنوب أرمنت وجود معبد للآله سوبك – ومن ضمن هذه الأكتشافات تمثال جميل لامنوفيس الثالث بجوار تمثال للآله سوبك كما ظهرت تماثيل كثيرة لأشخاص لهم أهميتهم من عصر هذا الملك ومابعده من ملوك الدولة القديمة مما يثبت وجود هذه المدينة فى تلك البقعة . أنظر :

- Hassan S . K . Bakry ;
The Discovery of a temple of Sobk in Upper
Egypt . In MDAIK ; 27 ; 1971 ; pp . 131 FF .

(٢) الفكرة الثابتة الآن هو أنه دفن فى سقارة ولازالت الحفائر تجرى فى الجبهة البحرية الشرقية منها بحثا عن مقبرته بواسطة . Egypt Exploration Society

وفعلا لا يوجد حاليا غير القليل من آثار الماضى فى الجبلين وعلى طـول الواجهـة الشمالية والغربية لأكبر التلين تقع جبانة شاسعة من عصر ما قبل التاريخ ومن عصر الدولة الوسطى وأوائل عصر الإمبراطورية بالإضافة إلى بعض مقابر من العصر الرومانى وقد نهبت هذه الجبانة مرارا بحيث لم يبق بها شخص هام .

وبأعلى التل الجنوبى بقايا متهدمة من قلعة مبنية باللبن أقامها (من خبر رع) السابق ذكره من ملوك الأسرة الحادية والعشرين الذين يعرفون باسم الملوك الكهنة . ويخبرنا شاهد هام من عصر هذا الملك نفسه - وهو الآن بمتحف اللوفر - كيف كانت هناك قلاقل فى زمنه قام بها جماعة من النبلاء الذين نفوا إلى الواحات وكيف أن آمون أمر فى ذلك الوقت بإعادتهم وأصدر أمرا بعدم نفى أى مصرى فيما بعد . فقد نسبت إلى (من خبر رع) العبارة التالية : «يا سيدى الطيب ، لعلك تصدر أمرا عظيما باسمـك يقضى بأنـه منذ الآن لا ينفى أى شخص من البلاد إلى إقليم الواحات البعيد عندئذ أومأ الإله العظيم موافقا »لا شك أن موافقته قد رتبت قبل أن تعرض عليه المشكلة ومن المحتمل أن تكون هناك صلة بين نفى هؤلاء النبلاء وبين إقامة القلعة بالجبلين لتتحكم فى طريق القوافل إلى واحة الخارجة الذى يخترق الصحراء المكشوفة بالقرب من هنا .

وتختلط بخرائب القلعة بقايا معبد حاتحور الذى أقيم فوق هذا التل فى أيام الـدولة القديمة . ويرجع أقدم نقش فى هذه البقعة ، وهو شاهد ردىء وخشن الصنعة ، إلى الملك ددى موسى جد - نفر - رع من ملوك الفترة الأولى الواقعة بين الأسرتين السادسة والحادية عشرة . وإقامة هذا الشاهد هنا لدليل على أن المعبد كان قائما قبل ذلك ، كذلك توجد نقوش أخرى تحكى تاريخ المبنى خلال الأسرات الحادية عشرة والرابعة عشرة والثامنة عشرة والتاسعة عشرة ، رغم أنه لم يبق فى الموقع حاليا ما يستحق الزيارة .

وتوجد بالجبلين محاجر حجر رملى هامة كانت تستعمل - كما تذكر النقوش - فى أيام سيتى الأول من ملوك الأسرة التاسعة عشرة فى بناء معبده الجنـازى بالقرنة وفى أيام الملك نس بانبدد «من ملوك الأسرة الحادية والعشرين من تانيس لعمل الإصلاحات اللازمة فى الأقصر التى اقتضاها الارتفاع غير العادى للفيضان فى ذلك الوقت . ويذكر نس بانبدد أن ٣,٠٠٠ رجل أرسلوا إلى الجبلين لقطع الأحجار لعمل الإصلاحات مما يدل على أن الجبلين كانت مركز نشاط فى فترة ما . وتقع محاجر الجبلين على الضفة الشرقية فى مقابلة المدن القديمة وتتكون من أخدودين كبيرين لهما أسقف محمولة على أعمدة خشنة تركها الحجارون ، كما توجد أيضا أخاديد مكشوفة وبالإضافة إلى النقشين القديمين السابق ذكرهما توجد ثلاثة نقوش باللون الأحمر ترجع إلى كراكلا وايلاجابالس واسكندر سفيروس . وفيما عدا هذه النقوش ، فإن المحاجر تهم فقط المتخصص ، إذ ترى أمثلة أفضل لمهارة الحجار المصرى فى منطقة جبل السلسلة .

وعلى الضفة الغربية للنيل على مسافة قليلة إلى الجنوب تقع قرية اصفون المطاعنة التى كانت تعرف قديما باسم اسفينس ، ولا توجد بين الجبلين وإسنا آثار ذات أهمية للزائر رغم وجود عدة جبانات شاسعة من عصر ما قبل التاريخ وبعض مقابر منحوتة فى الصخر من عصر الدولة الوسطى وجبانة من عصر الدولة الحديثة وجميع الجبانات منهوبة كما أن المقابر الصخرية مخربة بحيث لا تستحق الزيارة .

وعلى مسافة ٣٦ ميلا جنوبى الأقصر تقع إسنا حيث توجد القناطر ومن هويسها تمر البواخر السياحية ، وقد أقيمت هذه القناطر فى ١٩٠٨ - ١٩٠٩ لتنظيم الرى فى إقليم قنا . واهتمامنا هنا لا يتناول شيئا حديثا أو إسنا نفسها رغم إنها كانت فى وقت ما من أهم مدن الوجه القبلى ، وهى الآن مركز يربو عدد سكانه على ٢٠,٠٠٠ نسمة [١] ، وإنما يتجه إلى معبد خنوم البطلمى وهو أهم وأشهر أثر فى المكان . وتقع إسنا على الضفة الغربية للنيل ، ولذا فإن المسافرين بالقطار يسيرون من المحطة إلى النهر حيث يعبرونه وبعد ذلك يسيرون لمسافة قصيرة من الضفة إلى المعبد ، وليس فى قطع هذه المسافة مشقة كبيرة ، فهى لا تستغرق أكثر من مسيرة لمدة عشر دقائق بين مناظر المدينة الجذابة المقامة فوق خرائب المدن التى سبقتها . أما المسافر بطريق النهر فسوف يجد طريق الوصول للمعبد سهلا فالبواخر تنتظر مدة كافية لزيارته .

وكان يطلق على المدينة القديمة «تاسنت» ومنها اشتق الاسم الحديث وكانت تسمى فى العصر اليونانى «لاتوبوليس» وهذا الاسم أخذ من اسم السمكة «لاتس نيلوتيكس» التى كانت تقدس هنا كما كانت تقدس فى جهات أخرى من مصر ولكن الاسم القديم تغلب فى النهاية . وقد كان خنوم الذى من أجله كرس معبد إسنا واحدا من آلهة الخليقة فى مصر وكان يشكل الإنسان فى البداية على عجلة الفخرانى وكان ينظر إليه أيضا كأحد الآلهة المختصة بخلق العالم ، وفى أحد النقوش هنا (وهو نقش متأخر طبعا كالمعبد نفسه) يوصف بأنه «يقيم السماء فوق أعمدتها الأربعة ويرفعها من الأبدية» وكان ينظر إليه باحترام خاص فى الإقليم الذى نقترب منه بوصفه إله الشلال حيث كان يكون مع الالهتين ساتت وعنقت ثالوث الفنتين . ومن المحتمل جدا أنه أقيم له فى إسنا معبد فى عهد الأسرة الثامنة عشرة ولكن المبنى الحالى يرجع فقط إلى العصر البطلمى كما ترجع معظم نقوشه إلى العصر الرومانى [٢] .

وبينما تتمتع إسنا - كما رأينا - بموقع جذاب ، نجد أن المعبد القديم بسبب هذه الحقيقة -

---

(١) الآن تضاعف عدد السكان كما حدث فى البلاد الأخرى

(٢) كتب سبرج سوينردن قبل وفاته ستة مجلدات عن نقوش الجزء البسيط الباقى من المعبد . S Sauneron ; Esma 1 — VI ; 1959 — 1975 .

غير ظاهر ويحتاج إلى الكشف عنه . وفى الحقيقة لا يزال الجزء الأكبر منه مدفونا تحت منازل المدينة ، ولا يظهر منه غير الصالة الأمامية . والذين قرأوا كتاب مس ادواردز «الف ميل فوق النيل»[1] سوف يذكرون وصفها الحيوى لمعبد إسنا عندما رأته لأول مرة . ومع أن وصفها فيه شىء من الخيال غير أنه ينصب أساسا على الموقع الحالى «بناء فخم ، غريب الشكل من الحجر الجيرى الأصفر طويل ومنخفض ومستو وضخم . وإذا خطا الإنسان خطوات إلى الأمام وقع بصره على كورنيش مقوس لمعبد عظيم ـ معبد لم يخرب أو يشوه ولكنه غارق فى الأنقاض المتراكمة خلال عشرين قرنا . ومن الواضح أن هذا الجزء هو الصالة الأمامية . ونحن نقف تحت صف من التيجان الضخمة . والأعمدة التى تحملها مدفونة تحت أقدامنا ، والكورنيش الثقيل يبرز فوق رءوسنا . . ويصل بين التاج والتاج حاجز منخفض من الطين . وكل ما وراء ذلك غامض وممتلىء بالكهوف وسرى ـ هوة كبيرة فى وسطها ترى أطياف مظلمة لكثير من الأعمدة . ومن خلال فتحة بين تاجين تفضى درجات من اللبن إلى بهو فسيح مظلم يبعث الرهبة حتى أنه يمكن وصفه بأنه رواق الجحيم . وهذا الوصف مع ما فيه من مبالغة فإنه يعطينا فكرة عما يعكسه هذا المعبد المدفون من تأثير . وقد تم حفر الصالة الأمامية ـ وهى كل ما كشف عنه فى أيام محمد على عام ١٨٤٢ ليس بقصد البحث الأثرى بل لغرض إعداد مخزن سفلى أمين للبارود» وفى هذا المجال يجدر بنا أن نذكر أن التخريب الذى حل بالبارثنون فى أثينا يرجع معظمه إلى استعماله لنفس الغرض ، فقد أصابته قذيفة عند قصفه بمدافع البندقية عام ١٦٨٧ وقبل كشف معبد إسنا أو الجزء الظاهر منه كان يستخدم مخزنا للقطن .

والذى يرى منه حاليا ليس إلا صالة أمامية مستطيلة الشكل يهبط الزائر إليها بواسطة درجات ولا يزال سقف هذه الصالة سليما ، وهو محمول على ستة صفوف من الأعمدة كل صف منها مكون من أربعة أعمدة . وتواجه الصالة النهر ويبلغ عرضها ١٠٨ أقدام بعمق ٥٤ قدما . أما الأعمدة فيبلغ ارتفاع كل منها ٣٧ قدما ومحيطها ١٧ ٣/٤ ، أما الواجهة كلها فمقاسها ١٢٠ قدما بارتفاع ٥٠ قدما وتبدو تيجان الأعمدة التى تبرز من الأرض رائعة من أول نظرة ، ولكن بفحص الرسوم البارزة على المبنى يتبين لنا مدى ما بها من خشونة ورداءة مع كل عيوب الفن البطلمى وعيوب أخرى متعددة أضيفت إليها فى العصر الرومانى . ويرجع تاريخ الصالة الأمامية جميعها إلى العصر الرومانى ، فأول إمبراطور سجل اسمه عليها هو كلوديوس وهذا يعنى فقط أن أول من قام بتزيين المبنى الذى كان موجودا فعلا هو ذلك الامبراطور ، وأن خلفاءه الذين نقشوا خراطيشهم هنا وهم ـ فاسبزيان ودوميتسيان وتراجان وهادريان وأنطونيوس بيوس وماركوس أوريليس وكوموس وسفيروس وكاراكلا ـ

---

(١) — **Luss Edwards** ; Thousand Miles up the Nile .

استكملوا أعمال التزيين ، بينما نجد أن اسم الامبراطور جيتا شقيق الامبراطور كراكلا وشريكه فى الحكم قد أزيل بأمر من شقيقه الذى قتله . وفى الجدار الخلفى للصالة بوابة كبيرة يبدو أنها كانت تؤدى إلى الأجزاء الأخرى من المعبد ، وتحمل هذه البوابة خراطيش بطليموس الرابع ووالده وأمه وهناك قول شائع قديم أن شامبليون تمكن فى الربع الأول من القرن التاسع عشر من الدخول إلى هيكل حيث وجد اسم تحتمس الثالث[1] . غير أن ماريت يصرح بأن «هذه الأقوال غير مؤكدة تماما» . وآخر امبراطور رومانى ممثل على البناء هو دسيوس الذى يرى على الباب الصغير ـ الذى يقع إلى يسار البوابة الموجودة فى الجدار الخلفى . يقدم الضحايا لخنوم . وعلى ذلك يكون بناء المعبد قد استغرق فترة من الزمن تقع بين سنة ١٨٠ قبل الميلاد إلى سنة ٢٥٠ ميلادية .

ويزين الصالة أربعة صفوف من المناظر البارزة التى تمثل الأباطرة الرومان بمظهر الفراعنة المصريين ـ يقدمون القرابين للآلهة ، ويقومون بطقوس دينية مختلفة ومن بين هذه المناظر منظر جدير بالملاحظة بالقرب من أسفل الجدار الشمالى وفيه يظهر الإمبراطور كومودس بصحبة حورس الممثل برأس صقر وخنوم والممثل برأس كبش يسحبون شبكة صيد مليئة بالطيور المائية والسمك بينما يراقبهم نحوت وشيشات يالها من صحبة عجيبة !! ولكن الذين يعرفون فن ابيدوس والكرنك والأقصر ناهيك بفن الدولة القديمة بسقارة ، سوف لا يضيعون وقتا كبيرا فى مشاهدة الفن الرومانى الخشن والبعيد عن التناسب . ومع ذلك فليس هناك شك فى روعة تيجان الأعمدة وبخاصة التاجين اللذين يحملان خرطوش هادريان والمزينين بزخارف تمثل عناقيد العنب .

وتقع جبانة إسنا القديمة على حافة الصحراء ، وللوصول إليها يجب اختراق المدينة ، والمرور عبر الريف فى طريق يتجه غربا إلى الجنوب من قرية حاجر إسنا ولكن يشك فيما إذا كانت تستحق مشقة الرحلة التى تستغرق حوالى ثلاثة أرباع الساعة . وقد نهبت الجبانة مرارا ، ومابقى من مخلفاتها القديمة ـ التى لايرجع شىء منها إلى ماقبل عصر الرعامسة ـ يخلو من جودة الطراز والتصميم . ويقابل إسنا فى الضفة الشرقية للنيل مدينة أخرى . ووجود مدينتين متقابلتين على النيل أمر عادى ، ولكن لم يبق من «لاتوبوليس المقابلة» التى تشغل حاليا موقع قرية الحله ولا من معبدها البطلمى أى أثر .

ولا يوجد غير القليل مما يلفت النظر بين إسنا والكاب والكوم الأحمر وهى المواقع الهامة التى سنلتقى بها . وعلى مسيرة ميلين ونصف جنوب غرب محطة إسنا على الضفة الشرقية

---

(١) يغلب أن المقصود هو أحد الملوك الكهنة المدعو من خبر رع فإن اسمه يطابق تماما اسم التتويج للملك تحوتمس الثالث .

للنيل يوجد شاهدان منحوتان فى الصخر لإخناتون (أمنوفيس الرابع) وهذان الشاهدان يتصلان بأعمال التحجير التى كانت تجرى فى السنوات الأولى من حكمه[1] . وعلى الضفة الغربية بالقرب من قرية البصيلية بقايا هرم صغير يعرف محليا باسم الكوله ، وهو مخرب جدا وتتراوح مساحة ما تبقى منه بين ٥٠ ، ٦٠ قدما مربعا بارتفاع حوالى ٣٠ قدما ، وليس به ما يستدل منه على بانيه وتاريخ بنائه . وتوجد بالضفة الغربية أيضا جبانة أو جبانتان من عصر ما قبل التاريخ ، وجبانة من العصر المتأخر وجد بها غزلان محنطة[2] ، بينما توجد فى الضفة الشرقية جبانة أو جبانتان من عصر متأخر . وليس بهذه الجبانات ما يستحق الزيارة . وعلى مسافة ٥٦ ميلا من الأقصر (بطريق النهر) نصل إلى الكاب التى كانت تعرف عند اليونان باسم «ايليثيا سبوليس» ، وفى مقابلتها على الضفة الغربية الكوم الأحمر التى أطلق عليها اليونان «هيراكنبوليس» ، ولا يوجد بها غير القليل مما يستحق المشاهدة ، وبخاصة عند مقارنتها بادفو التى تحتفظ بمعبدها الرائع والتى لا تبعد عنها بأكثر من ١٢ ميلا ولا تتوقف عندهما البواخر السياحية . ورغم ذلك فلهما أهميتهما الكبيرة فى تاريخ مصر المبكر ، وحتى بعد أن ولى المجد عنهما بعض الشىء ، وبعد أن فقدت هيراكنبوليس مركزها كعاصمة لمصر العليا نتيجة لغزوات الملوك الأولين فقد كان المصرى المحافظ يكن لهما الاحترام كما كان النبلاء وكبار الموظفين يفخرون بإضافة اسميهما إلى ألقابهم الأخرى ، وسوف نتحدث فى الفصل القادم عن تاريخ وآثار هاتين المدينتين .

---

(١) اقتضى العمل لايجاد طريق مستقيم خط السكك الحديدية الموصلة بين إدفو وبين نسف الكتلة الحجرية التى نقش عليها هذان الشاهدان وقد تم هذا بعد نزع ما أمكن من نقوشها . أنظر : **Ramadan Saad ; on The Stelae of zernikh in MDAIK;** 30 : 1974 ; pp . 215 ff .

(٢) كذلك عثر على أساسات معبد رومانى تحت الأبنية الحديثة والعمل جار للكشف عنه

الفصل التاسع والعشرون
الكاب والكوم الأحمر (ايليثياسبوليس وهيراكنبوليس)

كانت المدينتان اللتان تعرفان الآن باسم الكاب والكوم الأحمر فى العصر المبكر من تاريخ مصر من أهم المدن فى البلاد التى لم تكن وقتئذ قد اتحدت تحت لواء مملكة موحدة . ومن المحتمل أن اسم الكاب جاء من الاسم القديم «نخب» الذى كان يطلق على المدينة الواقعة على الضفة الشرقية . ومنذ أقدم العصور كانت الإلهة نخست الممثلة على شكل عقاب آلهة مصر العليا كما كانت واجيت الممثلة على شكل حية إلهة الوجه البحرى . ومن العبث أن نتحدث عن امتزاج هاتين الآلهتين فى الشعارات الملكية حتى عصر الأسرات المتأخر ، فأوضح تصوير لذلك نجده ممثلا فى العقاب والحية اللذين يزينان جبهة توت عنخ آمون فى كل قطعة من أثاثه الجنازى . والاسم اليونانى لنخب هو ايليثياسبوليس وهو مشتق من امتزاج الالهة نخبيت بالالهة ايليثيا ربة المرأة فى المخاض . أما المدينة المقابلة على الضفة الغربية فتسمى الآن الكوم الأحمر ، وهو اسم يطلق على كثير من الأكوام فى مصر ، وكانت هذه المدينة تعرف عند قدماء المصريين باسم نخن ، وبسبب إتصالها بالإله حورس الممثل برأس صقر اسماها اليونان هيراكنبوليس أى مدينة الصقر وقد كان لنخن فى الأزمنة القديمة من الشهرة ما كان لنخب . وقد ترك الملوك فى العصور الغابرة آثارا بهيراكنبوليس أو نخن تدل على أنها كانت - قبل تأسيس منف كعاصمة للمملكة الموحدة فى أيام مينا - عاصمة مملكة الجنوب .

وقد كان ملوك مصر الموحدة يدفنون فى ابيدوس[1] ، غير أنهم كانوا يتوجون فى نخن .

---

(١) أثبتت الحفائر التى أجراها ولتر أمرى فى سقارة وجود مقابر هؤلاء الملوك هناك أما ماوجد فى ابيدوس فهى مقامات أقيمت بأسمائهم فى ذلك المكان المقدس الذى اعتبره المصريون مكانا لدفن رأس ازوريس

ولاشك أن اللقب الحورس الذى كان يحمله كل ملك من ملوك مصر كان إحياء للقب الذى كان يحمله ملوك الجنوب الغابرين بصفتهم رؤساء لقبيلة الصقر التى كانت تتخذ من نخن مركزاً لها . وسوف نبدأ حالا بذكر الآثار التى كشف عنها مستر كوبيل فى هيراكنبوليس التى تبرهن على أهمية المدينة وصلتها بملوك مصر الأقدمين . ويجدر بنا أن نذكر أنه رغم حلول منف أولا ، ومن بعدها أتت تاوى وهيرالكيوبوليس وطيبة محل نخب ونخن فإن هاتين المدينتين لم تفقدا أهميتهما قط ، فقد كانتا دائما موضع احترام كما هو منتظر من طبيعة المصرى المحافظ . ويبدو أن نخب على الضفة الشرقية قد احتفظت بجانب أوفر من الرخاء المادى عن جارتها بالضفة الغربية نتيجة لموقعها كنهاية لطريق القوافل القادمة من المناطق الغنية بالذهب بالصحراء الشرقية . أما التكريم الذى استمرت تحتفظ به هيراكنبوليس فينعكس فى اللقب «المنتسب لنخن» الذى كان يحمله قضاة مصر لمدة طويلة . ويبدو من الآثار التى وجدت بها أنها كانت فى الأيام الأخيرة من عصر الدولة القديمة مخزنا للمخلفات التاريخية العظيمة للفن القومى ، ولكننا بهذا القول ننسب إلى المصريين مشاعر ونزعات لم تكن مألوفة لتلك الأزمنة وأولئك القوم .

ويبدو أن المدينة الشرقية قد بلغت الذروة فى عصر الدولة الوسطى ، ففى ذلك العصر بدأت مصر تحت حكم فراعنة الأسرة الثانية عشرة الأقوياء فى تثبيت أقدامها فى الجنوب ، وربما كان السور الضخم الذى بنى وقتئذ حول نخب صدى للصراع بين مصر والنوبة . وأثناء حرب الاستقلال ضد الغزاة الهكسوس برزت نخب ثانية لا بسبب موقعها بل بسبب ما قامت به من ارسال اثنين من أبنائها للاشتراك فى جيوش أحمس وتحتمس الأول ، وقد قاما بانتصارات سجلت إسميهما فى سجل التاريخ المصرى ، فقد نجح أحمس بن ابانا وأحمس ين - نخبيت فى أن يسبغا على الكاب - كما سنسميها من الآن فصاعداً - من الشهرة التى لم تكن لتحظى بها بدونهما . ونقوش مقبرتيهما تضارع تلك التى توجد على مقبرة إمن - إم - بطيبة باعتبارها وثائق متميزة تمثل بوضوح ماوصل إلينا عن الحروب القديمة فى مصر .

وهناك أدلة ، ولو أنها قليلة ، غير أنها تكفى للتدليل على أن الكاب وهيراكنبوليس فى عصر الدولة الحديثة استمرتا موضع اهتمام الفراعنة الذين كانوا يحكمون فى طيبة ، رغم أن السيطرة الكاملة التى كانت تتمتع بها المدينة الأخيرة قللت من أهمية جميع مدن مصر العليا الأخرى . وأن المناظر المرسومة على مقبرة الموظف الكبير المحلى أيام تحتمس الثالث - التى سنصفها فى الوقت المناسب - لتدل على درجة من الرخاء والترف يمكن مقارنتها بالمستوى الذى كانت تعيش فيه العاصمة ، ولكن ليس هناك مايدعونا إلى الظن بأن ايليثياسبوليس كانت فى هذه الأيام مدينة غنية تحيا حياة بذخ ، إستنادا على منظر متعارف عليه يمثل وليمة جنازية .

وقد احتفظت الكاب برخائها طوال أيام الامبراطورية الحديثة وربما يكون إنشاء وظيفة نائب الملك فى أثيوبيا فى الأسرة ١٨ قد أعاد هذه المدينة شيئاً من صلاتها القديمة بالملكية إذا صح ما قيل من أن «الأبناء الملكيين لكوش» اتخذوها مقراً لهم وقاعدة لحكومتهم[١] ، وفى نفس الوقت يبدو أن مدينة هيراكنبوليس كانت تتهاوى تدريجياً رغم إن اسمها كان لا يزال موضع تبجيل . ولا يعنينا فى شىء سرد أسماء الفراعنة الذين ارتبطت اسماؤهم بإحدى هاتين المدينتين فى الأيام الأخيرة من الحكم الملكى الوطنى اللهم إلا إذا كانت أسماؤهم قد وردت فى خرطوش أو قطعة منقوشة من الحجر علماً بأن آخر اسم من هؤلاء الملوك هو نقكانب الأول من ملوك الأسرة الثلاثين . وقد كانت الكاب فى أيام البطالمة عاصمة المقاطعة الثالثة من مقاطعات مصر العليا ، وفيها أقام بطليموس أفيرجيت الثانى وبطليموس سوتر الثانى معبداً . وترينا الرسوم التى ترجع إلى الأيام الأخيرة من العصر الرومانى نخبيت الهة نخب «الكاب» الممثلة على شكل عقاب ، وواجيت ربة بوتو الهة الوجه البحرى الممثلة على شكل ثعبان يتوجان الفرعون بالتاج المزدوج ، ولكن الكاب لم تكن فى ذلك الوقت ، بصرف النظر عن هيراكنبوليس ، غير «ظل لاسم عظيم» .

آثار الكاب وهيراكنبوليس

سنبدأ أولا بالحديث عن المدينة الواقعة على الضفة الشرقية ، ولكى نتلافى الخلط الذى لا يمكن تجنبه بين نخب ونخن سنسمى الأولى باسمها الحديث على أن نطلق على نخن اسمها اليونانى هيراكنبوليس .

وكما سبق أن ذكرنا لا تقف البواخر السياحية عادة لإتاحة الفرصة لزيارة أى من المدينتين ، ولذا أصبح من الضرورى السفر من الأقصر بقطار الصباح المبكر إلى إسنا ومنها السيارة إلى الكاب ثم العودة إلى الأقصر بقطار بعد الظهر . وعلى الذين يرغبون فى زيارة هيراكنبوليس أن يركبوا مركباً لتعدية النيل ويأخذوا ركوبة من الضفة الغربية للنيل إلى حافة الصحراء .

وأهم ما يلفت النظر فى خرائب الكاب ، السور العظيم الذى يرجع إلى عصر الدولة الوسطى ، والذى لا يزال يشرف على كل المنطقة المجاورة كما كان منذ حوالى أربعة الآف سنة . وهو سور ضخم مبنى باللبن ويبلغ طوله ١٨٦٠ قدماً بعرض ١٧٧٥ قدماً ، أما سمك جدرانه فهو ٣٧ قدماً . ويبلغ مسطح الأرض التى يحيط بها حوالى ٣,٣٠٠,٠٠٠

---

(١) وجدت بعض آثار لهؤلاء الحكام بين أنقاض هذه المدينة مما يدل على أن سلطتهم امتدت شمالا حتى هذه المنطقة – على أنه من المؤكد أنها لم تكن مقرا لهم – فى وقت من الأوقات .

قدم مربع وبالسور أبواب فى الجوانب الشرقية والبحرية والقبلية ويقع الباب الرئيسى فى الشرق . وبالاضافة إلى ذلك توجد منحدرات عريضة تؤدى إلى أعلى السور ، ومن هذا الوضع يستطيع الزائر أن يستمتع بمنظر جميل ويأخذ فكرة عامة عن الخرائب الواقعة داخل السور ، وسوف يتبين لأول وهلة أن مدينة الكاب الأصلية لا تشغل سوى قسم صغير (حوالى الربع) من المسطح المحاط بالسور الكبير ، وهذا القسم نفسه محاط بسور آخر . وهناك قسم آخر صغير فى الركن الجنوبى الشرقى من سور المدينة مشغول بالمعبد الذى يقع داخل سور خاص به أما بقية المساحة الشاسعة فخالية من أى مبان ثابتة ، وهذا يوضح تلك الحقيقة بأن هذه المساحة كانت معسكرا حصيناً ومكاناً لـراحة وتـأمين القـوافل المحملة بالذهب والقادمة من الصحراء الشرقية .

وخرائب المعبد من القلة بحيث لاتتناسب مع المركز الممتاز الذى كانت تتمتع به الآلهة نخبيت فى النصوص المصرية وقد قام «هكر» من ملوك الأسرة التاسعة والعشرين بعـدة اصلاحات هنا وتبعه فى ذلك كما رأينا الملك نقطانب الأول من ملوك الأسرة الثلاثين ولم يبق ما يشهد بعظمة المبنى فى الماضى غير قليل من قواعد الأعمدة وجزء من أرضية ، ومذبح من الجرانيت ، وبعض جدران متهدمة . ويخبرنا نقش من عهد رمسيس الثانى بأنه كان البانى الذى لا يكل فى الكاب كما كان فى أى مكان آخر فقد جاء بهذا النقش ، كما هو متوقع مايأتى : «رمسيس الثانى ، قام بتشييد أثر له تقديساً لأمه نخبيت ، بأن أقام لها صرحا عظيماً من الحجر الرملى الأبيض الجميل طوله ١٥ ذراعاً وبابه من خشب الأرز المصفح بالنحاس والذى باسم جلالته العظيم» ويبدو من مقاسات الصرح أن المعبد لم يكن من معابد الدرجة الأولى[١] .

وفى الصحراء شرقى المدينة توجد معابد متعددة صغيرة على جانب من الأهمية ويجدر زيارتها قبل زيارة مقابر النبلاء ويبدو أنها أقيمت لراحة هؤلاء الذين يستخدمـون طريق القوافل المحملة بالذهب المستخرج من الصحراء الغربية فإذا خرجنا من البوابة الشرقية للسور العظيم نمر بمقصورة مخربة بالقرب من السور . وبعد مسيرة أكثر من نصف ساعة نجد أمامنا معبداً صغيراً بناه « ستاو » نائب الملك فى كوشر من أجل سيده رمسيس الثانى ، وعلى جوانب الباب نرى نائب الملك متعبدا بينما يرى أيضاً داخل المعبد حاملا مروحته . وعلى الجدران الداخلية يرى رمسيس يقدم القربان لتحوث وحورس ونخبيت وآلهة أخرى فى حالة من التهشيم بحيث لايمكن التعرف عليها

---

(١) أجرى علماء الآثار بمؤسسة اليزابث للآثار المصرية البلجيكية حفائر فى سنوات متعاقبة فى هذه المنطقة منذ عام ١٩٣٧ حتى الآن وعثروا على آثار هامة تبين تفاصيل كثيرة عن تاريخ هذه المنطقة .

وعلى مسافة قليلة من هذا المعبد معبد آخر مقام عند واجهة الجبل ويمكن الوصول إليه بسلم مكون من ٤١ درجة ، وعلى جانبى السلم سور (درابزين) ويؤدى هذا السلم إلى منصة توصل عن طريق باب مهدم إلى المقصورة الأمامية المزينة بأعمدة تيجان مزخرفة بزخارف زهرية بديعة . وواجهة المقصورة مكونة من جدران ساترة بين الأعمدة . وهذه المقصورة هى أكبر أجزاء المعبد فمساحتها حوالى ٣٣ قدما مربعا . ومن باب آخر مهدم نصل إلى صالة أصغر مساحتها ٢٠ قدما مربعا وواجهتها مكونة أيضاً من جدران ساترة بين الأعمدة . وخلفها يقع الهيكل الذى لم يكمل وهو أصلا مقبرة منحوتة فى الصخر من عصر الإمبراطورية . وخارج المدخل ترى صورة احدى الملكات المعروفة باسم كليو باترا بينما اختفت صورة زوجها التى كانت موجودة فى الأصل . وعلى السقف المقبى رسوم لعقبان ترفرف بأجنحتها الناشرة ، وهذه الرسوم غير كاملة . ويحلى الافريز خراطيش بطليموس سوتر الثانى فوق علامة «نوبتى» التى تعنى الذهبى تتبادل مع رءوس حاتحورية وعلى ذلك يرجع تاريخ المعبد إلى العصر البطلمى وهو من عمل ملكين هما بطليموس افرجيت الثانى وبطليموس سوتر الثانى ، وقد كرس للالهة نخبيت .

ومن هذا المعبد البطلمى نصل بطريق غير ممهد فى مدى ربع ساعة تقريباً إلى المعبد الصغير الجميل لامنوفيس الثالث المكرس أيضاً للالهة نخبيت « سيدة مدخل الصحراء » ، وهو لقب يشير إلى مهمتها كالهة حارسة للممر الضيق الذى تخترقه القوافل المحملة بالذهب بين تلين فى طريقها إلى الوادى . والمقصورة الأمامية (من العصر البطلمى)مهدمة حاليا ، وكانت تضم أعمدة على شكل البردى ولاتزال تيجانها مبعثرة حولها . وخلف هذه المقصورة صالة مستطيلة الشكل يعتمد سقفها على أربعة أعمدة لكل منها ١٦ ضلعا وتتوجها تيجان على شكل رأس حاتحور وفوق الباب الذى يؤدى إلى هذه الصالة منظر يمثل امنوفيس الثالث يرقص أمام الآلهة وإلى يمين الباب منظر ضع ـ أم ـ واست الابن الاثير لرمسيس ، وهنا يظهر فى حضرة ابيه حيث يحتفل بيوبيله فى السنة الواحدة والأربعين ويجرى النص كما يلى : السنة الحادية والأربعين ، قدم ابن الملك ، كاهن بتاح ، ليدخل السرور إلى قلب سيد الأرضين ، ضع - أم - وات ، ليحتفل باليوبيل الملكى الخامس فى الأرض كلها «ولاتزال تحتفظ المناظر بداخل الصالة بالكثير من ألوانها وهى لاتخلو من مميزات فنية . وإلى يمين ويسار الجدار الغربى (جدار المدخل) مناظر تمثل امنوفيس الثالث مع والده تحتمس الرابع أمام موائد القرابين وعلى الجدار الشمالى يرى أمنوفيس يقدم القربان إلى المركب المقدس لإله قد يكون حورس ، كما يقدم القربان للإلهة نخبيت الممثلة هنا كامرأة ، وفى منظر آخر نرى أمون رع - يحتضنه . وعلى الجدار القبلى (إلى اليمين) يقدم للالهة نخبيت وللمركب المقدسة كما يحتضنه حورس إله هيراكنبوليس . وعلى الجدار الشرقى (الخلفى) يتعبد إلى نخبيت .

ولاشك أن الإفريز المزين برءوس حاتحورية متبادلة مع خراطيش امنوفيس هو الذى استوحى منه الإفريز الموجود بالمعبد البطلمى الذى سبق الإشارة إليه وليس هناك مايدعو إلى الاهتمام بتلك النقوش الهيروغليفية من عظمة « صاحب الجلالة ، سيد العالم ، نابليون الثالث » فان حداثة هذا النقش (من وجهة النظر المصرية) لكفيلة بإظهار مافيه من سفاهة تدل على الغباء . والمنظر من الجهة الشرقية للمعبد يبين بوضوح السبب الذى من أجله سميت نخبيت «سيدة مدخل الصحراء» ، إذ يمكن منه رؤية المدخل الواقع بين التلال والمدن كانت تخترقه القوافل فى طريقها إلى الوادى . وعلى الصخور التى تمر بها فى الذهاب والعودة عدة نقوش يرجع معظمها إلى عصر الدولة القديمة ، ومناظر لمراكب وحيوانات وأشخاص معظمها من عصر ما قبل التاريخ .

مقابر النبلاء فى الكاب

رغم خلو هذه المقابر من أى ميزة بارزة ورغم صغرها نسبيا ، فإنها ذات دلالة كبيرة حيث إن اثنتين منها تحويان سيرة ذاتية لقائدين شهيرين حاربا فى سبيل مصر فى الفترة الأولى من عصر الإمبراطورية الحديثة ، أحدهما عندما كان الشعب يكافح للتخلص من نير الهكسوس ، والآخر ـ وقد يكون عمله الى حد ما أكبر من عمل سابقه ـ عندما كانت مصر تقوم بمخاطرة جديدة فى آسيا . وفيما عدا مقبرتى هذين القائدين المسميين باسم أحمس ، واللتين تتميزان بأهمية تاريخية أكثر منها فنية ، توجد مقبرة أخرى لشخص يدعى «باحرى» جديرة بالاهتمام لمناظرها التى تمثل الحياة المصرية المعاصرة وما يصاحب هذه المناظر من نصوص صريحة .

وهذه المقابر منحوتة فى الواجهة الجنوبية لكتلة صخرية من الحجر الرملى تقع إلى الشمال الشرقى من المدينة ، ويفصلها أخدود ضيق عن التلال الواقعة خلفها وهى تقع فى صف صاعد فى طبقة من الحجر الجيرى ، ولكنها ليست بحال من الأحوال مرتبة ترتيبا تاريخيا ، وبذلك فإنه عندما نتبع الصف الصاعد من الجنوب الشرقى إلى الشمال الغربى ، فمن الضرورى أن نضع فى أذهاننا أن أقدم المقابر الثلاث الهامة هى مقبرة احمس بن ابانا (يرجع تاريخها إلى طرد الهكسوس والحروب التى تلت ذلك مباشرة) ثم تليها مقبرة أحمس ـ بن ـ نخبيت الذى يتداخل تاريخه إلى حد ما مع عصر ابن ابانا ، ثم مقبرة باحرى حفيد أحمس بن ابانا وهى أحدثها . ومن الطريف أن نلاحظ أن هذا الترتيب الزمنى القصير فى الكاب يغطى فعلا عصر الفتوحات فى الإمبراطورية الحديثة فأحمس بن ابانا عاصر مصر فى فترة خضوعها تحت نير الهكسوس أما حفيده باحرى فقد عاش اثناء التوسع الكبير للامبراطورية فى عهد تحتمس الثالث ، كما عاش أبناء باحرى فى عصر امنوفيس الثانى عندما

احتفظت الإمبراطورية بكيانها دون توسع آخر . وقد بدأ الانحلال بعد فترة الحكم القصير لتحتمس الرابع خليفة امنوفيس الثانى ، فرغم الرخاء المادى البالغ فى عهد امنوفيس الثالث فقد كانت تكمن فيه عوامل الضعف . وبذلك يغطى تاريخ الأسرة الصغيرة التى تتكون من أربعة أجيال الفترة التى ارتقت فيها مصر من الحضيض إلى القمة .

وأول مقبرة فى الصف ابتداء من الجهة الجنوبية الشرقية هى مقبرة السيدة «ثنتاس» التى كانت تشغل وظيفة لاعبة الصلاصل للالهة نخبيت الهة المدينة فى الأيام الأخيرة من عصر الإمبراطورية وتضم المقبرة حجرة مستطيلة تفتح منها حجرة داخلية بجدرانها خمس فتحات تدل على انتهاك المقبرة فى عصر متأخر . وعند الباب شاهد صغير عليه اسم صاحبة المقبرة الأصلية . وبعد أن نترك خمس مقابر خالية من النقش والزخرفة نصل الى مقبرة احمس الثانى الذى يعرف ـ للتفريق بينه وبين اسم سميه ـ باسم احمس ـ بن ـ نخبيت . وهذه المقبرة ليست بذات أهمية من الناحية الفنية حيث إنها فى حالة تخريب شديد رغم أنها لا تزال تحتفظ بصور أحمس وابنه خع ـ ام ـ واست الذى وصل إلى وظيفة الابن الملكى الأول لمدينة ابليثيا سبوليس (الكاب) ، وبالجانب الآخر من الباب صور لبعض أفراد اسرته ، أما التماثيل الجنازية فقد تحطمت . ورغم فقرها من الناحية الفنية فإنها تتميز بأهمية تاريخية ممتازة ، فاحمس ـ بن ـ نخبيت خدم فى عهد خمسة من الفراعنة على الأقل وهم احمس الأول ، امنوفيس الأول ، تحتمس الأول ، تحتمس الثانى ، وحتشبسوت وتحتمس الثالث . ولسوء الحظ لم يكن لدى احمس ـ بن ـ نخبيت أدنى تذوق صحفى بحيث لم يكن حديثه عن حروبه التى خاضها تحت إمرة عدة ملوك وفى مثل هذه الفترة الهامة غير سرد جاف للمذابح التى قام بها والأسرى الذين أسرهم . وها نحن نورد نموذجا لأسلوبه عندما يصف زحفه إلى آسيا الذى يشكل أول توسع لمصر فى العالم الخارجى « الأمير بالوراثة ، الأمير المحلى ، حامل الختم الملكى ، رئيس الخزانة ، المتحدث باسم سيده ، احمس المسمى بن ـ نخبيت ـ المبرر ـ رافقت الملك نب بحتى رع (أحمس الأول) المبرر ، وأسرت له فى زاهى (فينيقيا) أسيرا حيا ويدا .

وفى عهد امنوفيس الأول توقف حديثه عن الأسرى ولكن أسلوبه فى الحديث عن مآثره لم يتحسن فى حيويته « صاحبت الملك جسر كارع، المبرر، واسرت له فى كوش اسيرا حيا ، كذلك قمت بخدمة الملك جسر كارع ، المبرر ، فحصلت على ثلاث أياد شمالى ايموكحك (الحملة الليبية) أما مغامرة تحتمس الأول العظيمة فى آسيا فتسترعى انتباهه ـ وعلى الرغم من أنه من السهل أن نرى كيف كان ابن نخبيت مليئاً بالزهو بما أنجزه فى هذه الحملة المشهورة وأن الكتابة الرقيقة كانت ترتعش على طرف قلمه فليس فى الإمكان أن نقتنع بكل ما قاله فهو يقول « كذلك قمت بخدمة الملك عاجز كارع المبرر فحصلت من أجله فى إقليم نهرين على احدى وعشرين يدا وحصانا واحدا وعربة واحدة» .

وهو فى هذه الحالة أقلع عن عادته فى أخذ الأسرى الأحياء واعتبر «الذين يموتون توقهم أولى من الاحياء» ولكن يبدو أن عددامكونامن واحد وعشرين من القتلى الأسيويين لهو عدد جدير بالاعتبار بالنسبة إلى رجل متجهم وعنيد مثل محارب الكاب وفيما بعد استمرت سخريته من البلاغة بصورة أقوى فى بيانه الخاص عن خدمته فى الحملة تحت لواء تحتمس الثانى « صاحبت الملك عاخبر كارع[1] المبرر ، وقد أحضر لى فى شاسو عددا كبيرا من الأسرى الأحياء غير أننى لم أحص عددهم » وهذه اللمسة الاخيرة من التحقير من شأن هذه الاعمال الصغيرة مثل إحصاء أسراه قد خلصت قصة ابن ـ نخبيت من عيب الركود الموجه اليها ، وفى شيخوخته عهدت اليه الملكة حتشبسوت بعمل أبعده على الأقل عن الأذى « الزوجة الإلهية ، الزوجة العظيمة للملك ، ماعت كارع (حتشبسوت) ، المبررة كررت التكريم لى . لقد قمت بتربية ابنتها الكبرى ، الابنة الملكية نفرورع ، المبررة ، حين كانت رضيعة » ويتضح من النعت « المبررة » انها توفيت وهى صغيرة ، فهل كانت رعاية احمس سببا فى موتها ؟ (انظر برستد النصوص القديمة ، الجزء الثانى ـ فقرات ١٧ ، ٤٠ ، ٨٣ ، ١٢٣ ، ٣٤٤)[2] .

وبعد ذلك نصل إلى مقبرة باحرى وترتيبه متأخر من حيث التسلسل الزمنى كما سبق أن ذكرنا ، إذ أنه حفيد أحمس الأخر ابن ابانا الذى كان أكبر سنا من احمس ـ بن ـ نخبيت رغم تداخل مسيرتهما . وكان باحرى ذا شهرة جاوزت شهرته المحلية رغم أنه لم يكن يحمل أى لقب من الألقاب البراقة التى يشتهى المقربون إلى الملك نقشها على قبورهم ، فقد كان يحمل ألقاب « أمير نخب » ، وأمير اونت الذى يعمل ويشرف على الأراضى المنزرعة بالغلال فى المنطقة الجنوبية ، وكاتب حسابات الغلال ، وبالاضافة إلى ذلك فقد كان يشغل وظيفة مربى الابن الملكى « وازموس » ، وهى الوظيفة التى كان يشغلها والده اتف روع فى حياته لدى أمير ملكى سابق بنفس الاسم ـ وهو كما رأينا ـ من أسرة اشتهرت بالجندية وثبتت اقدامها فى الكاب فجده من ناحية الأم كان أحمس الأول بن ابانا ، وزوجته كانت تدعى حنوت ـ ارنحح ابنة رورو « رئيس وسائل النقل » (قائد القوافل ؟ فإذا كانت كذلك ، فهى وظيفة محترمة) . ومقبرته ـ وهى الوحيدة بين مقابر الكاب التى تشتهر بميزات فنية تعرف بفتحتها المتسعة التى نتجت عن تخريب بابها الأصلى . وقد نحتت واجهة المقبرة فى الصخر الخلفى حتى يمكن الحصول على الارتفاع الكافى كما أحيط كل من جانبى الرصيف الذى ترك أمامها بجدار من الصخر وعلى الجدار الواقع إلى اليمين منظر يمثل باحرى راكعا ومتطلعا إلى الخارج بينما يتعبد إلى الهة الكاب نخبيت أما الباب الأصلى فقد زين كتفاه وعتبه

---

(١) صحيفة تحتمس الأول

(٢) المعروف أنها عاشت بعد وفاة والدتها وأنها تزوجت تحتمس الثالث .

بمناظر ونقوش لا تزال بعض سطورها الهيروغليفية المهشمة باقية . وبئر حجرة الدفن منحوت فى الرصيف خارج الباب . وتصميم المقبرة من الداخل بسيط جدا . اذ انه عبارة عن حجرة مستطيلة طولها فى اتجاه المحور الأصلى ، ومشكاة أو محراب به ثلاثة تماثيل ، وسقفها مقبى . ورغم ان الحجر الرملى الذى نحتت فيه المقبرة لا يعطى نفس مميزات السطح الصالح للنحت مثل الحجر الجيرى الذى نحتت فيه مقابر طيبة ، فان المناظر الغائرة نفذت بدقة ولا تزال تحتفظ بألوانها . وهذه المقبرة مثال طيب للصناعة المحلية فى الأسرة الثامنة عشرة . وتتميز نقوشها بالصراحة التى تتمثل فى أحاديث الأشخاص عن مجهوداتهم أو الظروف التى وجدوا فيها ، وكذلك بالثورية والدعاية التى وصلت الينا ـ على اننا لو قارنا هذه بما نعرفه عن مثل هذه الثورية والدعاية فى العصر الحالى لعلمنا أن المصريين أشبه ما يكونون بذلك الاسكتلندى الذى يتكلم بصعوبة .

وعلى نصف جدار المدخل يرى باحرى «خارجا إلى عالم الأحياء ليرى قرص الشمس . أما النصف الآخر فهو مهدم حاليا ، ولكن يحتمل أنه كان يمثل صورا أخرى لباحرى أمام الوليمة المنزلية الممثلة على الجدار الشرقى للحجرة . أما الجدار الغربى أو الجدار الواقع إلى اليمين فيحوى ثلاث مجموعات من المناظر ، أولها تمثل باحرى يشرف على الاعمال الزراعية والماشية واستلام الجزية ، ويكشف الشكل الواقف للحاكم عن اخطاء النحات الذى نسى الشعر المستعار والذقن المصطنعة وخلافه أثناء عمله إلى ان ازيل الحجر بدرجة كبيرة بحيث أصبح من المستحيل شمولها ، ومن المحتمل أن هذا العيب قد عولج باستعمال الجص الذى تساقط حاليا تاركا آثارا غير كاملة لوجهين جانبيين وعينين واذنين ولباسين مستعارين للرأس .

وأمام باحرى نرى فى الصف الأول منظرا يمثل قياس وتذرية ودرس القمح . وهنا بعض ألوان من تعقيبات العمال التى سبق الاشارة اليها ، فنرى مثلا رجلا يحمل عكازاً محملا بسلة قمح فارغة معلقا : « الم التصق إلى العكاز طوال اليوم كرجل ؟ فذاك ما أحبه . » وفوق الثيران الخمسة غير المكممة التى تدرس القمح تلك القطعة الشعرية المشهورة التى يرددها كل من يكتب عن الأدب المصرى :

اسرعى أيتها الثيران
ادرسى القمح بأكثر سرعة
فالقش لك ،
والقمح لسيدك

والصف الثانى يمثل حصاد كل من نبات الكتان والقمح ، وبينما ينزع الكتان من جذوره نرى أن القمح يقطع عند الجزء الأعلى من ساقه بمحشات مصنوعة من الخشب والصوان . ويصيح رجل عجوز يقوم بتجريد الكتان الذى يحضره إليه شاب فى شكل حزم

« لو أنك أحضرت إلى ٩,٠٠,١١ حزمة فلسوف تجدنى الرجل الذى يستطيع تجريدها كلها » ، ولكن الشاب يرد عليه ردا جافا فيه ثورية لو أنه ترجم لكان هكذا : « أسرع لاتثرثر أيها الدجال العجوز » ، أما الصف الثالث فيصور مناظر الحرث والبذر وكسر الطينة الجامدة وأمام صورة باحرى التى تمثله واقفا نرى بالقرب من قدميه عربته ذات العجلات الأربع يجرها حصانان (فى ذلك الوقت كانت العجلات لاتزال بدعة) ، كما يرى السايس وهو يبدى ملاحظاته إلى الجياد المتحفزة للجرى بقوله « قف فى مكانك ! ولاتكن عاصيا . . أنت أيها الحصان الطيب الذى يحبك سيدك ، والذى يفخر بك الأمير أمام كل الناس » وتحت هذا المنظر منظر يمثله جالسا وهو يحصى الماشية كلها بنفسه . وبعد ذلك نرى منظرا للحبوب وهى توضع فى المراكب ، والعمال يبدون الملاحظة الآتية : « هل سنمضى اليوم بأكمله فى نقل القمح والشعير الأبيض ؟ فالشون مملوءة ، والأكوام تتدفق على أطرافها ، والمراكب محملة ، والغلال تتناثر ، ولكن السيد - مع ذلك يحضنا على الاستمرار فى العمل ، فنحن حقا رجال من معدن البرونز » .

وبعد ذلك نرى على الجدار الغربى مناظر تمثل حياته البعيدة عن مظاهر الوظيفة ومسراته ، فنراه تارة يراقب صيادى السمك والطير ، وتارة يجلس مع زوجته ينظر إلى الفاكهة والزهور والصيد وهى تقدم إليه . وفوقهما تجرى عملية قطق الكروم بينما يرى على جزء آخر من الجدار جالسا مع الأمير الصغير واز موسى الذى يجلس على ركبتيه ويزين رأسه خصلة شعر جانبية طويلة . والطرف الداخلى من هذا الجدار الغربى يصور الطقوس الجنازية ، وهى أشهر من أن تعرف فقد سبق أن رأيناها مصورة بدقة أكثر فى مقابر طيبة .

أما الجدار الشرقى أو الأيمن فقد استحدث فيه باب فى عصر متأخر يؤدى إلى الحجرات المتأخرة التى لاصلة لها بالمقبرة الأصلية . وعلى الجدران منظران أولهما يمثل باحرى وزوجته أمام مائدة زالت عند استحداث الباب سالف الذكر بينما ابنهما آمن مس يقدم القربان لهما ، كما نراهما ممثلين بالحجم الطبيعى وهما يتصدران مأدبة جنازية تشغل بقية المنظر . وبعد ذلك نرى آت رورع والد باحرى وزوجته وجده أحمس بن ابانا وزوجته فى حجم متوسط ولكنه هام . وأخيرا نرى الضيوف العاديين قانعين بالجلوس متربعين على الحصر بينما يقوم الموسيقيون بتسلية الجماعة كلها ويدار الشراب والطعام عليهم . وبعض نقوش هذا المنظر كانت السبب فيما علق بالكاب من شهرة فى الأسرة الثامنة عشرة من أنها « مدينة خليعة بعض الشىء » والمنظر الذى نحن بصدده يمثل ابنتى عم ادخال باحرى وهماسات - امون ونوب محى وخادمة تقدم لهما النبيذ . وعندما ترفض سات - أموت تناول القدح تستحلفها الخادمة بقولها : واستحلفك بروحك أن تشربى حتى تسكرى واسعدى واصغى إلى قول صاحبتك ، لاتخشى من الشراب وما تقوله لها صاحبتها نوب - محى هو مايأتى : « أعطنى ثمانية عشر قدحا من النبيذ ، فإننى أود أن اشرب حتى الثمالة ، فجوفى جاف كالقش ! » وهذا قول غير مهذب بالتأكيد ولكن السيدة وخادمتها لايقصدان غير الدعابة ، وإن الايحاء

بأن المنظر يمثل الانغماس فى اللذات ليس إلا إظهارا لروح المرح كجفاف جوف نوب - محى . وبقية هذا الجدار يمثل « باحرى » مع زوجته وثلاثة من أولاده يقدمون القربان للآلهة ، فنرى باحرى يمسك سراجين أو منخرتين بكل منهما خمس ذبالات ، ووراء القرابين عدد من حاملات الصلاصل .

ويحمل الجدار الخلفى نقشا مطولا يشيد بكل فضائل باحرى . ومظهره المستدير من أعلى مع الكرة التى تحول التماثيل المنحوتة فى وسطها يشبه إلى حد ما منظر مشاهد ضخم . ومما لاشك فيه أن المهندس كانت لديه هذه الفكرة عندما وضع هذا التصميم . والنقش غير هام بسبب خلوه من اللمسات الشخصية التى تلقى أضواء من حين إلى حين على سيرته كما هى الحال فى سيرة جد باحرى ، أحمس أمير البحر ابن ابانا وتمثل التماثيل المهشمة فى الكرة باحرى وأمه وزوجته حنوت - أرنحح . وعلى الجانب الأيمن من الحائط الموجود به الكرة نرى باحرى يقدم القربان إلى أميرين ملكيين قام هو ووالده بتربيتهما ، كما يقدم أيضا لوالده اتن رورع وأمه كم . وعلى الجانب الأيسر من الحائط نرى باحرى وزوجته جالسين أمام مائدة قرابين بينما يقوم ابنه آمن مس أمامها بالطقوس التى سوف تمكن والديه من الاستمتاع بها . ويحتمل إرجاع تاريخ تنفيذ هذه المقبرة إلى الفترة الأولى من حكم تحتمس الثالث . هذا وقد ملئت الكتابات الهيروغليفية باللون الأزرق .

وبعد أن نمر بمقبرة غير منقوشة ندخل مقبرة أخرى هى مقبرة « ستاو » الكاهن الأعلى لنخبيت سيدة الكاب فى عهد الملك رمسيس التاسع . وهذه هى آخر مقبرة منقوشة فى الكاب ، ولكنها للأسف مخربة ، وهى تتكون من سلم من درجات أربع يهبط إلى صالة ينفتح منها ثلاث حجرات أخرى . وعلى الجدار الأيسر مناظر للحرث والحصاد وخلافه وقد أصبحت الآن فى حالة تخريب تام تقريبا بحيث لم يعد ظاهرا من هذه المناظر غير أربع مراكب جنازية . وفوقها نجد إشارة إلى احتفال بيوبيل رمسيس الثالث فى السنة التاسعة والعشرين من حكمه ، وقد قام الوزير « تا » بشعائر الاحتفال . وعلى ذلك فلا بد أن ستاو تقلد أعماله الوظيفية خلال الفترة الأخيرة من حكم رمسيس الثالث واستمر حتى رمسيس التاسع وهذا ليس مستبعدا إذ أن الزعماء المتأخرين حكموا لمدد قصيرة الأجل . وعلى الجانب الأيمن من الحائط نرى ستاو وزوجته جالسين بينما نرى ابنهما بالتبنى - الذى كان يشغل وظيفة الأب المقدس لامون رع - يقدم لهما القربان . وتحت كرسى ستاو يجلس قرد ، كما يصطف أمامه فى صفوف أقاربه وهم جلوس غير أن هذا المنظر قد قطع عندما استحدث باب فى عصر متأخر يؤدى إلى احدى الحجرات . وإلى أقصى اليمين نرى ستاو وزوجته يقدمان القربان . وقد نال الشاهد الموجود على الجدار الخلفى الكثير من التهشيم . وهناك نقش يحدد تاريخ إقامة المقبرة فى السنة الرابعة من حكم رمسيس التاسع وبهذا تكون أقصى

التواريخ المذكورة فى المقبرة هى ١١٧٤و١١٥٢ وهى ليست بالفترة غير المعقولة لكاهن أعلى يقضيها فى الوظيفة .

وإذا تركنا مقبرة أخرى غير منقوشة نصل إلى مقبرة أحمس الأكبر الكابى ، ونعنى به أحمس بن أبانا أو كما يدعى فى أحد ألقابه التى يحملها أمير البحر أحمس . والمقبرة لا تثير الاهتمام ، فهى تضم حجرة مستطيلة لها سقف مقبى ، وحجرة أخرى على الجانب الأيمن ومنها يبدأ بئر المقبرة . وعلى الجدار الأيمن يظهر أحمس نفسه ممسكا بعصاه وواقفا أمام نقش طويل يشيد بمآثره الحربية ويصحبه حفيده باحرى الذى سبق أن التقينا به فى مقبرته الخاصة ، والذى أضاف إلى إنجازاته إنجازا آخر كفنان ، فهو الذى أقام مقبرة جده ولكنه لم يكملها قط ، ولا تزال ترى حتى الآن على الجدار الأيسر تلك المربعات الحمراء التى كان الفنان يستعين بها فى تحديد أجزاء رسومه . ويظهر على الجدار الخلفى صورة مهشمة جدا لأمير البحر العجوز وزوجته جالسين ، وتحت كرسيهما قردهما المستأنس بينما يرى أقاربهما أمامهما .

ويرجع الاهتمام الأساسى بمقبرة المحارب العجوز الذى كان « جنديا » ويحارا فى نفس الوقت إلى أهميتها التاريخية وليس إلى مميزاتها الفنية حيث ان صاحبها عاش وحارب فى الفترة العصيبة فى بداية الامبراطورية المصرية عندما تخلص المصريون من حكم الهكسوس الغاصبين ، بدأوا غزو آسيا الذى أسفر عن اقامة إمبراطورية قصيرة الأجل . وكان أحمس هذا ابن المدعو «بابا» الذى خدم فى عهد الملك سكنزع الثالث الطيبى فى أوائل حرب الاستقلال ، وكانت أمه التى يرتبط اسمها باسمه دائما تدعى « ابانا » . وقد بدأ نقشه هكذا : « رئيس البحارة ، أحمس بن ابانا ، المبرر » إنه يقول : « إننى أتحدث إليكم جميعا أيها الرجال ، إننى سأجعلكم تعرفون ألوان التكريم التى أسبغت علىّ فقد كوفئت بالذهب (الاسم الفنى للمنحة المصرية عن الشجاعة) سبع مرات على مرأى من جميع البلاد ، كما كوفئت بجوار وجاريات ، وكيف أغدقت علىّ الحقول الكثيرة (مجموعها ٦٧ فدانا ، وهى ليست بالمنحة الكبيرة على أى حال) . ولما كانت شهرة الرجل الشجاع تكمن فيما قام به من أعمال ، فإنها لن تضيع فى هذه البلاد بل ستبقى إلى الأبد » (أنظر برستد ، النصوص القديمة ، الجزء الثانى ، الفقرة ١ (ومايليها) . وبعد ذلك يذكر كيف أن والده « بابا » بن روينت كان جنديا أيام سكنزع ، وكيف أنه هو نفسه حل مكان أبيه فى « المركب المسماة « الثور البرى » أيام سيد الأرمنين نب بحتى رع (أحمس الأول) ، المبرر عندما كنت صبيا ، ولم أكن قد تزوجت بعد ، بل كنت أنام فى أرجوحة مصنوعة من شباك البحارة » ثم يقص علينا أعماله ضد الهكسوس فى أفاريس ـ تلك الأعمال التى أكسبته ثلاث جوائز من الذهب مقابل شجاعته . وبعد ذلك ينقلنا إلى الحديث عن الجيش المصرى المظفر فى فلسطين ، ونراه يقوم بواجبه فى الحصار الطويل لمدينة شاروهين مما جعله يحظى بجائزة رابعة

ذهبية وتنقلنا مأثرته التالية جنوبا فى النوبة حيث كان الملك أحمس يثبت من جديد السلطان المصرى وهنا نجده يجمع الأسرى كالعادة ويظفر بالجائزه الذهبية الخامسة .

ولاشك أن الهدايا من العبيد والأرض كانت تتجمع طوال الوقت مثل المنح التى كانت تتميز بالمظهر البراق أكثر من قيمتها المادية .

ثم نجده فى عهد الملك الجدير أمنوفيس الأول يقود الأسطول الملكى فى حملة ثانية إلى النوبة حيث يخبرنا فى تواضع أنه « حارب بصورة لايمكن تصديقها » (حرفياً أكثر مما هو صدق) غير أن الحملة ضد النوبيين قد عطلتها بعض الشىء أنباء عن غزوة ليبيـة ضد مصر ، فقد طلب أحمس من مولاه أن يسمح له بالاسراع نحو الشمال لصد الخطر ، ويبدو أنه قام بذلك بإحكام بحيث أن المراكب قطعت مسافة مائتى ميل فى يومين ، وقد كافأه الملك على ذلك بجائزة سادسة من الذهب . وفى الحرب التالية قام بأعمال بارزة أهلته لمنصب « محارب الحاكم » ، وهو ـ كما يبدو ـ منصب مشرف فى لواء الريس الملكى وقـد حظى بمنصب آخر فى عهد تحتمس الأول أثناء قيامه بحملة أخرى للنوبة .

« أظهرت شجاعة نادرة فى حضرته فى المياه الخطرة أثناء عبور المركب فى المنحنى وقد عيننى الملك رئيساً للبحارة » وهذه الوظيفة تقابل وظيفة أمير البحر . هذا وقد قام المحارب العجوز بمغامرة أخرى قبل أن يعتكف فى الكاب ليقضى بقية حياته بين ممتلكاته . وفى هذه المرة كان مسرح مغامرته سوريا ، فهو يقص علينا أن تحتمس ، فى غزوه لآسيا ، كان يقصد متعمداً الانتقام لغزو الهكسوس لمصر . « وصل الملك إلى رتنو ذهب الفرعـون إلى رتنو ليشفى غليله بين البلاد الأجنبية » ورغم أن أمير البحر العجوز كان قد بلغ وقتئذ حوالى الخامسة والستين من عمره ، فإن شجاعته لم تهن .

فقد ذكر « أثناء ذلك كنت على رأس قواتنا وقد لمس جلالته شجاعتى إذ أحضرت مركبة وجيادها والشخص الذى كان يقودها كأسير حى وقدمتها جميعها لجلالته الذى كافأنى بقدر مضاعف من الذهب . ومع أننى كبرت فى السن ، وبلغت من العمر عتيا ، فقد نلت من ضروب التكريم ما اعتدت نيله فى بدء حياتى » .

وتنتهى قصة البطل العجوز عند تلك النهاية المرضية . وعلينا أن نتصوره معتكفاً فى ضيعته التى تبلغ مساحتها ٦٧ فداناً ، يحصى على أصابعه المكدودة عدد أسراه وجوائزه ، ويخرج من وقت لآخر ليرى مدى ما وصل إليه حفيده الذكى فى تشييد مقبرته التى لم يعش ليراها منتهية . ولكن نقوشه تحتفظ بأهميتها التى لاتقدر بثمن ، فهى على أى حال أكثر انسانية من تلك القائمة الجافة من المذابح التى كانت ترضى زميله المتجهم الأصفر أحمس ـ ابن ـ نخبيت . وإن الإنسان ليستشف من خلال عبارات أمير البحر العجوز شخصيته المعبرة .

وبعد أن نترك المقبرتين التاليتين اللتين تخلوان مما يثير اهتمامنا ، نلتقى بمقبرة «رننى» الأمير بالوراثة ، ورئيس الكهنة فى الفترة الأولى من عصر الأسرة الثامنة عشرة ، ويحمل الجدار الأيسر من حجرة الدفن رسم عربة وجياد ومناظر للحصاد وصور رننى وزوجته يتصدران وليمة جنازية ، بينما يجلس أصدقاؤهما أمامهما . وعلى الجدار الأيمن مناظر جنازية تمثل الشكل العادى الملفوف فى جلد حيوان والمسحوب على زلاقة وهو الشكل الذى قد يمثل ضحية آدمية أو شكلا من أشكال البعث ، ومناظر أخرى مألوفة تمثل فتح الفم والتقاديم والمراكب التى تحمل صور المتوفى والنائمات . وقد ورد ذكر قطيع الخنازير المملوكة للأمير وعددها ٥٠٠ خنزير . وقد كان باحرى يقتنى أيضاً الخنازير ، وهذا أمر غريب ، إذ أن الخنازير لم تكن فى الغالب مألوفة لدى المصريين بأكثر مما كانت لدى اليهود . ويظن أنه كان يسمح باقتنائها هنا لأغراض دينية ، إذ أن هيرودوت يؤكد أن الخنازير كانت مقدسة لدى « سيلين » التى كانت تشبه بنخبيت الهة الكاب .

وبعد أن نتجاوز مقابر أخرى عديدة ، بعضها مكشوف بسبب تفتت الصخر نجد مقبرة «بابا» وزوجته التى كانت وصيفة ملكية فى مكان ما فى الفترة الغامضة بين الأسرتين الثالثة عشرة والسادسة عشرة . ويمكن الوصول إلى مدخل المقبرة بطريق درجات قليلة . وللمقبرة سقف مقبى . وعلى الجدار الخلفى نقش طويل ورسوم لبابا وزوجته . وتذكر النقوش أن بابا كان يقتنى تسعة خنازير مما يدل على ما كان للخنازير من مكانة مرعية فى الكاب . وبعد أن نترك مقبرتين أخريين مهشمتين نلتقى بمقبرة سوبك تخت الأمير بالوراثة ورئيس الكهنة فى عهد الملك سوبك حتب الثالث من ملوك الأسرة الثالثة عشرة . ولايمكن الوصول إليها حالياً غير أن بها حجرة مقبية لها سقف يحمل نقوشاً بديعة . هذا وليس هناك مقابر أخرى تستحق الاهتمام .

هيراكنبوليس

والآن نعبر النهر إلى قرية المويسات التى تقع بجوارها أطلال تخن ذات الشهرة القديمة ، والتى كانت تعرف عند اليونان باسم هيراكنبوليس نسبة إلى معبودها حورس الممثل برأس صقر . ويعرف موقع المدينة القديمة حالياً باسم الكوم الأحمر ، وقد أخذ هذا الاسم من الفخار الأحمر الذى يتناثر بكثرة فوق تل إلى الشرق من القلعة التى تعتبر أهم المعالم الأثرية القديمة بالمنطقة . وليس بالموقع ما يستحق الزيارة بالنسبة للشخص العادى فهى « خليط مشوش من الأكوام الصغيرة والحفر التى تنمو فوقها الحشائش والأشجار الشائكة » غير أن له أهميته الخاصة عندما نعرف أنه من هذا الموقع الذى لايبعث على التشجيع أحضرت بعض القطع الرائقة من عصر الدولة القديمة تزين حالياً المتحف المصرى منها تمثال خع سخموى

(رقم ٣٠٥٦ بالطبقة العليا ـ حجرة ٤٢ خزانة) ، ولوحة نارمر الشهيرة المصنوعة من الشست (رقم ٣٠٥٥ بالطبقة العليا ـ حجرة ٤٢ إلى الغرب) ، والنشالان النحاسيان للملك بيبى الأول وابنه (رقما ٢٣٠ ، ٢٣١ الطبقة السفلى ـ حجرة ٣٢) ، ورأس الصقر الذهبى الذى لا مثيل له (رقم ٤٠١٠ بالطبقة العليا ـ حجرة ٣ بالخزانة ٣) .

وأبرز ما فى المنطقة تلك القلعة القديمة التى لاتزال من المناظر الممتعة رغم مضى خمسة الآف سنة عليها . ولهذه القلعة سور ضخم من اللبن يتراوح سمكه بين ١٥و١٦ قدماً ، ويتقدم هذا السور الرئيسى وعلى مسافة بين ٧و٨ أقدام منه سور آخر ثانوى يبلغ سمكه حوالى ثمانية أقدام . ويبلغ ارتفاع السور الرئيسى فى بعض أجزائه وبخاصة فى الجانب الجنوبى الغربى بين ٢٦و٣٠ قدماً ومن المحتمل أن تاريخ هذه القلعة يرجع إلى عصر الأسرة الأولى أو الثانية مثل القلعة المشابهة لها بابيدوس والمعروفة باسم شونة الزبيب « ويغطى السطح المحاط بالجدران أكوام غير منتظمة من الأنقاض والرمال ، غير أن الزائر يجب ألا يفوته دخول الحرم إذ أنه سوف يحس بشعور عجيب من الرهبة عندما يجد نفسه بين الجدران الضخمة بعيداً عن المناظر والأصوات فى الخارج » .

وعلى مسافة قصيرة شمال شرقى القلعة وداخل الأرض المنزرعة تقع بقايا المدينة التى كانت فى الأصل محاطة بسور من اللبن . وفى الزاوية الجنوبية الغربية من سور المدينة المستطيل يوجد المعبد ، وهو محاط أيضا بسور من اللبن . وفى هذا المكان عثر مستر ج . كوبيل فى عام ١٨٩٨ على كشوف هامة ضمنها فى المؤلفين اللذين نشرا فى ١٩٠٠, ١٩٠٢ (هيراكنبوليس ١ , ٢)[1] ومن بين هذه الكشوف لوحات الشست وأكبرها تلك التى تحمل تسجيلا وصوراً لانتصارات نارمر أومينا مؤسس الأسرة الأولى ، ودبابيس الملك العقرب والملك مينا ، والتماثيل الصغيرة البديعة المصنوعة من الشست للملك خع سخموى وتلك القطع الرائعة للمثال المصرى القديم كالتمثالين المصنوعين من النحاس للملك بيبى الأول والأمير مرنرع ، والرأس الذهبى للصقر الذى كان متصلا بجسم من النحاس ويعلوه ريشتان طويلتان من الذهب ورغم خلو الموقع حالياً من الاثارة ، فإنه يعد من بين المناطق العلمية بمصر بفضل ما أضافه إلى معلوماتنا عن التاريخ والفن المصرى القديم فى مراحله الأولى .

وفى أقصى الطرف الجنوبى الشرقى لجبانة ممتدة إلى الجنوب من القلعة يرجع تاريخها إلى عصر ما قبل التاريخ ، كشف مستر كوبيل فى الموسم الثانى (١٨٩٨) عن المقبرة الملونة المشهورة من عصر ما قبل التاريخ (عصر ما قبل الأسرات الثانى) التى كما قال عنها الأستاذ جوردون شيلد : « السلف للرسوم الحائطية (الفريسكو) المتأخرة والخلف الخطى لرسوم

---

(١) —J . E . Quibell ; Hierconpolis ; Iand II .

الأوانى فى عصر ما قبل التاريخ (الشرق القديم ، ص ٩٣)[١] وتفاصيل هذا العمل الفنى الرائع معروفة تماماً بحيث لا تحتاج إلى وصف .

وغرب القلعة مباشرة يقع تل نحتت فيه عدة قبور ، ويضم اثنان منها مناظر ونقوشاً ملونة من الطراز المعتاد مع بعض الصور بالحفر الغائر . وتنسب المقبرة الأولى إلى « فى رغنح » بيبى « أمين خزانة الصقر » فى عصر الملك بيبى الأول أما الثانية فتنسب إلى شخص يدعى « حر ـ أم خعو ـ ف ـ ماعت » ، وكان يشغل وظيفة رئيس الكهنة والضياع فى عهد أحد ملوك الدولة القديمة . وكلا المقبرتين مسدودة بالرمال .

وإلى مسافة أبعد إلى الغرب مجموعة مكونة من عشر مقابر منحوتة فى الصخر بعضها مخرب . وتخلو المقبرتان الأوليتان من أي نقوش أو رسوم وكل منهما عبارة عن حجرة مستطيلة الشكل . أما المقبرة الثالثة فتحوى نقشاً محفوراً حول الباب ، ويحمل لقب خرطوش تحتمس الأول . وهذه المقبرة لشخص يدعى « توت » كان يشغل وظيفة رئيس المثالين ، وهى تضم حجرة مستطيلة ذات سقف مقبى وحجرة أخرى ثانوية تفتح منها إلى اليمين . وبالحجرة الكبيرة كوة بها تمثالان مهشمان لتوت وزوجته . ويؤكد الشاهد أن توت يحمل الفضائل التى كان المصرى يدعيها دائماً لنفسه فى نقوش مقبرته . والمقابر الرابعة والخامسة والسادسة عديمة الأهمية ، أما السابعة فقد كانت فى وقت ما تثير الاهتمام غير أنها تهدمت حالياً مثلها مثل المقبرة الثامنة . أما المقبرة التاسعة فهى مجرد حجرة مستطيلة مضافاً إليها حجرة أخرى ثانوية فى جدارها الخلفى كوة تضم بقايا تمثالين . وفى وقت ما كانت الحجرة الرئيسية مزخرفة ويمكن حالياً رؤية بعض بقايا مناظر تمثل نساء يرقصن ويحملن أكاليل الزهور وأوراق العنب ، واسم صاحب هذه المقبرة « جرموسى » الذى كان يشغل وظيفة رئيس كهنة حورس فى هيراكنبوليس أيام الملك تحتمس الثالث . وقد اغتصبت المقبرة فيما بعد ، ويشهد بذلك وجود خراطيش رمسيس الثانى عشر على جدرانها . وليس فى هذه المقابر بحالتها الراهنة ما يثير الاهتمام الذى تثيره مقابر الكاب ، وهى بذلك لاتستحق المشقة التى يتكبدها الزائر فى الوصول إليها . والواقع أنه ليس بهير اكنبوليس غير القليل مما تقدمه للزائر العادى حيث أن الزمن قد لعب دوره فى زوال هذه المدينة التى كانت يوماً ما من أشهر وأهم المدن المصرية[٢] .

وتوجد فى مسافة الاثنى عشر ميلا التى تفصل بين الكاب وادفو جبانة أو جبانتان قديمتان ، ولكن ليس هناك ما يستحق الذكر أو يثير اهتمام الزائر .

---

(١) — Gordon Childe; The Most Aincient East; p. 93

(٢) قامت بعثة أمريكية برئاسة الأستاذ Fairservis بالعمل فى الحفر فى أنقاض تلك المدينة وسوف يستمر العمل فيها لسنوات قادمة .

الفصل الثلاثون
إدفو : معبدها وتاريخها

عند إدفو تقف البواخر السياحية لتتيح للزائرين فرصة زيارة المعبد الكبير ولما كان المكان يقع فى منتصف الطريق بين الأقصر وأسوان ، فقد أصبح من الميسور زيارته بالقطار من أى من المكانين . وفى حالة الزيارة بالقطار يجب أن يضع الزائر فى تقديره أن محطة السكة الحديد على الضفة الشرقية للنيل بينما تقع ادفو على الضفة الغربية ، وأن الوقت الذى يقضيه فى التقدير وركوب الحمار من المرسى بالضفة الغربية يجب أن يستنزل من الوقت المتاح له لرؤية المعبد . وتصل القطارات المبكرة التى تقوم من الأقصر أو أسوان إلى محطة ادفو حوالى الساعة العاشرة صباحاً ، وتغادر أدفو حوالى الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر ، ومن ذلك يتبين لنا أن مدة الثلاث ساعات ونصف بما فيها الوقت الذى تستغرقه المعديتان والحماران ليست كافية لزيارة معبد هام كمعبد إدفو[1] . ومع ذلك فيجدر بالزائرين أن يبذلوا أقصى جهدهم لرؤية المعبد الذى رغم أنه من عصر متأخر غير أنه يعد أكمل المعابد المصرية الكبيرة التى تعطينا أوضح فكرة عن العناصر الرئيسية لتصميم مثل هذه المبانى .

وكان يطلق على مدينة ادفو فى العصور القديمة «دبو» أو «أدبو» التى تعنى «مدينة الطعان» ، الشكل القبطى لهذا الاسم هو «اتبو» ومنها جاء الاسم الحديث أدفو . وكان اسمها الدينى القديم بحدت أو بحدتى وإلهها المحلى هو حور بحدتى أو حورس الأدفوى ، أحد الأسماء المتعددة لحورس . ويرتبط بكل من الاسمين أسطورة قديمة ، ورغم أن هذه الأسطورة قد وصلت إلينا بشكل متأخر نسبياً ، غير أنها تمثل تقليداً أصلياً قديماً للحروب القبلية ، فتذكر الأسطورة كيف أن حور بحدتى الممثل على شكل قرص شمس مجنح متعدد

---

(١) أصبحت طرق المواصلات أسهل بكثير من ذى قبل فهناك كوبرى يمكن المرور عليه بعربات تصل بين المحطة والمعبد . كما أن هناك لانشات تصل البر الغربى الشرقى حيث يكون المعبد قريبا من الشاطىء .

الألوان ، تغلب على ست واتباعه[1] وقد عاون حورس - الذى يجب أن يميز عن حورس المشهور ابن إيزيس فى اسطورة أوزوريس فى نزاله ضد ست واعوانه - عدد من الرجال الذين عرفوا فن صناعة المعادن ، ويحتمل أننا هنا بصدد اسطورة متداولة عن انتصارات غازية ، كانت تستخدم . على قبائل بدائية كانت تستعمل الحجر . ومهما كان الأمر فقد كان لحورس الأدفوى أو حوره بحدتى الممثل برأس صقر مكانة بارزة فى الأساطير المصرية وقد اختلطت أسطورته أخيراً بأسطورة أوزوريس ، كما اختلط هو نفسه بحورس بن إيزيس غير أن مركزه الأصلى كان فى فلك الأساطير الخاصة بالإله رع وليس قطعاً فى فلك أوزوريس . وقد أصبح شعاره الممثل على شكل قرص شمس مجنح متعدد الألوان - كما هو معروف للجميع ـ رمز الحماية ضد الأشياء السيئة يوضع فوق بوابات المعابد المصرية كلها .

وليس لدينا غير معلومات قليلة عن التاريخ المبكر للمكان ، فالآثار الطفيفة التى وصلتنا من العصر المضطرب الذى حدث مباشرة بعد سقوط الدولة الوسطى لا تعدو شاهداً عثر عليه هنا يخص أميراً كان ابن ملك مغمور يدعى «دى دى موسى» ويبدو أنه كان ملكا فى ذلك العصر ، ودلاية للملك انتف عليها اسم زوجة ملكية عظيمة اسمها سبك ـ أم ساف ، وشاهداً آخر يرجع تاريخه إلى نفس تاريخ أسرة الملكة . وقد القت هذه الآثار القليلة ضوءا على الظلام الذى كان يغلف التاريخ المبكر لادفو . وقد قام رئيس استقبال الملكة الشهيرة آخ . حتب فى أوائل الأسرة الثامنة عشرة بتجديد مقبرة الملكة - سبك - أم - ساف بادفو . وفى أيام تحتمس الثالث أصبحت الرحلة السنوية لحاتحور سيدة دندرة بصحبة زوجها حورس لقضاء بضعة أيام فى أدفو عيداً منتظما ، واخذ ابن هذين المعبودين «حر سما تاوى» أو «حورس موحد الأرضين» مكانه كالعضو الثالث لثالوث أدفو ودندرة . وفى[2] الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين قام كل من سيتى الأول ورمسيس الثالث ورمسيس الرابع[3] بالعمل فى المعبد الذى كان موجوداً وقتئذ فى أدفو ، وتشهد بذلك خراطيشهم التى وجدت هناك . وأول شاهد ظاهر لعمل أقدم عهد فى المعبد الحالى يتمثل فى ناووس نقطانب الضخم المصنوع من الجرانيت الذى يقوم فى هيكل المعبد الكبير . وكانت

---

(١) كان لحورس إدفو مكان كبير فى الأساطير المصرية القديمة التى ورد فيها أن الآله رع حوراختى كلفه قهر الثوار الذين ثاروا ضده تحت زعامة المعبود ست ، فطفق يطاردهم متخذا هيئات مختلفة وهزمهم بمساعدة أعوانه حملة الخطاطيف عدة مرات ، ثم ظل يطاردهم فى الدلتا ثم فى النوبة متحولا إلى شمس لها جناحان حتى قضى عليهم ، فسر لذلك رع حوراخت وأمر بأن تكون هذه الشمس فى كل مكان تنزل فيه ومن ثم أصبحت الشمس المجنحة زينة على أعتاب أبواب المعابد وصارت رمزاً للنصر .

(٢) نظم المصريون زيارة سنوية تقوم بها حتحور إلى مقر روحها فى ادفو وقد أصبح أمر هذه الزيارة عيدا رسميا منذ أيام الأسرة ١٨ وأسموه اللقاء الطيب واحتفلوا به احتفالا كبيرا .

(٣) توجد بقايا معبد لملوك الأسرة التاسعة عشر ، والأسرة العشرين شرقى المعبد البطلمى أنظر . L Christophe ; Le pylone 'Ramesside d' Edfou in ASAE; 55 pp. I ff.

أدفو فى ذلك الوقت مدينة ذات شهرة إذ كانت عاصمة المقاطعة الثانية ، وقد أطلق عليها الاغريق ابوللو بوليس ماجنانسية إلى ابوللو الذى شبه بحورس . ومن الواضح أن المعبد القديم الذى يرجع إلى عصر الرعامسة والذى يحتمل أنه كان صغيراً نسبيا ، وأنه تعرض للإهمال وعوامل الزمن ، قد أصبح غير ملائم لحاجيات عاصمة مقاطعة ، ومن ثم شرع البطالمة الذين عرفوا بنشاطهم المعمارى فى اقامة معبد جديد أكثر ملاءمة مكان المعبد القديم .

وقد بدىء العمل فى البناء الجديد فى السنة العاشرة من عهد بطليموس الثالث (افرجيت الأول) أى سنة ٢٣٧ ق .م ، وقد تم اقامة المبنى الرئيسى فى السنة العاشرة من عهد بطليموس الرابع (فيلوباتر) سنة ٢١٢ ق .م أى أن بناءه استغرق خمسة وعشرين عاما ، غير أن زخرفته قد استنفدت ست سنوات أخرى وانتهت فى عام ٢٠٧ ق .م وقد أدت الاضطرابات فى مصر العليا إلى تعطيل العمل ، ولم يستأنف ثانية بصفة رسمية إلا عام ١٤٢ ق .م فى عهد بطليموس السابع (افرجيت الثانى) . وقد تم إقامة صالة الأعمدة الصغيرة بعد عامين أى فى سنة ١٤٠ ق .م . وبذا يكون المعبد قد استغرق بناؤه سبعاً وتسعين سنة . أما صالة الأعمدة الكبرى والفناء والصروح فلم تتم إلا فى نهاية عام ٥٧ ق .م . فى السنة الخامسة والعشرين من حكم بطليموس الحادى عشر (نيوديونيسوس) المشهور باسم بطليموس أوليتس أو بطليموس الزمار . وعلى ذلك يكون البناء بأكمله قد استغرق مدة تزيد قليلا على ١٨٠ عاما . وبمقارنته بالمعابد الكبيرة القديمة من عصر الإمبراطورية الفرعونية يمكن القول أنه قد بنى بمجهود مفرد . وإلى هذه الحقيقة يرجع وضوح تخطيطه ومتانة بنيانه . ومما يذكر أن المعبد الكبير استخدم لمدة ٢٧ عاما فقط عندما أطاح عام ٣٠ ق . م بآخر مخلفات الحكم البطلمى ووضع مصر نهائيا تحت حكم روما .

وليس بين معابد مصر الكبيرة معبد يعطينا الفكرة المصرية المميزة للمعبد كما يجب أن يكون مثل هذا المبنى الذى أقامه فراعنة يجرى فى عروقهم القليل من الدماء المصرية إذا كانت هناك دماء مصرية حقا ، وفضلا على ذلك فانه أحد المعابد المصرية القليلة التى يمكن أن نطلق عليها لقب «جميل» دون النظر إلى ما تعنيه هذه الكلمة من معنى خاص . وحقا إن الجمال ينحصر فى طابع عام من التناسب ، وفى التفاصيل مثل نسق زخرفة تيجان الأعمدة . ومع ذلك فليس هناك شك فى أن المبنى جذاب ، وأن رداءة التفاصيل الأخرى والمبالغة السمجة فى النحت البطلمى لم يقويا على القضاء على الانطباع الذى يحدثه المبنى الكبير فى النفس من أول نظرة . وتتصف الصروح بأنها «سمجة نوعا ما» بسبب فقدان كرانيشها ولكن ليس هذا عيب المهندسين . وليس من الصعب أن نتصورها كاملة بكرانيشها شديدة النقوش ، وبذلك يمكننا أن نراها كما كانت تبدو عندما اكتملت أولا . وعلى أى حال فهى حتى فى حالتها الراهنة جذابة دون شك . وطبقا للمقاسات التى أخذها

ماريت يبلغ ارتفاع البرجين ١٤٤ قدما وعشر بوصات بينما يبلغ عرض الواجهة ٢٤٩ قدما وعشر بوصات . ويمكن ادراك مقاسات معبد أدفو بمقارنتها بالمقاسات المماثلة لها فى كنيسة القديس بولس ، فارتفاع واجهة كنيسة القديس بولس حتى قمة تمثال القديس المقام فوق الكورنيش يبلغ ١٣٥ قدما بينما يبلغ عرض الواجهة الغربية ١٧٩ قدما فقط يقابلها ٢٤٩ قدما بمعبد أدفو . ويبلغ الطول الكلى لمعبد أدفو ٤٥١ قدما وست بوصات يقابلها ٥١٣ قدما لكنيسة القديس بولس .

ويرجع الفضل فى ابراز معبد ادفو بالمظهر الحالى إلى ماريت الذى وجده عام ١٨٦٠ فى حالة يرثى لها «فقد زحفت القرية الجديدة إلى المعبد وغطيت أسطحه بالمساكن والاسطبلات والمخازن من كل نوع كما امتلأت حجراته الداخلية حتى الأسقف تقريباً بالانقاض وقد تمت عملية اخلاء القرويين منه وتنظيفه على أكمل وجه ومنذ أيام ماريت قامت مصلحة الآثار بأعمال هامة لصيانته ، فقد هدمت الجدران الآيلة ــ للسقوط وأعيد بناؤها ، كما رمم السقف المخرب ، وأصبح المبنى بأكمله فى حالة أفضل بكثير مما كان عليه منذ عدة قرون . أما التهشيم الظاهر للنقوش فيعزى إلى تعصب المسيحيين الأولين .

وإذا اقتربنا من المعبد شاهدنا أن برجى الواجهة يحملان رسوما كبيرة للملك بطليموس أوليتس يضرب أعداءه أمام حورس إله إدفو وحاتحور الهة دندرة . وفوق هذا المنظر على كلا البرجين نرى الملك يقدم القربان لصفين من المعبودات المحلية . ويعلو البوابة الضخمة الواقعة بين البرجين قرص الشمس المجنح الذى يمثل هنا بصفة خاصة حر بحدتى . والفجوات المستطيلة المقطوعة فى البرجين والفتحات المربعة الواقعة فوقها كانت دون شك مخصصة لتثبيت ساريات الأعلام التى كانت توضع أمام كل المعابد المصرية . ويقوم أمام الصرح صقران ضخمان من الجرانيت يرمزان إلى حورس إله إدفو .

وإذا تخطينا البوابة الكبيرة التى كانت تغلق فى الأزمنة القديمة بباب مصنوع من خشب الأرز المطعم بالبرونز والذهب ، نجد أنفسنا فى فناء كبير يزينه صف من الأعمدة على الجانبين وخلف الصرح ، أما الجانب الرابع فمشغول بأعمدة الصف الأمامى للمعبد الأصلى وجدرانها الساترة . ومجموع الأعمدة ٣٢ عموداً ذات تيجان منحوتة بزخارف متقنة تمثل الزهور وأوراق النخيل التى تأثر بها المهندسون البطالمة كثيرا . وعلى الأعمدة نفسها رسوم غائرة تمثل الملك الذى لم يذكر اسمه - يقدم القربان أمام المعبودات المحلية . وعلى الجدران الواقعة خلف صفوف الأعمدة مجموعة من المناظر متقنة فى ثلاثة صفوف تمثل الملك وهو يقوم ببعض الطقوس ، ولما كانت هذه المناظر مكررة بشكل يبعث على الملل فانه يكفى أن نقتصر على ذكر مجموعة واحدة منها مبتدئين بمناظر الجانب الأيمن من المدخل (الجدار الخلفى للصرح) فنرى الملك الذى لم يذكر اسمه خارجا من قصر لابسا تاج مصر العليا

الأبيض . وأمامه كاهن يحرق البخور والأعلام الأربعة لمصر العليا التى تمثل ابن آوى إله الشلال الأول ، وأبيس إله هرموبوليس ، والصقر إله ادفو ثم شعار طيبة ، وبعدئذ يقوم تحوت وحورس بتطهيره ، وتتوجه الآلهتان نخبيت وواجيت بالتاج المزدوج ، ويتسلم الصولجان من حورس فى حضرة أتوم وسعشات وماعت ويقوده أحد الآلهة ـ الذى يقرب إلى أنفه علامة الحياة إلى حضرة حورس إله أدفو وأخيرا يقف أمام حورس إله أدفو وحاتحور الهة دندرة . وتحت هذه المناظر سلسلة من المناظر الأخرى تمثل الاحتفال بالرحلة النيلية إلى الجنوب لحاتحور سيدة دندرة لتلتقى بزوجها حورس سيد ادفو . وعلى الجانب الآخر من المدخل مناظر متشابهة غير أن الاختلاف الوحيد الهام هو أن الملك يلبس تاج مصر السفلى الأحمر (٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠) والفناء مغطى ببلاكات عريضة ، وله أربعة منافذ مغلقة حاليا .

وقبل أن ندخل المعبد الأصلى نقف وسط الفناء لنلقى نظرة على المناظر الكبيرة الماثلة على برجى الصرح . وهذه المناظر تمثل بطليموس أوليتس يتعبد لحورس وحاتحور ، كما أن المناظر على الجدران الأمامية تصوره يذبح أعداءه أمام هذين المعبودين . والحق أن بطليموس أوليتس لم يكن مشهورا بالشجاعة أو التدين . ـ ومن الفناء نصل من خلال باب فى كل من برجى الصرح إلى السطح بواسطة سلم مربع مكون من ٢٤٢ درجة . ويمكن احتمال الظلام والصعود الشاق نوعا ما فى إلقاء نظرة على المنظر العام ، كما أن أخذ فكرة عن تخطيط المعبد من أعلى يستحق قليلا من المشقة .

وإذا عدنا إلى الفناء نقترب من واجهة المعبد الأصلى ، وتتكون واجهة المقصورة الأمامية من الأعمدة النهائية الستة للصفوف الموجودة بداخل صالة الأعمدة وثلاثة جدران ساترة على كلا جانبى البوابة المتوسطة. وقد بنيت كتل هذه البوابة مقابل العمودين المتوسطين من الأعمدة الستة . والمناظر المصورة على الجدران الساترة تمثل بطليموس افرجيت الثانى يقدم إلى حورس سيد أدفو (١١ ، ١٤) (الجداران الساتران على يمين ويسار البوابة) ، وإلى حاتحور سيدة دندرة (١٢ ، ١٥) (الساتران المتوسطان) ، وإلى حورس أيضا (١٣ ، ١٦) (الساتران الجانبيان) والأثر العام الذى تحدثه هذه الواجهة بتيجانها المزخرفة بأشكال الزهر وأوراق النخيل وجدرانها الساترة أخاذ جدا رغم رداءة التفاصيل .

والآن ندخل المقصورة الأمامية أو صالة الأعمدة الكبرى التى تضم ١٨ عمودا (يدخل ضمنها أعمدة الواجهة) مصفوفة فى ثلاثة صفوف كل صف منها يضم ثلاثة أعمدة على كل من جانبى الممر الأوسط . ولم يبق حاليا أى لون ، ولذا فانه رغم سلامتها لن نستطيع أن نرى هذه الصالة مثلما رآها مشيدوها ، وتبدو حاليا سمجة وكئيبة ولكن لابد أن اللون له دخل كبير فى هذا الاختلاف الذى نلاحظه الآن من هذه الوجهة . وأجمل مايميز الصالة تنوع وجمال تيجان الأعمدة . ومما يذكر أننا لانستطيع أن نأخذ فكرة صحيحة عن تناسب هذه

الصاله البديعة باختراقنا لها فى اتجاه المحور الأصلى للمعبد بل يجب علينا أن نراها من نقطة تكون زاوية قائمة على المحور حتى يمكن تقدير الأثر الناشىء من طولها ومن تجمع أعمدتها حتى قدره . وإلى يمين ويسار المدخل مقصورتان صغيرتان ، فالمقصورة إلى اليسار هى «حجرة التكريس» حيث كانت تودع بها الأوانى الذهبية التى كان يظهر بها القائم بالاحتفال - وبخاصة الفرعون عندما كان يقوم بدور الكاهن الأعظم فى الاحتفال السنوى الكبير لحورس وحاتحور .

ويوجد على الجدار الخلفى لهذه المقصورة منظر يمثل حورس وتحوت يطهران الملك بهذه الكيفية . أما المقصورة الواقعة إلى اليمين فكانت مكتبة المعبد «حجرة ملفات البردى الخاصة بحورس (حور آختى)» . وتحت قرص الشمس المجنح بأعلى الباب منظر (مهشم للأسف) يمثل حواس السمع والبصر والذوق والادراك ، كل منها ممثلة بصورة شخص آدمى يتعبد إلى لوحة الكاتب مما يدل على التقدير الزائد الذى كان يحمله المصرى للكلمة المكتوبة . وبين المناظر التقليدية السهلة يجدر بنا أن نهتم هنا بتلك التى تشير إلى بناء المعبد . وهذه المناظر تبدأ غربى «حجرة التكريس» مستمرة على طول الجدار للصالة ، وفيها نرى الملك بصحبة حورس وسعشات يتم اعداد الأرض للمبنى القادم (١٧) ، وتقطع أول كتلة من التربة (١٨) ويطهر الأرض حتى يكون المبنى فوقها طاهرا (١٩) ، ويرفع أول قطعة من الحجر (٢٠) ، ويبخر المعبد بأكمله (٢١) ، ويهدى المبنى الكامل لحورس (٢٢) ، وأخيرا يقدم لحورس الشعار الخاص بتزيينه (٢٣) ، وتمثل هذه المناظر واحة سارة فى قفر الطقوس .

والجدار الخلفى الذى يكون أيضاً واجهة صالة الأعمدة الصغرى يضم أيضاً مجموعة أخرى من مناظر الاحتفالات المتصلة ببناء المعبد ، ففى أحد المناظر (٢٧) نرى الفرعون يرقص أمام حورس فى احتفال وضع الأساس ، أما المناظر الأخرى للصالة فلا تحتاج إلى أى وصف إذ انها جميعا من النوع التقليدى الذى سبق أن شاهده الزائر أكثر من اللازم .

والآن نجتاز الباب الذى يوصل من المقصورة الأمامية إلى صالة الأعمدة الصغرى . وعلى عتب هذا الباب منظر لبطليموس كليوباترا يقدم تمثال ماعت (الهة الحق) إلى مركب الشمس التى يدير دفتها اثنان بشكل حورس ، وعلى جوانب هذا الباب نسخة أخرى من الحواس الأربع التى سبق أن رأيناها فى مكتبة المعبد . ورغم أن صالة الأعمدة الصغرى الموجودة أمامنا الآن ليس لها نفس الوقع الذى لصالة الأعمدة الكبرى التى تركناها توا ، غير أنها بوجه عام أكثر جمالا وتناسبا فى تكوينها المعمارى ، فأعمدتها الاثنا عشر ذات التيجان الغنية بالزخارف الزهرية ليست سمجة مثل مثيلاتها بالصالة الكبرى ، فضلا عن أن تأثيرها العام يوحى بأنها أقل تكدسا مما هو شائع فى صالات الأعمدة المصرية . والمناظر هنا أكثر جودة نوعا ما رغم استمرار الاسلوب البطلمى المعروف بالسماجة والمغالاة . وهذه المناظر

بوجه عام تكرار لما سبق أن شاهدناه رغم أن الجدار الخلفى يحمل مناظر للكاهن الأعلى (الذى يلبس خوذة الحرب الملكية) سائرا بجانب المركب المقدسة لحورس على أحد الجانبين وبجانب مركب حاتحور على الجانب الآخر . وبالصالة أربعة أبواب فى الجانبين الشرقى والغربى ، ففى الجانب الشرقى باب يفضى إلى الدهليز الخارجى أما الباب الآخر فيؤدى إلى سلم يصعد إلى السطح . وفى الجانب الغربى باب يصل إلى حجرة كانت فيما يبدو مخصصة لحفظ الماء المقدس اذ أن مناظرها تمثل الملك بصحبة حابى إله النيل يقدم الماء المقدس لحورس وحاتحور وغيرهما من الآلهة ، وهذه الحجرة توصل أيضاً إلى الدهليز الخارجى ، أما الحجرة الثانية فيبدو من زخارفها المنقوشة على الجدران أنها كانت مخزنا للأدوات المقدسة التى كانت تستعمل فى العبادة .

والآن ندخل إلى القاعة الأمامية الأولى المعروفة فى العصور القديمة باسم «قاعة مذبح القربان» ، ومناظرها من النوع التقليدى المعتاد المناسب لمثل هذه الحجرات ، وليست فى حاجة إلى التطويل ، فهنا كان يقوم المذبح الذى توضع عليه الضحايا اليومية المنتظمة ، ويوصل الباب الشرقى إلى سلم يؤدى إلى السطح ، أما الباب الغربى فيفضى إلى حجرة بابها يوصل إلى السلم الغربى الذى يؤدى إلى السطح . ومن هذه القاعة ندخل إلى القاعة الثانية التى تقع مباشرة أمام الهيكل ، وتعرف هذه القاعة باسم «قاعة راحة الآلهة» ، ويلاحظ على الجدار الأيسر من المدخل منظر يمثل الملك يقيد أربعة من الأسرى أمام حورس وحاتحور (٣٥) وفوق هذا المنظر منظر آخر يمثل حورس الصغير يبزغ من بوص المستنقعات التى ولد فيها كما تقول الأساطير . وهنا نلتقى بمثال تختلط فيه أسطورة حورس سيد إدفو التى تتبع فلك رع مع اسطورة حورس بن إيزيس التى تنتمى لفلك اوزوريس ويفضى الباب الواقع إلى الجانب الشرقى من هذه الحجرة إلى فناء صغير يقع إلى جانبه الشمالى مقصورة يمكن الوصول اليها بواسطة سلم من ست درجات وبها عمودان تتوجهما تيجان زهرية ، على سقفها منظر للإلهة ذفوت وإله الشمس بأشكاله المختلفة فى مراكبها المطابقة . ونرى فى هذه المقصورة الملك والملكة يقدمان للملك بطليموس الثالث والملكة ارسنوى (٣٦) ، كما نرى صورتين لملكين متوفين (ملونين بالأزرق) يتعبدان للملك والملكة (٣٧) . وفوق باب الفناء الصغير منظر للحاتحورات السبع ، الشبيهات الجنيات فى الأساطير المصرية اللواتى يجلبن الحظ السعيد أو السىء عند مولد الأطفال ، وهن يضربن على الدفوف . وعلى الجانب الغربى من القاعة مقصورة الإله « مين » إله الخصب والتناسل والنمو ، وبهذه المناسبة يجدر بنا أن نذكر ان المركز الرئيسى لعبادة مين هو قفط .

ولم يكن يسمح بدخول الهيكل الذى سندخله الآن لغير الكاهن الأعظم أوالملك الذى كانت لديه السلطة ككاهن أعلى لجميع الآلهة . وهذا الهيكل فى حقيقة الأمر - بناء منفصل داخل مبنى المعبد ، وكان يضاء بفتحات صغيرة فى السقف . وفى وسطه مذبح منخفض كانت توضع فوقه المركب المقدسة لحورس عندما كانت لا تستعمل فى

الاحتفالات . وفى الجانب الشمالى يوجد الناووس الرائع السابق ذكره والمصنوع من قطعة واحدة من الجرانيت الرمادى الداكن - ويحمل هذا الناووس اسم الملك نقطانب الأول[1] ، وبذا يكون قد نقل من معبد أقدم إلى موضعه الحالى . وكان فى الأصل مغلقا بأبواب مصنوعة من البرونز كما كان يضم تمثالا للصقر المقدس رمز حورس سيد إدفو . وفى الوقت الحالى نجد أن الجدار الخلفى للهيكل هو النقطة التى تمكننا من استيعاب اجزاء المعبد الضخمة ، كما انه يمكن أن نطل على مشهد فى خط مستقيم خلال جميع الحجرات التى اجتزناها حتى الصروح . ولكن هذا لم يكن ممكنا عندما كان المعبد مستعملا إذ كانت كل حجرة تفصل عن جارتها من كل جانب بأبواب ضخمة مطعمة بالبرونز والذهب وكان الوصول إلى الحجرات المتعاقبة ممنوعا تدريجياً حتى إذا وصلنا إلى النهاية لم يكن يسمح - كما رأينا - لغير الملك والكاهن الأعلى بالدخول إلى الهيكل والمناظر هنا تثير الاهتمام حيث انها تصور الملك يقوم بوظيفة الكاهن الأعلى فيضع قفل ناووس حورس ، ويفتح باب الناووس ، ويظهر أمام الآله ، ويقدم البخور لوالديه بطليموس افرجيت الأول وبرنيس يقدم البخور امام المركب المقدسة لحاتحور .

والهيكل محاط من جوانب ثلاثة بدهليز يفتح منه عشر حجرات ، فاذا اتجهنا إلى اليمين (الجانب الشرقى) وراء المقصورة التى سبق الإشارة اليها ندخل حجرة الأجنحة المنشورة وعليها نرى مناظر تمثل الآلهة التى دافعت عن اوزوريس ، والحجرة التالية هى حجرة عرش الشمس حيث نرى إله الشمس (الممثل برأس صقر) مع آلهة أخرى ، وهنا نجد بعض الألوان الأصلية فى حالة جيدة من الحفظ . أما الحجرة الثالثة فهى حجرة خونسو إله القمر الممثل برأس صقر وفيها نراه بصحبة آلهة اخرى . هذا وقد كرست ثلاث حجرات من الحجرات الواقعة بالجانب الغربى خصيصا لأزوريس وعبادته ، أما الحجرة الأخيرة بالجانب الغربى فهى حجرة عرش الآلهة ولا تزال تحتفظ بألوانها .

والآن نعود إما إلى صالة الأعمدة الصغرى أوإلى القاعة الأمامية الأولى ونصعد السلم الشرقى الذى يوصل إلى السطح . ودرجات السلم مريحة فى صعودها ، وأثناء الصعود نلتقى كما هى الحال فى معبد دندرة بمناظر تمثل الموكب الكبير الذى تحمل فيه التماثيل المقدسة لحورس وحاتحور حول المعبد بأكمله وفوق السطح ليتمكنا من رؤية كل أملاكهما . ولا نستطيع تماما تتبع كل طريقهما بسبب تهدم السقف ولكن بعد اجتياز السطح كان المعبودان يهبطان السلم الواقع على الجانب الغربى من المبنى ليعودا إلى محرابيهما . وفى أثناء النزول نلتقى مرة ثانية بمناظر الموكب الهابط .

---

(١) يرمز لهذا الملك باسم نقطانب الثانى آخر ملوك الفراعنة وقد عقب حكمه استيلاء الفرس للبلاد لفترة قصيرة ثم فتحها بواسطة الإسكندر الأكبر الذى تبعه حكم البطالمة .

ومن بين المعالم المميزة لمعبد إدفو ذلك السور الضخم المحيط بكل الجانب الخلفى للمعبد وكذا الدهليز الواقع بين هذا السور وجدران المعبد الاصلى . والسور نفسه مزين بمناظر متقنة ، ومناظر الجانب الشرقى من طراز الشعائر الدينية المعتادة التى تبعث الملل ، أما مناظر الجانب الغربى فهى أكثر إثارة نوعا ما حيث أنها فى معظمها تحوى مناظر تصور حورس يذبح أعداء رع الممثلين على شكل تماسيح أو افراس النهر . ومما يجدر ملاحظته منظر فى أعلى الجدار الغربى فى الطرف الشمالى (٤٩) يمثل الملك يجر زلاقة تحمل مركب حورس المقدس . وعلى الصف الأسفل مناظر متتالية تمثل حورس بصحبة الملك فى بعض الأحيان ويطعن بالرمح فرس النهر ، وهنا منظر يجدر ملاحظته بصفة خاصة وهو يقع على مسافة إلى الجنوب من منظر الملك وهو يجر الزلاقة وهذا المنظر (٥٠) يمثل مركبا له شراع منتفخ وفيه نرى ايزيس راكعة عند المقدمة تمسك فرس نهر بحبل ، بينما يغمد حورس ، وهو فى مؤخرة المركب رمحه فى الحيوان التعس الذى يدير رأسه غاضبا ومن الشاطىء يصوب الملك رمحه إلى رقبة الحيوان . والمنظر الذى لابد انه كان فى الأصل يستحق بعض الاهتمام قد ناله الكثير من التهشيم . وهناك منظر آخر (٥٢) يمثل حورس واقفا على فرس نهر مقيد ومصوباً إليه رمحه . وبالقرب من النقطة التى يضيق عندها الدهليز بسبب بروز صالة الاعمدة الكبرى منظر غريب (٥٣) يمثل ثلاثة أشخاص أولهم يقتل فرس نهر بسكين ، والثانى وهو امحتب المهندس المشهور والحكيم يقرأ ملفا ، والثالث وهو الملك يسمن أوزة تسمينا صناعيا بقصد تضحيتها . وعلينا أن نلقى نظرة على مزاريب المبنى الرئيسى بشكل رأس أسد .

وعلى الجدران الخارجية كثير من المناظر من الطراز المعتاد الذى لا يستحق اهتماما خاصا . وبالقرب من الزاوية الجنوبية الغربية للمعبد نرى أطلال بيت الولادة كما هو الحال فى دندرة . وقد بناه بطليموس السابع افرجيت الثانى وبطليموس الثامن سوتر الثانى وهو يضم هيكلا محاطا بصف من الأعمدة ذات تيجان منحوتة على شكل اوراق الشجر مكعبات مزينة بالتماثيل الغريبة للاله بس . ويحيط بالفناء الأمامى أعمدة يصل بينها جدران ساترة من الحجر .

ولما كان الهدف الكلى من بيت الولادة هو تمجيد للأمومة ومظاهر المحبة الخاصة بها فقد صورت المناظر كلها لتساير هذا الغرض ، إذ نرى الطفل حورس يرضع من الالهة حاتحور كما ترى الحاتحورات السبع يتولين تربيته . وعلى أعمدة صف الأعمدة والفناء الأمامى حاتحور تعزف على الدف وتعزف على القيتار وترضع حورس .

وخارج المعبد من الجهة الشرقية للدهليز سلم سفلى يفضى إلى مقياس للنيل وهو عبارة عن بئر مستدير له سلم حلزونى يلتف حوله وكان لهذا البئر بالطبع اتصال جوفى بالنيل ، ولكن هذا الاتصال قد قطع حاليا .

أما أطلال مدينة إدفو القديمة فتقع شرقى وجنوبى وغربى المعبد الكبير وهى ذات امتداد كبير . وقد كانت الأكوام التى تغطى الموقع مرتفعة ارتفاعا كبيرا ولكنها خربت نتيجة لأعمال السباخين الذين يقوضون التلال بحثاً عن الخواص للتربة الموجودة بها . ومن المفروض أن تنظيم عملية مشال السباخ من اختصاص الحكومة ، ولكن الكثير من الأشياء تضيع عاما بعد عام ، وعدد كبير من القطع الأثرية التى عثر عليها الحفارون تفقد اذ تتناولها ايدى العملاء وفى النهاية تشتت عبثاً بين المجموعات الخاصة حيث تهمل وتلقى كالنفايات أو تشتت ثانية عن طريق البيع بالمزاد لتلقى نفس المصير المظلم . ويمكن رؤ ية بقايا السور المبنى باللبن فى الجانبين الجنوبى الشرقى والجنوبى الغربى . هذا وقد قام معهد دراسة البردى بجامعة ليل حديثا بالحفر فى جزء من المدينة القديمة [1] .

وإلى الغرب من إدفو ، وعلى مسافة مائة ياردة تقريبا من حافة الأرض المنزرعة ، تقع تلال منخفضة تتاخم الصحراء حيث نحتت فيها المقابر الصخرية التى كان يدفن فيها سكان المدينة الأثرياء فى الأزمان القديمة . وفى الطريق إلى هذه المقابر نمر بالدير القبطى لمارجرجس ، ومع ان هذا المكان له جماله غير انه يخرج عن نطاق موضوعنا ، كما ان المقابر التى تقع خلفه ليست بذات أهمية كبيرة فكل منها تحوى حجرة أو حجرتين صغيرتين تفتح على جانب التل - رغم أن بعضها أكثر اتقانا وتضم فناء صغيرا أمامها أو سلما يهبط اليها . وليس من بين هذه المقابر مقبرة مزخرفة أو منقوشة مما يدعو إلى الغرابة بعض الشىء نظرا لأهمية وثراء سكان المدينة . وعلى ذلك فهى لا تستحق الزيارة .

---

(١) قامت هذه البعثة ـ كما قامت بعثة فرنسية بولندية بالحفر فى انقاض المدينة وعثرت على مقابر ذات أهمية من عصر الدولة القديمة وأهمها مقبرة حاكم من حكام مقاطعة إدفو يدعى ايسى اله فيما بعد ونقشت اللوحات من عصر الدولة القديمة والمتوسطة تكريما له أنظر : M. Allot ; Un Nouvel epemple du viziev divriise dans L ; Egypte ancienne BIFAO ; 37 ; 1937 ; pp . 93 ff .

الفصل الحادى والثلاثون
ادفو إلى السلسلة

لاتتميز مسافة الستة والعشرين ميلا بين ادفو ومحاجر جبل السلسلة المشهورة بأية آثار بارزة إلاللذين يرغبون عن طيب خاطر فى الخروج بعض الشىء عن طريقهم ليمضوا بعض الوقت ويتحملوا قليلا من المشقة . ولمثل هؤلاء يوجد مكانان على جانب من الأهمية ، أحدهما على الضفة الغربية للنيل ، والآخر على الضفة الشرقية منه أو بالحرى على بعد سبعة وثلاثين ميلا إلى الشرق من النهر . وهذان المكانان هما شط الرجال على مسافة أربعة أميال تقريبا شمالى السلسلة حيث ترى الرسوم المنحوتة والنقوش ، ومعبد سيتى الأول الذى يطلق عليه عادة معبد الرديسية ، ولكنه يقع فعلاً فى وادى عباد وسنتناول هذين المكانين فى حينه . وفى الوقت نفسه يجدر بنا أن نشير إلى الآثار قليلة الأهمية على الضفة الغربية للنيل فى طريقنا إلى الجنوب .

على مسافة أربعة أميال تقريبا جنوبى ادفو هرم صغير مبنى بالحجر وفى الصحراء جنوبى غربى المدينة ، ويبلغ مسطحه بضعة أقدام مربعة ، وبينما يوحى منظره الحالى بأنه كان فى الأصل مدرجا غير أنه من المحتمل أن ما نراه الآن ليس إلا جسم هرم جرد منه كساؤه الخارجى . ولما كنا لا نعرف شيئا على الاطلاق عن بانيه ، وعما إذا كان ملكا أو مجرد حاكم محلى ، فإنه من العبث أن نصل إلى بعض التخمينات عن أصله وعلى مسافة أميال قليلة إلى الجنوب جبانة من عصر متأخر (الحصايه) نحتت مقابرها فى الصخر الرملى ، وقد زخرف القليل منها بنقوش هيروغليفية رديئة الحفر . وتنسب هذه المقابر إلى أسرة ذات مكانة كان رؤساؤها يحملون لقب أمير ادفو وادعوا أيضا لقب أمير طيبة وهذا أمر آخر ، فرداءة

مقابرهم لا توحى بتصديق اللقب الثانى الذى ليس إلا مجرد ادعاء بعيد عن الحقيقة [1] . ويرجع تاريخ هذه المقابر إلى الفترة الواقعة بين الأسرتين السادسة والعشرين والثلاثين أى فى الوقت الذى كانت فيه الادعاءات أمرا ميسورا حيث لم يكن هناك من يفند ادعاءاتهم . وعلى أى حال فإن هذه المقابر لا تستحق الزيارة .

وإذا اتجهنا جنوبا نمر جنوبا بمجموعات أخرى متعددة من المقابر ، ولكن ليس من بينها ما يثير الاهتمام . هذا ونرى فى قرية الحوش عددا من المحاجر الكبيرة ، وقد سمى المكان باسم الحوش أى الفناء بسبب تشابه منظر مساحة هذه المحاجر بالحوش . وعلى هذه المحاجر نجد عددا من النقوش القديمة من بينها نقش من الدولة الوسطى يحتمل أنه من عصر سنوسرت الأول ، كما توجد نقوش يونانية عدة إحداها من السنة الحادية عشرة من عصر إنطونينوس بيوس عندما كانت أعمال التحجير جارية هنا لإقامة معبد لابوللو الذى يحتمل أنه كان حورس سيد ادفو .

والآن نصل إلى شط الرجال أو شط « السبع رجال » الذى سبق الاشارة إلى نقوشه . وهنا نجد ممرا ضيقا يتجه غربا بين تلال من الحجر الرملى القاتم اللون . وعند مدخل الممر على الجانب الأيسر منظر كبير منحوت على الصخر يضم أربعة أشخاص أحدهم كبير الحجم لمنتوحتب الثالث (نب ـ حت ـ رع) من ملوك الأسرة الحادية عشرة ، يلبس التاج المزدوج ، وخلفه صورة أصغر لوالدته ايعح (القمر) ، وصورة ملكية أقل حجما لابن الشمس انتف « الذى يرى اسمه مكتوبا داخل خرطوش ملكى غير أنه لا يلبس تاجا ولا يحمل لقبا ملكيا وخلفه يقف رئيس الحجاب خيتى أو اختاى ممثلا فى حجم « انتف » ، وربما يكون تفسير وجود هذه المجموعة من الأسرتين الملكيتين اللتين كانت احداهما ولا شك أعظم من الأخرى - يرجع إلى أن فرع انتف من الأسرة الحادية عشرة كان قريباً لفرع منتوحتب ، ويظهر أن عائلة منتوحتب قد حلت محل ابناء عمومتها الذين قنعوا بمراكز ثانوية مع احتفاظهم باللقب الملكى « ابن الشمس » إلى جانب أسمائهم . ومما يزيد هذا الرأى جملة على شاهد فى الجبلين لموظف من عهد هذه الأسرة يدعى « آتى » اذ ينوه « آتى » عن فترة جدب بقوله «لازمت سيدى العظيم ، كما لازمت سيدى الأصغر ، ولم يفقد شىء فى ذلك » وفى هذا القول تلميح إلى نوع من ملكية كما يوحى بذلك منظر شط الرمال وإلى مسافة غير بعيدة جنوب الممر نرى خيتى رئيس الحجاب أيضا ، يقدم فروض الطاعة لمنتوحتب ، وفى هذه المرة لانجد انتف معه ، ومن المحتمل أن سلطة انتف المحلية كانت

---

(١) الواقع أن أحد أعضاء هذه العائلة كان يدعى Pathenfy وكان عمدة لإدفو ولطيبة وقد وجدت مقبرته فى جبانة طيبة (رقم ١٢٨) وقد نشر نصوصها .

W . Schembel — Die Graber des p 3 tnf ..... in MDAIK ; 31 ; 1975 ; pp . 127 ff .

متركزة فى الجنوب ، وأن منظر شط الرجال يمثل خضوعه لسيده الأعلى بمناسبة زيارة قام بها الأخير لمنطقة نفوذ نائب الملك . ولا توجد آثار أخرى تسترعى الانتباه على هذه الضفة بعد السلسلة[1] .

والآن نعود إلى الضفة الشرقية للنهر لزيارة معبد الرديسية أو وادى عباد ويعرف هذا المعبد عادة باسم الرديسية ، لا لأن له صلة بالقرية المسماة بهذا الاسم والتى تقع على مسافة خمسة أميال جنوبى ادفو بل لأن الرديسية كانت النقطة التى بدأ منها ليسيوس الأثرى الألمانى المشهور رحلته إلى المعبد . وفى الواقع فإنه من اليسير جدا زيارة المعبد من ادفو رغم أن الطريق من مناجم الذهب ينتهى فعلا عند الكاب كما سبق ذكره .

ونادرا ما يزار المعبد حتى أن الأثريين أنفسهم لا يزورونه إلا قليلا ، نظرا لطول المسافة التى يستغرق قطعها على ظهور الجمال مدة سبع ساعات من ادفو فضلا عن أن أطلال المعبد الفعلية الموجودة بالموقع ليست من الدرجة الأولى من الأهمية . ولكن الرحلة نفسها ممتعة بمناظرها الجذابة والمشوقة للمسافر الذى لديه الوقت لزيارة المعبد بصرف النظر عما سيجده فى نهاية المطاف من معبد صغير من عهد الأسرة التاسعة عشرة . ويضم المعبد قاعة مستطيلة الشكل منحوتة فى صخر من الحجر الرملى الذى يقع فيه المبنى بأكمله مستندا على واجهة الجبل ، بالاضافة إلى صالة أمامية مبنية أمامه . وسقف الصالة مقام على أربعة عمد مستديرة على شكل البرعم ، كما أن سقف القاعة المنحوتة فى الصخر مقام على أربعة أعمدة مربعة الشكل ، وبالجدار الخلفى لهذه القاعة ثلاث كوات لتماثيل الآلهة .

وقد كانت الواجهة فى الاصل غير مزينة ، ولكن أضيف بعد ذلك رسم الصقر فى الطرف الشرقى منها . والى المدخل يرى سيتى الأول يضرب أعداءه بدبوسه ، بينما يقف أمون رع فى مواجهته يمسك بإحدى يديه حبلا يتصل بأسماء ثمانية بلدان خاضعة لمصر . وعلى الجدار الخلفى للصالة الأمامية يرى الملك يقدم للآله حور آختى (على اليسار) وللآله امون رع (على اليمين) . وعلى كل من جانبى البوابة التى تفضى إلى القاعة الداخلية تجويف عليه صورة كبيرة بالحفر البارز (مهشمة) تمثل سيتى على هيئة أوزوريس . أما السقف فمزين برسوم لأحد العقبان المجنحة وخراطيش الملك وألقابه والنجوم الملونة باللون الأصفر على أرضية زرقاء . ولا يزال اللون محتفظا برونقه . واذا دخلنا القاعة الداخلية المنحوتة فى الصخر نرى إلى يسار الباب نقشا طويلا يتضمن مديحا للملك من جنوده

---

(١) الغالب أن أنتف كان يمثل والد منتوحتب الكبير الذى استطاع أن يوحد مصر كلها تحت حكمه بعد فترة الاضمحلال الأولى أنظر : L . Habachi ; 'King Nebhetepre Mentnuhotp .... in MDAIK ; 19 ; 1963 ; p . 47f .

وصلواتهم الى آمون نيابة عنه لاهتمامه بحفر البئر وإقامة المعبد « إنهم يقولون فيما بينهم : يا آمون ، امنحه الخلود ، وضاعف فى أبديته أيتها الآلهة الساكنة فى البئر امنحيه دوامك لأنه هو الذى فتح لنا الطريق لنسير عندما سد أمامنا . لقد تقدمنا وكتب لنا النجاة ، ووصلنا وبقينا أحياء . لقد أصبح الطريق الوعر الذى فى ذاكرتنا طريقا جميلا » وعلى يمين جدار المدخل نقش آخر أوصى فيه سيتى الملوك الذين خلفوه المحافظة على هذا المعبد ، ويباركهم اذا قاموا بذلك ، بينما يستنزل اللعنات على جميع الموظفين الذين يهملون وصيته أو يحولون هباته الى أغراض أخرى « كل من حول وجهه عن أوامر أوزوريس فسوف يلاحقه اوزوريس ، وسوف تلاحق ايزيس زوجته ، وسوف يلاحق حورس أولاده ، بين جميع أمراء الجبانة وسوف ينفذون حكمهم عليه » .

وعلى يسار جدار المدخل يوجد النقش الثالث ، وهو أهمها ، وفيه يذكر سيتى أن حفر البئر وإقامة المعبد كان ثمرة معاينة شخصية للمكان مما جعله يتفهم صعوباته . «فى هذا اليوم بينما كان جلالته يتفقد المنطقة الجبلية التى تمتد الى أقصى منطقة الجبال ، هداه قلبه الى رؤية مناجم الاكزوم ، وعندما غادرالمنطقة التى توجد بها آبار توقف فى الطريق ليستشير قلبه وقال : « ما أسوأ الطريق بدون ماء ! فهو كالمسافر الذى جف فمه . كيف ترطب حلوقهم ، وكيف يطفأ عطشهم ، فالأرض الواطئة بعيدة والأرض المرتفعة فسيحة بحيث يصرخ الظمآن محدثا نفسه ، « هذه هى أرض الهلاك » فلنسرع ! ودعنى اطلب المشورة لسد احتياجاتهم ، وسوف أزودهم بما يحفظ لهم الحياة حتى يمتدحونى أمام الإله فى السنين القادمة . . « وقد استجاب الإله لطلبه الذى تمناه ، فقام العمال بحفر البئر فى الصخر أعلى الجبال ، وبذا يستطيع المسافر أن يتلافى الاعياء ويطفىء القلب المحترق فى الصيف . وبعدئذ أقيم المعبد فى هذا المكان تخليداً لاسم من ـ ماعت ـ رع (سيتى الأول) العظيم ، وتدفق الماء فيه بغزارة ، كما يتدفق الماء من كهفى الفئتين ، وفى هذا إشارة الى منبعى النيل الوهميين عند الفئتين . وقد ذكر برستد أن « كروفى وموفى » وهما الاسمان اللذان أطلقهما هيرودوت على الجبلين اللذين يتفجر من بينهما منبعا النيل كما تقول الأساطير ـ اشتقا من الكلمتين تفت وكرتى اللتين أطلقهما سيتى على المنبعين . ومن الواضح أن سيتى قد عرف تماما أنه قام بعمل طيب عندما جعل الطريق أكثر سهولة بالنسبة لعمال المناجم والجند الذين يحرسونهم ولم يكن لديه أى مانع من أن يدعى لنفسه هذا الفضل الذى يستحقه .

ومع ذلك فإن هذا النص رائع جدا فهو يعتبر من رجل طيب قدر متاعب عماله فبذل أقصى جهد لتخفيفها . وفضلا على ذلك فإنه يتفق مع كل ما نعرفه من المصادر الأخرى عن سيرة هذا الفرعون الحكيم الطيب . (انظر : برستد ، النصوص القديمة ـ الجزء الثالث ، فقرات ١٦٢ ـ ١٩٨) .

وعلى الجدار الشرقى توجد ثلاث مجموعات للملك يقدم التقاديم ، أولها للآله مين ـ امون ومعه ايزيس ، وثانيها لحورس سيد ادفو ، وثالثها لآمون رع . وعلى الجدار الغربى يقدم لامون رع وحو أختى وبتاح وسخمت واوزوريس الادفوى وايزيس وفى هذين الجدارين بالقرب من اطرافهما البعيدة كوات خالية وغير مزينة وبالجدار الخلفى ثلاث كوات لتماثيل الآلهة ، وتضم المشكاة الواقعة الى اليمين ثلاثة تماثيل مهشمة منحوتة فى الصخر ، ويبدو أنها كانت تمثل حورس وايزيس وربما الملك لتؤلف الثالوث ، والمشكاة المتوسطة بها ثلاث درجات تؤدى اليها ، وهى كذلك تضم ثلاثة تماثيل مهشمة تمثل حور آختى وامون رع وسيتى الأول . أما المشكاة الواقعة الى اليسار فتضم تماثيل بتاح واوزوريس وربما سخمت . وسقف هذه القاعة مزخرف ، مثل سقف الصالة الأمامية ، بالعقبان والخراطيش والنجوم . وقد شوهت الجدران بكتابات لا معنى لها من زوار من كل نوع كان يجمل بهم الا يستخدموا ما لأسمائهم من وزن فى التشويه العابث .

وتحمل الصخرة الكبيرة التى يحتمى فيها المعبد رسوما للمراكب والحيوانات من العصر العتيق ، ونرى فى حالة واحدة رسما للآله مين بشكله المعتاد واقفا أمام مقصورة مقامة فوق مركب . ومن الواضح أنه ينظر لمنطقة مثل هذه على انها تحت الرعاية الخاصة لمين سيد الصحراء الشرقية وعلى صخرة شرقى المعبد نقش غريب من العصر اليونانى يشير الى صيد أحد الفيلة ، وهذا النقش موضح برسم نادر لفيل فى حالة تأمل عميق . وفى منتصف الطريق بين ادفو والسلسلة تقع الاطلال الكبيرة لقلعة « بويب » البيزنطية .

الفصل الثانى والثلاثون
جبل السلسلة : محاجره وآثاره

فى منطقة السلسلة التى تقع على مسافة ٤١ ميلاً شمالى أسوان توجد آثار كثيرة ، إن لم تكن دائماً من الدرجة الأولى من الأهمية ، غير أنها تثير من الاهتمام ما يجعلها جديرة بالزيارة ، وخاصة للذين يرغبون فى معرفة تلك القدرة العجيبة التى عالج بها المصريون القدماء الحجر ، إذ أنهم سيرون بالتأكيد المحاجر الكبيرة فى هذا الموقع حيث تتمثل فيه - دون أى مكان آخر فى مصر تقريباً - قوة وبراعة التحجير المصرى رغم أعمال التحجير التى أجريت فى المحاجر القديمة منذ بداية هذا القرن .

ويمكن الوصول إلى السلسلة بسهولة بالقطار المبكر الذى يبرح أسوان إلى محطة الكاجوج ، ومنها يمكن العودة بقطار يغادرها بعد الظهيرة مباشرة . ولما كانت هذه الطريقة لا تتيح للزائر وقتاً متسعاً لتفقد الآثار على ضفتى النهر ، فإنه من المستحسن أن يجهز مقدماً الركائب والركب حتى لا يضيع وقته . ويمكن أيضا القيام بهذه الزيارة مع زيارة معبد كوم أمبو (أنظر بيديكر ص ٣٥٩) .

وفى جبل السلسلة تختلف طينة الأراضى المحيطة بالنيل لمسافة معينة إذ نجد أن الحجر الجيرى الذى يكون طبيعة المنطقة شمالاً يعترضه هنا فاصل من الحجر الرملى ، وتقترب تلال الحجر الرملى التى تحف وادى النيل قرب إسنا من حافة النهر لمسافة ميل تقريباً على كلا الضفتين . ويستمر الحجر الرملى إلى قرب أسوان حيث تعترضه صخور بلورية متداخلة ثم يظهر ثانية بالقرب من كلابشه جنوبى أسوان حتى وادى حلفا . ولقد كان المضيق الصخرى المكون من الحجر الرملى عند السلسلة هو أصلح مكان استغله المهندسون المصريون فى قطع الأحجار التى كانت تستخدم على نطاق واسع فى أعمالهم الإنشائية منذ الأسرة الثامنة عشرة فصاعداً . ويجدر بنا أن نذكر أن استعمال هذا الحجر كان قطعاً صفة مميزة لمبانى الدولة

الحديثة ، فقبل بداية الأسرة الثامنة عشرة كان استعمال الحجر الجيرى هو الشائع غالباً . رغم أن فراعنة الأسرة الحادية عشرة استعملوا الحجر الرملى فى حدود ضيقة مثال ذلك أساسات وأرضيات وأعمدة معبد الأسرة الحادية عشرة بالدير البحرى . ولكن بقيام الأسرة الثامنة عشرة حل الحجر الرملى مكان الحجر الجيرى تقريباً ، وبخاصة فى مصر العليا حيث نجد أن جميع معابدها من هذه المادة ، فمعابد الأقصر والكرنك والقرنة والرمسيوم ومدينة هابو ودير المدينة ودندرة وإسنا وإدفو وكوم أمبو وفيلة والنوبة من الحجر الرملى رغم استعمال الحجر الجيرى أيضا فى بعض الحالات بكميات قليلة . وبهذا التغيير فى الاستعمال قامت فوراً شهرة الصخور الرمليه بالسلسلة ، ومنذ أيام الأسرة الثامنة عشرة فصاعدا أصبح المضيق من أكثر المواقع نشاطاً فى مصر ، كما كانت طرة فى أيام الدولة القديمة .

وهناك رواية تعلل الاسم الذى يطلق حالياً على هذا الموقع وهو جبل السلسلة . وهذه الرواية تذكر أن النيل كان مغلقاً أمام حركة المرور النهرى من الجنوب عند هذه النقطة بسلسلة كبيرة تمتد عبر النهر . وتشير الرواية إلى كتلتين من الصخر لهما شكل غريب كانتا بمثابة قائمين تصل بينهما السلسلة فى الأزمنة القديمة ، وهذا مثال من الاشتقاق المعروف ، وهو ليس سوى مجرد اختلاق استنبط ليلائم الاسم الذى نحن بصدده ، إذ ليس هناك أى دليل على وجود مثل هذا الحاجز فى السلسلة كما تذكر الرواية . والاسم المصرى القديم للمكان هو « خنتوى » ويظن أن إسم السلسلة الحالى هو اشتقاق مشوش من هذا الاسم . وقد أطلق عليه المصريون فى العصر القبطى اسم « خول ـ خول » الذى يعنى حاجزاً أو جداراً حجرياً وهو اسم يتناسب مع الصخور الرملية بجبل السلسلة .

وتبدأ الآثار التى سنزورها بالمحاجر التى استعملت على نطاق واسع فى عصر الدولة الحديثة ، ولكن يجب ألا نتصور أن المقاصير والمحاريب والنقوش ليست إلا مجرد مخلفات عرضية للأعمال التى كانت تجرى هنا ، فكثير منها ليس لها أدنى اتصال بأعمال التحجير ولكنها تشهد بلون من التقديس للنهر العظيم والآلهة المرتبطة به الذى كان منتشراً على نطاق واسع جداً فى ذلك الوقت وفى تلك المنطقة . فقد كان حابى إله النيل مقدساً فى كل مكان فى مصر[1] ، وكان ينظر إلى كل مكان يجرى فيه النهر نظرة تقديس ، وتبعاً لذلك كانت توجد المقاصير أو النقوش التى تعبر عن الاحترام للمقدسات حيثما توجد صخور بالقرب من حافة النهر تصلح لمثل هذه الأغراض ، ونشاهد هذه الهياكل على ضفتى النيل من وقت لآخر على طول المسافة بين سبيوس أرتميدوس وأبو سمبل الذى يعتبر أكبرها وأكثر دقة . ومنطقة جبل

---

(١) وعلى الأخص فى الأماكن التى يشتد فيها التيار كمناطق الشلالات – وعند مصر القديمة التى كانت تدعى برحابى أومكان حابى حيث كان يبدأ النيل فى الانفصال فى فروعه المختلف التى تغذى الدلتا

السلسلة تغرى من هذه الوجهة ، وقد أتاحت صخورها الرملية كما أتاح تدفق الحجارين إليها الفرصة لاستغلالها استغلالاً كاملاً فى نحت الرموز الدينية والمقاصير ، وقد ترك ستة من ملوك الأسرة التاسعة عشرة وأربعة من الأسرة الثامنة عشرة واثنان من الأسرة العشرين عدا الكثير من الشخصيات الأقل أهمية - تذكاراتهم هنا .

وكان للآلهة التى تقدس هنا ـ كما هو متوقع ـ ارتباط ظاهر بالنهر العظيم ، وربما كان سوبك الإله التمساح أبرزها ، وكان يشاركه فى الشهرة حابى إله النيل ، وكثيراً ما كان يذكر حور - أور (حورس الكبير) وسوبك إلها كوم أمبو ، كما كانت تاورت الآلهة الممثلة على شكل فرس النهر معروفة أيضا كما يتوقع الإنسان . وبالاضافة إلى هذه الآلهة نجد أيضا ثالوث الشلال المكون من خنوم إله الفنتين والآلهتين ساتت وعنقت إلهتى الفنتين وسهيل . ويبدو أن المكان قد فقد بعض القداسة التى كانت له سابقاً بعد الأسرة العشرين إذ توقف عمل المقاصير والشواهد المنحوتة والنقوش على امتداد الصخور . ويرى وايجول أن فقد هذا المكان لقدسيته كان نتيجة طبيعية لتزايد النشاط فى هذا المكان الذى أصبح مركزاً عظيماً حيث غطت أعمال التحجير التى كانت تجرى على نطاق واسع على الشعور الدينى الذى كان لها فى الأيام السابقة . ومن المرجح أن التحجير قد بدأ لأن أحجار السلسلة الرملية كانت قبل ذلك مقدسة كما كانت مربحة . ومن المناسب أن يستخدم الحجر المقدس فى إقامة الأماكن المقدسة «على أنه لم يمض وقت طويل حتى أصبح موقع السلسلة المناسب سبباً فى إعتبار قدسيتها خيالا لا ينظر إليه حتى الوقت الحاضر !![1] .

وقد استمر التحجير فى السلسلة دون انقطاع منذ أيام الأسرة الثامنة عشرة حتى الأيام الأخيرة عندما كان الأباطرة الرومان يحاولون التوفيق بين أذواقهم وبين الأساليب المصرية فى العمارة . وقد توقف بناء المعابد الرومانية المصرية حوالى سنة ٢٠٠ ميلادية ، ومنذ ذلك التاريخ استراحت السلسلة من ذوى أدوات الحجارين حتى عام ١٩٠٦ عندما استأنفت المحاجر القديمة نشاطها ثانية بعد مرور فترة من الزمن تزيد عن سبعة عشر قرناً ـ للحصول على الحجر اللازم لقناطر إسنا التى مررنا بها . وقد ثبت أن مشكلة التوفيق بين الاحترام للمقدسات القديمة وبين المصالح الحديثة هنا ، كما فى فيلة ، ليست مشكلة هينة ، ولكنها حلت بطريقة روعى فيها الاحتفاظ بتراث الماضى ، وقد حدثت أضرار لم يمكن تداركها غير أن هذه الأضرار كانت فى نطاق ضيق إلى أقصى حد وإن النقش الحديث الذى اختتمت به السلسلة الطويلة من التذكارات القديمة بالسلسلة ، والذى يشيد بآخر وليس قطعاً أقل

---

(١) المقصود مايحدث من تخريب فى آثارها وما خلفته آثار التحجير القديمة من براهين رائعة على اتقان المصريين القدماء للتحجير دون إتلاف الكثير - لقد سهل موقع السلسة قيام الكثير من التحجير حاليا مما أتلف الكثير من آثارها .

مشروعات التحجير فى الموقع لا يعتبر عملاً من الأعمال المرذولة التى يقوم بها المحدثون مراراً فى تدنيس أمجاد الماضى فى مصر .

وبخلاف المحاجر نفسها ، نجد أن أهم الآثار تقع على الضفة الغربية للنيل ، ويمكن الوصول إليها بمعدية ترسو عند مرسى البواخر ، ومنه تتجه شمالاً لتصل إلى الطرف الواطىء من المضيق . وإذا تغاضينا عن الطرف الشمالى الأقصى من سلسلة الجبال الغربية حيث لا توجد غير بعض محاجر صغيرة وقليل من النقوش الصخرية غير الهامة ، نصل إلى المقصورة الرئيسية فى المنطقة ، ونعنى بها المقصورة المنحوتة فى الصخر (سيبوس) التى نقرها حور محب (نهاية الأسرة الثامنة عشرة أو بداية الأسرة التاسعة عشرة) وزينها بالمناظر هو وخلفاؤه . وتتكون المقصورة من صالة عرضية منحوتة فى واجهة الصخر ، ويوصل إليها خمسة أبواب يفصل كلاً منها عن الآخر أعمدة مربعة مقطوعة فى الصخر الطبيعى ، ولا يتاح الوصول إليها حالياً إلا عن طريق الباب الأوسط ، وخلف الصالة العرضية يقع الهيكل الذى يزين جداره الخلفى مجموعة من سبعة آلهة . وعلى ذلك لا يختلف تخطيط المقصورة عن تخطيط بعض مقاصير طيبة .

وعتب الباب الأوسط الذى ندخل منه يحمل القرص المجنح وخراطيش حور محب . وإذا إتجهنا إلى اليسار عندما ندخل نرى على الجدار القصير (الجنوبى) منظرا لابد أنه كان فى الأصل بديعا للملك الذى يقف خلفه أمون رع ، ومنظرا آخر مهشما لسوبك يرضع الآلهة تاورت الممثلة هنا بشكل امرأة وليست كفرس النهر . ويقف خلف تاورت الإله خنوم وصورته مهشمة ايضا . وعلى طول الجدار الغربى وهو الجدار الخلفى للصالة العرضية توجد مجموعة من المناظر يجدر بنا أن نتتبعها ، فأولا نرى عند زاوية الجدار حور محب ممسكا ببلطة الحرب أمام أمون رع ، ثم نراه جالسا فى محفته التى يحملها إثنا عشر جنديا يضعون الريش فوق رءوسهم ، وبينما يحرك اثنان من حاملى المراوح العاديين مراوحهما الكبيرة قرب رأس الملك ، نرى رئيس حملة المراوح وهو « حامل المروحة على يمين الملك » يسير بجانب جلالته يحمل المروحة الصغيرة المصنوعة من الريش التى ترمز إلى مركزه المميز . أما الجنود فيضعون فوق رءوسهم الريشة الواحدة المنتصبة التى تميز الليبيين ويلبسون المئزر الهادى المصنوع من الجلد . ويتقدم المحفة كاهن يحرق البخور بينما ترى ثلاثة صفوف من الجنود يسحبون أسرى نوبيين ونافخ فى البوق . ونلتقى بعد منظر لموظف اسمه خاعى ، فى وضع مواجهة من عصر رمسيس الثانى ـ بصورة الملك سيبتاح (من الأسرة العشرين)[1] ، الذى سبق أن رأينا مقبرته فى بيان الملوك ، يقدم الزهور لآمون رع . ونرى الملك مصطحبا حامل اختمامه

---

(١) الملك سيبتاح يعتبر اخر ملوك الأسرة التاسعة عشرة .

« باى » ، وهو كما رأينا . أحد الأفراد القلائل من غير الأسرة المالكة ممن دفنوا ببيبان الملوك . وتحت هذا المنظر منظر مهشم لحور محب فى عربته الحربية يصوب سهامه نحو أحد أعدائه . وهذا المنظر مع المنظر الآخر الذى سبق وصفه هما الممثلان الوحيدان لعمل حور محب فى هذه المقصورة . وبعد ذلك نرى شاهداً يرجع تاريخه إلى السنة الثانية من حكم منفتاح من ملوك الأسرة التاسعة عشرة . وعلى هذا الشاهد منظر يمثل هذا الفرعون ـ مصطحبا زوجته أيست نفرت ووزيره بانحسى ــ يقدم تمثال ما عت لأمون . ويلى ذلك صورة منحوتة نحتاً بارزاً تمثل الأمير المشهور خع أم واست يقدم لحابى وسوبك . ومع أن هذا الأمير كان رابع أبناء رمسيس الثانى فقد كان مقدرا له أن يكون الوارث لهذا الملك الذى عمر طويلا ولكنه مات قبله تاركا وراءه سمعة مدوية من المعرفة والقدرات السحرية عاشت بعده فى صورة تفوق أى قصة من قصص العجائب المصرية . ويلى ذلك شاهد نقشه خع أم واست احتفالا بيوبيل والده . وعلى هذا الشاهد يرى الأمير مع رمسيس الثانى يتعبدان لبتاح وآمون . وإذا تركنا الباب الذى يؤدى إلى الحجرة الداخلية نلتقى بلوحة أخرى تشبه اللوحة السابقة فيما عدا أن سوبك قد حل مكان آمون ويلى ذلك صورة أخرى لخع أم واست يحتفل بأعياد يوبيليه وأخرى بصحبة رمسيس الثانى فى حضرة آلهة متعددة ، ولوحة للوزير « خاعى » تصور الملك فى حضرة مجموعة أخرى من الآلهة ، وفيها يذكر خاعى أنه حضر ليحتفل بيوبيل آخر . وهذه اللوحة مؤرخة فى السنة الخامسة والأربعين من حكم رمسيس الثانى . وفى الزاوية الواقعة بين الجدار الخلفى والجدار الشمالى القصير منظر بارز مهشم لثلاثة رجال يتعبدون .

ومن ذلك نرى أن تسجيلات رمسيس الثانى فاقت ما سجله حور محب المؤسس الأصلى للمقصورة ، كما نرى أن الاحتفالات بيوبيل رمسيس قد كثرت بشكل واضح خلال السنوات الأخيرة من حكمه . وبجانب الاحتفالات التى ذكرناها نجد احتفالات أخرى فى هذه المجموعة ، ففى السنين الأخيرة من حكم رمسيس الثانى نلاحظ أنه اعتاد إقامة يوبيل كلما راق له ذلك وتتراوح المدة بين يوبيل وآخر بين سنة وثلاث سنوات . ولا تقل أعياد اليوبيل التى احتفل بها عن تسعة[1] وليس من المستغرب ان يحل الاجهاد بالأمير خع أم واست الذى ألقى على عاتقه القيام بهذه الاحتفالات باعتباره الكاهن الأعلى لبتاح . وعلى كل فقد كف خع أم واست أخيرا عن ذلك اذ توفى فى الفترة ما بين يوبيل الملك فى السنة الحادية والأربعين من حكمه ، وذلك اليوبيل الذى أعده الأمير كما رأينا فى الكاب وبين يوبيله فى السنة الثانية والأربعين الذى احتفل به الوزير خاعى فى السلسلة . وقد توفى عدد

---

(١) كان معبد حور محب مركزاً للإعلان عن أعياد التتويج للملك رمسيس الثانى وقد أحتفل بأربعة عشر يوبيلا – أنظر ; **Labib Habachi;** Jubilees of Amenophis iii and Rameases ii ... in ZAES ; 97 ; 1971 ; pp . 64 ff .

كبير من أولاد الملك الكثيرين قبل أن يلقى منيته بحيث ان خليفته منفتاح كان الابن الثالث عشر من أبنائه .

ويوجد على الجدار الشمالى القصير للصالة العرضية ست صور بالحفر البارز كما توجد نقوش على الجدار الأيمن للمدخل على الأعمدة .

وعلى سمكى الباب المؤدى إلى الهيكل مناظر تمثل الملك حور محب يقدم التضحيات لحور آختى وزوجته أيوس عكاس ولأمون رع وموت . وعلى الجانب الشمالى (الأيمن) لجدار المدخلات ثور ثالوث الشلال المكون من خنوم وسانت وعنقت ، وعلى الجانب الجنوبى (الأيسر) صور أوزوريس وسويد وحور آختى وسلكت ، الآلهة العقرب . هذا ويرى على الجانب القبلى للحجرة ستة وثلاثون من الآلهة والجان ، وعلى الجدار البحرى ثلاثة وعشرون . ويشغل الجدار الخلفى سبعة تماثيل جالسة مهشمة كثيرا تمثل (من اليسار إلى اليمين) سوبك وتاروت ومون وأمون رع وخوفو وحور محب وتحوت .

وإذا اتجهنا جنوبا من مقصورة حور محب نصل بعد مسافة مائة ياردة تقريبا إلى ثلاثة شواهد مقطوعة فى صخرة تواجه النهر . وأول شاهد من هذه الشواهد يمثل رمسيس التاسع يقدم لآمون وموت وخوفو وسوبك ، غير أن نقوشها ليست بذات أهمية ، ويليه شاهد لشيشنق الأول ، ومن خلفه رئيس كهنة آمون تقدمه موت إلى آمون رع وحور آختى وبتاح ، ونقوش هذا الشاهد تحكى لنا أن الملك افتتح بعض المحاجر فى السلسلة لتمده بالأحجار اللازمة لمبانيه فى الكرنك ، وذلك فى السنة الحادية والعشرين من حكمه . أما الشاهد الثالث فيمثل رمسيس الثالث يقدم تمثال ماعت لآمون وموت وخوفو . وبعد أن نترك محاجر أخرى ، نلتقى على مسافة قصيرة إلى الجنوب بثلاثة محاريب صغيرة(أو بالأحرى مشكاوات) للثانى منها سقف ملون ، وعلى الكتف الأيسر لبابه صورة لتحتمس « كاتب بيت الفضة » أو الخزانة أو المحراب الثالث فهو من عمل أمير بالوراثة يدعى « مين » كان حاكما لهذا الإقليم أيام تحتمس الثالث . ويلى هذا المحراب محراب أو محرابان آخران ليس لهما أهمية خاصة . وبعد ذلك يأتى محراب لموظف غير معروف عاش فترة الحكم المشترك بين حتشبسوت وتحتمس الثالث . ويلاحظ محو خراطيش حتشبسوت مما يكشف إلى أى مدى وصل انتقام تحتمس الثالث من ذكرى قريبته القوية ، وكيف أنه أجهد نفسه فى هذا العمل الذى ينم عن الحقد الدفين الذى لا يليق بشخص عظيم مثله .

وبعد ذلك نمر بعدة محاريب مخربة حتى اذا سرنا قليلاً إلى الجنوب لاحظنا خرطوش مرى ـ رع أحد ملوك الأسرة السادسة مما يدل على أن المنطقة لم تكن مهملة أيام الدولة القديمة . وبعد ذلك نلتقى بمقبرة مكشوفة بها بقايا مناظر لشخص يدعى سنفر وزوجته حتشبسوت . وإلى الجنوب قليلا نرى مجموعة من ستة محاريب يمكن الوصول إلى ثلاثة منها

دون جهد كبير . وأول هذه المحاريب الثلاثة - وقد زال منه واجهته وأحد جدرانه الجانبية - لشخص يدعى مين ـ ناخت صاحب المقبرة رقم ٨٧ فى جبانة طيبة ، وقد كان يشغل وظيفة الكاتب الملكى والمشرف على شئون مصر العليا والسفلى أيام تحتمس الثالث وفى هذا المحراب بقايا منظرين جميلين احدهما ، وهو الموجود على الجدار الأيسر ، يمثل مين ـ ناخت وأحد أصدقائه جالسين أمام مائدة قربان بينما نرى على الجدار الخلفى ثلاثة تماثيل جالسة . أما المحراب التالى فهو أيضا لصديق قديم ونعنى به سن ـ نفر صاحب المقبرة رقم ٩٩ بجبانة طيبة . أما ثالث المحاريب التى يمكن الوصول إليها فيخص نحسى أحد النبلاء فى فترة الحكم المشترك بين تحتمس الثالث وحتشبسوت . ومن بين المحاريب الثلاثة الأخرى التى يصعب الوصول اليها اثنان على جانب كبير من الأهمية حيث أنهما من عمل شخصيتين من أعظم الشخصيات فى عهد حتشبسوت . وأول هاتين الشخصيتين هو « حبوسنب » الذى كان يشغل وظيفة كبير كهنة آمون أيام حكم الملكة العظيمة واليه يرجع الفضل فى إقامة مقبرتها فى وادى الملوك ، ولم يسلم ـ كما ذكر ـ من إلحاق الأذى به بموت حتشبسوت وسقوط مؤيديها ، فقد محى اسمه من تمثاله بطيبة (برستد : النصوص القديمة ، الجزء الثانى ، ١٦٠ وما بعده) ، كما شوهت مقبرته بالجبانة أيضا (رقم ٦٧) . وفى محرابه الموجود هنا محى أيضا اسم الملكة العظيمة . أما المحراب التالى فهو أيضا لواحد من كبار المؤيدين لحتشبسوت ونعنى به سنسرت مهندسها وخادمها المطيع . وقد حل بمحرابه من التخريب على أيدى أعوان تحتمس الثالث أكثر مما حل بمحراب حبو سنب فقد أزيلت صورته واسمه حيثما كان ذلك ممكنا . أما المحراب وهو أصعب منالاً من المحرابين السابقين فينسب إلى وزير يدعى « اماتو » . وبعد ان نترك محرابا آخر لا يعرف اسم صاحبه ، وان كان يرجع إلى عصر امنوفيس الثانى ، نصل إلى محراب لشخص يدعى « منخ » كان يحمل لقب « رئيس استقبال الملكة » ، ويظهر أن الملكة المشار اليها كانت إحدى زوجات تحتمس الأول ، غير أن ايامه امتدت حتى حكم حتشبسوت وتحتمس الثالث . ويبدو أنه تعرض لغضب ذلك الملك بسبب تأييده لحتشبسوت ، فقد أزيل اسمه من محرابه[1] ، ولو انه يمكن قراءته . ويحوى المحراب عدة مناظر مثيرة أحدها يمثل منخ جالسا مع والده « انين » وأمه « تاو » ، ويغلب على الظن ان انينى هذا هو نفس الموظف الذى نقر مقبرة تحتمس الأول وقال هذه الكلمة : « لم يسمح أحد بذلك ولم ير أحد ذلك » ، وانه صاحب المقبرة رقم (٥٤)[2] بطيبة التى جاء بها انه لم يكفر بالمقدسات .

---

(١) عن هذه المحاريب أنظر كتاب .
James — Camiros Gebel Es . Silsila ; 1963 .

(٢) صحتها رقم ٨١
Archaeological Survey of Egypt; Mem. 31;).

ثم نمر بمحرابين آخرين يرجع تاريخهما إلى الحكم المشترك بين تحتمس الثالث وحتشبسوت ، وفيهما نلاحظ ان خرطوش الملكة قد ازيل . وثانى هذين المحرابين يعزى إلى شخص آخر يدعى مين ـ ناخت ، وفيه بعض المناظر المحتفظة بشكلها وثلاثة تماثيل محطمة . وآخر جدير بالذكر هو محراب رجل من أعاظم الرجال حقا ونعنى به أمنمحات الذى كان وزيرا ورئيسا لكهنة الجنوب والشمال وكاهنا أعلى لآمون فى عهد الملك امنوفيس الثانى ، ويضم محرابه مناظر بديعة لا تزال تحتفظ بألوانها . وعلى الجدار الايمن (إلى الشمال) نرى امنمحات وزوجته « ميمى » جالسين أمام مائدة محملة بالقرابين التى أحضرها إليهما ابنهما «امن ـ أم ـ واس ـ خت » ، كما نرى أصدقاء آخرين يحيطون بهما ، وهدايا أخرى تقدم اليهما . وعلى الجدار القبلى (إلى اليسار) نجد الأمير وزوجته ، جالسين ايضا أمام القرابين ، كما نجد كشفا بالمؤن التى كانت توهب للمحراب . وبالجدار الخلفى تمثال محطم لامنمحات ومناظر لخدم يحضرون له التقاديم . وفى العصور المتأخرة اغتصب المحراب واستعمل كمقبرة ، ويشهد بذلك وجود ثلاث فجوات مقطوعة فى ارضيته على شكل التابوت . وبعد أن نمر ببعض محاريب اخرى فى حالة مخربة وبعض محاجر ، نصل إلى احدى الكتل الصخرية التى كانت ـ حسب الرواية ـ تربط بها السلسلة الممتدة عبر النهر وجنوب ذلك نلتقى بأهم مجموعة من المحاريب بالضفة الغربية (فيما عدا هيكل حور محب) .

وفى طريقنا إلى هذه المجموعة نمر بلوحة كبيرة لرمسيس الثالث الذى يرى فى حضرة امون رع وحور آختى وحابى . وهذه اللوحة منحوتة فى صخرة تكون زاوية قائمة مع جريان النهر وباقى الآثار . ويلى هذه اللوحة مباشرة مجموعة من ثلاثة هياكل كبيرة ، وأحدها ، وهو الواقع إلى أقصى الجنوب ، قد تحطم جزء منه نتيجة لانهيار الصخر ، أما الاثنان الآخران فمتشابهان شبها كبيرا فكل منهما عبارة عن فجوة مقطوعة فى الصخر بعمق ستة أقدام تقريبا وعلى كل من الجانبين عمود على شكل برعم ، وفوق الباب الافريز المقوس المعتاد . وعلى الجانب الخلفى من الفجوة لوحة كبيرة أما جوانبها فمزينة بصور الآلهة . ويرجع تاريخ أول هذين الهيكلين إلى السنة الأولى من حكم منفتاح ويرى على اللوحة الملك يتعبد إلى ثالوثين من الآلهة احدهما ثالوث طيبة المعروف المؤلف من آمون وموت وخوفو ، والآخر المكون من حور آختى وبتاح وحابى ، أما النقش فيترنم بذكر النيل ويشير إلى الاحتفالات والقرابين . وعلى جدارى الفجوة أربعة صفوف من الآلهة . ويلى هذا الهيكل حيز ضيق من الصخر يحمل لوحة صغيرة تمثل منفتاح يقدم صورة ماعت لآمون رع ، ويصاحب الملك اثنان من المقربين اليه أحدهما وزيره « بانحسى » . أما الهيكل الثانى وهو شديد الشبه بهيكل منفتاح الذى سبق وصفه ، اذ يضم لوحة متشابهة ومناظر واربعة صفوف من الآلهة . ومن الواضح ان هيكل منفتاح نسخة من هيكل والده . ويلى هيكل رمسيس الثانى لوحة تمثل منفتاح يقدم

لأمون ، ويصحب الملك « روى » رئيس كهنة آمون الذى أقام اللوحة التذكارية . وإلى الجنوب منها هيكل سيتى الاول الذى خرب نتيجة لانهيار الصخر عليه كما سبق ذكره وتتميز هذه الهياكل بجمالها واهميتها ، ولا تزال تحتفظ بآثار من الالوان الزاهية التى كانت تزخرفها فى الاصل[1] .

والآن نعبر النهر إلى الضفة الشرقية حيث نلتقى على مسافة تبعد عن النهر بلوحة تعتبر من الناحية التاريخية أهم مستند فى السلسلة كما أنها ايضا التسجيل لأول تحرك رسمى لمذهب آمون فى طيبة بعد اعتلاء أمنوفيس الرابع (إخناتون) العرش . وهذه اللوحة الكبيرة هى أول شىء يلفت نظر الزائر القادم من محطة الكاجوج ورغم أن المنظر الذى يتوج اللوحة قد ناله الكثير من التهشيم غير أننا نستطيع أن نتبين أنه كان يمثل صورة الملك الشاب يتعبد للإله آمون ! ولابد أن ذلك كان شيئا مهينا تماما له فيما بعد ، كما كان أيضا إسم امنوفيس الذى كان لايزال يحمله هنا . ويبدو أنه لم يكن قد وصل بعد إلى البت فى انه لا يمكن التوفيق بين عقيدة أمون القديمة وعقيدته الجديدة ، غير أنه تحقق من ذلك فيما بعد بدليل أنه أمر بكشط المنظر بقدر المستطاع ، غير أن الكشط لم يمح تماما الدليل الهام على أن إخناتون كان لايزال مترددا فى ضرورة تحريم آمون وعبادته فى أنحاء البلاد . ويشير النقش الذى يقع تحت المنظر إلى معبد أتون الجديد الذى كان الفرعون الجديد يقيمه فى طيبة ويجرى النقش كما يأتى بعد ديباجة الألقاب الملكية المعتادة : « أمر من جلالته إلى ليحشد جميع العمال من الفنيين إلى سامهودت[2] ، وقواد الجيش لعمل شق كبير لاستخراج الحجر الرملى لإقامة ال « بن بن » العظيم لحور أختى باسمه (الحرارة الكامنة فى أتون) بالكرنك انظر فان الموظفين والرفقاء ورؤساء حملة المراوح كانوا هم يشرفون على نقل الحجر من المحجر » (برستد : النصوص القديمة ، الجزء الثانى الفقرات ٩٣٢ - ٥) ويدل التجنيد الشامل لموظفى البلاط فى العمل بالمحجر على أن الملك الصغير قد صمم على أن يحمل رجاله على أن يؤمنوا مثله بالدين الجديد حتى لا يكون هناك شك فى اخلاصهم له .

ويوجد بالقرب من هذه اللوحة نقش آخر لأمنوفيس الثالث يسجل نقل الأحجار لإقامة معبد لبتاح ، كما توجد بعض رسوم على الصخر من عصر ما قبل التاريخ . غير أن أهم شىء على الشاطىء الشرقى باستثناء لوحة أمنوفيس الرابع التى رأيناها توا ، هى المحاجر

---

(١) — P . Barguet ; Les Steles du Nil ; An Gebel Silsileh ; BITAO ; 50 ; 1951 ; pp . 49ff .

وسوف ينشرها كامينوس فى الجزء الثالث من كتابه عن Gebel Es — Silseleh

(٢) خرائبها توجد فى تل البلامون بالقرب من شربين .

نفسها التى تشهد بالاساليب المصرية القديمة فى معالجة الأحجار كما تشهد بالإتقان الذى يتمثل فيها . وقد سبق أن رأينا فى طرة والمعصرة المحاجر التى استخرج منها بناءة الدولة القديمة بمنف الحجر الجيرى غير أن محاجر السلسلة تتميز بأنها أكثر منها لفتا للأنظار ويجدر بنا هنا أن نشير إلى ملخص المستر وايجول : « لا يوجد فى العالم كله مثيل لتلك المحاجر العظيمة التى سيراها الزائر توا ، فإنها بسبب اتساعها وبسبب العناية والدقة فى العمل الذى يظهر فى قطع الحجر ، تعتبر من بين أعظم ما عرف من مخلفات الإنسان . لقد أعجبنا بمعابد ومقابر مصر كأمثلة لمهارة المهندس والبناء ، كما شاهدنا بإعجاب فن المثال والرسام المتمثل فى عمل المناظر والرسوم الملونة ، وقرأنا فى نقوش الفراعنة النظام عن الحروب العظيمة والتنظيمات الحكيمة . ولكن هناك لدينا تسجيل ضخم للمهارة اليدوية للعمال المصريين . وحقا ما قيل من أن «التحجير الحديث الخشن والملغم يبدو كأنه عمل من أعمال الوحشية إذا قورن بهذا التحجير القوى والكامل » .

وشهادة ماريت مقنعة أيضا : « تقع محاجر جبل السلسلة الرائعة على الضفة اليمنى للنيل ، وأغلبها مكشوف للسماء . وبعضها مقطوع بشكل حاد بارتفاع خمسين ، أو ستين قدما ، والبعض الأخر منتظمة فى طبقات من درجات كبيرة مرتدة . ونلحظ العناية المنسقة أو الحرص التام فى أعمال التحجير فى الموقع كله بحيث يبدو الجبل كأنه قد قطع إلى كتل منتظمة كما لو كانت ألواحاً قطعت من جذع شجرة ذات قيمة بيد نجار ماهر ويقول وايجول أيضا : «وأهمية هذه المحاجر بالنسبة لتاريخ الحرف فى العالم كبيرة جدا ، وحتى الذين لايهتمون بالتاريخ القديم للإنسانية ، فسوف يجدون هنا شواهد كثيرة للصناعة الرائعة التى تنال تقديرهم وإعجابهم» .

يوجد على الضفة الشرقية محجران كبيران لابد أن يزورهما الزائر الذى يرغب فى أخذ فكرة عما قام به المصريون ـ رغم قصور أدواتهم وأجهزتهم ـ من تنظيم رائع وصبر بالغ فى طريقة قطع ونقل الأحجار . والسر فى ذلك لا يكمن فى كثرة العدد ، لأن كثرة العدد دون تنظيم كامل وفهم لتوزيع العمل لن يسفر عنه غير التخريب الشامل عندما تجىء الكارثة حيث إنه من المحتم أن تجىء مع هذا الحشد من الوحدات التى يعوزها النظام والذكاء .

والوصول إلى أول وأكبر هذين المحجرين عن طريق رائع منحوت فى الصخر على كل من جانبيه جدران مرتفعة . ويؤدى هذا الطريق إلى محجر ضخم تصل جدرانه الصخرية إلى ارتفاع كبير . ونرى هنا وهناك كتابات ديمقوطيقية (آخر أشكال الكتابة الهيروغليفية) ويونانية خطها الحجارون ، ولا تزال ترى بقايا الطريق الذى كانت تجر عليه الأحجار . أما المحجر الثانى فليس فى مثل ضخامة المحجر الأول ، وقد نسف أحد أطرافه أثناء عملية

استحضار الأحجار لقناطر إسنا . أما مدخل الطريق فمحفوظ تحت رعاية مصلحة الآثار . وعلى مدخل المحجر الكبير بوابة مغلقة ولا يسمح بالدخول إليه إلا بإذن من الحارس هذا وتوجد محاجر أخرى صغيرة ، ونقوش كثيرة متفرقة ، وآثار صغيرة من بينها ثلاثة تماثيل غير كاملة من الحجر الرملى لأبى الهول ، وتمثال لصقر من نفس المادة . ولا توجد آثار ذات قيمة بين السلسلة وكوم أمبو .

(بخصوص المحاجر المصرية والتحجير ينظر كتاب : سومر زكـلارك وانجلباك عن العمارة المصرية القديمة ، الفصل الثانى والثالث)[1] .

Somers Clarke and B. Engelbach; Aincinet Egyptian Masonry; chaps. II and III (١)

الفصل الثالث والثلاثون
كوم أمبو ومعبدها ، كوم أمبو إلى أسوان

يجب التمييز بين كوم أمبو ، وهى المحطة التالية فى طريقنا إلى أسوان ، وأمبويس التى سبق زيارتها ، والتى تقع على الضفة الغربية للنيل فى مواجهة قفط وقوص شمال الأقصر . ويقع تل أمبو على بعد ١٣ ميلا تقريبا جنوبى السلسلة وعلى مسافة ٢٦ ميلا شمالى أسوان ، وترجع أهميتها الأساسية إلى وجود المعبد المزدوج المشهور للإلهين حور ـ أور ـ وسوبك . وترسو البواخر السياحية عندها لتتيح للزائرين زيارة المعبد الكبير ، غير أن الوقت المسموح به لزيارة هذا المبنى الضخم المعقد ، وهو ساعة ، لا يكفى لتفقده ، ولذا فإنه من المستحسن للزوار الذين يبغون دراسة المبنى بشكل أكثر إتقانا وتمهلا أن يستقلوا القطار فى الصباح المبكر من أسوان إلى محطة كوم أمبو . ومنها ينتقلون بالترولى لمسافة ثلاثة أميال من المحطة إلى المعبد ، وبذا يمكنهم العودة إلى أسوان بعد الظهر دون إرهاق ويقع المعبد فى مكان جذاب فوق كوم يقع عند أحد منحنيات النهر ويتكون جزء من هذا الكوم من مخلفات المعبد والمدينة السابقين اللذين بنيت فوقهما المدينة والمعبد الرومانيان المشهوران المتأخران ولا تزال على الجانبين الشمالى والغربى من المعبد أنقاض المدينة المتأخرة ويبدو أن الاسم الحديث للمدينة اشتق من الكلمة القبطية « أمبو » التى اشتقت بدورها من الكلمة المصرية « نوب » ، ولا يعرف شىء عن تاريخها القديم . ولقد كان للموقع أهمية إستراتيجية إذ كان يشرف على كل من المنحنى الكبير الذى صنعه النيل هنا ، وطريق القوافل المؤدى إلى النوبة والواحات .

وبالإضافة إلى ذلك كانت توجد بأراضيه على جانبى النيل مساحة كبيرة من الأرض المنزرعة . ويقع على الجانب الشرقى منه طريق يوصل إلى مناجم الذهب بالصحراء

الشرقية . ويوضح اسمها القديم « نوب » الذى يعنى الذهب أهمية هذه الناحية فى حياة المدينة . ولا توجد بها أطلال هامة سابقة لعصر الأسرة الثامنة عشرة عندما قام أمنوفيس الأول وتحتمس الثالث باصلاحات فى المعبد القائم منذ زمن أقدم . ومن الطبيعى أن وجود مثل هذا المعبد المتقدم يعنى قيام مدينة على جانب من الأهمية يرجع تاريخها على الأقل إلى الدولة الوسطى وخلال الحكم المشترك بين تحتمس الثالث وحتشبسوت أقيمت بوابة من الحجر الرملى ، كما أضاف رمسيس الثانى إضافات إلى المعبد[1] . ومهما بلغت أهمية معبد الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة ، فإن التقدم الحقيقى للمكان بدأ فى العصر الرومانى عندما أصبحت كوم أمبو عاصمة المقاطعة ، وعندما بدىء فى تشييد المعبد الكبير المزدوج الذى أسهمت فى تكاليفه فرق كانت تعسكر وقتئذ فى المنطقة وقد تقدم العمل فى المعبد إبان عهد بطليموس السابع (أفرجيت الثانى) وقد تم بناؤه حتى صالة الأعمدة الكبرى باستثناء النقوش فى أيام بطليموس الحادى عشر (نيوس ديونيسيوس) . وقد تم بناء وزخرفة الفناء الأمامى فى عهد الأمبراطور طيبريوس ، كما قام دوميتيان بإضافات إليه . ومن بين أسماء الأباطرة المتأخرين نجد « جيتا » «وكاكالا» وماكرينوس (٢١٧ ـ ٢١٨ ميلادية) ، ولما كان البدء فى بناء المعبد فى أيام بطليموس الخامس أبيفانس وإقامة بعض مبانيه المبكرة فى عهد ابنه بطليموس السادس فيلوميتر الذى اعتلى العرش عام ١٨١ ق .م ، فلابد أن استغرق بناء المعبد وزخرفته أربعمائة عام تقريبا أى أكثر من ضعف المدة التى استغرقها بناء وزخرفة معبد ادفو .

ومن بين عوامل تقدم كوم أمبو المفاجىء نحو الازدهار والأهمية ، تطوير البطالمة لعدد من المحطات العسكرية الدائمة على امتداد ساحل البحر الأحمر ونمو الحركة التجارية بين تلك المحطات العسكرية والمدن النيلية التى كانت تقع فى مواقع مناسبة للاتصال بها . وكانت هذه المدن وعلى الأخص قفط وكوم أمبو محطات للعناية بالأفيال الأفريقية التى حاول البطالمة فى وقت ما اتخاذها ندا لمجابهة فيالق الأفيال الهندية لمنافسيهم السلوقيين ، إلا أن الأفيال الأفريقية أظهرت عدم قابلية للتدريب والنظام ، ومن ثم أصبحت الأفيال الهندية رهيبة فى ساحة القتال ، وبالإضافة إلى ذلك فقد وجد البطالمة مثلنا (أى الانجليز) أن ساحل البحر الأحمر ليس بالمكان الصالح للاحتفاظ بحاميات دائمة . ولهذين السببين كان من المحتم أن تفشل الحركة التجارية بين محطات ساحل البحر الأحمر والمدن النيلية مثل قفط وكوم أمبو ، وإلى هذه الحقيقة يمكننا أن نرجع تدهور كوم أمبو أكثر من أن نرجعها إلى تدهور

---

(١) لايوجد شى من هذه المبانى قائما حتى الآن ولكن وجدت بعض الأحجار التى تدل على نشاط هؤلاء الملوك فى تلك المنطقة .

التجارة مع النوبة التى كانت ذات طبيعة مستقرة تقريبا ـ إن الأسطورة المحلية التى تعزو نهاية المدينة إلى النزاع بين الأخوين اللذين حكما المنطقة وهما حور ـ أور الإله الطيب وسوبك الإله الشرير لهى أسطورة طريفة ولكنها محاولة واضحة لتعليل ازدواج المعبد ، ومن الطبيعى أن تقترن فى أذهان الأهالى شخصية الإله التمساح سوبك بالشخصية الشريرة إذ كانوا يعيشون فى خوف من وجوده فى النهر . وتروى القصة كيف طرد الأمير الشرير (سوباك) أخاه الطيب حور ـ أور من المقاطعة ثم تبعه جميع السكان إلى المنفى ، وبذلك لم يجد سوبك أحدا يزرع حقوله ، فلجأ إلى سحره واستنجد بالموتى ليزرعوا له ، وقد أطاعوا ، ولكنهم بذروا رمالا بدلا من البذور وهكذا أصبحت كل الأرض صحراء . ويبدو أن تدهور المدينة جاء بشكل أكثر مبالغة مما صورته الأسطورة ، فإن مظهر رديم المدينة القديمة يدل بوضوح على أن الفناء قد حل بها نتيجة حريق هائل . وعلى أى حال فإن ذلك كان مجرد حادث عجل بنهاية مدينة كانت قد تدهورت فعلا نتيجة أسباب اقتصادية كما أوضحنا آنفا .

وبالرغم من خراب كوم أمبو ، فقد بقى معبدها ، ومازال حتى الآن نموذجا رائعا جيد الحفظ للعمارة والنحت البطلميين ، وحتى الألوان الأصلية الزاهية التى زخرفت بها تفاصيله المعمارية مازالت فى حالات كثيرة رائعة وبهية . وحتى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر بدا المبنى كما لو كان مقدرا له الفناء فى غضون سنوات ليست بعديدة . وموقع كوم أمبو ـ رغم جماله جعل المعبد فى موضع بين « شيطان » الرمال الزاحفة من جانب اليابسة و « البحر العميق » لنهر النيل من الجانب الآخر . وفى الصور القديمة تبدو الأعمدة الضخمة لصالة الأعمدة غارقة إلى قرب ارتفاعها فى الرمال . ولم تشاهد مس إدواردز فى عام ١٨٧٣ غير «أعمدة قليلة ضخمة مدفونة إلى ثمانية أو عشرة أقدام من تيجانها الفخمة ، وقطعة رائعة من عنب ، وقطعة مسننة مكسورة من ورنيش حجرى وبعض كتل ساقطة تحمل نقوشا تضم أسماء « بطليموس وكليوباترا (ألف ميل فوق النيل ـ ص ٣٩٣ طبعة ١٨٩٩) ومن حسن الحظ أن نبوءة مس إدواردز بأن الرمال لن تنكشف أبدا نتيجة لهبوط المعبد شيئا فشيئا فى النهر ، قد فندتها جهود مصلحة الآثار . وقد تخلص المعبد بأكمله حاليا من عدوه الغادر ، ولكن الموقف يستدعى الإشراف المستمر من جانب مصلحة الآثار حتى لا تتغلب الرمال .

ويبدو أن التهديد من جانب النهر أكثر خطورة فقد كتب ماريت عام ١٨٦٩ « من الصعوبة قول أى شىء عن هذا الأثر الذى حكم عليه أن يصبح عاجلا أم آجلا فريسة للنيل مهما بذل من جهد للمحافظة عليه » . ومن حسن الحظ أنه عندما قامت مصلحة الآثار بازاحة الرمال عن المعبد عام ١٨٩٣ اهتمت كذلك بحمايته من زحف النهر . وقد تراجع النيل ـ الذى ابتلع نصف الصرح القبلى الكبير لبطليموس نيوس ديونيسيوس ـ نتيجة إقامة

رصيف حجرى . ورغم أن المعبد سوف يقع دون شك «فريسة للنيل» كما قال ماريت ، فإن مصيره المحتوم قد تأجل على الأقل لعدة قرون .

وصف المعبد

لا نعرف بالتحديد كيف أن عبادة إلهين - لهما اختصاص موجود واحترام مماثل رغم اختلاف طبيعتهما - قامت فى كوم أمبو . ويرى وايجول أن وجود عدد كبير من التماسيح فوق الجزيرة الكبيرة الواطئة التى تقع مباشرة تجاه المعبد وما يتبع ذلك من تعرض للأخطار عند العبور وفقد الحياة فى محاولة ذلك ـ قد حدا بالعامة إلى محاولة استرضاء مثل هذا العدد الماكر والقاتل . والخوف عامل هام فى العبادة القديمة وليس من شك أن الخوف وليس الحب هو الذى أوحى بعبادة سوبك الآله التمساح فى عصر قديم من تاريخ المدينة . وأن تسمية معبد الأسرة الثامنة عشرة القديم «بر - سوبك» (ميت سوبك) لدليل على أن سوبك كان الآله للمكان ، وهذا دون شك جرياً وراء قاعدة «كسب أصدقاء من شيطان الشر» ولكننا لانعرف كيف ارتبطت عبادة حد - أور (حورس الكبير) ، أحد الأشكال الكثيرة للآله الصقر الذى انتشرت عبادته فى أرجاء مصر ، بعبادة الآله المحلى الشرير . لقد كان حورس فى صوره العديدة معروفاً فى المناطق المجاورة ، وربما كان سكان أمبو يشعرون بقليل من الخجل لعدم اتخاذهم آلها آخر غير ذلك الآله الذى لا طعم له وهو سوبك ، مما حداهم إلى التفكير فى أنه من الأفضل أن يثبتوا أقدامهم فى كل من المعسكرين . وعلى كل حال فقد قامت العبادة المزدوجة ، وانضم لكل عضو من هذا الزوج الغريب المتنوع - طبقاً للتقاليد المصرية المعتادة - آلهان آخران لتكوين ثالوثه . وقد فاز سوبك دون شك بالنصيب الأكبر فى تكوين ثالوثه إذ أن شريكيه كانا من أكثر أعضاء الآلهة المصرية احتراماً وهما الآلهة حاتحور (حامية الصحراء الغربية ، وبذلك كانت شفيعة مرشدى القوافل) وآله القمر خوفو الذى ظهر على شكل خوفو - حور ، وربما اعتقد أن هذين الآلهين المحترمين قادران على اضفاء شهرتهما الكبيرة على سمعة سوبك السيئة . أما حورس الذى كانت شهرته بمنأى عن اللوم ، فلم يكن فى حاجة ماسة إلى شركاء ممتازين . وعلى أية حال فقد كان عضو ثالوثه ساسفت تفوت (الأخت الطيبة) وهى شكل ثانوى من أشكال حاتحور ، وبانت تاوى (سيد الأرضين) الذى كان ابن تاسنت - نفرت ، ويقابل شكلاً متواضعاً من أشكال حورس الذى كان يوماً ما فرعون مصر .

وبقيام الثالوثين عملت لهما الترتيبات فى المعبد الذى شيده البطالمة مكان مبنى أقدم . وقد عملت لهما التصميمات بعناية كبيرة بحيث «أصبح لكل من الثالوثين نفس التكريم والاهتمام اللذين لزميله وكانت النتيجة إقامة معبد هو فى الواقع معبدان . وإذا نظر القارى

إلى الرسم التخطيطى لمعبد كوم أمبو فسوف يرى أن كل قسم فى الرسم فى الجهة الغربية (اليسار) من المحور المتوسط قد تكرر تماماً بقسم مطابق فى الجهة الشرقية (اليمين) من المحور وبذلك يكون نصف التصميم قد تكرر والنصف الآخر فسوبك له فناؤه الأمامى وصالة أعمدته الكبيرة (أو الصالة الأمامية) وصالة أعمدته الصغيرة ، وحجراته الثلاث الأمامية ، وهيكله فى الجانب الشرقى من المحور . ولحورس نفس الحجرات تماماً فى الجانب الغربى . ولاشك أنه كان يوجد أيضا مجموعة متماثلة من الكهنة للخدمة الدينية .

وفى الركن الجنوبى الشرقى من المعبد - حيث يؤدى سلم من النهر إلى الرصيف يقوم ما تبقى من الصرح العظيم لنيوس ديونيسيوس الذى كان يفضى إلى المعبد . أما النصف الآخر - فكما رأينا - قد التهمه النيل . وعلى البرج الباقى يرى مشيده بطليموس الحادى عشر يذبح أعداءه ويقدم القربان إلى آلهة مختلفة وبخاصة سوبك وحاتحور وبانب تاوى . ولابد أن شهرته بالشجاعة والتقوى تعتمد على هذه المناظر أكثر من اعتمادها على أية أعمال أخرى قام بها . وإذا تخطينا واجهة المسطح الذى يقوم عليه المعبد نصل إلى الصرح الثانى المهدم الذى يؤدى إلى الفناء الأمامى . وكان لهذا الفناء أصلا بابان يمثلان الازدواج العام لكل مظهر من مظاهر المبنى ، غير أن القسم الأيسر من الصرح قد تهدم تماماً . ولم يبق حالياً غير الجزء الأسفل من العمود الذى يفصل بين البابين والجزء الأسفل من القسم الأيمن . ولاتزال ترى على المداميك السفلية من القسم الأيمن - ونعنى به قسم سوبك كما ذكرنا - بعض مناظر من عمل الامبرطور دوميتيان تمثل ثالوث سوبك المكون من سوبك وحاتحور وخوتو - حور وإلى اليمين منها يوجد نص طويل من اثنين وخمسين سطراً تشيد بهذا الثالوث . وإلى اليمين أيضا يرى الامبراطور دوميتيان يرأس موكباً من آلهة وآلهات الوجه القبلى يتقدمهم حابى آله النيل ، ويحملون التقاديم لآلهة المعبد ، وفوق هذا المنظر منظر آخر يمثل الملك خارجاً من قصره بينما يبخره كاهن ويتقدمه الأعلام السبعة للمقاطعات القديمة للوجه القبلى .

والآن ندخل الفناء الأمامى الذى كان معظمه - كما ذكرنا - من عمل الامبراطور - طيبريوس ، وعرضه بالنسبة لعمقه أكثر اتساعاً من الفناء المماثل له بمعبد أدفو . وينقسم مثل الأجزاء الأخرى من المعبد إلى صالتين ، اليمنى تخص سوبك ، واليسرى تخص حور - أور . ولم يبق غير الأجزاء السفلية من الأعمدة الستة عشر التى تكون صف الأعمدة الذى يحيط بالجوانب الثلاثة من الفناء . والمناظر المصورة عليها تمثل طيبريوس يقدم للآلهة . ورغم أنها من عصر متأخر وخشنة ، فإن تأثيرها العام طيب ، وزخارفها جميلة ، ولا تظهر رداءة عملها إلا عند فحصها فحصاً دقيقاً ، وأرضية الفناء فى حالة جيدة من الحفظ . وفى الوسط قاعدة مربعة لمذبح بكل من جانبيه حوض صغير من الجرانيت من المحتمل أنه كان يستعمل لتلقى دماء التضحيات التى كانت تضحى فوق المذبح . وفى زاوية الفناء من الجهة

الجنوبية الشرقية باب يؤدى إلى سلم يصعد إلى أعلى الصرح ، وهناك باب آخر إلى اليسار يؤدى إلى حجرة صغيرة . وعلى الجدار الشرقى (الأيمن) من الفناء منظر لموكب طويل يمثل إلهة النيل حابى يتقدمها الملك وتحمل قرابين من الخبز والزهور وخلافه .

والآن ندخل صالة الأعمدة الكبرى ، وواجهة هذه الصالة رائعة إذا شاهدها الإنسان من الفناء ، ويفصلها عن الفناء جدران ساترة حجرية ذات اعمدة مقامة بينها ، ويتخلل الستائر بابان كبيران وآخران أصغر منهما . وعلى الحاجز الواقع الى يمين الباب الكبير المزدوج (٩) منظر الملك بطليموس الحادى عشر ، نيوس ديونيسيوس يطهره تحنوت وحورس فى حضرة الإله سوبك برأس تمساح الذى كرس له هذا القسم من المعبد . والى يمين هذا المنظر (١٠) القرص المجنح ونقش وعلى الجانب الأيسر من الباب الكبير (٨) منظر مشابه للتطهير فى حضرة حور - اور الذى خصص له النصف الايسر من المعبد ، وإلى اليسار من هذا المنظر (٧) قرص مجنح آخر ونقش ، وقد توجت الستائر بصف من الكوبرا تحمل قرص الشمس فوق رءوسها ، وتميز مجموعة الكوبرا الى اليمين بأنها فى حالة جيدة من الحفظ .

وإذا دخلنا الصالة التى تضم عشرة أعمدة مصفوفة فى صفين (دون احتساب الأعمدة المتداخلة فى الواجهة) يبهرنا مظهرها العام ، فالمهندس قد تصرف بحرية واضحة فيما يختص بتيجان أعمدته كما هو ظاهر فى ادفو ، وبعض الأعمدة مزينة بزخارف نباتية متقنة وبعضها بزخارف على شكل سعف النخيل ، بينما ترك عمودان دون اتمام زخرفتهما رغم انهما نقشا باللون . والسقف مزخرف بالشكل المعتاد للعقاب ، وقد نشر جناحيه ممسكا بمخالبه مروحة من ريش النعام - أما الاعتاب فانها تحمل مناظر فلكية لم تتم ويستطيع الإنسان أن يرى فوقها اطار التخطيطات المربعة باللون الأحمر التى كان يستعملها النحات المصرى فى رسمه طبقا للقاعدة المرعية فى التناسب . ومن الممتع أن نجد هنا شاهدا على صحة الملاحظة التى أوردها ديودور من أن النحاتين المصريين قسموا الجسم إلى ٢١ ١/٤ وحدة أو مربع . وهذا لم يكن معمولا به فى العصور المبكرة للفن المصرى ، فالنحاتون فى عصر الأسرة الثامنة عشرة استخدموا قاعدة من ١٨ مربعا ، ولكن فى الأسرة السادسة والعشرين تغيرت القاعدة إلى ٢١ ١/٤ مربع كما قال ديودور وهنا فى كوم أمبو نجد هذه القاعدة مستخدمة .

والآن نعود الى المناظر الموجودة على الأعمدة والجدران لنجد أن المناظر على الأعمدة غائرة ، بينما نجدها على الجدران بارزة . ويحسن بنا أن نمضى بعض الوقت متمتعين فى مناظر هذه الصالة ، إذ ان مس م . أ . مرى قد تحدثت عنها فى كتابها الممتع عن النحت المصرى بقولها : «ومن المحتمل ان النحت فى معبد كوم امبو أفضل منه فى أى معبد بطلمى آخر ، والأشكال والوجوه أقل بشاعة من مثيلاتها فى معبد ادفو (النحت المصرى ، ص

١٨١)[1] وهذا كما يبدو مديح يتسم بالدقة ، فهو يدل على اننا نرى فى كوم امبو النحات البطلمى فى أوجه ، ومن المحتمل أن الزائرين الذين جاءوا ومعهم ذكريات عن ابيدوس ، وكذلك الذين حملوا فى أذهانهم ذكريات أعمال الدولة القديمة بسقارة ، سوف يجدون أمامهم بكوم امبو نحتا حسنا رغم سوئه ، فالتأثير فى مجموعه قد يكون طيبا فالجدران قد نقشت بأسلوب من الزخرفة لا يمكن انكاره من الناحية الزخرفية غير أن النحت البطلمى يكشف عن ضعفه عندما يفحص عن قرب ، فتشريح أشكاله ردىء بحيث لايتضح الشكل أو النحت فى أى عضو من أعضاء الجسم ، فكل ما يظهر هو استدارة عامة وانتفاخ كانتفاخ غرارة ملئت بالقطن على عجل وبطريقة ارتجالية أو كقطعة من السجق حشيت حشوا رديئا . وعندما نعالج التفاصيل بدقة مبالغ فيها فانها تطبق لذاتها دون النظر الى ما تحدثه من زيادة أو نقص فى وقع التصميم ، وبامتزاج الفن اليونانى بالفن المصرى الذى انبثق عنه الفن البطلمى استبقى كل ما هو ردىء فى الفن المصرى القديم ولم يستغل شىء من الجمال الذى كان فى الفن اليونانى الجديد ، والنتيجة هو فن لا يزال يجذب جميع محبى الدرجة الثانية ولا أحد غير ذلك ، وبهذا الشرط يمكننا أن نداوم اعجابنا بأعمال النحت بمعبد بكوم امبو الذى يقدم لنا هذا الفن فى أحسن صوره دون أن نطلب منه ما لا يستطيع تقديمه لنا ولكن نستعرضه ببساطة كانما هو عملية لتغطية مساحات معينة باشكال ليست منفرة بوجه عام .

وعلى جدار المدخل إلى الجانب الأيمن (سوبك) نرى مجموعة (١٩) تمثل الملك بطليموس تتوجه نخبيت وواجيت آلهتا مصر العليا والسفلى فى حضرة سوبك وحاتحور . وفى الجانب الأيسر المقابل له (حور - اور) (١٨) نرى مجموعة أخرى تمثل الملك فى حضرة حور - اور بينما يتسلم تحوت علامة الحياة من ايزيس الممثلة برأس قطة وهى تحيطه بذراعها وتفعل الآلهة نوت نفس الشىء . وهاتان المجموعتان وبخاصة الأخيرة منهما تمثلان الفن البطلمى فى قمته ، وهما جديران بالدراسة لمزاياهما وعيوبهما . والباب الصغير المؤدى من الفناء الى الصالة فى الجانب الأيمن (سوبك) يسمى فى بعض الأحيان باب الرياح الأربعة ، وعلى عتبة منظر (٢٢) يمثل الملك فى حضرة مخلوقات أربعة أسطورية بشكل أسد وخروف وصقر وحية ذات أقدام أربعة ، ولسبب من الأسباب أزيلت هذه الأشكال غير أنه يمكن تتبعها . وعلى كتفى الباب نقوش مهشمة . وعلى الباب المقابل له فى قسم حور - اور (الأيسر) منظر (٢٠) يمثل بطليموس أمام حور - اور وتاسنت - نفرت وسوبك . وعلى الجدار الايسر من قسم حور - أور فى زاوية قائمة مع المنظر الموجود على جدار المدخل يرى منظر تهشم جزء منه (٢١) يمثل الملك تقوده الهتان الى حضرة حور - أور ، ويلاحظ ان

---

(1) — Miss M. A. Murray; 'Egyptian Sculptue; p. 181.

الأشكال قد فقدت رءوسها والمنظر جدير بالاعتبار حيث ان النحات حاول حل المشكلة التى عرضت عليه بأن تدير الآلهة القائدة رأسها نحو بطليموس بينما تستمر فى السير فى اتجاه مضاد ، وقد قام بمحاولة صادقة لتذليل صعوباته ، ولكن لا يمكن القول بأنه افلح فى ذلك أو فى أن يجعل الآلهة مستريحة فى الوضع الذى جعلها فيه ملتوية وسوف نرى منظرا مشابها فى حالة أكثر فى صالة الأعمدة الصغرى وعلى الجدار الخلفى فى القسم المخصص لسوبك (الأيمن) يرى بطليموس السابع أمام سوبك وحاتحور (٢٢) وامام حورس - اور تاسفت - نفرت (٢٧) ويتعبد لسوبك وحاتحور وبانت تاوى (٢٨) . وعلى الجانب المخصص بحور اور (الأيسر) يرى نفس الملك بصحبة كليوباترا أمام حور اور (٢٣) وامام سوبك وحاتحور (٢٤) وأمام حور اورو آلهة مهشمة الشكل بدرجة يصعب التعرف عليها (٢٥) . وسوف يلاحظ انه بينما يقسم المعبد إلى قسمين ، فإن الإلهين الكبيرين لم يأنفا من تخطى الخط الأوسط الذى يفصلهما ومن ان يمثل احدهما فى المناظر الخاصة بالآخر .

والآن نخترق أحد البابين لنصل إلى صالة الأعمدة الصغرى ، وبها أيضا عشرة أعمدة ولكن جميع الأعمدة تعلوها تيجان بشكل واحد هو زهرة البردى المتفتحة ، وبذا تفتقد التنوع الموجود فى المجموعة الأخرى ، كما أن الأعمدة نفسها أقل ارتفاعا مما يقلل من الوقع العام للصالة . وقد زال معظم السقف وكذا الكثير من الجدران حتى اصبحت الصالة مفتوحة تماما للهواء وبذا فقدت سحرها الغامض ولاتزال بعض المناظر فى حالة جيدة من الحفظ . واذا ما توجهنا الى جدار المدخل نرى على جانب سوبك (الايمن) أولا الملك بطليموس السابع ، افرجيت الثانى ، يقوده إلهان الى حضرة (سوبك ٣٣) ، ويلاحظ ان الشكل الملكى مهشم . وبعد ذلك تقوده نخبيت وواجيت اللتان تلبسان بالترتيب التاج الأبيض والتاج الأحمر إلى حضرة سوبك ايضا (٣٤) . وهنا واجه النحات نفس المشكلة التى واجهت زميله فى الصالة الكبرى ، ولم ينل نجاحا اكثر فى حلها فوضع نخبيت - على الأقل - مقيدا ، وبعد ذلك يقدم القربان لحاتحور (٣٥) والمنظر الموجود على الجدار الواقع بين البابين (٣٦) يمثل سوبك التمساح راقدا على ناووسه .

واذا انتقلنا إلى جدار المدخل الايسر (حور - اور) نرى بطليموس السابع تاركا قصره والاعلام ترافقه (٢٩) بينما يظهر تحوت وحورس سيد ادفو (٣٠) . وبعد ذلك نرى نخبيت وواجيت يتوجانه فى حضرة حور اور (٣١) وعلى الجدار الأيسر بعد الزاوية من هذا المنظر الأخير منظر آخر (٣٢) يمثل بطليموس مع زوجته كليوباترا واخته التى تحمل نفس الاسم وهو يتسلم من حور اور عصا مقوسة ــ وليس سيفا مقوسا كما يذكر احيانا - زينت برأس صقر يتوجه قرص الشمس وبزخرفة نباتية على المقبض بينما يمسك حور اور بنفسه رمز الأعياد . ويكشف هذا المنظر - وهو فى حالة حفظ تامة - عن جميع عيوب ومزايا النحت البطلمى فالملك ورفيقتاه ممتلئون بشكل يستدعى النظر ولكن فى المواضع غير الصحيحة .

وعلى كلا القسمين من الجدار الخلفى للصالة مناظر تظهر بطليموس السابع ، افرجيت الثانى ، يقدم قربانا من أصناف جيدة لسوبك وحاتحور على الجانب الأيمن (٣٨) ولحور اور وتاسفت - نفرت على الجانب الأيسر (٣٧) . وبين الأبواب التى تؤدى إلى الحجرات الداخلية بالمعبد مناظر تمثل بطليموس السادس ، فيلوميتر الأخ الأكبر لافرجيت الثانى يقدم لحور اور . وعلى طول كورنيش باب حور اور المؤدى إلى الحجرة الامامية الأولى يوجد النقش اليونانى الذى سبق ذكره وهو يحكى الدور الذى قامت به الحامية اليونانية بالموقع فى بناء المعبد وهو كالآتى «تكريما للملك بطليموس ، والملكة كليوباترا ، واخته ، والملوك المؤلهين الملقبين باسم فيلوميتر وأبنائهم ، أقام المشاة والفرسان وجميع الفرق المعسكرة فى منطقة أمبو هذا المعبد لحور اور «الاله العظيم ، أبوللو ، وللآلهة المعبودة معه فى نفس المعبد اعترافا بفضل هؤلاء الآلهة عليهم» .

يقع خلف صالة الأعمدة الصغرى ثلاث حجرات أمامية ندخل الآن أولها ، وهى بدون سقف ، وقد زال جدارها الغربى تماماً . وعلى جدار المدخل الخاص بسوبك (٣٩) منظر يمثل بطليموس فيلوميتر أمام حور أور وتاسفت نفرت ومنظر آخر على الجدار الأيمن من نفس قسم سوبك يمثل فيلوميتر وسوبك يحتضنه (٤٠) ، بينما نراه فى أسفل مع أخته كليوباترا يقدمان للآلهة . وعلى الجدار الخلفى يقدم الملك لسوبك (٤١) (كلاهما فاقد الرأس) . وبين الأبواب التى تؤدى إلى الحجرة الأمامية التالية نرى الملك أمام حور أور (٤٢) يقوم باحتفال متصل بتأسيس المعبد ، وعلى قسم حور أور (٤٣) تشاهد الآلهة سنشات مشغولة مع حور أور فى إتمام حدود المعبد الجديد . وهذا المنظر مهشم جداً والحجرة الأمامية الثانية مخربة كثيراً ، ولكنها لا تزال تحتفظ بألوانها على بعض المناظر التى لا تستحق الاهتمام الكبير . وعلى الجدار الخلفى للحجرة الأمامية الثالثة يوجد بين الأبواب التى تؤدى إلى الهيكل المزدوج بعض المناظر التى تلفت النظر (٥٠) فعلى الصف الأسفل أشكال للإلهة جابى الشمالى والجنوبى حاملة التقاديم . وفوق هذا منظر آخر يظهر فيه الملك - وهو يلبس التاج المزدوج وثوباً طويلاً أبيض اللون ويصحبته كليوباترا - أمام خوفو - حور وحور - أور وسويك رع بينما يسجل خوفو - حور أعياد اليوبيل الملكى على سعفة نخل محززة . وفوق هذا المنظر يرى كذلك بطليموس أمام سويك وحور - أور .

ويكاد يكون الهيكلان فى حالة تخريب تام ، ولكن لا تزال ترى القواعد المهشمة من الجرانيت الأسود للمراكب المقدسة ، وهناك دهليز داخلى ندخل إليه من صالة الأعمدة الكبرى يحيط بكل هذه الحجرات الأخيرة ابتداء من صالة الأعمدة الصغرى وما يليها . وعند نهايته الشمالية تفتح عليه سبع حجرات وتضم إحداها بداية سلم يصعد إلى السطح . أما الحجرات الست الباقية فيجدر زيارتها ، فرغم أن مناظرها لم تكمل ، غير أن هذه الحقيقة ساعدتنا على أن ندرس هنا الأساليب التى اتبعها النحات المصرى والتى يمكن

رؤ يتها بوضوح فى الحجرة الأولى إلى يسار الحجرة التى بها السلم . وعلى الجانب الأيمن من الباب المؤدى من صالة الأعمدة الكبرى إلى الدهليز الداخلى نرى بعد الباب منظر فرعون (٥١) يلبس التاج الأحمر خارجاً من قصره تتقدمه كالعادة الأعلام وكاهن يحرق البخور ويحمل الدهليز الخارجى فى طرفه الشمالى مناظر الأباطرة كراكالا وأخيه جيتا (الذى قتله والذى أزال اسمه) وماكرينوس يقدمون للآلهة . وعلى ظهر الجدار الخلفى للمعبد الأصلى - وهو الجدار الداخلى للدهليز - وبالضبط فى محور المعبد ، نشاهد منظراً غريباً يمثل كلا من سوبك وحور - أور مع ما يخصه من رموز أمام هيكل يحيط به كثير من الرموز السرية (٥٣) ، ومعنى هذا المنظر غير معروف ، ولكنه يؤكد الازدواج الثابت للمعبد . وعلى الجدار الشرقى من الدهليز مناظر تمثل الامبراطور تراجان يقدم إلى آلهة مختلفة . وفى الزاوية الشمالية الشرقية بالقرب من صورة لتراجان راكعاً أمام إلهين ، يرى المنظر المشهور لحقيبة الأدوات الخاصة بجراح مصر هو أمحوتب ، إسكليبيوس المصرى[1] وبالقرب من الباب الذى يفتح من صالة الأعمدى الكبرى إلى الدهليز الخارجى لقسم سوبك (الأيمن) يرى ما تبقى من منظر (٥٢) يمثل الملك يذبح أعداءه وقد تهشم حتى ركبتى الملك ، ولم يبق غير الأجزاء السفلية من أعدائه التابعين ولكن لا يزال ظاهراً الأسد الأليف للملك الذى ينقض على العدو ، ويمسك بفمه يد أحد الأسرى التعساء . وهذا دون شك تقليد لرمسيس الثانى ورمسيس الثالث اللذين يمثلان عادة مصطحبين - فى المعركة أو فى أى مكان آخر - أسداً أليفاً ، غير أنه يجب اعتبار نموذج كوم أمبو مجرد زينة مثله فى ذلك مثل المجموعة المهشمة من البلاد المختلفة الاثنين والثلاثين الممثلة تحت هذا المنظر .

والآن نترك المعبد الكبير لنزور مخلفات بيت الميلاد التى تقوم فوق السطح القريب من النهر أمام الصرح المخرب للفناء الأمامى من ناحية قسم حور - أور (الأيسر) . وقد بناه بطليموس السابع (إفرجيت الثانى) . وأحد المناظر طريف حيث أنه يقدم لنا مثلاً للتقليد الأعمى للعصور القديمة ، ذلك التقليد الذى كان من سمات الفن المصرى فى العصور المتأخرة . والمنظر يقع على الواجهة الغربية من الجزء الأعلى من الجدران ، وهو ليس إلا نسخة مقلدة للمنظر المألوف فى المقابر القديمة ، حيث يرى صاحب المقبرة يصطاد الطيور فى أدغال البردى . ومن الواضح أن المعنى القديم للمنظر قد ضاع تماماً ، وأن النحات أو الكهنة الذين أوحوا إليه بذلك ظنوا أن هناك معنى دينياً غامضاً يكمن فى المنظر الذى سجلوه على جدران بيت الميلاد . ويوجد خلف بيت الميلاد على مقربة من الجدران المهدمة للفناء عتبان رائعان ، أحدهما يحمل اسم بطليموس التاسع ، نيوس ديونيسيوس[2] ويوجد أيضا

---

(١) الرأى السائد الآن أن هذه أدوات كانت تستعمل فى طقوس وضع أساسات المعبد .
(٢) صحته بطليموس الحادى عشر

على هذا الجزء من السطح بئران متصل أحدهما بالاخر ومقصورة صغيرة أقامها كراكالا تكريماً لسوبك الذى يبدو إلهاً مناسباً لرجل مثل هذا . وبالقرب من النصف المتبقى من صرح نيوس دينونيسيوس توجد مقصورة لم تكمل لحاتحور بدأها الامبراطور دوميتيان ، وتضم إحدى حجراتها موميات بعض التماسيح المقدسة ، ومناظرها ليست بذات أهمية ومن بين هذه المناظر ذلك المنظر الذى يرى على الباب من الخارج والذى يمثل آلهة تلعب على القيثار أمام حاتحور ، والمنظر من الشرفة جدير بالملاحظة .

وبين كوم أمبو وأسوان لا يوجد شىء جدير بالاهتمام . وفى منتصف المسافة بين الموقعين توجد محاجر كبيرة من الحجر الرملى استعملت فى العصر البطلمى ويوجد أيضا قليل من النقوش الصخرية تضم نقشاً يرجع تاريخه إلى الحكم المشترك بين تحتمس الثالث وحتشبسوت[1] وعلى الشاطىء الغربى توجد جبانتان أو ثلاث ، ولكن ليس بها ما يستحق الاهتمام .

---

(١) شوه هذا النقش بواسطة أصحاب أحد المحاجر أخيرا

الفصل الرابع والثلاثون
اسوان[1] والفنتين : نبذة تاريخية

لاتقدر أهمية المدن القديمة الواقعة على حدود مصر الفعلية بضخامة وفخامة المخلفات الباقية من تاريخها القديم . ورغم أن بعض هذه المدن على جانب كبير من الأهمية - كما سنرى فيما بعد - غير أن أهميتها لا ترجع إلى مابها من مبان رائعة أو قطع فنية جميلة ، فليس فى اسوان أو الفنتين غير القليل نسبيا من هذه الأشياء ، وقد كانا فى وقت ما يضمان معابد جميلة ، من بينها واحد كان يتميز - رغم صغره - بجمال خاص . ولكن ما تبقى من معابد فى أسوان هو ذلك المعبد المتأخر الذى لم يكمل والذى يخلو من الجمال ونعنى به معبد ايزيس الذى بدأه كل من بطليموس الثالث (افرجيت الأول) وبطليموس الرابع (فيلوباتر) دون

---

(١) تمع مدينة أسوان فى أقصى وادى النيل الأخضر ، وهى مدينة ذات طابع خاص مميز ، فهى تتميز بماض مشرف طويل ، وتتطلع فى نفس الوقت إلى مستقبل مشرق زاهر .

ولقد قامت فى هذا الموقع منذ الآف السنين عاصمة الإقليم الأول من أقاليم الوجه القبلى ، والتى كانت بمثابة قلعة على الحدود تحمى مداخل الوادى الجنوبية وتوجه الحملات التأديبية إلى الجنوب وكذا سوقا للتجارة مع النوبة وأواسط أفريقيا ، ومركزا لقطع الأحجار من محاجر الجرانيت بجوارها .

وتشغل مدينة أسوان الحديثة مكان مدينة القديمة التى كانت تقع على الشاطئ الشرقى للنيل ، والتى أستقت منها أسمها الحالى وكذا الجزيرة المواجهة لها والمعروفه بأسم جزيرة الفنتين . ولكن وجه أسوان قد تغير تماما الآن بعد أن أصبحت مشتى عالمياً وبعد إقامة خزان أسوان وكهربته وإنشاء المصانع بها ثم إنشاء السد العالى . فلقد تحولت هذه المدينة الصغيرة الخاملة إلى مدينة كبيرة سوف يتزايد نموها على مر الأيام حتى تصبح أكبر مركز صناعى فى قارة أفريقيا . ومن ثم أصبحت هذه المدينة التى كانت فيما مضى الباب الموصل إلى أفريقيا الدينمو المحرك لقوى مصر ، والتقى بها تراث الماضى المجيد بحضارة القرن العشرين فأقيم بالقرب من آثار الدولة القديمة أضخم مشروع هندسى فى العالم .

أن يتماه . أما مقابر اشراف الفنتين فإنها رغم أهميتها التاريخية العظمى ـ لا تكشف عن جمال فنى يتناسب مع قيمتها التاريخية ويكمن بعض السبب فى كل هذا إلى حقيقة هى أن الأهمية للمكان لم تكن ترجع قط إلى أهميته كمدينة عظيمة مستقرة بقدر ما كان له من أهمية كمستودع كبير للبضائع ونقطة حدود حيث تلتقى النوبة بمصر لتبادل منتجاتها مع منتجات الشمال الأكثر حضارة ، وحيث كانت الحملات التأديبية ترسل ـ فى الفترات التى تتوقف فيها التجارة ـ إلى الجنوب متخطية الصعوبات التى تقابلها عند مرورها بالشلال الأول ، أو عائدة إلى الشمال منتصرة بعد انتهاء حملتها . وقد كانت أسوان والفنتين فى عهد الدولة القديمة تحددان الخط الفاصل بين الواقع الثابت وبين الخيال . وإلى الجنوب منهما وبعد الشلال تقع الصحراء الكبرى الشهيرة التى تمتد إلى افريقيا الاستوائية . وبالنسبة إلى الرائد أو المحارب فى عصر الدولة القديمة ، كان الطريق إلى الجنوب يؤدى إلى بلاد العجائب حيث يمكن أن يحدث أى شىء ، كما كان الطريق إلى الشمال يؤدى فى أيام الدولة الحديثة إلى بلاد النهرين والمجهول حيث تقع العجائب كل يوم ، وحيث تجرى الأنهار فى اتجاه مضاد لاتجاه نهر النيل ، وحيث يحجب الأمراء بناتهم داخل قلعة عظيمة ذات نوافذ مقامة فوق صخرة مرتفعة ، ويهبهن غنيمة للرجل الجسور الذى يستطيع أن يتسلق إلى نوافذهن . وقد كانت الأساطير فى الأيام الأخيرة من الدولة القديمة قبل سقوطها تتركز حول نبلاء الفنتين الشجعان الذين كانوا يحملون ضمن القابهم الكبيرة لقب مدير القوافل ولقب حامى باب الجنوب وكانوا يرأسون الحملة إثر الحملة إلى الجنوب المجهول إما للتجارة أو للحرب حسب الظروف . وعندما توقفت التجارة وتدفقت قبائل الواوات وارتت وايام نحو الشمال لغزو مصر ، وقف هؤلاء النبلاء على باب الحدود ليصدوا اعداء فرعون وقد مضت مدة لا تقل عن عشرين قرنا حتى تمكنت اثيوبيا[1] أخيراً ـ لفترة قصيرة ـ من أن تنجح فى هدفها وتحكم مصر التى حكمتها من قبل .

وليس باسوان والفنتين من هذا كله غير ماجاء فى نصوص مقابر هؤلاء الحماة القدامى الذين كانوا يحرسون باب الجنوب لسادتهم بمنف . ولا شك أن حياة الاقليم فى تلك الأيام القديمة كانت على جانب من الأهمية . ومن حسن الحظ لاتزال قصتها باقية ، والفضل فى ذلك يرجع إلى نفس هذه النصوص الموجودة فى المقابر . وليس من المحتمل أن تترك قصة الارتياد الحديث للقطب أى شىء ملموس للأيام القادمة أكثر مما تركته قصة هؤلاء الرواد القدامى لأفريقيا الاستوائية ومع ذلك فكما أن مغامرتنا القطبية قد منحت التاريخ الحديث روح الرواية التى بدونها يبدو فى احيان كثيرة شحيحا ، فإن مغامرات هؤلاء التجار القدامى فى الدولة القديمة قد نفخت الحياة فى العظام الجافة للتاريخ المصرى القديم وجعلتها تحيا من

---

(١) المقصود باثيوبيا بلاد النوبة وكوش والشلال الرابع وليس بلاد الحبشة كما هو العرف الآن .

جديد . ولا شك أن تقدم أسوان الحديث قد أضاع أوأخفى الكثير من مفاخرها القديمة ولكن التغيرات الحديثة لا يمكن أن تحرم العالم حاليا من قصة أيامها الغابرة عندما بدأ حكامها القصة العظيمة لمغامرات وسط أفريقيا ـ تلك القصة التى لا تتوقف إلا نادرا حتى أيامنا هذه .

وتقدم لنا أسوان والفنتين مثلا آخر لشىء لاحظناه أكثر من مرة خلال رحلتنا إلى الجنوب - ذلك هو وجود مدينتين يفصلهما النيل ، إحداهما ، وهى الواقعة على الضفة الشرقية للنيل ، تدين بوجودها إلى ضرورات التجارة ، بينما ترجع شهرة الأخرى الواقعة على الضفة الغربية إلى العوامل الدينية أو الحربية . وفى حالة هاتين المدينتين اللتين نحن بصددهما ، نجد أن الفنتين لا تقع فعلا على الضفة الغربية بل تقع فوق جزيرة فى وسط مجرى النيل ، غير أن هذا لا يغير من الصفات الأساسية . لقد كانت أسوان المدينة التجارية ، والفنتين المركز الدينى والحربى للاقليم . ويمكننا أن نخمن من موقع الفنتين أنها كانت أقدم المدينتين . وهى تشغل موقعاً أكثر صلاحية لتكون حصناً لحالية فتية ترغب فى حماية نفسها ضد الأخطار التى تتعرض لها إما من الحيوانات المفترسة أو من الرجال الأكثر شراسة ، ولا بد أن كليهما كان موجوداً بكثرة عندما أقامت القبيلة المصرية الأولى شعارها على الجزيرة .

وينسب مستر وايجول أصل اسم المكان إلى هذا الشعار (الطوطم) الذى تصورته هذه القبيلة بشكل فيل ، بينما يرجع آخرون الاسم إلى ما قيل من أن المصريين رأوا هنا الفيل الأفريقى لأول مرة . ولكن ليس هناك ما يدعو إلى التضارب بين هاتين النسبتين . ولا بد أن قبيلة الفيل المصرية قد شاهدت أولا هذا الحيوان المفترس فى مكان ما قبل أن تتخذ صورته شعاراً لها . وهل هناك مكان أنسب من هذا المكان ، حيث تلتقى مصر باثيوبيا ، وحيث كان الفيل وبالأحرى ، عاجه ، معروفاً فى تلك الأزمان البدائية ، كما كان التمساح الذى اختفى حالياً ـ كثير الوجود فى الأوقات التى بنى من أجله معبد فى كوم أمبو وقد يكون الاشتقاقان صحيحين . ومما يؤيد شيوع الفيلة فى الأماكن المجاورة تلك الرسوم العديدة المنقوشة على الصخور الواقعة فى المنطقة ، والتى يرجع تاريخها إلى عصر ماقبل التاريخ وهذه الحقيقة تؤيد احتمال وجود حيوان له من القوة والشيوع ما يجعل قبيلة مقدامة تتخذه شعارها فى مقامها بالقرب من أرض الفيلة .

وقبيلة الفيل التى يرجح أنها اتخذت اسمها وشعارها من موقعها بالقرب من أرض الفيلة استقرت فى عصر قديم جداً فى الجزيرة الكبيرة التى نسميها حالياً الفنتين والتى تقع فى وسط مجرى النيل تجاه مدينة اسوان . وسرعان ما عرفت الجزيرة والمدينة التى شيدت فوقها باسم « آبو » (الفيل) وتدريجيا عندما لم تتمكن القبائل النوبية الساكنة فى الجنوب من طرد أو القضاء على الدخلاء الذين احتلوا موقعاً حصيناً كهذا فانها رأت أن تقيم علاقات تجارية

معهم ولهذا الغرض كان من الواضح أن موقعاً على البر أكثر صلاحية من الأحياء الضيقة بالجزيرة . وعلى ذلك فبعد إقامة المعسكر بالجزيرة بمدة طويلة انشئت « سون » التى تعنى « السوق » ويحتمل أن المصريين نطقوا هذه الكلمة « سوانى » وقد حرف الإغريق الكلمة إلى « سين » والنطق القبطى لها «سوان» قريب أيضاً من الأسم الاصلى .

ولم يمض وقت طويل حتى كشف فراعنة الأسرة الأولى المتحمسون عن المميزات الطبيعية لهذا الموقع بالنسبة لمملكتهم الجديدة الموحدة ، فإن سد الصخور البللورية المتداخلة ، الذى أوقف هنا فى وقت ما تدفق مياه النيل وأوجد الشلال الأول وأنتج أحجار الجرانيت الحمراء والرمادية والديوريت وأنواعاً أخرى من الأحجار الصلبة التى كان لها الأهمية لشعب قدر له أن يكون أعظم شعوب العالم القديم بناء بحيث لا تهمل طويلا ، فى منتصف الأسرة الأولى رصفت فعلا أرضية مقبرة الملك دن سمتى بابيدوس بالجرانيت الأحمر وبعد ذلك لفترة قصيرة استخدم خع سخموى من ملوك الأسرة الثانية فى إقامة كتف باب معبده كتلة من ذلك الجرانيت الرمادى المجلوب من أسوان اطلق عليه بلينى فيما بعد «سينيتى» نسبة إلى الاسم الإغريقى للمكان الذى وجد به وأخيراً أصبح جرانيت أسوان الأحمر والرمادى وبخاصة الأحمر أكثر شيوعاً من الأحجار الأخرى الصلبة لدى الصناع فى الدولتين الوسطى والحديثة ، بل كما رأينا كانت شهرة الجرانيت قد بدأت تعرف أيام الفراعنة الأوائل .

وبظهور الجيل العظيم لبناة الأهرام فى منف ، دخلت أسوان فى عصر جديد من التقدم . ورغم أن البناة المصريين لم يستخدموا قط الأحجار الصلبة بالقدر الكبير الذى نتصوره أحيانا ـ إذ أن غالبية مبانيهم كانت من الحجر الجيرى والرملى غير أن الاستعمال الفعلى المحدود لها أنه أحدث نشاطا كبيرا مثمرا للمدينة التى أحضرت بالقرب منها تلك الأحجار . وقد استخدمت كميات كبيرة من الجرانيت فى الهرم الأكبر والهرم الثانى لتبطين بعض المبانى وتغطيتها وعمل التشطيبات الأخرى ، بينما ارتأى منقرع تكسية الهرم الثالث كله بالجرانيت ، غير أنه لم يتم غير تكسية المداميك الستة عشر السفلية التى لم تصقل قط . وتبعا لذلك يمكننا أن نتصور أنه فى العصر المبكر كانت صناعة التحجير بأسوان صناعة كبيرة وهامة استخدم فيها عدد كبير من العمال الدائمين بالإضافة إلى الأفواج الخاصة التى كانت توفد هناك كلما جدت أعمال ضخمة للفرعون الحاكم . وكان يشرف على هذه الأفواج عادة موظف هام من القصر كان فى كثير من الأحيان يسجل اسمه فى الأماكن القريبة ، ومن بين هؤلاء الموظفين خوفو عنخ الذى نقش اسمه على صخرة بالقرب من الطرف الجنوبى من جزيرة الفنتين . لذلك بدأ الفراعنة يدركون - كما أدركنا نحن فى وقتنا مزايا السودانيين كجنود ، كما بدأ ظهور فرق الجنود السود الذين أصبحوا فى الأيام الأخيرة عماد الجيش المصرى . وعلى ذلك لاتقتصر أهمية المدينتين على أنهما كانتا فقط مركزا لصناعة تحجير كبرى

فإن أسوان بالإضافة إلى ذلك كانت مستودعا كبيرا لتبادل التجارة بين مصر والسودان ، كما كانت الفنتين مركزا حربيا هاما حيث كانت تحشد فيها الفرق النوبية وحيث كانت تدرب على أعمالها الجديدة .

وبناء على هذه الحقائق بدأ أشراف الفنتين يأخذون مكانهم فى تاريخ البلاد الذى لم يكن فى تاريخ المنطقة السابق ما يدعونا إلى أن نتوقع ذلك وقد سنحت الآن الفرصة لاسوان والفنتين ، وكما يحدث أحيانا أخرجا فى الوقت المناسب الرجال الذين استطاعوا استغلال هذه الفرصة التى وضعت تحت أقدامهم . والآن بدأنا نقرأ السير الذاتية لامراء الحدود وحراس تخوم فرعون تلك السير التى أضافت الكثير والطريف إلى التاريخ المصرى خلال بقية تاريخ الدولة القديمة ، ولولا نقوش مقابر أشراف الفنتين لكان تاريخ مصر خلال الأيام الأخيرة من الدولة القديمة مملا ، ولكن مغامرات حرخوف وسابنى وغيرهما نفخت فيه روح الخيال الذى يجمل بنا أن نحتفظ به فى القصة .

وبقيام الأسرة الخامسة نجد الشواهد المكتوبة التى توضح المركز الذى بدأت تشغله الحدود الجنوبية فى أذهان الفراعنة ، فنجد نقشا من عصر ساحو رع ثانى فراعنة هذه الأسرة على الصخور الواقعة فى توماس فى النوبة السفلى[1] مما يشهد بتقدم إحدى الحملات جنوبا حتى هذا الموقع على الأقل . وقد أرسل جد كارع أسيسى الملك الثامن من ملوك هذه الأسرة حملة بقيادة مستشاره « باوردد » إلى أبعد من هذا المكان إذا أخذنا بما جاء من إشارة إلى هذه المغامرة فى خطاب لبيبى الثانى من ملوك الأسرة السادسة يحكى فيه كيف أن باوردد عاد ومعه واحد من أقزام إحدى القبائل التى تسكن غابات أفريقيا الوسطى . وقد ترك أوناس خليفة اسيسى ، وربما آخر ملوك الأسرة ، شاهدا هاما جدا محدد التاريخ على صخرة جرانيتية فى جزيرة الفنتين .

وبينما لايوجد مايدعو إلى أن نقرأ كثيرا فى هذه الكتابات المبعثرة ، فإنه من الواضح أن زيارة عرضية للفرعون للحدود الجنوبية أو حملة يرأسها أحد موظفى القصر لابد أنها كانت تضيف لمدة إلى النشاط النامى للمدينتين .

وبقيام الأسرة السادسة تتجمع الشواهد الدالة على أهمية الحدود الجنوبية فيرسل تيتى أول فراعنة هذه الأسرة حملة أخرى إلى توماس على مسافة مائة وعشرين ميلا جنوبى الشلال الأول .

وفى عهد بيبى الأول أحد الفراعنة الأقوياء الأشداء يبدأ الجنود المرتزقة النوبيون فى أخذ أماكنهم ـ التى لم يفقدوها قط فيما بعد ـ كرأس حربة للقوات الضاربة التى كانت ترسل إلى ميادين الحرب من وقت لآخر . لقد كان الجندى المصرى جنديا مخلصا ومثابرا من الطراز

---

(١) الواقع أن النقش المقصود يرجع إلى الملك بيبى الأول ثانى ملوك الأسرة السادسة .

الروتينى عندما تسوسه قيادة ماهرة ولكن لم يظهر منه قط اشارة للميل إلى العراك الذى يميز المحارب السودانى ولذا فعندما يرغب الفرعون فى القيام بحرب ضارية كان يستدعى الفرق السودانية للانضمام إلى جيشه ، وقد حدث ذلك عندما كلف أونى أحد أتباع الملك بيبى المخلصين بتنظيم حملة ضد الأسيويين ساكنى الرمال ، فقد توجه أونى إلى الحدود لتنظيم جيشه « ألف جلالته جيشا من عشرات الآلاف من كل الجنوب الذى يحده جنوبا الفنتين وشمالا افروبتوبوليس . . . من بين زنوج ارتت وزنوج مازوى وزنوج أيام وزنوج واوات وزنوج كاو ومن بلاد التمح (برستد ـ النصوص القديمة ، الجزء الأول ، الفقرة ٣١١) .

ومن ذلك يتضح أن كل القوة التى ذكرها أونى كانت تتكون من زنوج ومن لم يكن زنجيا كان من الليبيين (تمح) . وقد ازداد اعتماد الجيش المصرى على المرتزقة إلى درجة أنه فى العصور المتأخرة أصبح الاسم المصرى للجندى « ماتدى » وهو تحريف متأخر لاسم قبيلة «مازدى» التى ذكرها أونى ويمكن للإنسان أن يتصور نشاط أسوان والفنتين عندما يحشد « الجيش المكون من عشرات الآلاف » وازدياد هذا النشاط عندما عادت الفرق السودانية مظفرة ومعها الغنائم التى استولت عليها من مكان الرمال . وقد تكرر هذا العمل خمس مرات أيام بيبى الأول على يد قائده المظفر أونى الذى برهن على أنه كان قائدا كما كان قاضيا وكاتبا ناجحا .

ولابد أن أونى كان شخصية محبوبة فى أسوان ، فقد كانت زياراته الأخرى للأماكن القريبة ـ رغم أنها كانت مسالمة فى طبيعتها ـ تساعد على تنشيط التجارة . وفى عهد الملك مرنرع الذى لم يعمر طويلا والذى خلف بيبى الأول ، أرسل إلى أسوان ليجلب الجرانيت اللازم لهرم الملك ، وعينه مرنرع حاكما للجنوب . وقد كانت إدارته ناجحة بحيث استطاع أن يضمن سلامة نقل الأحجار الغالية بطريق النهر تحت حراسة سفينة حربية واحدة فقط . وهو يذكر ذلك بفخر «لم يحدث قط أن قامت بزيارة أبهات والفنتين سفينة حربية واحدة فقط فى عصر أى ملك من الملوك» ، وهى جملة تساعدنا على فهم الأحوال المضطربة للحياة الصاخبة فى نقطة الحدود رغم رخائها . وبعد ذلك قام بعمل ضخم بشق قنوات خمس لتسهيل مرور المراكب فى منحدرات الشلال الأول . وقد ذكر لنا أنه أتم هذا العمل فى سنة واحدة وقبل وفاة مرنرع بوقت قصير زار الفرعون الصغير منطقة الشلال بنفسه وقد سجلت هذه الزيارة على نقشين فى الموقع حيث يرى مرنرع متكئا على عصاه وأمامه رؤساء القبائل النوبية . ويجرى النقش كالآتى :

«السنة الخامسة ، الشهر الثانى من الفصل الثالث ، اليوم الثامن والعشرين تشريف الملك شخصيا وظهوره خلف المنطقة الجبلية لكى يرى ما فى المنطقة الجبلية بينما يقوم رؤساء المازودى وارتت وداوات بتقديم أيات الخضوع والمديح لجلالته (برستد ـ النصوص القديمة ، الجزء الأول ـ الفقرة ٣١٧) .

ويظهر جليا أن فراعنة الأسرة السادسة أقاموا سياسة ثابتة للنهوض بمنطقة الحدود ، وقد كانت زيارة مرنرع لها دليلا على ذلك وخلال حكم مرنرع القصير بدأ أحد الأمراء المحاربين يحتل مكان الصدارة كقائد للقوافل ورائد ، وبمجرد تولى بيبى الثانى العرش عين حاكما للجنوب خلفا لأونى النشط الذى أحيل إلى المعاش أو مات . وسوف نتحدث عن مغامرات حرحوف (خواف حر) التى قام بها أثناء تأدية أعماله الخطيرة عند حديثنا عن مقبرته ، وقد خلفه فى وظيفته الكبيرة أمير آخر من الفنتين يدعى سابنى ، وسوف نعرف مآثره فيما بعد وهناك شخصية مبرزة ثالثة فى الوقت هى شخصية بيبى نخت ، وكان أعظم أعماله انتقامه من موت أحد زملائه الأمراء الذى قتله أحد الأعراب المحاربين عندما كان يشرف - وهو على شاطىء البحر الأحمر ـ على بناء أحد المراكب لحمله إلى بونت . ولشد مايذهل الإنسان عندما يعرف مدى ما أظهره هؤلاء الأمراء من نشاط وحب المغامرة فى وقت قصير نسبيا . وإذا سلمنا بالظروف التى عملوا فيها فإنهم يستحقون من المديح تماما مثلما أسبغه العالم فى وقتنا الحاضر على رواده العظام الذين اكتشفوا المناطق المجهولة من العالم .

وسرعان ما أدى تدهور وسقوط الحكومة المركزية فى أواخر الأسرة السادسة إلى توقف هذا النشاط توقفا مؤقتا ، فقد انتقلت وظيفة حاكم البلاد الجنوبية أو حامى باب الجنوب من أمراء الفنتين إلى عائلة كبيرة فى أسيوط يبدو أنها أمسكت بمقاليد الحكم لمدة جيلين مما ضايق دون شك الفنتين التى هبت لحمل السلاح ولكنها هزمت على يد منافستها الشمالية وفى فترة كانت فيها الفوضى سائدة فى كل انحاء المملكة ، ولذا كان من الطبيعى أن تمتد هذه الفوضى إلى منطقة حدود يعمها الاضطراب .

وقد استتب النظام هنا ، كما استتب فى كل مكان آخر أيام حكم الأسرة الحادية عشرة الطيبية ، فقد ترك أحد حكامها المعروفين باسم أنتف ، كما ترك منتوحتب الثانى نقوشا فى منطقة أسوان ، وقد تمكن حكام الأسرة الثانية عشرة الأقوياء ـ رغم انتقال عاصمتهم إلى الشمال فى ايثبت تاوى ـ من السيطرة على مقاطعاتهم الجنوبية ، كما استطاعوا تدريجيا مد نفوذهم إلى الجنوب حتى الشلال الثالث بحيث عين حاكم على هذا الاقليم يدعى حبا جفا صاحب المقبرة التى سبق أن رأيناها فى أسيوط ، ولكنه دفن فعلا ـ محاطا بطقوس بربرية وضحايا بشرية هائلة ـ فى كرما فى الاقليم الذى كان يحكمه[1] . وقد كان امنمحات الأول اول من بدأ هذا الزحف فيقول فى تعاليمه لابنه « لقد روضت الأسود ، وأسرت التماسيح وهزمت الواوات وانتصرت على المازوى » ويذكر نقشه فى كوروسكو ما يأتى« السنة التاسعة والعشرين من حكم ملك مصر العليا والسفلى ، سحتب ابب رع ، يعيش إلى الأبد ـ قدمنا لقهر الواوات »وفى عهد ابنه سنوسرت الأول امتد الزحف المصرى كما رأينا نحو

---

(١) هذه النظرية التى قال بها رايزنر لم تعد مقبولة من الجميع .

الجنوب حتى الشلال الثالث ورغم ما حدث من انتكاس فى عهد سنوسرت الثانى ـ الذى ترك لنا نصا عن رحلة تفتيشية لقلاع الحدود قام بها أحد رجاله ، فإن خليفته المحارب الشجاع سنوسرت الثالث استعاد النفوذ .

ولابد أن كانت أسوان والفنتين فى ذلك الوقت على جانب كبير من الأهمية فقد كانتا قاعدة لعمليات جميع الحملات السودانية التى كان يسيرها الفراعنة نحو الجنوب وقد كانت جميع الامدادات اللازمة لكل حملة والفرق نفسها تنقل من السفن التى كانت تحضرها حتى النهاية الشمالية للشلال الأول ثم تنقل إلى أعالى الشلال حيث كانت تنزل إلى السفن المجهزة لها هناك . وأما إذا تيسر سحب السفن إلى أعالى الشلال ضد التيار فى القنوات التى حفرها أو نى ، فعندئذ يتبدى نشاط زائد خلال أوقات مرور الجيش وعودته . وعلاوة على ذلك فلابد أن أسوان كانت مركزاً للجانب الأكبر من الجيش الذى كان يتألف معظمه إذ ذاك من الفرق السودانية . وعلى ذلك فلا نعجب أن يستعيد حكام الفنتين مراكزهم الممتازة مرة ثانية ، فكان من بينهم اثنان باسم مارنبوت توليا الوظائف القديمة لحكام الأراضى الجنوبية وحراس باب الجنوب وفى الفترة الأولى من عصر هذه الأسرة أقيم السور العظيم الذى لا يزال يرى فى أسوان للدفاع عن الموقع ضد إحدى الهجمات النوبية ، غير أنه لم يستخدم نتيجة لانتصارات سنوسرت٠.

والضرورة التى كانت تدعو إلى النقل الطويل عند الشلال الأول أو السحب الشاق للسفن عند القنوات القديمة التى حفرها أونى والتى يحتمل أن تكون قد سدت فى ذلك الوقت - هذه الضرورة أمكن تفاديها فى الفترة الأولى من عمر سنوسرت الثالث بإنشاء قناة جديدة (يفهم منها أنها قناة حديثة باهوستها فهى لم تكن سوى تعميق واستقامة جزء من الممر يسمح بسحب السفن إلى الجنوب بسيولة أكثر) . وقد سجل هذا العمل فى نقش على صخور جزيرة سبيل التى سنوليها اهتماماً فى حينه . ومن الواضح أن القناة الأولى لم تحقق نجاحاً كاملا بدليل أنها ظهرت مرة أخرى فى السنة الثامنة من حكم سنوسرت ، وقد سجلت هذه الواقعة أيضا على جزيرة سهيل ، ولابد أن هذا التطهير قد تم بعناية أكثر بدليل أن القناة ظلت تستخدم لمدة ثلاثة أو أربعة قرون ، فلم تطهر إلا فى عهد كل من تحتمس الأول وتحتمس الثالث عندما أبحرا إلى الجنوب فى مهمات تشبه مهمة سنوسرت .

ولم تكن أهمية المنطقة قاصرة على الناحية العسكرية ، فمنذ عهد قديم كان للشلال ـ كما هو طبيعى ـ أثره فى نمو عقيدة دينية قوية ، فقد كان خنوم إله المنطقة الكبير واحدامن أشهر الآلهة المصرية ، ولم يكن فقط إله منطقة الشلال بل كان أيضا أحد كبار المعبودات الخلاقة التى خلقت العالم ، كل بطريقته أو بطريقتها الخاصة . وقد كان خنوم يستخدم عجلة الفخرانى فى تشكيل الأرض والإنسان الأول ، وكان من المفروض بصفته آلها خالقا أن يسكن فى الشلال ، وكانت سيطرته على المنطقة تامة . وكما تفتقت العبقرية الدينية المصرية

عن تزويد كل إله من آلهتها العظيمة بمعبودين لتكوين الثالوث الذى يؤلف الوحدة الطبيعية للعبادة المحلية ، فقد كان لخنوم ثالوثه كالآلهة الأخرى ، غير أن ثالوثه كان يضم آلهتين بالإضافة إلى شخصه ، وهاتان الآلهتان هما آلهتا الشلال سانت وعنقت ، ولا يعرف غير القليل عن اشتقاق اسميهما .

وكان خنوم رئيس الثالوث يمثل برأس كبش ، وكان الكبش حيوانه المقدس . وقد امتدت شهرته إلى خارج الحدود المحلية ، كما كانت شهرته كإله خالق شعبية بصفة تقريبية ، ولكن كان يحتفظ دائماً باحترام شعب مصر بسبب اعتقادهم بأنه الواهب أو الضابط لفيضان النيل الذى كان العامل الأساسى لرخاء البلاد أجمعها ، وسوف نرى قريباً الشاهد على قوة هذه الخرافة فى نقش مزور بطريقة محكمة بجزيرة سهيل .

وبعد انتهاء العصر الزاهر للدولة الوسطى ، حلت المصائب والفوضى بالبلاد ولاشك أن مقاطعات الحدود قد لحقها ما لحق بالبلاد ، رغم أن سيطرة الحكام الهكسوس عليها لم تكن كاملة بالقدر الذى كانت عليه فى المقاطعات الشمالية للمملكة . وفى فترة مثل هذه لم يكن من المنتظر أستغلال الرجال أو الثروات فى مغامرات فى الجنوب أوفى مشروعات انشائية ويمكننا أن نتصور ما لحق بأسوان والفنتين من أضرار بسبب توقف المحاجر والحملات الحربية التى كانت تتخذ من الموقع قاعدة لها ومن اضطراب السوق النوبية كما هو الحال فى بقية المملكة .

ونتيجة للانتصارات على الهكسوس وقيام الأسرة الثامنة عشرة ، عادت الرفاهية ثانية لمدينتى الحدود ، فبمجرد أن انتصر الملك أحمس الأول على الهكسوس نجده يشرع فى استعادة السيطرة المصرية على القبائل النوبية تلك السيطرة التى توقفت خلال الفترة المضطربة . ويحكى لنا أحمس بن أبانا ما أظهره من شجاعة فى الحملة التى سار فيها جلالته ليحدث مذبحة كبيرة بين البدو النوبيين ، ومرة أخرى ترى أسوان والفنتين الأساطيل والجيوش تبحر فى النيل جنوباً لعبور الشلال كما ترى إقامة المحطات الحربية . وقد سار تحتمس الأول على خطى أحمس ونال أحمس بن أبانا أعلى مرتبة فى البحرية بسبب قيادته الموفقة لسفن الأسطول النهرى عبر الشلال « فى التيارات المضادة وفى مرور السفن فى المنحنيات » وقد وصل تحتمس جنوباً حتى الشلال الثالث ، وفى عودته إلى الشمال أحضر معه جثة الرئيس النوبى الذى ذبحه بيده وعلقها على مقدمة سفينته ، وهذا مثال لوحشية الحروب التى كانت شائعة قبل هذا الوقت ، وقد توقف لمدة قصيرة عند الشلال الأول حيث التقى بالموظف الجديد الذى عينه حاكماً للجنوب ـ مكان الحاكم شبه الوراثى الذى كان يعين من قبل من بين أمراء الفنتين ـ بلقب « ابن الملك فى البلاد الجنوبية » أو « فى كوش » وأصدر اليه الأمر بتطهير قناة سنوسرت الثالث القديمة ، التى كانت قد ردمتها الرواسب الطينية ، وقد أنجز العمل« تورى » ابن الملك فى كوش الجديد ، وترك نقشا على جزيرة

سهيل ذكر فيه هذا العمل الذى أنجزه : « السنة الثالثة ، الشهر الأول من الفصل الثالث ، اليوم الثانى والعشرون ، تحت حكم جلالة ملك الوجه القبلى والبحرى «عاخبر كارع) معطى الحياة ـ أمر جلالته بحفر هذه القناة بعد أن وجدها مسدودة بالحجر بحيث لم يكن فى استطاعة أى سفينة المرور فيها . وقد أبحر فيها متجها إلى الشمال وكان السرور يغمر قلبه بعد أن ذبح أعداءه : ابن الملك تورى (برستد النصوص القديمة ، الجزء الثانى ـ فقرة ٧٥) .

وهذا التعيين الجديد لأحد موظفى القصر للقيام بمهام الوظيفة التى كان يشغلها سابقاً الحكام المحليون يدل على السياسة الجديدة لفراعنة الامبراطورية ـ تلك السياسة التى كانت تهدف إلى إحلال الحكم البيروقراطى محل الحكم المحلى الذى كان قاصرا على العائلات الكبيرة للبارونات والأمراء التى كانت تسعى غالباً إلى إضعاف سلطة الملك . وقد كان نتيجة هذه السياسة الجديدة أننا لم نعد نرى فى أسوان والفنتين تلك النصوص الخاصة بالأمراء المحليين الذين أدوا دورا مشرفا فى النهوض بالمقاطعات الجنوبية القديمة . ومنذ ذلك الوقت لم نعد نسمع عن حرحوف وبيبى نخت فى نصوص الإقليم .

وقد استعاضت المنطقة عن مركزها الممتاز بالدخول فى مرحلة جديدة من الرخاء المادى لم يسبق أن شهدت مثيلا لها ، فقد خلف تحتمس الأول ابنه تحتمس الثانى الذى ـ وان لم يغز النوبة بشخصه ـ أرسل على الأقل حملة إلى الجنوب وقد حضر بنفسه إلى أسوان ليتقبل خضوع الرؤساء النوبيين . وقد قامت حتشبسوت - رغم أنها لم تشن حربا ـ بنشاط ملحوظ فى محاجر الجرانيت التى اقتطعت منها مسلاتها الضخمة والقطع اللازمة لتزيين معابدها . أما تحتمس الثالث فقد ركز معظم اهتمامه بآسيا ، ومع ذلك فقد عبر الشلال ـ كما فعل أجداده ـ أثناء حملته النوبية التى قام بها فى السنة الخمسين من حكمه ، وقد لقى نفس الصعوبات التى لقيها أسلافه ، إذ وجد قناة سنوسرت الثالث القديمة قد ردمت مرة ثانية رغم أنها طهرت فى أيام تحتمس الأول . ونتيجة لذلك لم يكتف بتطهيرها فقط بل عمل على صيانتها سنويا : « أمر جلالته بحفر هذه القناة بعد أن وجدها قد سدت بالحجر بحيث لم يعد فى استطاعة أى سفينة المرور فيها ، وقد أبحر فيها متجها إلى الشمال ، وكان قلبه مسرورا لأنه ذبح أعداءه « واسم هذه القناة » شق هذا الطريق أمام بهاء » من خير رع « يعيش إلى الأبد » وسوف يتولى صيادو السمك فى الفنتين تطهير هذه القناة سنوياً . (برستد ـ النصوص القديمة ، الجزء الثانى الفقرة ٦٥٠) .

ولم تكن أعمال تحتمس الحربية لتشغله عن الاهتمام برفاهية إقليم الشلال فلم تشهد المحاجر من النشاط مثلما شهدته فى تلك الأيام عندما كانت المسلات الضخمة تقطع من جرانيت أسوان وتنقل إلى جميع أرجاء مصر ، ومن المحتمل أنه شرع وقتئذ فى المسلة الهائلة التى لا تزال ترقد فى محجر أسوان ولا يرجع تركها إلى استحالة استخلاص هذه الكتلة

الضخمة ـ بل يرجع إلى ظهور تصدعات فى المسلة كلما تقدم العمل بها[1] ومع أن اعمال التحجير فى أيام رمسيس الثانى قد نافست تلك الأعمال فى زمن تحتمس الثالث ، غير أن الموقع لم يشهد فى أى وقت آخر مثل هذا النشاط الدائم ولم يقتصر الملك على استخدام جرانيت المنطقة فى الأماكن الأخرى فقط بل أنه زين الفنتين أيضا بمعبد جميل زال فقط عام ١٨٢٢ على أيدى أحد الحكام المحليين الذى استخدم أحجاره كمورد سهل لاقامة مبنى الوالى محمد على .

وقد شيد هنا أيضا امنوفيس الثانى ابن وخليفة تحتمس ، ولكن اسمه يذكر بصفة خاصة مقرونا بالعمل الوحشى الذى ارتكبه فى نهاية حملته الأسيوية ، وذلك بأن أرسل جثة أحد الرؤساء الأسرى الأسيويين لتعلق على جدران نباتا فى الجنوب . وقد قاد تحتمس الرابع حملة إلى النوبة عبر أسوان ، وإذا أخذنا بالنقش الخاص بها الموجود على الصخور جنوبى الشلال ، لكانت حملته هذه هى أكثر الحملات نجاحا : تحرك الملك مصعداً فى النيل مثل اوريون[2] ، وأضاء الجنوب بطلعته البهية ، وهلل الرجال اعترافا بفضله ، ورقصت النساء عندما بلغهن الخبر » ويجوز لنا أن نشك فى صدق ماتضمنه النقش وبخاصة إذا رجعنا إلى الاشارة فى أحد نصوص تل العمارنه بشأن هذه الحملة التى يبدو أنها كانت ذات تأثير عميق فى مخيلة المصرى لا لنجاحها بل لما شاع حولها من أخبار مفزعة . (برستد ، النصوص القديمة ، الجزء الثانى ، فقرة ٨٢٨ ، وكذلك ديفز ، المقابر الصخرية بتل العمارنه ، الجزء الخامس ، صفحات ٣٠ ، ٣١)

وبمجىء امنوفيس الثالث وحملته النوبية الكبيرة التى كان من نتائجها ان وصلت الحدود الجنوبية للامبراطورية إلى الشلال الرابع ، بلغت أسوان ذروة رخائها - لقد كان امنوفيس بناء عظيما كجده تحتمس الثالث فكان يجلب باستمرار كميات كبيرة من الجرانيت لمبانيه الفخمة التى كان يقيمها فى جميع أنحاء مصر وبخاصة فى الأقاليم الجنوبية . وقد أقام فى النوبة معبدين هامين فى صولب وسيدنجا ، وكان أولهما أكبر المعابد المصرية التى بنيت فى النوبة . كذلك أضاف إلى المعابد التى كانت قائمة بالفنتين معبدا صغيرا يتميز بجماله وقد كرسه للآله خنوم الإله الخالق وإله الشلال . ورغم إن هذا المبنى كان لا يزيد على ٤٠ قدما ٣٠ قدما بارتفاع ١٣ قدما ، غير أنه يمتاز بتصميم جميل فريد فى نوعه يضاهى نوعا من الطرز المعروفة فى العمارة اليونانية . وقد زال هذا البناء الجميل على أيدى الحاكم المحلى الضال الذى استغله كمحجر فى بناء سراى لمحمد على فى أسوان .

---

(١) الغالب أنها كانت من أعمال الملكة حتشبسوت وأنه حاول الانتفاع ببعض أجزائها بعد اكتشاف التصدعات فيها ولكنه لم يوفق .

(٢) الجوزاء : كوكبة الجبار .

وبالاضافة إلى النشاط المعمارى الذى قام به الملوك فقد استمتعت أسوان برخاء وفير بصفتها مركز صناعة تعدين الذهب والمستودع لشحنات الذهب التى كانت ترد من النوبة فى شكل تبر كجزء من جزية المنطقة وفى ذلك الحين كان حكام الشرق القديم يلحون باستمرار على امنوفيس الثالث فى طلب هدايا ذهبية وحجتهم فى ذلك أن «الذهب فى بلاد أخى موجود كالتراب» ولا شك أن الفنتين كانت تحتفظ لنفسها بكمية كبيرة من التبر ، وعلى الأقل لا بد أن استمرار مرور شحنات الذهب قد حقق عملا ضخماً لسكان المدينتين .

ومن الطبيعى أن هذا الرخاء لم يستمر فى عهد إخناتون المشئوم أو إبان الحكم المضطرب القصير لخلفائه رغم أن جزية الجنوب كانت ترد فى حينها من الجنوب خلال حكم توت عنخ آمون كما سبق ذكره عند الحديث عن مقبرة حوى فى طيبة . غير أنه بقيام الأسرة التاسعة عشرة وبخاصة فى عهد رمسيس الثانى ذلك البناء الكبير والمغتصب الأكبر لمبانى الآخرين عاد الرخاء ثانية إلى محاجر أسوان ، ومما لا شك فيه أن معظم مبانيه كانت من الحجر الرملى غير أنه كان يحتاج باستمرار إلى الجرانيت لاقامة مسلاته وتماثيله التى لا حصر لها مما أعاد لأسوان عصرها الذهبى . وقد شيد رمسيس معبداً آخر فى الفنتين ولا تزال بقاياه موجودة حتى الآن . وقد أقام ابنه منفتاح لنفسه تمثالا بالفنتين[1] كما أن واحدا أواثنين من الملوك لين مثل سيبتاح ورمسيس الثالث من ملوك الأسرة العشرين قد تركوا أسماءهم فى هذا المكان ولا بد أن رمسيس الثالث قد أحدث نشاطاً ملموساً فى أسوان نتيجة لمشاريعه المعمارية الضخمة ، وقد أسدل الستار على تاريخ الإقليم لمدة بسبب ضعف الحكام والظروف المضطربة التى تلت .

ولا شك أن ازداد الرخاء مرة أخرى فى المدينتين لفترة من الزمن خلال نهضة البلاد فى عهد فراعنة الأسرة العشرين العاتية ولا يرجع ذلك إلى الحاجة إلى الجرانيت المحلى بقدر ما يرجع إلى ازدياد نفوذ ثراء رجال الدين فى إقليم الشلال ، ففى ذلك العهد اكتسب خنوم والعضوان الأخران لثالوثه ، سانت وعنقت ، مركزا ممتازا لا فى الإقليم وحده فحسب بل فى انحاء البلاد كلها . وينعكس ازدياد شهرة هذا الثالوث فى كثرة النقوش التى سجلها رؤساء كهنة هذه المعبودات فى الأماكن المجاورة وقد امتد نفوذ آلهة الشلال إلى النوبة جنوبا وإلى جبل السلسلة شمالا وقد اعتبرت منطقة الشلال بأكملها أرضاً مقدسة . وقد أحيا كهنة فيلة عرفا قديما يشير إلى أن زوسر الملك المشهور فى الأسرة الثالثة منح خنوم ملكية جميع الأراضى الممتدة من الفنتين إلى تاكومبسو التى تقع على مسافة ٧٥ ميلا إلى الجنوب وذلك بقصد تدعيم حقوقهم . وقد أخذت فيلة نفسها ومعها جزيرة بيجة المجاورة فى الظهور كمكان مقدس مشهور . وأصبح لإقليم الشلال كله نصيبه الكامل فى ذلك التقدم الوقتى الظاهرى الذى أحل نفوذ الكهنة محل النفوذ الحقيقى القومى والعالمى .

---

(١) اتضح أنه لامنوفيس الثانى بمناسبة يوبيله .

وقد حظيت فيلة بنصيبها فى إقامة المعابد خلال حكم ملك من ملوك إحدى الاسرات الوطنية المتأخرة[1] ففى عهد نقطانيو الأول من ملوك الأسرة الثلاثين بنى معبد لا يزال غارقا تحت مياه التخزين التى يحجزها الخزان العظيم [2] . وبقيام حكم البطالمة نشطت من جديد حركة بناء المعابد فى الإقليم المقدس ، ففى الفنتين أقيمت الأرصفة على طول الجزيرة لراحة العدد الوفير من زوار المعابد القديمة لتحتمس الثالث وغيره من فراعنة الأمبراطورية . غير أن السحر لفيلة كان ينافس الشهرة القديمةلالفنتين ، ومن ثم بدأت المعابد تزداد بكثرة فى فيلة بحيث لم تستطع المدن القديمة مسايرتها ، وبدأت عقيدة إيزيس تحجب ثالوث الشلال .

وفى ذلك الوقت انتهت بصفة فعلية سيطرة مصر على أثيوبيا وفى عهد الأسرة السادسة والعشرين أقام ابسماتيك الأول حامية فى الفنتين لحماية مصر العليا من غارات النوبيين ، ولكن هذه الحامية لم توفق كثيرا حسب ما ذكره ديودور إذ تمردت وسارت إلى النوبة للإقامة بها وفى أيام الرومان كان اقليم الحدود مهددا باستمرار من النوبة ، وفعلا وقعت أسوان نفسها فى أسر ملكة أثيوبيا كانداس عام ٢٣ ق.م ومن أطرف ما حدث فى تلك الأيام المتأخرة ـ عندما تدهورت المدينتان من مكانتهما المرموقتين ـ أن كوفىء جوفينال الناقد الرومانى المشهور الذى سمح لنفسه أن ينتقد بحرية كاملة ممثل الأمبراطور المحبوب ـ بتعيينه حاكما للحامية بأسوان التى كانت تقريباً بمثابة سيبريا حاليا . وفى مثل هذه الظروف لم يكن منتظرا منه أن يقدر تقديرا عاليا أى شىء فى مصر إبتداء من ديانة الشعب فنازلا ، وفعلا لم يفعل ذلك . وقد أصبحت الديانة المصرية ـ فى ذلك الوقت الذى كتب فيه نقده الخامس عشر ـ فى حالة تستحق ذلك الهجاء الذى صبه على معبوداتها الحيوانية ، ولكن علينا أن

---

(١) ظهرت بقايا معابد من عصر ابسماتيك الثانى وأمازس من فراعنة الأسرة السادسة والعشرين الصائبة أخيرا عند فك معابد فيلة ونقلها إلى جزيرة أجليكا المجاورة وقد استدعى الأمر لهذا العمل بعد إقامة السد العالى وقرار بقاء منسوب المياه المحتجزة قبلى خزان أسوان لمنسوب ١١٠ مترا فوق سطح البحر .

(٢) ظلت آثار فيلة شامخة فوق الجزيرة حتى بدأ التفكير فى بناء خزان أسوان ١٨٩٤ ، وتبين وقتئذ أن هذه المعابد سوف تغمر جزئيا بالمياه ، ومن ثم عهدت وزارة الأشغال فى ذلك الوقت ـ وكانت تتبعها مصلحة الآثار – إلى مدير مصلحة المساحة كابتن ليونز ، بتظيف المنطقة القبطية وترميم المعابد ، فقام بهذه المهمة ، ثم أكمل هذا العمل المهندس الإيطالى برسانتى الذى رقم كل آثار النوبة .

وبعد بناء خزان أسوان وتعليته أصبحت معابد فيله تغمر مدة عشرة أشهر كل عام ولا تنحسر المياه عنها إلا وقت الفيضان عند ما تفتح بوابات الخزان وظلت معابد فيله على هذا الوضع حتى بدأ التفكير فى بناء السد العالى ، وبدأت وزارة الثقافة فى بداية عام ١٩٥٩ تتخذ خطوات تنفيذ إنقاذ النوبة ومن بينها معابد فيله مع هيئة اليونسكو

وقد تقدمت عدة مشروعات لإنقاذ معابد فيله وأخيرا فى سنة ١٩٦٨ تم الاتفاق على تنفيذ نقل المعابد وإعادة بنائها فوق جزيرة أجليكا المجاورة وقد تم فك المعابد ويجرى الآن العمل لنقلها واعادة بنائها فوق الجزيرة . و بانقاذ معابد فيله يتم إنقاذ تراث النوبة جميعها .

ندخل فى اعتبارنا أن المزاج السىء نتيجة لنفيه كان له أثره فى تعمية مثل هذا الناقد الذكى عن الحقيقة بأنه لا بد أن كان وراء كل هذه المغالاة فى عبادة الحيوان ـ التى تردت إليها ديانة من أقدم الديانات ـ شىء أكثر رسوخا وقيمة .

وخلال الأوقات التعسة لسقوط الامبراطورية الرومانية ، لا بد أن أسوان وما يجاورها قد عانت كل ألوان البؤس التى تحل بالحدود التى كانت تتعرض دائما لغارات القبائل القوية الوحشية بسبب عدم قدرة الحكومة المركزية على إمدادها بحامية تكفى للدفاع عنها . وأن معاهدة السلام المشينة التى اضطر القائد ماكسيمنوس إلى عقدها مع البلمى تكشف عن الشدائد التى نزلت برجال المنطقة نتيجة لضعف الحكومة الرومانية وبسقوط الامبراطورية عادت البلاد نهائيا إلى أصحابها الأصليين . وحلت المسيحية لفترة محل العبادة القديمة لخنوم أو إيزيس . وفى عام ٦٤٠ ميلادية دخل الإسلام البلاد وبدخوله ينتهى مجال دراستنا .

الفصل الخامس والثلاثون
أسوان والفنتين : آثارهما

ليس فى أسوان أو الفنتين فى الوقت الحاضر ـ كما رأينا ـ أية مخلفات سابقة ذات أهمية أو شهرة مما يتناسب بأى حال من الأحوال مع المركز الذى شغلته المدينتان فى التاريخ المصرى[1] ومع أهميتهما فى تاريخ الإمبراطورية المصرية ، فليس فى أسوان حاليا غير مبنى واحد له بعض الأهمية ، وهو من عصر بطلمى ، وقد سبق أن شاهدنا مصير المعبدين الجميلين لتحتمس الثالث وأمنوفيس الثالث اللذين كانت تزدان بهما الفنتين ، وأول شىء يرى فى أسوان هو معبد إيزيس الذى يقع إلى الجنوب من المدينة الجديدة على مقربة من الكنيسة الإنجليزية . والموقع كئيب مثل المعبد نفسه الذى لم يكمل . وفى المنطقة الواقعة أمام المعبد مباشرة توجد خرائب المدينة القديمة وهى مغطاة بالانقاض التى تراكمت فى وقت أحدث ، ومن ورائها الصحراء . وكما هو الحال فى إسنا تراكمت الأنقاض بكثرة بحيث يبدو المعبد كأنه فى فجوة عميقة بحيث يستوى سقفه بالطريق . ويمكن الوصول إليه بدرجات تنزل إلى عمق عشرين قدما تقريبا من السطح . والمعبد من عمل بطليموس الثالث ، افرجيت الأول ، وبطليموس الرابع ، فيلوباتر ولكن لم يكمل قط . وليس بواجهته نقوش أو مناظر اذ تتكون من مجرد كتل غير مزخرفة من الحجر الرملى . ويوجد بها

---

(١) تعتز مدينة اسوان بماض مشرف طويل وتتطلع فى نفس الوقت إلى مستقبل مشرق زاهر وخاصة بعد اقامة خزان اسوان وكهربته وانشاه مصانع كيما واستغلال مناجم الحديد القريبة منها ثم بناء السد العالى ، وهكذا تحولت تلك المدينة الصغيرة إلى مدينة كبيرة سوف يتزايد نموها على مر الايام حتى تصبح أكبر مركز صناعى فى قارة افريقيا ، وبعبارة اخرى قد اصبحت تلك المدينة التى كانت فيما مضى الباب الموصل إلى افريقيا هى الدينمو المحرك لقوى مصر ، والتقى بها تراث الماضى المجيد بحضارة القرن العشرين

بابان أحدهما وهو الباب الرئيسى متوج بكورنيش مقعر وقرص مجنح ، والآخر باب صغير . وكلا المدخلين يؤدى إلى صالة المعبد . وعلى عتب المدخل الرئيسى يرى بطليموس الثالث ، افرجيت الأول أمام آلهة متعددة . وفى إحدى الحالات يصطحب زوجته برنيس . وعلى الكتفين يرى نفس الملك أمام الآلهة . ومن الطبيعى أن تسترعى برنيس المهتمين بالأبراج الشمالية حيث أن مجموعة النجوم بأسفل ذيل برجى الدب الأكبر والكلب والتى ترى بالعين المجردة كعنقود واسع الانتشار ، تعرف باسم شعر برنيس . فقد نذرت برنيس بأن تقص شعرها وتقدمه للآلهة إذا انتصر زوجها بطليموس الثالث فى حربه فى سوريا ، وبعد انتصار الملك أوفت الملكة بنذرها مما دعا الفلكى « كونون » الذى كان إذ ذاك فى الاسكندرية أن يعلن بأن المجموعة الصغيرة من النجوم التى تحمل بعض الشبه بخصلات شعر ذهبى يجب أن تدعى شعر برنيس . أما الشاعر كاليماخوس فقد غالى فى مجاملته أكثر من الفلكى بأن أوحى بأن خصلات شعر الملكة قد رفعت إلى السموات . وعلى سمكى الباب الكبير يظهر بطليموس يقدم لتحوت على اليمين ولحورس بن ايزيس على اليسار . أما الباب الصغير فله أيضا كورنيش مقعر وقرص مجنح ومزين بمناظر تمثل بطليموس يقدم إلى الآلهة .

والصالة مستطيلة الشكل ولا تزال تحتفظ بسقفها الذى يستند على عمودين مربعين يعلو كلاً منهما تاج مربع خال من الجمال ، وتضاء بواسطة أربع نوافذ ، اثنان منهما فى حالة مخربة ، وبالجدران عدة كوات خالية من الشواهد التى كانت موضوعة بها أصلا . ولكن عدا ذلك ليست هناك أى محاولة لعمل زخرفة ، وهذه حقيقة تعزى إلى نمو روح التقشف ، وإن كان يرجح كثيرا أنها ترجع إلى عدم إتمام المعبد بالمرة ، إذ أن البطالمة لم يكونوا بأى حال من الأحوال عازفين عن عمل الزخرفة فى أى مكان آخر وفى منتصف الجدار الخلفى باب كبير يؤدى إلى المقصورة التى كانت بمثابة هيكل ، على حين يوجد فى كل من جانبيه باب آخر يفضى إلى مقصورة صغيرة . وللباب المتوسط كورنيش وقرص مجنح وعليه مناظر تمثل بطليموس وهو يقدم التقاديم . وعلى سمكى الباب ترنيمة إلى ايزيس التى تمثل هنا بالنجم سوتيس (سيريوس) . ويضاء الهيكل بواسطة فتحة فى السقف أما زخارفه فتوجد فقط على الجدار الخلفى حيث يرى بطليموس الرابع فيلوباتر يقدم لعدة آلهة ممثلة فى أربعة أقسام مهشمة . أما الحجرتان الأخريان فخاليتان من أى زخرفة . وعموما ليس المبنى بذى أهمية سواء من الناحية المعمارية أو من الناحية الزخرفية . ولا تستغرق زيارته وقتا طويلا .

ويفوق هذا المعبد من حيث الشهرة والأهمية ـ تلك المحاجر الجرانيتية التى استغل الفراعنة أحجارها لأعمال الزينة فى مبانيهم الضخمة والتى لا بد أنها شهدت فى أيامهم بعض أعمالهم الهندسية الرائعة . وتقع المحاجر فى التلال الواقعة إلى الجنوب من المدينة والمعبد الذى شاهدناه ويمكن الوصول إليها من المدينة فى مدى ربع ساعة ، ومن السهل جدا زيارتها ، ومنها نصل إلى الشلال على أن نعود ـ إذا رغبنا ـ بالقطار من المكان الأخير .

والمحجر الشمالى الذى ـ سنزوره أولا بطبيعة الحال يضم ما يعتبر لدى معظم الزوار أهم شىء يمكن رؤيته بأسوان وأقوى دليل على قدرة الحجارين المصريين القدماء كصناع مهرة فى التحجير ، ونعنى به تلك المسلة الضخمة التى لم تكمل والتى تقع فى المحجر دون أن تنتزع منه ، وإن كانت قد فصلت فى مكان آخر من الصخر المحيط بها بواسطة شق عرضه قدمان ونصف قدم وطول هذه المسلة الهائلة ١٣٧ قدما بعرض ١٣ قدما وثمانى بوصات عند القاعدة ، وثمانية أقدام وبوصتين عند أسفل قمتها الهرمية التى تتوج المسلة ، ووزنها الكلى يقدر بحوالى ١١٦٨ طنا . وعلى ذلك فإن هذه المسلة ـ لو أنها اقتطعت ـ لكانت أكبر كتلة من الحجر تناولها المصريون أو أى شخص آخر ـ على حسب علمنا حتى الآن ـ رغم أن الكتلتين اللتين استخدمتا لتمثالى رمسيس الثانى بالرمسيوم وتانيس لا تقلان عنها كثيرا فى الوزن ، فوزن كل منهما بوجه التقريب حوالى ١٠٠٠ طن . ولا يرجع السبب فى عدم استخلاص هذه المسلة الهائلة من الحجر إلى صعوبات آلية ـ لا يمكن التغلب عليها ـ خاصة بقطع أو نقل مثل هذه الكتلة الضخمة ولكنه يرجع ببساطة إلى أنه أثناء العمل ظهرت تشققات فى الجرانيت مما جعلها غير صالحة للغرض المطلوب . وتكشف العلامات الموجودة على المسلة الكبيرة عن محاولة عملت عقب ظهور التصدع الرئيسى للانتفاع بجزء من المسلة فى عمل مسلة أصغر ، ولكن صرف النظر عن هذه المحاولة أيضا بسبب الكشف عن تشققات أخرى مما جعلها غير صالحة لأى مشروع كبير . وأفضل وقت لرؤية خطوط القطع فوق سطح الحجر ، وتفاصيل القطع الذى فصلها من الصخر الحجرى إما فى الصباح المبكر أو قبل الغروب مباشرة .

وهذا الشق الفاصل ذو مغزى نظرا إلى الطرق التى كان يستخدمها الحجارون المصريون فى استخلاص كتل الحجر من الصخر الحى . وقد قيل بصفة عامة (أنظر بيدكر ، الطبعة الثامنة ، ص ٣٨٢ ومصادر أخرى)أن الطريقة التى كانت متبعة هى عمل فجوات بطول خط القطع المقترح ، ووضع أسافين من الخشب فى هذه الفجوات ثم بل جميع الإسافين فى وقت واحد على طول الخط إلى أن تفصل الكتل نتيجة لتمدد الخشب عند موضع الخط المحدد . غير أن للسيد/أنجلباك الذى كشف عن هذه المسلة الهائلة عام ١٩٢١ رأياً يستبعد فيه استخدام الأسافين الخشبية ، ويرى أن فصل الكتل العادية كان يتم بواسطة اسافين معدنية كانت تدق بالمطارق وهو يرى أن الطرف المستدق فى الشقوق ، التى لاتزال باقية فى بعض الحالات ، والتى تتطلبها الأسافين كبير بحيث تسمح لها أن تقفز من الشقوق ، بدلا من شق الحجر نتيجة لتمدد هذه الأسافين عندما تتبلل وفضلا على ذلك فإنه من الصعب جدا بل الأسافين الأفقية ، التى كانت تعمل كثيرا - بطريقة مناسبة ، كما أنه يستحيل عمل ذلك فى حالة الأسافين التى تدفع من أسفل . وبالإضافة إلى هذه الأسافين المعدنية فإنه يعتقد أن مقدارا كبيرا من عملية فصل الحجر كان يتم بفعل النيران التى كانت

تغطى بقوالب توضع على الخط الفاصل . وهذه طبعا ، أراء جديرة بمناقشتها بمعرفة الخبراء ، غير أنه لا يمكن التغاضى عن رأى خبير مثل السيد/انجلباك (أنظر انجلباك ، مشكلة المسلات ، وكذا نفس المؤلف فى كتابه الذى وضعه بالاشترك مع سومرزكلارك ، العمارة المصرية القديمة الفصل الثالث)

وعلى أى حال ، فإن المسلة الضخمة لم تفصل بطريق الاسافين والبلل إنما فصلت بطريق القطع البسيط ، أو كما يسميه انجلباك سحق الحجر بواسطة المدكات الخشبية التى تنتهى بكرات من حجر الدولوريت الذى يتميز بشدة صلابته . وقد وجدت مئات من هذه الكرات - التى انكسر الكثير منها رغم صلابه الدولوريت - نتيجة للقوة المستخدمة - فى الموقع اثناء عملية الحفر . وان البساطة المتناهية للطريقة التى استخدمت لاستخلاص مثل هذه الكتل الضخمة من الحجر لا تقلل من إعجابنا بمهارة المصرى القديم بل إنها ترفع من قيمته ، فالعبقرية الحقة هى التى تستخدم أبسط الوسائل للوصول إلى أعظم النتائج . ولابد ان طريقة استخلاص هذه المسلات العظيمة المصنوعة من الحجر الصلد من المحاجر فى شهور قليلة مثل مسلة حتشبسوت بالكرنك التى يبلغ ارتفاعها ٩٧½ قدم والتى قطعت بواسطة كرات حجرية ، لتدل على براعة ، فضلا عن أنها أكثر روعة من الطرق المعقدة التى تؤدى إلى نفس الغرض .

وبالقرب من موقع المسلة العظيمة يجد الزائر ما يدل على كيفية نقل مثل هذه الكتل ، فعلى مسافة مائتى ياردة شرقى المسلة يلتقى الطريقان المرصوفان اللذان كانت تسحب عليهما الكتل الحجرية فى طريق واحد يستمر حتى يصل إلى النيل . وقد قصد بالرصف بالحجر الرملى الذى لا يزال ظاهرا فى بعض المواضع منع الكتل الثقيلة من الغوص فى سطح الجسر . ولابد انه قد نقلت فوق هذا الجسر كتل لا حصر لها من الجرانيت على مدى قرون بواسطة الوسائل البسيطة كالروافع والدرافيل وكذا الثيران والرجال الذين كانوا يسحبونها ويقص علينا امنمحات الذى كان وزيرا أيام آخر ملوك الأسرة الحادية عشرة المعروفين باسم منتوحتب ، والذى أصبح فيما بعد مؤسس الاسرة الثانية عشرة ، ان ثلاثة الآف بحار استخدموا فى انزال غطاء التابوت الملكى ولابد ان البحارة كانوا وقتئذ - كما هو الحال الآن - مهرة فى كل الاعمال التى تتطلب السحب ويمكننا ان نتصور جموعا مماثلة من الرجال المدربين على عملية الجر يستخدمهم سنموت وانينى او من خبر رع سنب عندما ارسلتهم حتشبسوت او تحتمس الثالث جنوبا إلى اسوان ليحضروا المسلات التى اقامها كل منهما فى انحاء البلاد ، ويحسن بنا ان نقف بعض الوقت لنتأمل المنظر من فوق الطريق المرصوف[1] .

---

(١) أنظر أيضا كتاب R.nglebach, The Aswsn Obelisk

ولموضوع المسلات عموما : الفكرة الدينية والتاريخية لإقامتها - وطرق نحتها ونقلها وأهم المسلات :
Labib Habachi The Dbelisks of Egypt, The skyscrapers of the Past, 1977

وعلى بعد ميل من هذا المحجر نصل إلى المحجر الجنوبى . وهنا عند الجانب الجنوبى من المدخل إلى الوادى يوجد تابوتان لم يكملا من العصر البطلمى ، وقد شكلا تشكيلا خشنا بما يشبه الحوض ، ولكنهما لم يجوفا . وعلى مسافة ليست بعيدة من هذين التابوتين يوجد شاهد محفور فى واجهة الصخر عليه منظر يمثل رجلا امام خراطيش الملك امنوفيس الثالث . ويقرأ النقش هكذا : الولاء للإله الطيب (الفرعون) عندما صنع التمثال العظيم لجلالته المسمى «شمس الحكام» . ومن المحتمل ان صورة الرجل ـ الذى لابد ان كان المثال الذى صنع التمثال ـ قد أزيلت بأمر من الملك الذى لم يرضه ان تبلغ الجرأة باحد اتباعه بحيث يقحم شخصه إلى هذا الحد بعمله . وعلى مسافة قصيرة إلى الجنوب من التابوتين اللذين لم يتما نجد تمثالا ضخما لم يكمل لأحد الملوك ، وبالقرب منه كتلة ضخمة من الحجر مربعة الجوانب من المحتمل انها كانت معدة لعمل احد النواويس التى تصنع من كتلة واحدة والتى كان الفراعنة المتأخرون مغرمين بها .

والآن نصل إلى التل الواقع جنوبى الوادى الذى تخترقه سكة حديد الشلال ، ومنه نرى منظرا جميلا للشلال والنيل ، وفيلة إلى الجنوب وبالقرب منها تمثال آخر ضخم من الجرانيت على شكل ازوريس يبلغ ارتفاعه حوالى ٢٠ قدما . وهو غير كامل كما أنه غير منقوش ، ويطلق عليه الأهالى اسم رمسيس الثانى الذى هو فى اعتبارهم ملك الملوك . وقد يكون من نافلة القول أن نفكر فى الأسباب التى دعت إلى عدم إتمام القطعة التى ذكرت او ترك قطعة اخرى من هذا النوع فى المحجر . قد يكون تعليل ذلك موت الملك الذى يهمه الأمر أو ثورة اخناتون الدينية . أو غارات القبائل النوبية أو أى سبب اخر من عشرات الأسباب التى تدعو لذلك، والواقع اننا لا نعرف السبب الآن ومن المحتمل اننا لن نعرفه مستقبلا والحالة الوحيدة التى نعرف فيها السبب فى ترك عمل لم يتم غير نصفه هى حالة المسلة الكبيرة ، فالنظرة إلى تشققاتها تكفى للتدليل على ذلك .

ويحسن بنا قبل أن نترك هذه المحاجر القديمة إن نتذكر ما اسفر العمل فيها من اعمال تبعثرت ليس فى مصر فحسب بل فى أنحاء العالم أيضا . ففى مصر نجد المسلات الكبيرة لحتشبسوت بالكرنك ، ومسلة رمسيس الثانى بالأقصر ، والمسلة الأصغر لتحتمس الأول بالكرنك ، والتمثال الضخم لرمسيس الثانى بالرمسيوم ، ومسلة سنوسرت الأول بعين شمس ، وأجزاء من التمثال الضخم لرمسيس فى صان الحجر فى أقصى الشمال . وفى القسطنطينية نرى المسلة الناقصة لتحتمس الثالث ، وفى روما نجد مسلة اللاتيران ومسلة فلامينا وغيرها من مسلات أصغر ، وفى باريس ، فى ميدان الكونكورد توجد المسلة التوأم لمسلة الأقصر لرمسيس الثانى ، وعلى جسر التيمز بلندن تقوم مسلة كليوباترا « لتحتمس الثالث » بينما تزين شقيقتها فى سنترال بارك بنيويورك . ولكن هذه هى التى بقيت فقط . ويحكى لنا هيرودوت عن ناووس من قطعة واحدة فى سايس (صا الحجر) قام بنقله الفان

من البحارة من اسوان إلى موضعه بالدلتا فى مدى ثلاث سنوات كما يحكى لنا قصة اخرى عن ناووس آخر ضخم فى بوتو (تل الفراعين) وإذا اخذنا بالمقاسات التى نسبها اليه (٤٠ ذراعا لكل جانب) فلابد انه كان يزن حوالى ٧٠٠٠ طن ، مما يدعو بطبيعة الحال الى بعض الشك فيما يتعلق بحجمه الكبير (هيرودوت ، الجزء الثانى ، الفقرة ١٥٥) ومع ذلك فلا يستطيع المرء إلا أن يبدى إعجابه الكبير بالمهارة والجهد الانسانى الذى شهده هذا الموقع فى الازمان الغابرة . وبينما نأسى لضياع فيلة ، نرى ان المهارة الهندسية الحديثة قد قدمت الى حياة مصر الجديدة عملا جديرا بأن يقف جنبا إلى جنب مع العمل الماضى المجيد .

السور العظيم

إن مخلفات استحكامات الحدود التى كانت فيما مضى مهيبة لم تعد تؤثر فى النفس حالياً لكنها هامة بعض الشىء بالنظر إلى دورها العظيم وإلى أثرها فى الوقت الذى وجدت فيه مصر نفسها فى حاجة ماسة إلى الدفاع عن نفسها فى هذا الموضع ، وإلى حماية حدودها باستحكامات ثبت عدم جدواها كما يحدث غالباً فى البلاد الأخرى . ويمكن رؤية السور فى الطريق المؤدى إلى سد أسوان ، فإذا أخذنا الطريق الذى يمر بالجبانة الانجليزية (إلى اليمين) وتتبعنا السكة الحديد ، التى بطل استعمالها ، والتى كانت تستخدم فى نقل المهمات إلى السد ، فإننا نحاذى مخلفات السور القديم الذى كان مبنياً باللبن كما هو المعتاد فى بناء مثل هذه الاستحكامات فى مصر ، ولا يزال محتفظاً فى بعض أجزائه إلى ارتفاع يتراوح بين ١٣ و ٢٠ قدماً بسمك حوالى ٦ أقدام . والغرض الواضح منه حماية حركة المرور على النيل وشاطئه من غارات القبائل النوبية ويبدو أنه بنى أثناء الفترة الأولى من الأسرة الثانية عشرة ، ففى ذلك الوقت كانت النوبة تهدد مصر وتناصبها العداء ، ويظهر أن امنمحات الثانى وسنوسرت الثانى لم يكونا قادرين على ايقاف التهديد بالطريقة الفعالة بدفع القبائل إلى الجنوب أو اخضاعها للسيطرة المصرية ، فاستعاضا عن ذلك باللجوء إلى الوسيلة المعتادة لدى الحكام والدول الضعيفة وذلك بالإكثار من التحصينات على الحدود وبالقرب منها . وعلينا أن نتذكر أنه فى الكاب إلى الشمال وجد أنه من المستحسن إقامة سور ضخم من اللبن حول المدينة القديمة هناك ، وأن تسمية هذا الاستحكام باسم « سور سشم تاوى » لدليل على أنه أقيم فى عهد الملك سنوسرت الثانى . ويرجع سور أسوان إلى نفس العصر كما

هو واضح من نقش على صخرة وراءه . ويجرى النقش كالآتى « عمل فى السنة الثالثة من حكم جلالة حورس ، سشم تاوى التى تقابل السنة الخامسة والثلاثين من حكم جلالة حورس ، نوب كاورع (امنمحات الثانى) وقد قدم حابو (لقبه غير مؤكد) للتفتيش على قلاع واوات (أى النوبة السفلى حيث يوجد هذا النقش فعلاً) .

وقد برهنت الاستحكامات على فائدتها بعض الشىء طالما كانت مصر تخشى ممارسة سياسة أكثر عنفاً فى النوبة ولكن سرعان ما استغنى عن الحاجة إليها نتيجة لنشاط وعدوان سنوسرت الثالث الذى تغلب على النوبيين واستعاد السيطرة المصرية فى الجنوب حتى سمنه التى تقع على مسافة ٣٧ ميلا جنوبى وادى حلفا . ورغم أن هذا الموقع أقل من مائتى ميل عن كرما التى بلغها سنوسرت الأول ، غير أنه ، على أى حال ، أبعد التهديد النوبى على مصر العليا . بحيث لم تعد هناك حاجة إلى الاستعراضات التى تتسم بالجبن كسور أسوان الذى يبدو أنه لم يستعمل ثانية .

النقوش الصخرية بأسوان

تضم أسوان مجموعة من النقوش الصخرية ، من بينها عدد قليل له بعض الأهمية التاريخية ، وكثير منها يوجد على طول الطريق بين المدينة والشلال ، وأهمها نقشان ، أحدهما لتحتمس الثانى ، والآخر لأمنوفيس الثالث ، وكلاهما يصف سحق مايحلو للفراعنة أن يطلقوا عليه ، حركة التمرد فى النوبة . وسوف يلاحظ أن جميع النقوش الصخرية قد رقمت باللون الأبيض ، فرقم نقش تحتمس الثانى هو ٤٧٤ ويخبرنا كيف أن الفرعون استقبل مبعوثاً من الحدود يحمل الرسالة التالية : « شرع كوش التعس فى القيام بحركة التمرد ، وعزم الذين كانوا تحت سيطرة سيد الأرضين على القيام بعمل عدوانى بادين بتسديد الضربات إليه « ويستمر النقش » ثارت ثائرة جلالته بسبب ذلك الأمر عندما سمعه . وقال جلالته « أقسم برع الذى يحبنى وبأبى سيد الآلهة أمون سيد طيبة الذى يرعانى بانى لن أدع واحداً من رجالهم » . وبعد ذلك يخبرنا النقش كيف أن تحتمس أرسل حملة إلى النوبة توجت أعمالها بالنجاح التام . وقد قتل النوبيون ماعدا ابن أحد زعمائهم الذى احضر كأسير مع بعض أفراد قبيلته وقدموا لجلالته . ومن الواضح أن تحتمس الذى لم يذهب جنوباً مع الحملة التأديبية ، حضر إلى أسوان ليتلقى ولاء القبائل . لقد وضعوا تحت أقدام الآله الطيب (فرعون) وقد ظهر جلالته فوق عرشه عندما أحضر إليه الأسرى الأحياء الذين أسرهم جيش جلالته (برستد ، النصوص القديمة ، جزء ٢ - فقرة ١١٩) .

ورقم نقش أمنوفيس الثالث هو ٤٧٦ ويخبرنا أيضا ، ولكن بأسلوب عملى عن سحق حركة التمرد فى النوبة ، فالجزء الأعلى من الشاهد يصور أمنوفيس يطأ اسيويا ، ويضرب اثنين من الزنوج ، ويقف أمامه أمون وخنوم ، بينما يقف خلفه بتاح . وبأسفل الشاهد ، بعد الصيغة الطويلة المعتادة من القاب أمنوفيس الثالث ، يخبرنا النقش « حضر شخص ليقول لجلالته : لقد عزم كوش التعس على القيام بحركة تمرد ، عندئذ خطط جلالته للنصر ، وأتمه فى حملته الأولى المظفرة . ولم يكن العدو يعرف ذلك الأسد الذى كان يواجهه فقد كان نب ماعت رع (امنوفيس الثالث) أسداً مفترساً فاستولى على كوش ، وقد غلب الزعماء فى وديانهم ، واغرقوا فى دمائهم الواحد تلو الآخر (برستد ، المصدر السابق ، الجزء الثانى ، الفقرتان ٨٤٣ ، ٨٤٤) والنقش رقم ٤٧٧ يرجع إلى السنة الثانية من حكم رمسيس الثانى وهو أكثر اهتماماً بالمديح المبالغ فيه لهذا الفرعون المتواضع منه بسرد الحقائق . وقد قدم إليه الأجانب يحملون أطفالهم ليسألونه أن يمنحهم نفس الحياة ، فصرخة معركته تدوى فى أرض النوبة ، وقوته تصد الأقواس التسعة ، وتأتى إليه بابل وخيتا وارفد راكعة بسبب سمعته ، وسرعان ما يجد رمسيس أن الحيثيين لم يكونوا على الإطلاق راغبين فى أن يحنوا رءوسهم أمامه فيرضى بالنجاة من معركة متعادلة بالكاد فى قادش .

والنقوش الأخرى فى هذا الطريق ذات أهمية أقل وهى تضم ٣١٤ وهو نقش من عصر الدولة الوسطى ، ويرجع تاريخه إلى السنة الرابعة والعشرين من حكم امنمحات الثالث ، ورقم ٣٢٠ من عصر رمسيس الثانى ، ويمثل عبادة خراطيش هذا الحاكم ، رقم ٣٢٢ من عصر امنوفيس الثالث ويمثل أيضاً عبادة خرطوش الفرعون ، أما النقش رقم ٤٧١ فهو من عصر سبتاح وهو أحد النقوش المتعددة لهذا الملك المعروف قليلاً نسبياً ، والذى حكم لمدة قصيرة فى أواخر الأسرة التاسعة عشرة ، وصاحب المقبرة التى سبق أن رأيناها فى بيبان الملوك بطيبة . وهذا النقش يمثل سبتاح جالساً على عرشه ، ومن خلفه أمين الخزانة باى (الذى دفن أيضاً فى بيبان الملوك) ، بينما يقف سيتى نائبه فى كوش أمامه متعبداً . وهذا النقش من عمل الابن الملكى لكوش ، حاكم بلاد الذهب لأمون ، سيتى .

توجد نقوش اخرى كثيرة فى اسوان وما حولها ، ولا يستحق الاهتمام الا القليل منها . ففى حديقة عامة إلى الجنوب من محطة السكة الحديد يرى خرطوش سنوسرت الأول (رقم ١٣) ومنظر (رقم ١٢) يصور رمسيس الثانى يستقبل نائبا أثيوبيا «ستاو» وعلى صخرة بارزة من الحديقة تطل على النهر نقوش ورسوم متعددة ، ويلفت النظر منها النقش رقم ٤٨ الذى يمثل رمسيس الثانى يتعبد الى خنوم إله الشلال ، ويصحب الفرعون زوجته ايست ـ نفرت وابنته المفضلة وزوجة بنت عنت وثلاثة من ابنائه هم خع ام واست الأمير الساحر الذى كان مقدرا له أن يخلفه لولا أنه مات قبل والده ورمسيس ومنفتاح الذى خلفه

فعلا رغم أن ترتيبه الثالث عشر فى الكشف الطويل لأبناء رمسيس الثانى ، ورقم٤٩ يستحق الاهتمام ، اذ انه يسجل العمل العظيم الذى قام به سنموت مهندس الملكة حتشبسوت عندما جاء الى الجنوب ليشرف على استخلاص المسلات الكبيرة للملكة من محاجر اسوان . وبعد الصيغ المعتادة يذكر النص : « حضر الأمير الوراثى والكونت الذى يدخل السرور الى قلب الزوجة الملكية ، والذى يسر سيدة الارضين بنصحه ، رئيس استقبال الأميرة نفرورع ، لها الحياة ليشرف بنفسه على العمال فى المسلتين الكبيرتين « لعشرة الآف السنين » وقد تم ذلك حسب ما أمرت به ، لقد تم بفضل سمعة جلالتها (برستد المصدر السابق ، الجزء الثانى ، الفقرات ٣٥٩ - ٦٢) .

ومن بين النقوش والمناظر الأخرى المشهورة رقم ٥٠ الذى يمثل امنوفيس الثالث والملكة تى يتقبلان الولاء من أحد رجال البلاط ، ورقم ٥٥ الذى يخبرنا ان الأمير خع ام واست احتفل بالعيد السابع والثلاثين لاعتلاء والده رمسيس الثانى العرش . وأهم هذه السجلات نقش على صخرة جرانيتية بأسفل جدار رومانى من الحجر ، تحت الجانب الجنوبى الشرقى من منزل حديث فى مواجهة فندق كتاراكت ، وفى هذه اللوحة الشهيرة يحتفل « بك » رئيس نحاتى الملك اخناتون بذكرى زيارته لأسوان حيث جاء بالطبع للحصول على الجرانيت اللازم للمعابد الجديدة التى بناها الفرعون فى تل العمارنة . وعلى اللوحة مذبح فوقه قرص الشمس يرسل أشعته التى تنتهى بالأيدى ، وعلى أحد جانبيه يقف الملك غير أن أتباع آمون أزالوا صورته عندما تغلبوا على الهرطقة الملكية ، وعلى الجانب الآخر يقف « بك » نفسه فى ملابس الاحتفال حاملا باقة كبيرة من الزهور . ويقرأ النقش الواقع فوق بك : إزجاء المديح إلى سيد الأرضين ، والخضوع للإخناتون من رئيس الاعمال فى الجبل الأحمر ، والمساعد الذى علمه جلالته بنفسه ، ورئيس النحاتين للآثار العظيمة الضخمه الخاصة بالملك فى بيت آتون فى اخيتانون ، بك ابن رئيس النحاتين من المولود « من » السيدة الكبيرة « روينت » (برستد ، المصدر السابق ، الجزء الثانى فقرات ٩٧٣ ـ٦) وبجانب هذا المنظر تظهر صورة من والد بك السابق ذكره ، وهو يقدم قربانا إلى امنوفيس الثالث الذى خدمه كما خدم ابنه اخناتون . ومما يثير الاهتمام تلك الجملة التى تذكر أن اخناتون نفسه قد علم بك فى عمله . ومن الممكن طبعا ، أن تكون هذه الجملة مجرد صيغة تقليدية ، ولكن خصائص فن عصر العمارنة مميزة بحيث يستحيل إخراجها للوجود دون تشجيع وتأثير من جانب الفرعون كما هو منسوب إليه ويمكننا أن نتصور أن تعليم اخناتون لنحاتيه كان شيئا حقيقيا جدا نظرا للنتائج التى لا نظير لها فى عصور أخرى فى تاريخ الفن المصرى . وتوجد أيضا عدة نقوش ترجع إلى عصر الدولة الوسطى ، وهى جديرة بالذكر لقدم عهدها مثل النقش رقم ٢٨ الذى يشير إلى السنة السادسة من حكم سنوسرت الثالث ورقم ٣٣ الذى يورد خراطيش سنوسرت الثانى ، ورقم ٣٧٢ (فى مواجهة الطرف الجنوبى

لجزيرة سهيل الذى يرجع تاريخه إلى السنة الواحدة والأربعين من حكم منتوحتب الثالث الذى اقام المعبد الجنائزى للأسرة الحادية عشرة فى الدير البحرى .

الفنتين

والآن نعود الى جزيرة الفنتين التى تقع مباشرة فى مواجهة مدينة أسوان وتمتد لمسافة تقرب من ميل ونصف . وتضم الجزيرة قريتى الرملة والكوم وفندق سافوى ايضا الذى اغلق لفترة من الزمن[1] ويقع مقياس النيل فى الطرف الجنوبى الشرقى من الجزيرة حيث توجد أيضاً خرائب المدينة القديمة وقلعة الفنتين . وسوف يجد الزوار أنه من المفيد أن يقوموا بجولة حول الجزيرة تمكنهم من تفقد جميع أجزاء المنطقة التى تعد من أهم المناطق بالوجه القبلى .

ويمكن القول بأنه لم يبق من مدينة الحدود القديمة والقلعة غير القليل مما لا يهم غير المتخصص . وقد اختفت تماما المعابد التى كانت تزدهر بها الجزيرة واشهرها معبد تحتمس الثالث والمعبد الصغير الجميل لامنوفيس الثالث والشواهد الوحيدة لوجود هذه المبانى التى جعلت من الفنتين مكاناً مقدساً وجميلاً مثل فيلة قبل بناء السد العظيم هى تلك الكتل المنقوشة بخراطيش الفراعنة المختلفين الذين أقاموا المعابد الاصلية والإضافات التالية اليها :

والى الغرب من الرصيف يمكن رؤ ية بقايا المعبد الذى يتصل بالسور النهرى مقياس النيل . وهذا المبنى الذى أقامه الامبراطور تراجان لابد أنه بنى من اطلال المبانى السابقة إذ أننا نرى أسماء تحتمس الثالث وتحتمس الرابع ورمسيس الثالث على الأحجار وصحائف الأعمدة . والى القرب من هذا المبنى توجد أطلال بوابة من الجرانيت كانت فى الأصل تؤدى الى معبد اختفى حاليا ، وعلى البوابة نقش باسم اسكندر الثانى ـ ابن اسكندر الأكبر ـ الذى لم يعمر طويلا . وعلينا أن نتذكر أنه بعد وفاة اسكندر أيد بطليموس سوتر قائده المشهور ، اسكندر الثانى الصغير ، واننا نظن انه خلال ذلك الوقت بنى بطليموس هذه البوابة التى يرى عليها اسكندر الثانى يتعبد الى خنوم وآلهة أخرى ، وقد اختفى اسكندر الصغير بسرعة بسبب اغتياله وثبت بطليموس حقه فى عرش مصر اذ لا يزال خرطوشه يرى هنا بين الأطلال وبالقرب من هذا المبنى تقع جبانة الكباش المقدسة للإله خنوم التى كشف عنها كلير مون ـ جانو عام ١٩٠٧ ، وكانت الكباش تدفن فى توابيت صغيرة من الحجر حيث كانت تحاط

---

(١) بنى بدله الان فندق أبروى (الفنتين) .

بصناديق من الكارتوناج مشكلة بشكلها الطبيعى ومذهبة (انظر متحف أسوان بالقرب من مقياس النيل) .

ومن بين مخلفات المدينة القديمة التى تمتد فوق الطرف الجنوبى للجزيرة والتى لا يوجد بها الآن سوى انقاض ، وجدت فى السنوات الأخيرة مجموعة من البردى ترجع الى عصر الأسرات وإلى ايام الجالية اليهودية التى كانت تقيم هناك . وعلينا أن نتذكر أن أقدم نقش صخرى فى منطقة اسوان يوجد على صخرة كبيرة من الجرانيت فى ذلك الجزء من الجزيرة وقد عمل هذا النقش المدعو خوفو عنخ ، ويرجع تاريخه إلى أيام خوفو بانى الهرم الأكبر (الأسرة الرابعة) وهناك نقوش أخرى تحمل اسم وناس (الأسرة الخامسة) وبيبى الأول والثانى (الأسرة السادسة) وامنمحات الأول ، (الأسرة الثانية عشرة) وقد ظن ان البئر العميق الموجود هنا والذى يرجع تاريخه الى عصر البطالمة هو البئر الذى له صلة ببئر اراتوستين العالم الاثينى المشهور (٢٦٧ ـ ١٩٦ ق . م .) والذى بواسطته توصل إلى طريقة قياس محيط الأرض بملاحظته أن شمس الظهيرة فى منتصف الصيف كانت متعامدة على البئر ، وبالتالى لا تلقى ظلا . ومن الطبيعى يستحيل إثبات أن هذا البئر هو نفس البئر الذى ألهم اراتوستين نظريته ، وكل ما يمكن قوله انه يمكن ان يكون مثل اى بئر آخر [1] .

وكانت منابع النيل حسب اعتقاد بعض المصريين تقع بين اسوان والفنتين ، كما ذكر لنا هيرودوت . وبيانه الذى يقدمه لنا من سجل خزائن منيرفانيت فى سايس بمصر كما يأتى ، يوجد تلان تتوجهما قمتان مدببتان ويقعان بين مدينة سين (أسوان) فى طيبة والفنتين وأحدهما يسمى كروفى والآخر موفى وتتفجر منابع النيل التى لا قرار لها من بين هذين التلين ، وينساب نصف الماء نحو مصر فى اتجاه الشمال ، والنصف الآخر نحو اثيوبيا فى اتجاه الجنوب . (هيرودوت الجزء الثانى ٢٨ - ٢٩) . ويقول هيرودوت فى لهجة حزينة وقد بدا لى إنه يمزح بى فالحقيقة ، إنه فى ذلك الوقت كان المصريون على علم تام بأن منابع النيل كانت ابعد مدى الى الجنوب من الفنتين حيث حددها جماعة من الكهنة ، أو من فيلة التى آثرها كهنة هذه الجزيرة وقد احتفظ كل من هاتين الجماعتين بمعتقداته طالما كان ذلك فى

---

(١) عملت بعثتان بالحفر فى هذه الجزيرة فى الأعوام ١٩٠٧ ـ ١٩١٢ إحداهما ألمانية وفقت للعثور على الكثير من أوراق البردى ، والثانية فرنسية وقد عثرت على الكثير من الآثار خصوصا جبانة الكباش المقدسة وفى عام ١٩٣٦ ثم فى عام ١٩٤٦ قامت مصلحة الآثار بحفائر للكشف عن معبد اتضح أنه أقيم تكريما لحاكم من حكام المقاطعة للوجه القبلى ومقرها الفنتين باسم حقايب بسبب قيامه بأعمال جليلة دفاعا عن وطنه ، وعثر فى معبده على تماثيل ولوحات وغيرها تبلغ المائه . ومنذ عام ١٩٦٩ حتى الآن يقوم المعهد الألمانى للآثار المصرية بحفائر فى الجزيرة انتهت باكتشافات هامة ، ولعل أهمها أحجار لمعبد لتحوتمس الثالث أعيد استعمالها فى بناء معابد متأخرة وسوف يعيد المعهد بناء هذا المعبد قريباً كما استطاع المعهد منذ بناء معبد بطلمى قبلى الجزيرة وقد وجدت أحجاره مستعملة فى بناء المعبد الرومانى لكلابشه .

صالحه وأن الذين يستثيرهم الخداع القديم قد يجدون كروفى وموفى بين الصخور الجرانيتية على الجانب الشرقى من جزيرة الفنتين على أن يتذكروا دائما أن كهنة فيلة كانوا يعتقدون أو على الأقل يصرون على أن الموقع الحقيقى كان فى كهف من صخور جزيرة بيجه فى مواجهة المكان المقدس الذى اهتموا به حسب عادة الكهنة فى كل العصور .

ويرتبط بالفنتين متحف يضم مجموعة من الآثار وجدت فى المنطقة ومقياس للنيل . ومتحف أسوان الذى يقع بالقرب من المرفأ والمقياس يفتح من الساعة ٩ صباحاً حتى الساعة ٤ مساء ماعدا أيام الجمع[1] والعطلات الرسمية . وفى الصالة ترى مومياء أحد الكباش المقدسة التي اشرنا إليها سابقا . وبالحجرة رقم (١) التي يمكن الوصول إليها من الحجرة رقم (٢) توجد آثار من عصر ما قبل التاريخ من أوان سوداء ذات حواف حمراء ولوحات من الاردواز ، ورءوس سهام من الصوان ، وسكاكين وخلافه . أماالحجرة رقم (٢) تضم آثارا من عصر الدولة القديمة من اوان فخارية وادوات وأسلحة من النحاس ، والحجرةرقم (٣) بها من الدولتين الوسطى والحديثة . أما الحجرة رقم (٤) ففيها قطع من العصرين البطلمى والرومانى والمتحف جدير بالزيارة إذ أنه يعطينا فكرة عن المستوى الحضارى المحلى فى جميع العصور المختلفة .

وربما يكون مقياس النيل أول أثر يزار لقربه من المرفأ ، وقد كسيت واجهة هذا الجزء من الجزيرة بجدران مبنية ضخمة بها فتحة ، تقع فى النهاية فى مواجهة اسوان ، تؤدى إلى المقياس ، ويهبط سلم من مستوى المعبد الذى كان يقع فوقه والذى كان متصلا بالمقياس فى الأزمنة القديمة . وقد كان كل من السلم والممر المؤدى من النهر مسقوفا فى الأصل بالجرانيت أما باقى البناء فهو من الحجر الرملى . وقد اختفى السقف تقريبا وأصبح السلم حاليا بأكمله مكشوفا . وكان الكهنة يسجلون مقاييس الفيضانات على جدران السلم ، وفى مجرى الزمن استخدم المكان مقياساً رسمياً يضبط بواسطة نظام الضرائب المصرى كما يقول لنا استرابو : « كلما ارتفعت المياه ، ارتفعت الضرائب » .. وكانت علامات التسجيل تكتب باليونانية والديموطيقية ، ويبدو أن المقياس لا يرجع تاريخه إلى عصر أقدم من العصر الرومانى رغم أن الفراعنة قد أقاموا بالطبع مقاييس للنيل فى وقت قديم جدا ، وقد اعيد كشف المقياس الحالى فى ١٨٢٢ ، واعيد استعماله فى ١٨٧٠ على يد الفلكى المصرى الكبير محمود بك . وقد كتب القياس الحديث على لوحات من الرخام مثبتة فى الحائط .

---

(١) مقفول أيام الأثنين والعطلات الرسمية - هذا وقد أضيف إلى محتويات المتحف بعض الآثار التى اكتشفت فى معبد حقايب كما سوف نعرض فيه آثار أخرى من هذا المعبد من مقبرة ذلك الحاكم - وغيرها من آثار وجدت فى الجزيرة وما حولها .

سهيل

إلى الجنوب من أسوان وأسفل الشلال تقع جزيرة سبيل الجديرة بالزيـارة لا بسبب مناظرها الطبيعية الرائعة ، ولكن بسبب نقوشها القديمة المتعددة الموجودة فوق صخورها . ويوجد من هذه النقوش ما يزيد على مائتين وخمسين نقشا . قام بترقيمها أولا السيد/دى مورهان ومن بعده السيد/ويجول . ومعظم هذه النقوش ذات أهمية قليلة . ويجدر بالزائر أن يوجه انتباهه إلى الآتى : النقش رقم ٨١ وهو نقش طويل فى موقع عال على الصخور الواقعة فى الطرف الجنوبى الشرقى من الجزيرة وهو نقش زائف من العصر البطلمى يزعم كيف وضع كهنة خنوم فى الفنتين أيديهم على قطعة الأرض المعروفة فى العصور اليونانية باسم «الدوديكا شوينوى» أو الاثنى عشر شوينوى ، والشوينـوى يساوى سبعـة أميال ونصف ويحكى النص أن « مدير » حاكم الجنوب قد وصله خطاب من الملك زوسر بانى الهرم المدرج يخبره بان قلبه الملكى قد حزن بسبب المجاعة التى حدثت نتيجة لعدم ارتفاع النيل لمدة سبع سنوات . بهذا أبلغك عن الحزن الذى ابتليت به وأنا جالس فوق عرشى العظيم ، وكيف أن قلبى يتألم بسبب المصيبة الكبيرة التى حدثت بسبب عدم ارتفاع النيل لمدة سبع سنوات فهناك نقص فى محصول القمح ، ولا توجد أى خضروات ، ولا يوجد طعام من أى نوع ، وكل شخص يسرق جاره . . . وليس لدى مستشارى أى نصيحة يقدمونها ، ولما فتحت الشون لم يخرج منها غير الهواء ، كل شىء فى حالة من الخراب» . بعد هذه الشكوى الحزينة سأل الملك «مدير» عما إذا كان يعرف من أين ينبع النيل ، ومن أى إله يطلب المساعدة وعلى التو توجه الحاكم شمالا ومعه المعلومات بأن الإله خنوم إله الفنتين هو الذى يحكم فيضان النيل ، وعلى ذلك قدم زوسر إلى الفنتين وقدم شكواه ورجاءه إلى خنوم . وقد أحنى الإله رأسه أمامه وأبلغه بأنه غاضب لأن معبده أهمل حتى حل به الدمار ، ولكنه أبدى استعداده فى أن يرق قلبه ويقدم المحاصيل الوفيرة إذا عنى به تماما ، وعندئذ أصدر زوسر على الفور أمرا يمنح خنوم أو الكهنة الأرض الواقعة جنوبى جزيرة سهيل حتى جزيرة تاكمبو وهى بقعة من الأرض تتراوح من ٨٠ إلى ٩٠ ميلا عرفت فيما بعد باسم الدوديكا شيونوى . وفضلا عن ذلك فقد سن قانونا بتحصيل ضريبة لصالح خنوم أو كهنته من صيادى السمك والطير وكل من يتعيش من نتاج النيل وكذا من عمال مناجم الذهب وقادة القوافل الذين يعودون بطريق الفنتين من الصحراء .

وقد يكون هذا مقنعا تماما ويمكن حتى قبوله كنص حديث لهدية فعلية من الملك زوسر إذا لم يكن لدى كهنة إيزيس بفيلة نص مماثل يحكى أن زوسر قد قام بمنحهم مثل هذا العطاء تماما . وعلى ذلك فلا يسعنا إلا أن نستنتج بأن كهنة المجموعتين كانوا كاذبين ، وأن الأرض المذكورة لم تكن ملكاً لأية من المجموعتين . وإذا كان هناك خيار بين عصـابتى مغتصبى

الأرض المقدسة فإننا نعطى الأولوية لادعاء جماعة الفنتين ، إذ أن عبادة خنوم فى الفنتين أقدم عهداً من عبادة إيزيس فى فيلة .

وتتحدث النصوص الأخرى الهامة عن حفر قناة (من المحتمل تعميق وتعديل ممر) بطول الشلال . وقد قام بهذا العمل - كما سبق أن ذكرنا - أو نى أيام الأسرة السادسة . ولكن إهماله لمدى خمسة قرون جعله غير مجد مما حدا بسنوسرت الثالث أن يعيد حفر هذا الممر من جديد ليمر فيه أسطوله الحربى . ويشير النقش رقم ٨٣ إلى عمل سنوسرت فنرى الملك واقفا أمام عنقت إحدى إلهتى الشلال وتحتها النص الآتى : «عملها كأثره لعنقت ، سيدة النوبة ، عمل لها قناة اسمها «جميلة» هى طرق خع كاورع (سنوسرت الثالث ، يعيش إلى الأبد» . ويلى ذلك النقش رقم ٨٦ وهو من عمل سنوسرت أيضا ، وهو يمثل سنوسرت أمام سانت الإلهة الأخرى للشلال ، بينما يقف خلفه أمين الخزانة . . . ومدير الأعمال . ويجرى النص كما يأتى : «السنة الثامنة ، تحت حكم جلالة ملك الوجه القبلى والبحرى : خع كاو رع ، يعيش إلى الأبد ، أمر جلالته بحفر القناة من جديد ، التى سميت «جميلة» هى طرق خع كاو رع ، يعيش إلى الأبد عندما تقدم جلالته مصعداً لقهر كوش التعسة ، وطول هذه القناة ١٥٠ ذراعا بعرض ٢٠ ذراعا ، وعمق ١٣ ذراعا» . (برستد ، النصوص القديمة ، الجزء الأول ، ٦٤٢ وما يليها) .

ثم ننتقل إلى عصر آخر يلى العصر السابق بأكثر من ثلاثة قرون حيث نرى النقش رقم ٩١ الذى يخبرنا عن قصة القناة تحت حكم تحتمس الأول من ملوك الأسرة الثامنة عشرة : «السنة الثالثة ، الشهر الأول من الفصل الثالث ، اليوم الثانى والعشرون ، تحت حكم جلالة ملك الوجه البحرى والقبلى ، عاخبر كا رع (تحتمس الأول) معطى الحياة . أمر جلالته بحفر هذه القناة بعد أن وجدها مسدودة بالأحجار بحيث لا تستطيع أية سفينة عبورها . لقد عبر فوقها هابطا ، وكان قلبه مسرورا إذ ذبح أعداءه ، الابن الملكى ، تورى» . والنقش رقم ٩٢ يقص علينا نفس القصة : «السنة الثالثة الشهر الأول من الفصل الثالث ، اليوم الثانى والعشرون ، عبر جلالته هذه القناة منتصرا وقويا فى طريق عودته من قهر كوش التعسة ، الابن الملكى تورى» . (برستد ، المرجع السابق ، الجزء الثانى ، ٧٥-٦) .

وأخيرا نسمع عن تحتمس الثالث أنه لم يكتف بتطهير الممر فحسب بل عمل على صيانته فى المستقبل : «السنة الخمسون ، الشهر الأول من الفصل الثالث ، اليوم الثانى والعشرون ، تحت حكم جلالة ملك الوجه القبلى والبحرى ، من خبر رع (تحتمس الثالث) ، معطى الحياة ، أمر جلالته بحفر هذه القناة بعد أن وجدها مسدودة بالأحجار بحيث لا تستطيع أية سفينة عبورها . وقد أبحر فوقها هابطا ، وكان قلبه مسرورا ، إذ ذبح

أعداءه واسم هذه القناة ، فتح هـذا الطريق بجمـال من خبر رع ، يعيش إلى الأبـد ، وسيقوم صيادو الفنتين بتطهير هذه القناة كل عام» . (برستد ، المصدر السـابق ، الجزء الثانى ٦٤٩-٥٠) .

وعلى الجانب الأيسر من الجزيرة بالقرب من قريةسهيـلتوجد أطلال معبدين ، أحدهما من عهد الأسرة الثامنة عشرة ويحتمل أنه من عمل امنوفيس الثانى . وقـد كرس لعنقت إحدى آلهتى الشلال ، والنقش رقم ٧٩٠ من عمـل حارس معبـد عنقت بسهيل المـدعو مرسو ، أما النقش ٢٨٢ فهو يخص نب مح حارس معبد خنوم وسانت بسهيل ، ولهذا يكون لآلهة الشلالات الآخرين معبد خاص بهم فى الجزيرة ، رغم أن عنقت ، وكان لها معبد خاص بها ، كانت لها السيادة هنا . والمعبد الآخر من عمل بطليموس فيلوباتر تكريما لآلهة الشلال[1] .

مقابر نبلاء الفنتين

تقع هذه المقابر فى منحدر التلال التى تكون الضفة الغربية للنيل فى مواجهة الطرف الشمالى من جزيرة الفنتين . ولهذه المقابر أهمية خاصة ، إذ أنها تمدنا ببعض المعلومات ، عما كان يجرى فى ذلك الركن من مصر القديمة أيام الدولتين القديمة والوسطى وقد كشفها لورد جرينفل عام ٦/١٨٨٥ ومن حافة الماء يبدأ طريق قديم مكون من سلم مزدوج يتوسـطه سطح مائل لسحب التوابيت إلى أعلى ، يصعد إلى الشرفة التى تنفتح عليها المقابر . ولكن يمكن الوصول إليها بسهولة بواسطة الطريق الذى يصعد من مرسى السفن ومن المستحسن زيارة المقابر بعد الظهيرة حيث يكون جانب التل فى الظل . وعلى الزائر أن يحضر معه تـذكرة الدخول ، وأجرة المركب عشرة قروش .

وأول مقبرة تزار هى مقبرة «مخو» رقم ٢٥ ، ومخو ، كما سنرى عندما نتناول مقبرة ابنه سابنى - لقى حتفه فى إحدى الحملات الجريئة فى مجاهل أفريقيا الاستوائية والتى تـوجد سجلاتها الوحيدة على واجهات مقابر هؤلاء الرواد الأوائل . وكان مخو أميـرا ، وموثقـا ملكيا ، والصديق الأوحد ، والكاهن المرتل فى عهد بيبى الثانى من الأسرة السادسـة . ومقبرته خشنة البناء إلى حد ما ولكنها مثيرة وعلى الجانب الأيمن من الباب يظهر مخو لابسا

---

(١) لم يبق أى آثر لهذه المعابد وإن كانت قد وجدت بعض أحجار من معبد بطلمى مستعملة فى بناء بعض بيوت الجزيرة .

جلد فهد فوق نقبته وزوجته ترافقه ، بينما يقوم خدمه بتقديم القرابين له . وعلى الجانب الأيسر يظهر وفى صحبته أحد أقاربه . والآن ندخل صالة المقبرة وهى عبارة عن حجرة مظلمة يعتمد سقفها على ثمانية عشر عمود أ خشنة النحت وتنتظم فى ثلاثة صفوف ، وعلى بعض الأعمدة صور ونقوش ، وبين العمودين الثالث والرابع من الصف الأوسط يوجد مذبح غريب على شكل مائدة مكونة من لوح من الحجر يستند على ثلاثة ألواح أخرى وفى الحائط الخلفى فجوة تضم الباب الوهمى الذى نصل إليه بواسطة سلم والذى تكتنفه جدران ساترة ، وعليه نقشت صلاة إلى أنوبيس وأزوريس من أجل روح مخو . وتوجد الزخارف الوحيدة على يمين المدخل حيث يمثل مخو وهو يشرف على الذبائح التى تقدم إليه بينما ترى مناظر أخرى زراعية مثل الحرث وحش القمح ونقله على ظهر الحمير .

وتلى هذه المقبرة ، مقبرة سابنى بن مخو (رقم ٢٦) ولها مدخل غريب مسدود حاليا ، وبذا فإن الدخول إليها من مقبرة مخو والمدخل مقسم إلى قسمين بواسطة عارضة متقاطعة ، وأمامه مسلتان صغيرتان وأحواض للماء المقدس . وبالداخل صالة بها أربعة عشر عمودا مربعا وفوق المدخل المسدود نافذة مربعة مسدودة بشباك . وترى الزخارف على الجدار الخلفى للصالة وهى تمثل المناظر المعتادة لصيد الطيور فى أحراش البردى .

ولكن أهم مايميز مقبرة سابنى هى قصة مغامرته التى أمر بنقشها على واجهة مقبرته . ومما يؤسف له أن بداية القصة - التى تتكون من عدة سطور رأسية محفورة على الجانب الأيسر من الباب - قد زالت تماما ، كما أن السطور التسعة عشر التى بقيت لنا على الجانب الأيمن بها شروخ وفجوات كثيرة ، بينما تآكل النقش بأكمله ، غير أنه أمكن قراءته بالدراسة المتأنية ، وبذلك أمكن تتبع قصة سابنى المقدام الذى انقذ جثة والده ، وهذا يعنى - حسب المعتقدات المصرية - انقاذ المتوفى من الفناء . ويحكى لنا سابنى الذى كان يحمل ألقاب الأمير وحامل الختم الملكى ، وحاكم أراضى الجنوب ، والرفيق الأوحد ، والكاهن المرتل ، كيف أن اثنين ممن بقوا على قيد الحياة من أفراد حملة والده وهما قائد السفينة «انتف» والمشرف بك حسا ابلغاه بوفاة مخو ويستطرد فى قوله «عندئذ أخذت فرقة من إقليمى ومائة حمار تحمل العطور وعسل النحل والملابس والزيوت لاقدمها كهدايا فى هذه البلاد التى يسكنها الزنوج . أرسلت رسلا من « باب الجنوب » وحررت خطابات لابلغ فرعون بأننى ذهبت لاحضار جثة أبى من واوات واوثث» ومن الواضح أن حاكم الجنوب لايستطيع مغادرة مقره - حتى ولو لغرض مقدس كهذا - دون إخطار الفرعون بمهمته . وجد سابنى جثة أبيه فى أواسط أفريقيا ووضعها فى تابوت وبدأ رحلة العودة مع حرصه على أن يرسل أحد رجاله «التابع الملكى ايرى» مصحوبا بخادمين آخرين إلى قصر فرعون حاملين البخور والصمغ والأقمشة المحلية وناب فيل طوله ثلاثة أذرع مع الإشارة إلى أن نابه الأفضل (وهو من بين ما جمعه والده المتوفى ؟)كان ستة أذرع طولا ، وكذا خبر نجاحه فى إحضار جثة مخو .

ووصل أيرى إلى القصر قبل سيده الذى كان لايزال فى طريقه إلى الشمال وعاد بمركب محملة بمواد التحنيط اللازمة لتحنيط جسد النبيل المتوفى ، ورسالة من فرعون يمتدحه فيها تجرى كالآتى : « سأعمل لك شيئا ممتازا مكأفاة لك على هذا العمل العظيم باحضارك جثة أبيك » ودفن سابنى أباه فى حينه: دفنت ابى فى مقبرته بالجبانة ، ولم يحدث قط من قبل أن دفن شخص من طبقته كما دفن ابى» وبعدئذ فى الوقت المناسب منح فرعون الهدايا لخادمه الأمين من عطور وأقمشة وذهب ولحوم ودواجن وهبته من الأرض . وقصة سابنى واحدة من أروع المدونات التى وصلت إلينا عن موقف الفكر المصرى تجاه الحياة بعد الموت ، فلا وجه للغرابة فى أن يحاول ابن الحصول على جثة ابيه ليدفنها دفنا لائقا ، ولكن تقدير فرعون مصر لعمله بحيث أنعم عليه الهدايا وامتدحه لذلك ، يدل على الاهتمام الذى كان يبديه المصرى للمحافظة على الجسد كشرط أساسى للخلود . هذا وتعتبر مقبرة سابنى أكبر مقابر الفنتين .

والآن نمر بمجموعة من المقابر غير المنقوشة مملوءة بالرمال لنصل إلى مقبرة رقم ٢٨ وهى مغلقة علاوة على أنها من الصخر بحيث يصعب الدخول إليها ولكن يمكن رؤ يتها من الخارج . واسم صاحبها حقا إيب الذى يحتمل أنه كان أبنا لأكبر اثنين باسم سيرنبوت دفنا فى مقبرتيهما هنا رغم ان حجم مقبرة حقا إيب لا تتناسب مع فخامة مقبرة أبيه المحتمل ويمثل حقا إيب كشخص زنجى له شعر مستعار أجعد وجلد أسود . وعلى الجدار الشمالى من المقبرة يرى وهو يصوب السهام ، وعلى الجدار الجنوبى يظهر بصحبة أصدقائه من الجنسين .

وبعدئذ نأتى بعد ترك مقابر أخرى غير منقوشة - إلى مقبرة رقم ٣١ التى تعتبر أجمل - وان لم تكن أكبر - مقابر الفنتين ، وصاحبها هو سيرنبوت الذى كان أميرا ، والرفيق الأوحد ، والمشرف على كهنة خنوم وسانت ، وقائد فرق باب الأراضى الجنوبية فى عهد امنمحات الثانى من ملوك الأسرة الثانية عشرة . ومن المحتمل أيضاً أنه كان حفيد الأمير سيرنبوت الذى سبق ذكره ، إذ كانت أمه تدعى سانت - حتب وفى مقبرة سيرنبوت الأكبر ورد ذكر ابنة اسمها سانت - حتب . ولما كان سيرنبوت الأكبر قد عاش فى حكم سنوسرت الأول بينما عاش الأصغر أيام أمنمحات الثانى ، فتكون القرابة بينهما طبيعية من الوجهة الزمنية .

ومن فناء مقطوع فى واجهة التل ، يدخل الزائر بواسطة ممر ضيق إلى صالة خارجية لها سقف محمول على ستة أعمدة مربعة ، وعلى الجانب الأيمن من الصالة تقوم مائدة قرابين مصنوعة من الجرانيت الجميل ومزينة باسماء والقاب سيرنبوت ، وفيما عدا ذلك فإن الحجرة غير منقوشة ويفضى ممر ضيق من هذه الصالة إلى الحجرة الداخلية للمقبرة . وبهذا الممر ثلاث فجوات على كل من الجانبين يضم كل منها تمثالاً لسيرنبوت على هيئة أزوريس منحوتاً فى الصخر الطبيعى . وعلى يسار الفجوة الأولى يرى منظر لسيرنبوت فى حالة جيدة من

الحفظ يمثله ممسكا عصا وصولجانا مصحوبا بابنه . وفى نهاية الممر تنفتح حجرة داخلية ذات أربعة أعمدة مربعة على كل منها صورة سيرنبوت . وفى الجدار الخلفى من هذه الحجرة تنفتح فجوة عليها رسوم دقيقة على طبقة من الجص ، فعلى الجانب الأيسر يرى سيرنبوت مع زوجته وابنه ، وعلى اليمين ترى والدته سانت - حتب تجلس أمام مائدة قرابين . بينما يقف هو إلى يمينها على الحائط الخلفى من الفجوة يظهر جالساً أمام المائدة بينما يقدم ابنه إليه الزهور . والرسوم على جانب كبير من الجودة ، رغما يلفت النظر بصفة خاصة تلك الكتابات الهيروغليفية التى تتميز بالدقة المتناهية .

والآن نأتى إلى المقبرة رقم ٣٢ وهى ليست بذات أهمية كبيرة ويؤدى مدخلها إلى صالة ذات ستة أعمدة مربعة وبها - كما هو الحال فى مقبرة سيرنبوت - ممر طويل يفضى إلى حجرة داخلية بها مقصورة منحوتة فى الجدار الخلفى . وبهذه المقصورة رسم لصاحب المقبرة المدعو «أكو» مع زوجته تحت تكعيبة من كرم العنب بينما يقوم ابنه بتقديم الطعام إليه .

والمقبرة التالية هى مقبرة خوى ، وهى مردومة بالرمال ، وبها صالة ذات أربعة أعمدة مربعة وفجوة أو مقصورة ، ويحمل خوى الألقاب العادية ، ويقال إنه قام بعدة حملات إلى بونت بحيث يستحق حظا أجدر بألا يهمل . وعلى مسافة غير بعيدة توجد مقبرة رديئة النحت بها صالة ذات ثمانية أعمدة مربعة ، وهى مكشوفة حاليا بسبب سقوط سقفها . وعلى الجانب الشرقى مناظر لصاحب المقبرة تمثله جالسا على مائدة وكذلك وهو يصطاد السمك والطير . وعلى الجدار الجنوبى مناظر مهشمة لبعض الصناعات ولصاحب المقبرة وزوجته جالسين أمام القرابين وتخص هذه المقبرة كاهناً يدعى « مع » وزوجته كاهنة حاتحور « عنخ سن » وابنهما «خونسى» الذى وصل إلى مرتبة الإمارة فى نهاية الأسرة السادسة ، وتعرف هذه المقبرة عادة باسمه .

وبعد أن نمر بثلاث مقابر صغيرة نصل إلى ما قد يعتبر أهم مقابر الفنتين ، ليس بسبب كبرها بل بسبب نقوشها التى تعد من أهم الوثائق التى بقيت لنا من الفترة الأخيرة من الدولة القديمة . والمقبرة نفسها ليست بذات أهمية ، فهى تضم صالة صغيرة منخفضة السقف ذات أربعة أعمدة مربعة وممرا منحدرا يؤدى إلى حجرة الدفن . والأعمدة منقوشة بأسماء شخص يسمى «سابنى» المدعو أيضا «بيبى عنخ» الذى كان يحمل الألقاب المعتادة لحكام الفنتين . وشخص آخر اسمه «زما» ويدعى أيضا «مسنا» وهو يحمل نفس الألقاب ، كما تمثل أيضا السيدة دب أم نفرت أو بالأحرى دبا . ولكن المقبرة تخص فى الحقيقة ملكاً اسمه حرخوف يظهر اسمه على النقش الخارجى وعلى شاهد المقبرة ، وكان أميرا وشريفا ، وحامل الختم الملكى ، والرفيق الأوحد ، والكاهن المرتل ، ومدير القوافل ، بالإضافة إلى أنه كان يحمل لقب قاضى نخن وحاكم نخب ، ولا حاجة بنا إلى أن نتوقف عند صفات حرخوف الأخرى وأعماله كما هى مسجلة فى النقش الطويل الذى يزين واجهة مقبرته قليلة

الأهمية نسبيا ، فهو كحكام الأقاليم المصريين الآخرين «أعطى خبزا للجائع وكساء للعارى ، وقام بتعدية كل من ليس لديه قارب أبداً وتوسل أيضا إلى كل من يمر بمقبرته أن يردد الصلاة الجنائزية المعتادة بطلب «ألف رغيف من الخبز وألف إناء من الجعة لصاحب المقبرة» وقد بنى طلبه على أساس أنه فى مقابل ذلك فإنه بوصفه كاهنا مرتلا سوف يرد لهم جميلهم فى العالم الآخر ، ثم أنه أكد كما يفعل الكل أنه« إذا دخل شخص ما هذه المقبرة كأنها ملك له فسوف أمسك به كطائر برى وسوف يحاكم على فعلته أمام الإله العظيم»وهذا تهديد لم يمنع قط مغتصبا فيما بعد من الاستيلاء على أى مقبرة تروق له متحديا اللعنة .

غير أن الطريف فى نص حرخوف يبدأ عندما يشرع فى أن يقص علينا مغامراته كمدير القوافل ، ويقدم لنا تسجيلا لرحلاته الأربع فى مجاهل أفريقيا . فأولا أرسل بصحبة والده «أيرى» ليتعرف على المهمة فى رعاية أبيه « أرسلنى مولاى جلالة « مران رع » مع والدى ، الرفيق الأوحد ، والكاهن المرتل ، إيرى إلى أيام لأستكشف الطريق إلى هذه البلاد . وقد أديت هذا العمل فى سبعة شهور فقط ، وأحضرت منها كل أنواع الهدايا ، ومدحت من أجل ذلك كثيرا » بعد ذلك نراه يقطع الطريق الصحراوى بنفسه « أرسلنى جلالته للمرة الثانية بمفردى . ذهبت على طريق الفنتين ، ونزلت من أرثت ومخر وتوبس وأرثت واستغرقت المهمة ثمانية شهور وحين نزلت أحضرت هدايا من هذه البلاد بكميات كبيرة جدا ، ولم يسبق قط إحضار مثلها إلى هذه الأرض . ولم يسبق قط لرفيق أو مدير قوافل ذهب إلى أيام قبل ذلك أن فعل المثل» وعندما أرسل جلالته حرخوف النشط للمرة الثالثة وجد زعيم « أيام » على وشك الاشتباك مع لبيبى الواحات ، ومثل هذه الحرب ليست فى صالح مصر إذ أنها تؤدى إلى قفل باب التجارة ، ولهذا اقتفى أثر الزعيم المحارب الذى كان قد بدأ فى التهام أهالى الواحة ، ونجح فى اقناعه بالسلام وعاد حرخوف رجل السلام إلى وطنه منتصرا ومعه ٣٠٠ حمار محملة بالبخور والأبنوس «والحكنو» والحبوب والفهود والعاج وعصا الصيد وكل شىء جميل» وقد نظر الزعماء المحليون الذين مر بأرضهم إلى قافلته بعيون شرسة ، غير أن زعيم أيام المعترف بالجميل الذى شكر الآلهة لأنها منعته من الحرب ، قدم له حرسا من محاربيه كان من القوة بحيث رأوا أنه من الأسلم عدم التعرض للغنيمة المغرية «وعندما رأى زعيم أرثت وسنو وواوات كم هى قوية وكثيرة فرقة «أيام» التى نزلت معى إلى القصر والجنود الذين أرسلوا معى ، أحضر لى هذا الزعيم ثيران وماشية وقادنى إلى طرق مرتفعات أرثت لأننى كنت ممتازا ونشطا وأكثر من أى شريف ورفيق أو مدير قوافل ممن أرسلوا إلى أيام من قبل» .

ويبدو أن حرخوف لم يكن أكثر تواضعا من أى موظف مصرى ، فقد وعى تماما الحقيقة بأنه إذا لم ينفخ فى بوقه بنفسه ، فعلى الأرجح لن ينفخ فيه أحد غيره من أجله .

ولكن أعظم انتصاراته قد تمت فى عهد ملك جديد ، وفى رحلته الرابعة عندما نجح فعلا فى أسر واحضار قزم معه من قبيلة الأقزام لا تزال تعيش فى أواسط أفريقيا ، وقد أكتشف وجودها فى العصور الحديثة بواسطة استنلى ، وقد كان عمر بيبى الثانى الذى أمر حرخوف بالقيام بهذه الرحلة ثمان سنوات وقتئذ . وقد أنساه سروره ـ عند سماعه عن اللعبة الجديدة العظيمة التى أحضرها إليه تابعه من الفنتين ـ التقاليد الرسمية حتى أنه أمر بارسال خطاب إلى تابعه المخلص الذى سر به لدرجة أنه نقل نصه على جدران مقبرته . ونحن مدينون للظروف الحسنة التى حفظت لنا أعظم وثيقة انسانية وصلت إلينا من مصر القديمة وهذا نصها :ـ

«الختم الملكى ، السنة الثانية ، الشهر الثالث من الفصل الأول ، اليوم الخامس عشر . مرسوم ملكى إلى الرفيق الأوحد والكاهن المرتل . مدير القوافل حرخوف .

«لقد فهمت المقصود من خطابك الذى أرسلته إلى الملك فى القصر لتنبئه بأنك قد نزلت سالما من «أيام» ومعك الجيش . لقد ذكرت فى خطابك كل الهدايا العظيمة والجميلة التى قدمتها حاتحور سيدة آمو إلى ملك مصر العليا والسفلى نفر كا رع (بيبى الثانى) الذى يحيا إلى الأبد لقد ذكرت فى خطابك أنك أحضرت قزما من أرض الأشباح يرقص رقصا مقدسا مثل الذى أحضره باوردد من بونت فى عهد الملك أسيسى . ولقد ذكرت لجلالتى لم يحدث من قبل أن واحدا مثله قد أحضر مع أى شخص آخر زار أيام ، إنك دائما تفعل كل ما يحبه ويمتدحه سيدك ، انك تمضى النهار والليل فى عمل ما يرغبه ويمتدحه ويأمر به سيدك . وسوف يمنحك جلالته كثيرا من آيات التشريف العظيمة بحيث تصبح فخارا لابن ابنك إلى الأبد ، وسوف يقول كل الناس حين يسمعون ما فعله جلالتى لك : «هل هناك شىء يماثل ما عمل الرفيق الأوحد حرخوف عندما نزل من أيام بسبب ما أظهره من يقظة فى عمل ما يرغب فيه سيده ويحبه ويأمر به ؟

«عد إلى القصر توا وأحضر معك هذا القزم الذى جلبته معك حيا ومزدهرا وسليما من بلاد الأشباح حتى يقوم بالرقص المقدس ويدخل السرور إلى قلب ملك الوجه القبلى والبحرى نفر كا رع يعيش إلى الأبد . وعندما ينزل معك فى السفينة اختر الرجال الممتازين الذين يسكنون بجانبه فى كل جانب من جوانب السفينة ، وخذ حذرك حتى لا يسقط فى الماء . وعندما ينام فى الليل اختر الرجال الممتازين الذين سينامون بجانبه فى خيمته ، فتش عليه عشر مرات كل ليلة لأن جلالتى يشتاق إلى رؤية هذا القزم أكثر من خيرات سيناء وبونت . وإذا وصلت إلى القصر وبصحبتك هذا القزم حيا ومزدهرا وسليما ، فإن جلالتى سوف يقوم بعمل أشياء عظيمة لك تفوق كل ما عمل لحامل الختم الإلهى باوردد فى عهد الملك أسيسى وذلك لرغبة جلالتى فى رؤية القزم .

«وقد أعطيت الأوامر لرئيس المدن الجديدة ، السمير والكاهن الأعلى ليأمر بتقديم كل مساعدة له فى كل مدينة وفى كل معبد دون استثناء» .

(ينظر النص كله فى برستد ، النصوص القديمة ، الجـزء الأول ، الفقرات ٣٢٥ ـ ٣٥ ، ٣٥٠ ـ ٤) .

إنه خطاب صادق من صبى ، إذ ان أسلوبه لم يخف اشتياق فرعون ذى الثمانية أعوام لرؤ ية لعبته الجديدة . وإن الإنسان ليتساءل ماذا كانت نهاية كل ذلك ، وكيف عاش القزم المسكين الصغير بعد التسلى بالتفتيش عليه عشر مرات كل ليلة للتأكد من أنه معافى . بيبى لم يكن قد سمع قط بإمكان قتل أحباء الشخص بالشفقة عليهم . ومن الواضح أن حرخوف قد نجح فى إحضار غنيمته إلى القصر وإلا لما زينت مقبرته بالخطاب الملكى . ولكن الإنسان يتساءل أيضا عما إذا كان بيبى قد أوفى بوعوده الخلابة التى وعد بها بسخاء عندما كانت لعبته بعيدة . إن مقبرة حرخوف لا توحى بأنه قد قام بذلك أو أن عمل قائد القافلة رغم أنه مشرف ـ أوصله إلى الثراء ـ إنك لتراه وهو يتكىء على عصاه على الجانب الأيسر من باب مقبرته ، بينما يقوم ابنه بهز المبخرة أمامه ـ إنه حقا أحد الرجال القلائل فى ذلك الزمن البعيد ممن يبدون لنا كأنهم أحياء يتنفسـون ، ولكنك تتسـاءل أيضا عـما إذا كانت هـذه المقبرة الصغيرة المهملة هى كل ما أثمرته أيامه ولياليه الشاقة فى قيادة القوافل.

ويلى ذلك المقبرة رقم ٢٥ وهى صغيرة ومردومة ، ولكنها أيضا قيمـة نظراً للنقش الموجود على جانبى بابها . وهى تخص بيبى نخت الذى كان يحمل كل الألقـاب المعتادة لحكام الفنتين ، والذى كان يقوم بنفس العمل الذى كان يقوم به حـرخوف . وإنـه لمن الغريب أنه من بين النقوش الثلاثة الطويلة لأمراء الفنتين التى تتناول مغامراتهم نقشـان يقصان النهاية المؤلمة لأقارب أو موظفين فى الخدمة الملكية . ومن الواضح أن وظيفة قائد القوافل فى الأيام المضطربة فى الدولة القديمة لم تكن وظيفة بلا عمل يوازى راتبها ، فإن الشخص الذى كان يتولاها كان يحمل حياته على كف يده عندما يخرج لتنفيذ أمر سيده . وقد علمنا كيف أن مخو قتل فى الجنوب ، أما بيبى نخت فيحكى لنا كيف أنه أنقذ جثة ابن خت وانتقم لمقتله وقد كان قائدا آخر للقوافل أيام بيبى الثانى .

ويبدأ نقشه بالادعاءات المعتادة بأنه مثال للفضيلة والعدالة وبعدئذ يصف كيف أن ملكه أرسله ليعاقب أرنت وواوات اللتين يبدو أنهما كانا يوشكان على الخروج على الطاعة ، وقد تم ذلك فى حينه غير أنه فى نفس الوقت أصيب موظف آخر تخصص فى الـرحلات البحرية بسوء فقد أرسل أنن خت الذى كان يحمل ألقاب الرفيق الأوحد ورئيس البحارة ومدير القوافل إلى شاطىء البحر الأحمر ليبنى مركبا هناك ليبحر بها إلى بونت ، وبينما كان مشغولا فى بناء المركب احتك بساكنى الرمال ـ وهو الاسم الذى كان يطلقه المصريون على القبائل البدوية ـ الذين قتلوه مع حرسه . وكما حدث مع مخو فانه من الضـرورة للراحة

الأبدية للأمير المقتول ان تسترد جثته لتدفن الدفن اللائق . ولهذا أرسل بيبى نخت ليسترد الجثة ويلقن سكان الرمال درسا قاسيا حتى يشعروا بقوة باع فرعون ((والآن أرسلنى جلالة سيدى إلى أرض الأسيويين لاحضر اليه الرفيق الأوحد رئيس البحارة وقائد القوافل انن خت ، الذى كان يبنى مركبا هناك ليذهب إلى بونت عندما ذبحه الأسيويون الذين ينتمون إلى سكان الرمال هو وفرقة من الجيش كانت معه . . . .»

ومما يؤسف له أن بقية النقش مهشم تهشيما كبيرا ، وعلينا ان نستكمل الصورة عن الحملة التأديبية من فقرة مكتوبة : « وذبحت أفرادا منهم ، أنا وفرقة الجيش التى كانت معى » ويمكننا ان نستنتج ان بيبى نخت كان موفقا فى كل من شطرى مهمته وإلا لما سجل العمل على مقبرته . وهذه آخر المقابر التى تكشف لنا عن الحياة النشطة والعنيفة فى الدولة القديمة[1] .

وبعد المقبرة رقم ٣٥ تأتى مقبرة بها رواق ذو عمودين تخص شخصا يدعى (سن موسى) يبدو أنه عاش بعد النبلاء الآخرين للدولة الوسطى الذين توجد مقابرهم هنا ويخصُ النقش الموجود على أحد هذين العمودين الأحياء على تلاوة صلاة على روح سن موسى ، وبالصالة أربعة أعمدة وشاهد يتضمن اسم سن موسى . وبعد أن نترك مقبرتين غير منقوشتين ، نصل إلى مقبرة رقم ٣٦ وهى مقبرة سيرنبوت الأول جد سيرنبوت الثانى الذى سبق لنا زيارة مقبرته . وقد عاش سيرنبوت الأول ابان حكم سنوسرت الأول من الأسرة الثانية عشرة ، والمظهر الفخم لمقبرته يدل على أنه كان حاكم إقليم يتميز بالقوة والخطورة ، والوصول إلى المقبرة عن طريق فناء فسيح له بوابة من الحجر الجيرى الأملس وكان الفناء فى الأصل محاطا برواق زال سقفه تاركا الأعمدة الست التى كانت تسنده . وعلى هذه الأعمدة مناظر تمثل سيرنبوت وتحمل القابه : الأمير بالوراثة ، رئيس كهنة خنوم وسانت ، أمير النوبة السفلى حاكم البلاد الجنوبية ، حامل الختم الملكى ، المسجل الملكى ، والرفيق الأوحد ، وفى كل من طرفى هذا الرواق فجوة عليها رسوم سيرنبوت وزوجته . وعلى واجهة المقبرة الأصلية مناظر من النوع المألوف تمثل سيرنبوت يصطاد السمك والطير فى قاربه ومعه زوجته بينما تجلس بطة مستأنسة فوق مقدمة القارب كأنها شرك ، كما يرافقه أيضا ابنه الذى يبدو وكأنه

---

(١) بعد اكتشاف معبد حقايب فى جزيرة الفنتين ــ ذهب الاستاذ لبيب حبشى بعد تأكده أن بيبى نخت هذا ما هو إلا حقايب ، فأخذ فى دراسته مقبرته واتضح من البحث والتنقيب أن ابنه سابنى وقد خلفه فى وظائفه قد نحت مقبرة واسعة إلى الجانب البحرى من مقبرة أبيه وأقام بعدها مقبرة لنفسه بعد أن فراغ حيث والده واعتبر فى مصاف الآلهة ــ وأن أمام المقبرة الأولى قد نحت الكثيرون من أتباعه مقابر لأنفسهم ــ أما مقبرة سابنى نفسها فلقد ظهر فيها نقش يدل على أنه كلف من الفرعون الذى عاش فى أيامه ويغلب أنه كان بيبى الثانى بعمل مركبين كبيرين فى بلاد وواوت (منتصف النوبة السفلى ــ قرب توماس) لنقل مسلتين كبيرتين إلى هليوبوليس ، وهذا نص يدلنا على أن المسلات أقيمت فى هذا العصر المبكر فى تلك المدينة التى ازدانت بالمسلات فى كل العصور .

واقف على الشاطىء رغم أنه يظهر تحت ذراع سيرنبوت وفوق هذا يرى سيرنبوت يفتش على ماشيته بمناسبة عيد الآلهة فى الفنتين وبجانب هذا منظر كبير لسيرنبوت وتابعه متبوعين بكلاب . وعلى الجانب الأيمن (الشمالى) من البوابة منظر آخر كبير لسيرنبوت يتبعه رجل يحمل قوسا وعصا ويصحبه كلب آخر . وبعد ذلك نرى سيرنبوت جالسا فى ابهة تحت مظلة ، بينما تقف أمامه أربع سيدات تمسك كل منهن بزهرة . وهن كما تذكر النقوش يمثلن أولا زوجته ، حبيبته الجالسة على عرش قلبه واسمها ست ـ ثن ، وبعد ذلك تأتى امه وتسمى ايضا ست ـ ثن ، ومن بعدها ابنته ساتت ـ حتب ، وهى كما رأينا ام سيرنبوت الثانى ، واخيرا ابنته الثانية ست ـ ثن . ويظهر بوضوح ندرة الاسماء التى تكرر نفسها فى صورة ابناء سيرنبوت التى تظهر بأسفل ، فالابن الاول هو الامير حقا ايب ابن السيدة/ست ـ ثن ، والثانى حقا ايب ـ حرايب ، والثالث حثا ايب ـ ور ، ويتبع هؤلاء منظر الفتاة وحبيبين من المحتمل انهم كانوا ينشدون نشيدا جنزيا[1] .

وبعد أن نخترق الباب ندخل صالة ذات أربعة اعمدة كانت مزينة برسوم اشخاص على الجص . وهذه الرسوم فى حالة سيئة من الحفظ بحيث لا يمكن التعرف الا على القليل منها ، ويبدو أن المناظر كانت من النوع المعروف . وبعد ذلك ندخل ممرا طويلا ذات سقف ، مقبب قليلا يؤدى فى النهاية إلى الحجرة الداخلية ربما صودان وفجوة وناووس .

أما المقبرة التالية فهى من عصر أكثر تأخرا من عصر تلك المقابر التى رأيناها ، إذ أنها ترجع إلى الجزء المتأخر من الدولة الحديثة . وقد كشفتها مدام سيسل والدكتور هوارد كارتر عام ١٩٠٢ ، وهى تخص كا ـ كم ـ كو الكاهن الأعلى لخنوم وسانت وعنقت . وبالفناء رواق فى حالة مخربة الآن ، كما أن رسومه التى لم تتم قد زالت وفى الطرف الغربى من الجدار الجنوبى (اليسار) منظر تهشم جزء منه يمثل كا ـ كم ـ كو واقفا بين آلهتين ترتديان ملابس حمراء وفى الطرف الجنوبى من الحائط الخلفى نشاهد موكب المراكب الجنائزية وهو قادم إلى الشاطىء ، وعلى المركب الرئيسية ناووس جميل يضم صور إيزيس ونفتيس وهما ينتحبان ، وفى الطرف الأخر من هذا الحائط يرى كا - كم - كو يركع أمام المقبرة حاتحور التى تخرج من الجبل الغربى وفوق هذا المنظر منظر باهت لوزن القلب . وعلى الحائط الشمالى (الأيمن) يرى كا ـ كم ـ كو يتعبد أمام خنوم وآلهة أخرى ، وعلى الحائط الشرقى ترى مومياه يسندها كاهن بينما تنتحب زوجته أمامها .

---

(١) يتضح من أسماء أولاد سيرنبوت انه كان من اتباع حثا ايب صاحب المقبرة بهذه الجبانة والمعبد بالفنتين مبنية اسمها سانت ثن اى ابنة الرجل المن وهو لقب لحقا ايب ـ اما اولاده فأسمهم حقا ايب ، وحقا ايب حرايب (اى حقا ايب الاوسط) ثم حقا ايب اور (حقا ايب الكبير) ولا غرو فى ذلك بشيرنبوت مسئول عن اقامة الجزء الأكبر من معبد حقا ايب فى الفنتين .

والآن نصل إلى المقبرة الفعلية ، وهى واطئة بحيث يجب الحذر للمحافظة على نقوش السقف الجميلة من أى ضرر ، وبالقرب من الباب يرى جعران أزرق يحمل قرص الشمس وقرود خضراء تتعبد . وفى وسط السقف تظهر أسراب من الحمام الأزرق ـالأبيض وبطة برية فوق خلفية صفراء ، أما بقية السقف فزين برسوم هندسية مقسمة بواسطة صفوف من الكتابة تردد صلوات إلى مختلف الآلهة من أجل روح كا ـ كم ـ كو .

وفى نهاية الحجرة توجد فجوة ربما كانت فى يوم ما تضم تمثالا أو شاهداً للكاهن الأعظم . وبقية الحجرة غير مزخرفة باستثناء عمود يحمل منظر كا - كم - كو أمام أوزوريس وإيزيس .

هذه هى كل المقابر التى تستحق الانتباه . ويجدر بالزائر الاينسى التسلق إلى قمة الصخرة التى تتوجها قبة الهوا وهى ضريح أحد المشايخ ، ليستمتع بالمناظر الجميلة . أما دير القديس سمعان يكون أحد المعالم المحلية ليخرج عن اختصاصنا ويحسن بنا أن نلقى نظرة على موقع الطريق الكبير الجنوبى الذى يمكن الوصول إليه من نقطة على الجانب الجنوبى من الوادى المؤدى إلى الدير ويمر الطريق بالقرب من صخرة ظاهرة بجدار ضريح شيخ آخر ، وتحمل هذه الصخرة أسماء عدد من الموظفين الذين مروا بهذا الطريق جنوبا أو شمالا خلال الفترة الواقعة بين الأسرتين الثامنة عشرة والخامسة والعشرين . والطريق أقدم عهدا مما يستنتج من هذه النقوش . ولا شك أن الأشراف القدامى فى الدولة القديمة ممن قرأنا نصوصهم قد مروا فى به رحلتهم المحفوفة بالمخاطر إلى السودان .

الكتاب السادس

من فيلة إلى الخرطوم

الفصل السادس والثلاثون
فيلة

والآن نترك مصر الحقيقية ، وندخل النوبة السفلى[1] التى ظلت أثناء الفترة الأولى من تاريخ مصر إقليماً مغايراً نوعاً ما ، ولكن يمكن القول إنها كانت على العموم تمتد من الفنتين إلى حلفا جنوباً ، أو إلى الجنوب منها بقليل وفى العصور الأولى كان الإقليم يمتد حتى الكاب شمالاً ، وكان المفروض حتى فى عهد الإمبراطورية الحديثة أن يحكم نائب الملك فى كوش من الكاب إلى الجنوب ، ولكن الفاصل الفعلى بين مصر والنوبة يقع عند الشلال الأول حيث يتحدد الفاصل الطبيعى وليس هناك ما يدعو إلى الدخول فى تفاصيل التاريخ المتقلب للإقليم فصلته بمصر لا تهم إلا المتخصص ، وسوف نرى أن الصلة تنعكس بصفة كافية على الآثار القديمة التى سنتناولها لنكون فى حل من الحاجة إلى كتابة قصة لابد أن جزءاً منها تكرار للأحداث التى تتبعناها فى نصوص أشراف الفنتين والجزء الآخر تقديم للأحداث التى سنتناولها فى وضعها الطبيعى عندما نصل إلى المخلفات التى تتصل بها .

---

(١) بلاد النوبة تعبير جغرافى يقصد به المنطقة الممتدة من الجندل الرابع تقريبا حتى الجندل الأول أى فيما بين خط عرض ١٨ درجة و ٢٤ درجة شمالاً وهى تشمل منطقة صحراوية رملية تعتبر من أشد جهات العالم حرارة وجفافاً .

وقد ارتبطت هذه المنطقة بمصر لعوامل متعددة ، منها العامل الطبيعى أى وحدة المظاهر الجغرافية وتدرجها من النوبة إلى مصر العليا ويمتد من الجندل الرفيع داخل حدود الجمهورية السودانية ، والنوبة المصرية والسفلى وتمتد عن الحدود السودانية حتى أسوان ، وتكون بلاد النوبة بقسميها وحدة جغرافية متميزة يسكنها شعب تتماثل جنسياً وثقافياً وإجتماعياً . =

وباختصار شديد تجرى القصة كما يأتى : فى عصور ما قبل التاريخ كان الجنس الذى يقطن النوبة حتى الشلال الثانى جنوباً هو نفس الجنس الذى كان يسكن مصر ، ولم تكن هناك اختلافات ظاهرة فى المستوى العام للثقافة . غير أن اتحاد مصر على يد فراعنة الأسرة الأولى أعطى دفعة لثقافة الشمال التى كانت تعوز النوبة . ومن ذلك الوقت حدث تباعد بين الحضارتين أخذ يزداد شيئاً فشيئاً عندما تقدمت الحضارة المصرية نحو عصر بناة الأهرام . وبينما ظلت النوبة فعلاً راكدة كانت مصر تتقدم بخطى سريعة ، وأصبح الفاصل بينهما واضحاً ومن ثم نجد فى الأيام الأخيرة من الدولة القديمة ـ كما رأينا سابقاً فى مرات عديدة ـ أن المصرى كان يعتبر النوبى حقيراً بالقياس إلى نفسه وأن النوبة بالنسبة له ليست إلا قطعة من الأرض يجب اختراقها للحصول على منتجات السودان ، وقد كان لـرحلات أمـراء الفنتين الفضل فى تعريف الشعب المصرى بميزات الأرض التى تقع وراء الشلال الأول .

وقد تغير كل ذلك فى العصر المظلم الذى تلا سقوط الدولة القديمة ولم تعد مصر فى موقف يؤهلها للمحافظة على الأرض الواقعة جنوبى الشلال بل فقدت تلك السيطرة المعدلة التى كان يمارسها حراس باب الجنوب فى الدولة القديمة . وبالاضافة إلى ذلك كان سكان النوبة السفلى فى حالة تغير بسبب تدفق قبائل أفريقيا الوسطى من أقصى الجنوب وعلى ذلك فإننا نجد فى أوائل الدولة الوسطى ـ عندما استعادت مصر قوتها ـ أن النوبة السفلى أصبحت مستعدة لأن تذعن لسلطان مصر واستطاع الملوك الأوائل للأسرة الثانية عشرة أن يوقفوا القبائل الجنوبية عند الحد الطبيعى لمصر . وقد توطد مركز مصر فقط أيام سنوسرت الثالث وامتدت الحدود بصورة دائمة إلى سمنه وكمه (سمنه شون) جنوب الشلال الثانى .

= وقد اهتم المصريون فى مختلف عصروهم اهتماما كبيرا ببلاد النوبة لأسباب كبيرة منها :

أولا : كانت بلاد النوبة منذ أقدم العصور الممر الرئيسى للتيارات الثقافية بين البحر الأبيض المتوسط وقلب افريقيا ، كما كانت طريق التجارة بين مصر والسودان وكان الطلب شديداً على منتجات الجنوب من ابنفومن وتاج عريض نعلم وجلد غبد ومعادن وحيوانات .

ثانيا : وثرة المعادن وبخاصة الذهب وكذا الصخور الجيدة .

ثالثا : استخدام المصريون القدماء بعض السكان هذه المنطقة فى الجيش والشرطة .

رابعا : الاهتمام بالنيل مصدر الحياة فى مصر وقد نتج عن ذلك انشاء المقاييس لقياس ارتفاعه وقد صاحب هنا الاهتمام نشاط معمارى كبير وبخاصة فى بناء المعابد التى كانت مراكز دينية وثقافية .

وقد شملت آثار النوبة سبعة عشر معبدا بعضها مبنى بالبعض الآخر منحوت فى السخر ، يرجع معظمها إلى العصر اليونانى الرومانى والبعض الآخر إلى العصور الفرعون وقد حول بعضها فى العصر المسيحى إلى كنائس .

ونتيجة لأنشاء خزان أسوان ١٩٠٢ والتفكير فى بناء السد العالى الذى ترتب على قيامه خلق بحيرة ناصر مما كان سيؤدى إلى غمر جميع الآثار والمواقع القديمة ببلاد النوبة المصرية والسودانية بمياه الخزان إلى الأبد ، سارعت الحكومة بالاشتراك مع هيئة اليونسكو إلى انقاذ هذه الآثار ، وراجراء حفائر بالمواقع الأثرية مع قيام مركز تسجيل الآثار بتسجيل اثارها .

وخلال عصر الفترة الثانية التى شهدت غزو الهكسوس أفادت النوبة السفلى طبيعيا من ضعف مصر فاستردت حريتها وعندما بدأت حرب التحرير التى انتهت بطرد الهكسوس بدأنا نجد مصر تحارب فى جبهتين وتهزم النوبيين مرة أخرى . وقد عبر كاموزا خليفة سقنرع عن الموقف بقوة وبطريقة شاعرية : «والآن تكلم جلالته هكذا فى قصره إلى مجلس أعيانه الذين كانوا يصاحبونه : «إننى أريد أن أعرف ما فائدة قوتى مادام هناك أمير يجلس فى أفاريس (عاصمة الهكسوس) وآخر فى كوش ، وأنا هنا أجلس بين أسيوى وزنجى » ، وقد صحح هذا الوضع السيء تدريجياً على أيدى فراعنة الأسرة الثامنة عشرة المحاربين حتى أنه فى أيام أمنوفيس الثالث نجد الحد المصرى يصل جنوباً إلى نباتا عند الشلال الرابع ، وتتسرب الثقافة المصرية إلى المنطقة . وفى أيام الحكم الضعيف للفراعنة الكهنة فى الأسرة الحادية والعشرين شق إقليم النوبة عصا الطاعة مرة ثانية وفى هذه المرة قامت مملكة أثيوبية عاصمتها نباتا ، وأصبحت هذه المملكة تدريجياً تعتبر نفسها الوارثة الحقيقية لتقاليد مصر العظيمة من الناحيتين الدينية والدنيوية ، بينما وقعت مصر شيئاً فشيئاً فى انشقاق ومنازعات قاتلة ، قام بيعنخى أحد الملوك الأثيوبيين بغزو واكتساح البلاد كلها مدعياً أنه يحمل رسالة لإعادة النظام والدين ، وبعد ذلك بقليل حكمت الأسرة الأثيوبية الخامسة والعشرون البلاد ، وورثت مهمة منازلة السلطان الآشورى ، وهى مهمة فشلت فيها تماماً . وبقيام الأسرة السادسة والعشرين تراجع الأثيوبيون إلى النوبة ، وقام بسماتيك الثانى من الفرع الصاوى بمحاولة فاشلة لقهر النوبة السفلى ، وفى أثناء ذلك باء غزو قمبيز لمصر بعد الفتح الفارسى بالفشل أيضا ، وقد انتقلت عاصمة المملكة الأثيوبية من نباتا إلى مروى حوالى ٣٠٠ ق . م . ورغم أن الحضارة المحلية أخذت فى ذلك الوقت فى الانهيار بسرعة إلا أنها كانت لا تزال تحتفظ بتقليد ركيك للثقافة المصرية التى أخذتها عنها وبقيام الحروب ضد الرومان فى عهد كانداس الملكة الأثيوبية وما تلتها من معارك مستمرة بين الامبراطورية الرومانية والقبائل المعروفة بإسم البلمى نتوقف عند ذلك الحد .

أما فيما يختص بمصر نفسها ، فإنه يمكننا القول بأن النوبة السفلى تشبه سيناء من حيث أنها بارومتر نقيس به قوة المملكة ، فنجد أن الحدود المصرية تمتد تدريجياً فى النوبة إبان حكم الملوك الأقوياء الباغين ، بينما تنحسر فى عصر الأسرات الضعيفة إلى أن تقف عند الشلال الأول فى الحالات القصوى بل قد يصبح من الصعب الاحتفاظ بها .

وعلى مسافة قصيرة جنوبى جزيرة سهيل - التى رأينا نقوشها - يعترض النيل سد أسوان الذى أقيم وأضيفت إليه إضافات فى المدة من ١٨٩٨ إلى الوقت الحالى بغرض خزن المياه أثناء فصل الشتاء حتى يمكن الانتفاع بها عندما يكون النيل واطئا أثناء الشهور الأولى للصيف . وهذا العمل العظيم ـ الذى يشهد بأن الهندسة الحديثة يمكن أن تنافس بحق إنشاءات الفراعنة ـ قد مر بثلاث مراحل حتى وصل إلى نهايته ، ففى مرحلته الأولى ما بين

عام ١٨٩٨ ونهاية عام ١٩٠٣ كان ارتفاعه ١٣٠ قدماً وسمكه ٢٣ قدماً فى أعلاه و ٩٨ قدماً فى قاعدته ، ولم يمر عليه وقت طويل حتى تقرر تعليته ثانية ١٦½ قدم وزيادة سمكه تبعاً لذلك وقد تم ذلك بين عامى ١٩٠٧ و ١٩١٢ ، وأخيراً تقرر تعلية السد ١٨ قدماً أخرى ، ويجرى العمل حالياً فى هذه الزيادة على أن تتم فى ١٩٣٣ واهتمامنا بهذا العمل الكبير النافع الذى زاد من ثروة مصر يتركز فى تأثيره على الآثار التى تقع فى المناسيب التى وصلت إليها أو التى ستصل إليها المياه المحجوزة عندما يكون الخزان ممتلئا . وفى الوقت الحالى تتضمن قائمة المعابد والقلاع التى ينتظر تغطيتها بالمياه خلال موسم الشتاء المبانى الآتية : معابد فيله ومعبد بيجه ومعبد دابود وقلعة ومحاجر قرطاس ومعبد وادى حديد ومعبد طافا ومعبد كلابشه ومعبد دندور وقلعة كشتمنة ومعبد الدكه وقلعة كوبان ومعبد قورته ومعبد المحرقة ونتيجة التعلية الجديدة للسد سوف يزداد غرق هذه المبانى ، وسوف تمتد البحيرة الكبيرة التى كونها الخزان كثيراً إلى الجنوب .

والخسارة الكبرى للزائر العادى هى جزيرة فيله الجميلة التى كانت سابقاً الموقع الساحر فى مصر العليا بنخيلها ومجموعة معابدها الرائعة التى تمد الشاهد رغم حداثة عهدها بالعناصر الأساسية للعمارة المصرية وقد وضعت فيله والمواقع الأخرى التى ذكرت تحت بحث وإعداد دقيقين نظراً للتجربة القادمة التى نتعرض لها . وقبل إقامة السد تأكد ، نتيجة لأعمال التقوية التى عولجت بها أنها أصبحت أقوى مما سبق وأنها سوف لا تضار من غرقها ، ولكن فى الحقيقة لم تتحقق هذه الآمال الموجودة ، فان فيلة ـ حتى عندما تبرز مبانيها ـ تكون فيلة أخرى بسبب الألياف الدقيقة للطحالب الزائدة التى تعطى منظراً غير سار بل كريهاً للأحجار التى كانت يوماً ما جميلة ، كما أن المناظر والنقوش تبلى تدريجياً وتصبح عرضة للزوال ولذلك فإن السيد بارسانتى نبه رؤساءه بمصلحة الآثار إلى أن يهيئوا أنفسهم على رؤيتها تختفى شيئا فشيئاً (المعابد المغرقة فى النوبة)[1] والآن وقد أصبح الغرق أكثر ارتفاعاً وامتداداً فلن نرى غير القليل من فيله ، وسوف نعزى أنفسنا بالقول بأن معابد الجزيرة يرجع تاريخها فقط إلى عصر انحلال مصر حيث أن أقدم مبانيها يعود فقط إلى عصر الملك نقطانبر الأول (حوالى ٣٧٠ ق . م .)[2] وما يحدث لفيلة يتكرر بدرجة أقل فى المعابد التى غرقت جزئياً ، وبعضها يرجع تاريخه إلى عصور أقدم من عصور «جوهرة مصر» .

وفضلا على ذلك فليس هناك معنى للخوض كثيراً فى هذا الموضوع ، فحياة الناس أكثر أهمية من المبانى الميتة رغم أهميتها وأن الحديث كما فعل أحد المعجبين المتحمسين لمصر عن

---

(١) كما سبق أن ذكرنا ظهرت مبان من عصر بسمتيك الثانى وامازيس من العصر الصاوى بعد فك مبانى الجزيرة أى ما يقرب من ثلاثة قرون قبل نقطانبر .

(٢) Les Temples immerges de la Nubie

« السد اللعين » ليس إلا نوعاً من الفقدان الكامل للاحساس النسبى ، فالسد العظيم يبرهن دائماً على أنه نعمة لا حد لها لشعب مصر ، وأن عملا يعود بالنفع على خمسة عشر مليوناً من السكان [٣] بطريقة مباشرة أو غير مباشرة لا يحتاج إلى تبرير ، ومع ذلك فإننا نأسف لضياع بعض مخلفات قديمة هامة . وعلينا أن نذعن إلى الحقيقة بأن فيلة قد ضاعت وان المعابد الأخرى سوف تلقى نفس المصير شيئا فشيئاً ، وأن هذه التضحية لابد منها لرفاهية ملايين من سكان وادى النيل شمالى السد [٤] .

وفى طريقنا إلى فيلة نمر بجزر كنوسو الصخرية بعيداً عن الطرف الشمالى من الجزيرة الكبيرة . وقد اختفت الآن هذه الجزر الصغيرة بصفة عامة وسوف تختفى أكثر فيما بعد ، غير أنه يوجد نقشان على الصخور جديران بالملاحظة أحدهما ذلك النقش الطويل الذى يصف فيه تحتمس الرابع والد أمنوفيس الثالث كيف أنه تلقى وحيا من آمون بالسير على رأس حملة ضد المتمردين النوبيين ، وكيف أنه نفذ تعليمات الإله ويجرى النص الذى يشير إلى الحملة هكذا : « وبعد هذه الأشياء تقدم جلالته لقهر الرنوج فى النوبة ، وكان عظيماً فى موكبه مثل رع عندما يظهر فى موكبه السماوى . . . . وكان جيشه المنتصر معه على كلا الشاطئين . . . وكانت السفينة مزودة باتباعه وبينما كان يبحر مصعدا مثل كوكبة الجبار كان يضىء الجنوب بجماله ، وقد صاح الرجال مشيدين بفضله ، أما النساء فقد رقصن عندما بلغهن خبر قدومه . . . . والقى الرعب فى كل قلب وأذاع رع الخوف منه بين البلاد مثل سخمت فى عام الندى . . . وقد سار فى المرتفعات الشرقية واخترق الطرق مثل ابن آوى . . . . »

برستد ـ النصوص القديمة (جزء ٢ ـ الفقرات ٨٢٣ ـ ٩) ، وهذا جميل كله غير أن الإنسان كان يود أن يسمع الرواية النوبية عن هذا النجاح الرائع .

والنقش الآخر لامنوفيس الثالث ابن تحتمس الرابع وكان عليه أن يعيد ثانية العمل الذى أنجزه باعجاب والده والذى دام لمدة قصيرة ، السنة الخامسة ، عاد جلالته بعد أن انتصر فى حملته الأولى الموفقة فى أرض كوش التعسة وبعد أن مد حدوده إلى الحد الذى يرغبه إلى غاية الأعمدة الأربعة التى تحمل السماء ، وقد أقام لوحة لانتصاراته فى بركة دكورس، ولا يوجد ملك فى مصر فعل مثل الذى فعله جلالته القوى ، الراضى بانتصاراته نب ماعت

---

(٣) الآن حوالى أربعين مليوناً .

(٤) لم تضع فيله بل ستزدهر من جديد عند الانتهاء من نقل مبانيها إلى جزيرة أجليكا المجاورة وسوف يزرع حول مبانيها بعض الأشجار التى ستعطى نفس المنظر الذى كانت تتمتع به قبل إنشاء خزان أسوان وتعلياته ـ هذا وقد نشرت الكثير من المقالات والابحاث عن معابد الجزيرة بمناسبة انقاذها
أنظر المراجع التى جمعها المسيو لويس كريستوف .

رع امنوفيس الثالث (برستد ـ المصدر السابق ـ جزء ٢ ـ ٨٤٥) وكم كنا نود أن نعرف أين تقع بركة حورس التى أقام بها امنوفيس الثالث لوحة انتصاراته ، وعلى أى حال فنحن نعرف أن الحدود المصرية فى النوبة قد وصلت أيام امنوفيس إلى الشلال الرابع الذى كان أقصى ما وصلت إليه فى أى وقت . وتوجد نقوش أخرى لابسماتيك الثانى وايزيس ولكن النقشين السابقين هما أهم النقوش بين مجموعة ليس من المحتمل رؤ يتها ثانية .

والآن نصل فيله التى تقع على مسافة ميلين تقريباً جنوبى الخزان ويبلغ طول الجزيرة حوالى ٥٠٠ ياردة بعرض ١٦٠ ياردة وهى تتكون من كتلة من الجرانيت المختلط بالرخام الملون ، وقد تراكم طمى النيل إلى ارتفاع كبير فوق الصخر فى معظم الأماكن ، ولكن الجرانيت يظهر فى الركن الشمالى الشرقى ، وفى فناء معبد ايزيس خلف الصرح الثانى . واسم فيلة يونانى يعادل الاسم المصرى القديم (ببلاك) وهو اسم غير مؤكد المعنى ولو أن الصيغة القبطية « بيلاخ » تعنى نهاية أو ركن[1] وأقدم مبنى من أى نوع قائم حالياً فى الجزيرة هو مذبح طهارقة الملك الأثيوبى (الأسرة الخامسة والعشرون) وهو أقدم بكثير من المبنى التالى ونعنى به معبد نقطانبو الذى سبق ذكره .

ومع أن فيلة لم تدخل فى الصورة المصرية القديمة إلا قرب نهاية تاريخ مصر الطويل ، فإن كهنة إيزيس حاولوا بسرعة أن يعوضوا الزمن المفقود بمجرد أن ثبتوا أقدامهم فى الجزيرة . وقد سبق أن رأينا نقش سهيل الذى يدعى أن الملك زوسر وهب خنوم إقليم الدود بكاشينوى ولكن كهنة إيزيس فى فيلة لم يتركوا هذا الادعاء يمر دون معارضة فقدموا دعواهم بأحقيتهم فى الإقليم المشار إليه لنفس الأسباب ، بمعنى أنه هدية من زوسر كمكافأة لآلهتهم لا بعادها المجاعة التى تفشت لمدة سبع سنوات ، ولا نعرف إلا القليل عن نتيجة الصراع بين الفريقين الكاذبين ، ولكن بينما كان كهنة خنوم أقرب إلى الحق بسبب أن عبادة خنوم أقدم من عبادة إيزيس فى المنطقة ، فإنه يبدو أن الحق لم يكتب له النصر أمام القوة حيث أن إيزيس كانت أكثر شعبية من خنوم فى الأزمنة المتأخرة من تاريخ مصر القديمة .

وعلى الرغم من أن عمارة المعابد فى فيلة بدأت متأخرة فإنها تقدمت بنشاط ملموس بمجرد الشروع فيها ، وفعلا غطى سطح الجزيرة كله بمبان ترجع من عهد نقطانبو حتى عصر الأمبراطور هادريان . وعبادة إيزيس ـ التى أسبغت الشهرة على الجزيرة أيام البطالمة والرومان ـ كانت متأخرة نسبيا هنا ولم يكن لها جذور قديمة قبل العصر البطلمى ولكن كهنة هذه الآلهة العظيمة سرعان ما نجحوا فى جعل عبادتهم أقوى العبادات فى مصر العليا ، وفى

---

(١) ومن بين الأسماء التى أطلقها المصريون على الجزيرة اسم حصن المقدمة «حت خنت» وهو كبيلاق يرتبط بموقعها عند بداية النوبة وفى العصر العربى أطلق على هذه المعابد اسم قصر انس الوجود ونسج الخيال معه شبيهة بقصص ألف ليلة وليلة .

حكم بطليموس السادس (فيلومتر) سلمت مقاطعة الدوديكا شينوى مثار النزاع بينهم وبين كهنة خنوم بواسطة هذا الملك إلى كهنة ايزيس لإدارتها ، وبذلك أصبحوا مسيطرين على أرض يقرب طولها من تسعين ميلا ، رغم أنه يجب أن نضع في الاعتبار أن نوعية هذه الأرض لا تتناسب مع حجمها ومن المؤكد أنه فى زمن متأخر نوعاً ما امتلك كهنة إيزيس جميع منطقة النوبة السفلى حتى الشلال الثانى ، ولم تتخل الشعبية العجيبة التى حصلت عليها عبادة إيزيس أيام الأمبراطورية الرومانية عن كهنوت فيلة . فقد استمرت عبادة إيزيس لمدة طويلة بعد قرارات ثيودوثيوس فى فيلة التى ساعد بعدها على هذا التحدى ، ولم تغلق مبانى فيلة قبل عصر جستيمان (٥٢٧ ـ ٦٥ ميلادية) ولم يتحول معبد إيزيس على يد الأسقف تيودور إلى كنيسة مسيحية قبل عام ٥٧٧ ، ولم يبق حاليا شيء من أطلال المدينة القبطية المبنية باللبن التى تمت تباعا بعد هذا التاريخ حول المعبد الوثنى السابق ، والتى كشفت وتم تخطيطها فى ١٨٩٥ .

وقد كرس معبد نقطانيو أقدم معابد الجزيرة لحاتحور وإيزيس وآلهة « منعت » (جزيرة بيجة) القريبة من فيلة . ولا يعرف بالضبط الوقت الذى ظهرت فيه الأسطورة القائلة بأن فيلة كانت إحدى البقع المقدسة التى كرست لدفن أحد أعضاء جسم أزوريس الممزق ولكن كهنة إيزيس استغلوا أحسن استغلال هذه الأسطورة بمجرد أن أصبحت موضع جدال ، فأصبحت الجزيرة مسرحاً لإحدى تمثيليات آلام أزوريس التى كانت تعرض فى إبيدوس وغيرها من البلدان وعندما اضمحلت عبادة أزوريس العظيم فى أبيدوس انتقلت شهرتها بسهولة إلى فيلة التى جذبت إليها جماعات من المتعبدين وبالتدريج حلت إيزيس محل زوجها أزوريس فى مكانته طبقا للاتجاه الذى أكد نفسه طوال العصر الرومانى ، وأصبحت إيزيس سيدة فيلة بدون منازع يشاركها فى ذلك حورس ، الذى كان له علاقة ببيجة كإله ثانوى .

نبدأ وصفنا لمعابد فيلة بالركن الجنوبى الغربى للجزيرة حيث يبرز على الفور معبد نقطانيو فوق المياه عندما يكون الخزان منخفضاً وكان يقصد بهذا المعبد أن يكون الصالة الأولى لمعبد كرس لحاتحور وإيزيس وجميع آلهة سنمت (بيجة) وهى كما يظهر تجديد قام به بطليموس الثانى (فيلادلفوس) للمبنى الأصلى . وكان فى الأصل محمولا على أربعة عشر عمودا لم يبق منها حاليا غير ستة فقط ، وهذه الأعمدة ذات تيجان زهرية وأخرى ، على هيئة صلاصل تحمل رؤوساً حاتحورية فوق التيجان السفلية تمشيا مع التقاليد السمجة فى العصر المتأخر . وقد زال السقف كما اختفت واحدة من المسلتين المصنعتين من الحجر الرملى اللتين كانتا مقامتين أمام واجهة النهر ، أما الأخرى فلا زالت قائمة غير أنها فقدت قمتها . وكان يصل بين الأعمدة ستائر مبنية بالحجر متوجة بالأفاريز العادية المقدسة وصفوف من الحيات . وعلى الواجهة الشرقية للمعبد يرى الملك على الجدران الساترة أمام خنوم وسانت وأزوريس وإيزيس ، بينما يظهر على الواجهة الغربية للستائر أمام أمون وموت ،وايزيس

وعنقتو واجيت ، وأوزريس والطفل حورس ، وبداخل المعبد يرى الملك على الجانب الشرقى فى حضرة إيزيس ونفتيدس وحاتحور ومجموعة أخرى مختلفة من الآلهة والآلهات ، بينما يظهر على الجانب الغربى أمام أزوريس وإيزيس وخنوم وحورس سيد إدفو وتحوت سيد هرموبوليس وآلهة أخرى .

وبالقرب من معبد نقطانبو وفى الطرف الجنوبى من صف الأعمدة الشرقى المؤدى إلى معبد إيزيس يوجد معبد مخرب للإله أرى ـ حسى ـ نفر أو أرسنوفيس ، وهو الإسم المحلى لإله الهواء القديم « شو » . وقد كان يضم فى الأصل صالة أمامية وبهواً ودهليزاً وهيكلاً غير أن معظمها قد زال ، ولكن لا يزال يوجد الجزء الأسفل من جدران الصالة الأمامية تزينه صور إله النيل حابى كما تشاهد بقايا مناظر لبناة المعبد بطليموس الرابع (فيلو باتر) وبطليموس الخامس (أبيفانوس) أمام آلهة مختلفة . على الجزء المتبقى من السور أربعة صفوف من المناظر تمثل الامبراطور طرويسون أمام الآلهة ومن بينهم أرسنوفس ، وعلى الجزء الساقط من السور يظهر أرجامون الملك الأثيوبى المعاصر لبطليموس الرابع الذى اشترك مع الملك المصرى فى بناء المعبد ، مع بطليموس الرابع وبطليموس السابع وطيبربوس .

وإذا عدنا إلى الطرف الجنوبى من الجزيرة ، فإننا نسير بمحاذاة صف الأعمدة الغربى الذى يصل من معبد نقطانبو إلى معبد إيزيس العظيم . ويبلغ طول الطريق الرائع مائة ياردة وعلى واجهة النهر ينهض حائط عمودى يبرز من الحائط الساند الذى يواجه المياه . ويتكون صف الأعمدة من واحد وثلاثين عمودا (فى الأصل اثنين وثلاثين) وهذه لا تزال تحمل أجزاء من السقف المزخرف بالعقاب والنجوم . ولا يزال الحائط الخلفى فى حالة جيدة من الحفظ وهو مزين بصفين من المناظر التى تمثل كلوديوس وطيبريوس وجرمانيكوس أمام آلهة متعددة ، وبه نوافذ تطل على النهر ، وتيجان الأعمدة مزخرفة بزخارف متنوعة تمثل أشكال زهرية وسعف النخيل وفوقها ركائز وأعتاب تحمل افريزا مقوسا ، ويمثل هذا الصف من الأعمدة فى مجموعه إحدى روائع الجزيرة ، ولهذا فإن إغراقه ـ وهو أمر لا مفر منه ـ يبعث على الأسى . وعلى زاوية قائمة معه يوجد ممر سفلى يصل إلى الماء الذى كان يستعمل مقياسا للنيل .

أما صف الأعمدة الشرقى الذى يبدأ من معبد ارسنوفيس فإنه لم يتم أبدا ، وبه سبعة عشر عمودا لم يكتمل منها غير ستة ، أما الأحد عشر عمودا الباقية فقد نحتت نحتا خشنا . وتنفذ خمسة أبواب من الحائط الخلفى الذى لم يزين قط ، وهذه تؤدى إلى ساحة يوجد بها بقايا معبد صغير للآله ماندوليس ، وهو صورة محلية لإله الشمس «رب الوميض المندفع كالسهم» وبالقرب من معبد ايزيس الكبير باب سادس يؤدى إلى ساحة المعبد الصغير لا محتب الذى شبهه الإغريق ـ تحت اسم ايموسس ـ باسكليبسوس وتقع البوابة المؤدية إلى المعبد على الجانب الشمالى من هذه الساحة وعليها مناظر تمثل بطليموس الخامس (انيفانيس)

أمام أمحتب على الجانب الأيسر ، وتمثله أمام ثالوث الشلال خنوم وسانت وعنقت على الجانب الأيمن ، وكذلك أمام أوزريس وأيزيس وأمحتب والحجرتان الواقعتان خلف البوابة غير مزخرفتين . وقد أقام هذا المعبد بطليموس الثانى (فلادلفوس) وتقوم بينه وبين المعبد الكبير بوابة جميلة من عمل بطليموس فيلادلفوس أيضاً ومن المحتمل أنها كانت جزءا من طريق أقدم حل مكانه صف الأعمدة الشرقى الحالى .

وتوجد على عتب واجهتها الغربية مناظر تمثل فيلادلفوس يرقص أمام خنوم وحاتور وأمام أوزوريس وايزيس ، بينما يمثل على الواجهة الشرقية للبوابة أمام اوزرويس وايزيس ، وسانت وعنقت وآلهة أخرى وعلى جانبى البوابة طيربوس أمام الآلهة .

والآن نصل إلى المعبد العظيم لايزيس الذى بدأه بطليموس الثانى ، فيلادلفوس (٢٨٣ - ٢٤٥ق .م) وأتم أجزاءه الرئيسية بطليموس الثالث ، أفرجيت الأول (٢٤٧ - ٢٢١ ق .م .) . ومن البديهى أن زخرفته استغرقت مدة أطول ، ومن المؤكد أنها لم تكمل قط . والصرح الكبير عبارة عن مبنى مهيب عرضه ١٥٠ قدما بارتفاع ٦٠ قدما والبوابة الأصلية الواقعة بين البرجين من عصر أقدم من بقية المبنى إذ أقامها نقطانبو فى نفس الوقت الذى أقام فيه معبده الصغير الذى رأيناه . والمناظر على العتب تظهر نقطانيو يرقص أمام أوزوريس وإيزيس ، وخنوم وحاتحور . وعلى كل من سمكى البوابة يرى الملك فى حضرة آلهة مختلفة ، وهناك منظر كبير يمثله أمام إيزيس وعلى السمك الأيمن نقش باللغة الفرنسية يسجل تواجد القوات الفرنسية بقيادة الجنرال ديزيه ، التى طاردت المماليك حتى هذه النقطة .

وبرجا الصرح مزينان بمناظر تمثل بطليموس الحادى عشر ، نيوس ديونيسوس (أوليت) يذبح أعداءه أمام إيزيس وحورس سيدادفو وحاتحور ، بينما يرى فى أعلى الملك نفسه يقدم القربان لحورس ونفتيس ، وإيزيس وحورس الطفل . وهناك بوابة اضافية تخترق البرج الغربى تؤدى إلى بيت الولادة الذى يقع بين هذا الصرح والصرح الثانى . وأمام البرجين أسدان واقفان من عصر رومانى أو بيزنطى ، وهنا أيضا كانت تقوم مسلتان صغيرتان من الجرانيت أقامهما بطليموس السابع ، افروجيت السابع . وقد نقل إحدى هاتين المسلتين بلزونى فى ١٨١٨ ، إذ راقت فى عينه فى أول زيارة له للجزيرة فى ١٨١٥ . وحديثه عن مغامراته فى نقل المسلة ممتع ومسل وبخاصة عندما تحدث عن سقوط المسلة فى النيل نتيجة لانهيار الرصيف الذى عهد إلى الأهالى بإقامته (حكايات ، صفحات ٣٥٣ ـ ٦٣)[1] . وارتفاع المسلة ٢٢ قدما ووزنها حوالى ستة أطنان . وأخيرا بيعت إلى السيد/د . بانكس من كنسجتين لاس ، دورست . وأقامها بنفسه فى حضرة دوق ولينجتون عام ١٨٣٩ . وهى

---

(١) نقلت المسلة الثانية فيما بعد إلى نفس المكان

على جانب كبير من الأهمية فقد مكنت الكتابات اليونانية المنقوشة على قاعدتها - التى ترجع إلى نفس عصر الكتابة المصرية الأصلية على جوانبها - السيد بانكس فى ١٨١٦ ، قبل نقلها ، من التعرف على خرطوش كيلونترا زوجة افرجيت الثانى وبذلك اسهم فى حل الرموز الهيروغليفية[١] .

وإذا اخترقنا البوابة الأساسية نجد أنفسنا فى الفناء الأمامى للمعبد . وإلى يسارنا (الغرب) بيت الميلاد وإلى يميننا (الشرق) صف من الأعمدة ذات تيجان جميلة بشكل الزهر وسعف النخيل . وإذا عدنا إلى الخلف لنرى المناظر على الجانب الخلفى من الصرح الذى تركناه ، نرى إلى اليمين (الغرب) نيوس ديونيسوس أمام أوزوريس وإيزيس وآلهة أخرى بينما يوجد فى أسفل مركبان مقدسان فى موكب يحملهما الكهنة وإلى اليسار (الشرق) يرى نفس الملك أمام آمون وموت وآلهة أخرى وفى هذا البرج بوابة صغيرة فى الجانب الذى تقف عليه تؤدى إلى حجرة مزينة بمناظر تمثل بطليموس الثانى (سوتر الثانى) أمام إيزيس وحاتحور وحورس ، وبصحبته زوجته والأميرة كليوباترا أمام إيزيس . وإلى أقصى الشرق تحت الباكية توجد بوابة أخرى صغيرة عليها مناظر تمثل بطليموس الحادى عشر (نيوس قيونيسوس) يغادر قصره مصحوبا بأعلام البلاد . وتؤدى هذه البوابة إلى سلم يصل إلى أعلى الصرح .

والآن نخترق الفناء الأمامى حتى جانبه الغربى لندخل بيت الولادة الذى يمكن الوصول إليه كما ذكرنا من بوابة البرج الغربى للهرم الكبير . وهذه البوابة مزينة بمناظر تمثل بطليموس السادس (فيلوميتر) فى حضرة آلهة مختلفة تليها مناظر تشرح الموضوع الخاص ببيت الولادة ، وهو قصة ميلاد وطفولة حورس . وأمام المبنى الرئيسى رواق يسند سقفه أربعة أعمدة ، ويلى ذلك حجرتان وفى النهاية الهيكل . وحول ثلاثة جوانب من المبنى صف من الأعمدة ذات تيجان زهرية تعلوها تيجان على شكل صلاصل برءوس حاتحورية . وقد زينت الجدران والأعمدة والستائر التى تصل بين الأعمدة بالمناظر المألوفة للفرعون الذى قد يكون بطليموس السادس أو السابع أو الحادى عشر أوطيبريوس حسب الحالة - فى حضرة آلهة مختلفة . ووصف هذه المناظر يبعث على الملل . وجدران الحجرة الأولى غير مزينة ، أما جدران الثانية فإنها تحمل مجموعة غريبة من المناظر حول الجزء الأسفل من الحجرة تمثل كل أنواع المعبودات الغريبة بين مستنقعات البردى حيث حددت الأساطير مكان ولادة حورس . ويوجد أهم منظر فى الهيكل على الجدار الشمالى (الجدار الخلفى) حيث يرى صقر حورس متوجا بالتاج المزدوج وواقفا بين أدغال البردى ، وتحت ذلك ترى إيزيس تحمل بين ذراعيها الطفل الحديث الولادة حورس ، بينما يحيط بها آمون رع وتحوت وواجيت ونجبيت

---

(١) — Belzoni ; Narrative ' pp . 353 — 63 .

وحورس إدفو أما صف الأعمدة الواقع على الجانب الشرقى من الفناء الأمامى فرائع بتيجانه المزينة بأشكال زهرية وسعف النخيل . ويعلو صف الأعمدة الكورنيش المقعر المعتاد ، وهو يحمل بدوره صفا من الحيات ويرجع بناء هذه الباكية إلى بطليموس السابع (أفرجيت الثانى) كما يشير بذلك النقش الموجود على العتب .

أما مناظر الجدار فتظهر بطليموس الحادى عشر (نيوس ديونيسوس) أمام الآلهة . ويخترق الجدار الخلفى للباكية ستة أبواب تؤدى إلى حجرات كانت تستعمل لأغراض عملية تتصل بالعبادة فى المعبد مثل عمل البخور وحفظ الكتب المقدسة وما شابه ذلك .

وفى الفناء الأمامى للمعبد الكبير الذى نقف فوقه يوجد أقدم أثر فى فيلة فى الركن الجنوبى الشرقى ، وهو مذبح من الجرانيت للملك الأثيوبى طهارقة . ويكون الجدار الخلفى للفناء الصرح الثانى الذى يبلغ عرضه ١٠٥ أقدام بارتفاع ٤٠ قدماً . والوصول إلى البوابة الواقعة بين البرجين بواسطة منحدر ذى درجات قليلة الارتفاع ويزين البوابة مناظر مهشمة من النوع المألوف تمثل افرجيت الثانى أمام مجموعة من الآلهة . وعلى البرجين مناظر تمثل نيوس ديونيسوس يقدم البخور ويهدى ضحايا حيوانية لحورس وحاتحور وآلهة أخرى . وعند أسفل البرج الشرقى تبرز كتلة من الجرانيت الطبيعى للجزيرة صقلت التكوين لوحة يظهر عليها بطليموس السادس (فيلوميتر) وزوجته واقفين أمام إيزيس وحورس وأمام أوزوريس وإيزيس . وبأسفل اللوحة نقش من ستة سطور مؤرخ فى السنة الرابعة والعشرين يشير إلى هبة اقليم الدود يكاشونوى إلى إيزيس .

وإذا اخترقنا البوابة الكبيرة نلحظ على الجانب الشرقى نقشاً للأسقف المسيحى ثيودور . والآن نجد أنفسنا فى فناء صغير مكشوف كان به فى وقت ما باكية فى الجانبين الشرقى والغربى ويحمل سقفها فى كل حالة عمود واحد . والفراغ المكشوف بين الباكيتين يمكن غلقه بواسطة سدة من الحبال . ويفصل هذا الفناء الصغير عن الصالة الأمامية التى تقع خلفه جدران ساترة يصل ما بين الأعمدة الأربعة التى يوجد خلفها أربعة أعمدة أخرى تساعد على حمل سقف الصالة . وهنا نرى المناظر المملة المعتادة التى أزيلت من الجانب الشرقى للصالة ، كما أقيم المذبح المسيحى ورسمت الصلبان القبطية المتعددة فوق الجدران . وعلى جانب الباب المؤدى إلى الحجرة الأخرى نقش آخر للأسقف ثيودور (حكم جستنيان ٥٢٧ - ٥٦٥ ميلادية) يطلب فيه الحظوة على هذا العمل الطيب «الذى يعنى تشويه الحجرة التى كنا نود ألا يقربها الأسقف الطيب . وتنطبق هذه الملاحظة على النقش الذى يحتفل بالبعثة الأثرية التى بعث بها البابا جريجورى السادس عشر عام ١٨٤١ ، وليس هناك ما يمنع من ارسال مثل هذه البعثة غير أنه ليس من المستحب أن تشوه الآثار التى جاءت البعثة لدراستها ولكن كلا من الأسقف ثيودور والبابا جريجورى سوف تقع عليهم اللائمة من سكان مصر الحاليين . وهناك ثلاث حجرات أمامية يليها حجرات مظلمة تؤدى إلى

الهيكل الذى تضيئه نافذتان صغيرتان والذى يحوى قاعدة القارب المقدس الذى وضعه هنا بطليموس الثالث وزوجه برنيس . ويوجد سلم فى الجانب الغربى من المعبد يؤدى إلى سطح الهيكل ، وهنا توجد الحجرات المخصصة لأوزوريس والمزينة بمناظر تتصل بموت الآله . وهى أربع حجرات غائرة فى أركان السطح ، وقد خلت الحجرة الواقعة فى الركن الشمالى الشرقى من النقوش والمناظر ، كما أزيلت أرضية الحجرة بالركن الجنوبى الشرقى . وأكثر المناظر تشويقاً مناظر الحجرة بالركن الجنوبى الغربى فهى تمثل التقادم لأوزوريس بينما تنشر إيزيس ونفتيس اجنحتهما حوله ، وبينما تبكى ايزيس بجوار نعش اوزوريس وبجوارها يقف انوبيس ويحوم صقر فوق النعش . وتنفتح حجرة ثانية من هذه الحجرة تضم مناظر عبادة أوزوريس المتوفى وبعثه من الأموات وتحوى الجدران الخارجية مجموعة من المناظر التقليدية يرجع معظمها إلى حكم طيبريوس ، وليست من الأهمية بحيث تستحق الوصف .

وعلى الجانب الغربى للمعبد بالقرب من الصرح الثانى تقع بوابة أقامها هادريان تؤدى إلى مبنى مخرب يقوم فوق جدار المرفأ . وعلى عتب البوابة يرى هادريان أمام اوزوريس وايزيس والطفل حورس بينما يزين جوانبه الشعر المستعار لاوزوريس فوق عمود وعلامة تت أوجد رمز أوزوريس التى تمثل عموده الفقرى ومناظر الممر المؤدى من البوابة مهشمة ، غير أنه يوجد منظر قريب من باب جانبى بالجهة الجنوبية على جانب من الأهمية فهو يمثل الملك يحمل صندوقاً على كتفه ويسير بصحبة تحوت وإيزيس نحو معبد له بوابتان فى جانبه الغربى . وخلف هاتين البوابتين يرى النهر الذى يعبره اوزوريس فوق تمساح متجها إلى صخور بيجه ، الجزيرة القريبة بينما تضىء الشمس والقمر والنجوم صفحة النهر . وهناك منظر آخر على الجدار الشمالى يمثل ايزيس ونفتيس وحورس وآمون وحاتحور يعبدون الصقر الذى يرتفع فوق النهر وراء جزيرة بيجه . وبالجزيرة عقاب يجثم فوقها وفى أسفل يوجد كهف محاط بثعبان يمسك اله النيل . ويقصد بهذا المنظر تمثيل منبع النيل . وعلى هذا المبنى نقش يذكر أسماء ماركوس اوريليوس وأنطونينوس بيوس ولوسيوس فيروس وإلى الجنوب من بوابة هادريان مقياس آخر لا يمكن الوصول إليه حالياً ، ويحمل مقاييس بالهيراطيقية والديموطيقية والقبطية .

وإلى الشمال من بوابة هادريان معبد مخرب كرسه الامبراطور كلوديوس للآله حارندوتس «حورس حامى والده ، أحد الأشكال الكثيرة لحورس . وعلى مسافة نحو الشمال يوجد معبد مخرب لأغسطس بناه فى السنة الثامنة عشرة من حكمه . وهنا وجد النقش المكتوب بثلاث لغات وهو الآن بالمتحف المصرى لكورنيليوس جالوس الذى نجح ــ كحاكم لمصر - فى قمع ثورة المصريين عام ٢٩ ق . م . وفيه يشيد بانتصاره ويغالى كثيرا فى مدح نفسه حتى أن أغسطس استدعاه ، وإذ ذاك انتحر . وخلف هذا المعبد وفى نفس اتجاه محوره توجد بوابة مدينة فيله التى يحتمل أنها من عمل دقلد يانوس وهى تتكون

أصلا من عقد ثلاثى يرتفع أوسطه عن العقدين الجانبيين ولا يزال العقد الغربى محتفظاً بقبو الحجرى بينما سقط القبو المقابل له فى الجانب الآخر وهناك سلم يصل البوابة بالمياه .

وإذا تابعنا السير حول الجانب الشرقى للجزيرة فى اتجاه جنوبى ، نصل بعد ذلك إلى معبد حاتحور الذى أقامه بطليموس السادس (فيلومتر) وبطليموس السابع (افرجيت الثانى) ، وهو يقع تماماً شرقى الصرح الثانى للمعبد الكبير ويتكون حالياً من صالة الأعمدة ، وحجرة أمامية أما بقية الحجرات فقد زالت . وقد زين اغسطس الصالة المعمده بمناظر جميلة تمثل المرح والبهجة مما يتلاءم مع معبد حاتحور التى - كما نعرف - تقابل الإلهة اليونانية افروديت آلهة الحب والمرح ، فهناك منظر لشخص يلعب على مزمار مزدوج وآخر يلعب على قيثارة ، بينما يقدم الملك تاجاً إلى ايزيس وزهوراً إلى نفتيس ويضرب بس على الدف أو يلعب على قيثار ، ويقدم الملك تاجاً إلى حاتحور وخشخيشه إلى سخمت ، بينما يلعب قرد على عود ، ويقدم الملك النبيذ إلى ايزيس الخ . وفى هذا تنوع بهيج يختلف عن المناظر المملة التى تصور الفرعون فى كل الحالات العادية أمام الآلهة المعتادة التى لا تكاد تختلف من معبد لآخر . ويحمل سقف الحجرة الأمامية عمودان كل منهما متوج بتاج نباتى . وتوجد ستائر بين الأعمدة والجدران . وعلى الجانبين الشمالى والجنوبى من الجدران الخارجية مناظر تمثل الملك تاركاً قصره ، ويلبس فى الجانب الشمالى تاج الوجه القبلى وفى الجانب الجنوبى تاج الوجه البحرى .

وإلى الجنوب يقوم المبنى - الذى يبرز بوضوح فى كل صورة لفيلة حتى انه أصبح عند معظم الناس رمزاً لفيلة ، وهى الصورة التى تتبادر إلى الذهن كلما جاء ذكر فيلة ونعنى بذلك ما يسمى «الكشك» الذى يطلق عليه احياناً سرير فرعون . وهذا المبنى عبارة عن صالة مستطيلة محاطة بأربعة عشر عموداً ذات تيجان زهرية ، وهذه تسند الركائز التى تحمل الأعتاب والكورنيش المقعر . ومن المحتمل أن هذه الركائز كانت مصممة لتكون تيجانا فى شكل صلاصل برءوس حاتحورية ، ولكن هذا لم يعمل أبداً ، وفعلا لم يتقدم البناء قط نحو التمام . وكان الاتجاه إلى تغطية الجدران الساترة بين الأعمدة بالمناظر ، ولكن لم يتم ذلك إلا فى جدارين فقط ، وهذه المناظر تمثل الامبراطور تراجان يحرق البخور أمام اوزوريس وايزيس ، ويقدم النبيذ لإيزيس وحاتحور . وكان للكشك بوابات واسعة فى الجانبين الشرقى والغربى ، وباب أصغر فى الشمال . وعلى الرغم من أن هذا الكشك لم يكمل ولم يزين نسبياً فان هذا الأثر الصغير سوف يحتل أكبر مكان فى خيال جميع الذين احبوا فيلة .

وإلى الغرب من فيلة تقع مباشرة جزيرة كبيرة هى جزيرة بيجه . وهى على الرغم من أنها تستخدم عادة كموقع لرؤية فيلة ، فإنها تضم آثاراً جديرة بالاهتمام تبرهن على أن الجزيرة الكبيرة ذات تاريخ أقدم من جارتها الأكثر شهرة . وهناك درجات تصل إلى الرصيف القديم وتقودنا إلى معبد الجزيرة الذى لم يبق منه غير مخلفات قليلة فهناك بوابة وفناء

مكشوف وصالة أمامية بها أعمدة ذات تيجان زهرية متقنة الصنع وتربط الاعمدة جدران ساترة عليها مناظر تمثل بطليموس الحادى عشر (نيوس ديونيوس) أمام أوزوريس وإيزيس وخنوم سيد سمنت الإله المحلى . ولا بد أن المعبد الاصلى يرجع إلى تاريخ أقدم إذ وجدت بالموقع تماثيل لتحتمس الثالث وامنوفيس الثانى من بينها جزء من تمثال لتحتمس الثالث كان موجوداً حتى وقت قريب ، ولا يزال تمثال أمنوفيس الثانى فى الذاكرة . وعلى ذلك كان هذا الموقع مقدساً أيام الأسرة الثامنة عشرة .

وليس لدينا أى دليل نقدمه عن التاريخ الذى ظهرت فيه فكرة كهف الجزيرة الذى كان منبعا للنيل ، ولكن المنظر الموجود على بوابة هادريان بفيلة يرينا أن الفكرة قد نشأت فى العصر الرومانى . وكانت بيجه أيضا موضع أحد مقابر أوزوريس التى يحتمل أنها صورت على مدخل بوابة تراجان التى سبق وصفها ، ولكن لا يوجد دليل يشير إلى التاريخ الذى نشأت فيه هذه الفكرة .

وبالاضافة إلى أطلال المعبد ، فإن بيجه تضم عددا كبيراً من النقوش يرجع كثير منها إلى الأسرة الثامنة عشرة ، وأحدها ، وهو نقش للوزير راموس ، يروى أن هذا الموظف جاء ليقدم القربان لجميع آلهة سمنت ويضم خرطوش امنوفيس الثالث (نب - ماعت - رع) وهناك نقش ثان لشخص يمسك بعصا ويحمل لقب «نائب ملك كوشى ، مدى مس» ويضم نفس الخرطوش . ويوجد نقش ثالث فى مواجهة الطرف الجنوبى لفيلة يحمل خراطيش أمنوفيس الثالث أيضا مع النص التالى : «الكاتب الملكى ، الصادق لسيده ، قائد فرق سيد الأرضين ، امنحوتب» ، والمشرف على القصر الكبير فى منف ، « امنحوتب» ويضم هذا النقش صورتين لشخصين يرفعان أيديهما . وبالقرب من هذا النقش نقش آخر يحمل خرطوش نب ماعت رع (امنوفيس الثالث) وصورة لشخص يحتمل أنه الوزير راموس . ومن ذلك تتضح لنا الأهمية المرموقة التى كانت تحتلها بيجه أو سنمت كما كانت تسمى حينئذ فى عصر الأسرة الثامنة عشرة وبخاصة إبان حكم أمنوفيس الثالث . وهناك نقش متأخر يمثل حوى نائب ملك كوش يمسك محجنا وعصا ، ومن المحتمل أنه هو نفس الموظف الذى كان يحمل هذا اللقب فى عهد توت عنخ أمون[1] .

---

(١) هذا النقش يصور حاكما لكوش باسم حوى عاش أيام رمسيس الثانى وقد قام نفس الموظف بحفر نقوش كثيرة فى جزيرة سهيل كما ترك لوحة تدل على أنه رافق مات نفرورع ابنة ملك الحيثيين فى حضورها لمصر لتتزوج رمسيس الثانى فى السنة أربعة وثلاثين من حكمه أنظر : Labib Habachi ' Kush ' v , 1957 ,

pp . 28 ff (Nos . 25 — 29) and Kush , ix , 1961 ,

pp . 216ff (Nos , 34) .

وبعد ذلك يجيء نقش هام من عصر الأسرة التاسعة عشرة يحكى أن الأمير خع ــ م ــ واست ، أقرب أبناء رمسيس الثانى إلى قلبه - احتفل بيوبيل والده لأول مره فى السنة الثلاثين ، وللمرة الثانية فى السنة الرابعة والثلاثين ، وللمرة الثالثة فى السنة السابعة والثلاثين ، وقد ترك الأمير فراغا للاحتفالات المستقبلة ، ولكن موته حال بينه وبين إضافة تواريخ هذه الاحتفالات . ومن بين الفراعنة المتأخرين الذين مثلوا على صخور بيجه أحمس الثانى وبسماتيك الثانى وإيزيس من ملوك الأسرة السادسة والعشرين .

هكذا يتضح لنا أهمية هذه الجزيرة فهى :

أولا : تضم آثاراً من العهد الفرعونى والعهدين الإغريقى والرومانى ، كما تضم بقايا من العصر المسيحى بما فيها من آثار مدينة قبطية . . . ، وهى تتميز لوفرة نقوشها الدينية التى تدور حول عبادة إيزيس وأوزوريس وحوريس بوجه خاص ، وكذا يعتبرها علماء الآثار مكتبة . . . هذا الشأن ، كما تتميز بقدسيتها كمقر لإيزيس أمامها جزيرة سيجه . . . أوزوريس ، ولقد بدأ المرحوم الأستاذ . . . نشر نقوش هذا المعبد ويكمل هذا العمل الآن تلميذه الدكتور ولتر .

ثانيا : لآثار فيلة أهمية تاريخية كبيرة وخاصة فيما يتعلق بالعصر المتأخر والعصر الرومانى ، ولذا فقد اهتم عالمان توأمان فرنسيان (برنارد) بنقل كافة النقوش الوثابة وتحليلها ودراستها لغويا وتاريخيا .

ثالثا : تميزت فيلة بجمال أعمدتها . . . على نقوشها كما أن موقعها الساحر وسط الجزيرة واحاطتها قبل غمرها بالمياه بالنخيل وأشجار الدوم أعطاها شهرة عالمية وجعل علماء الآثار يسمونها لؤلوة مصر العربية .

الفصل السابع والثلاثون
من فيلة إلى كلابشة وبيت الوالى

وإذا تركنا فيلة نصل فى وقت قصير إلى دابود التى تقع على مسافة تسعة أميال ونصف تقريباً جنوبى الخزان[1] ومنذ أكثر من قرن كان المعبد الذى يوجد على مسافة قليلة من النهر الذى كان يتصل به بواسطة طريق ورصيف . وقد تبدل كل هذا حالياً بإقامة الخزان وسوف يتبدل أكثر من ذلك بارتفاع مياه التخزين نتيجة لتعلية السد وللمعبد خلفية جميلة . وقد أقامه فى زمن متأخر من تاريخ مصر ملك نوبى يدعى أزخر آمون وقد جاء زمن كان فيه مثل هذا اللقب حقيقة أيام بيعنخن وطهارقه ، ولكن لم يعد الآن غير مجرد اسطورة كما يستنتج من النقش اليونانى الذى أضافه بطليموس السادس فيلومتر على البوابة الثانية التى توصل إلى المعبد . ويذكر النقش أن هذه البوابة قد أهداها بطليموس فيلوميتر وزوجه كليوبترا إلى ايزيس وآلهة أخرى . ومن المحتمل أنه كان يوجد هنا معبد بشكل ما فى تاريخ أقدم يرجع إلى الأسرة الثانية عشرة ، إذ يوجد فى برلين شاهد يشير إلى أن المدينة كانت موجودة أيام حكم امنمحات الثانى ومادامت هناك مدينة مصرية قائمة فلا بد أن يكون بها أيضا معبد بشكل ما . وبعد بطليموس السادس زينه بطليموس السابع أفرجيت الثانى الذى أضاف إليه ناووسا من الجرانيت باسمه واسم زوجه كليوباترا . وبعد ذلك قام كل من اغسطس

---

(١) بناء على قرار اتخذته الحكومة المصرية من إهداء بعض الآثار للدول التى ساهمت فى إنقاذ آثار بلاد النوبة اهدت هذا المعبد لاسبانيا وقد نقل المعبد فعلا بجميع أجزائه حيث أعيد بناؤه خارج مدريد – للمراجع أنظر لويس كريستوف

Bibliographie, p 82 (4; Nos 292 — 299).

وطيبريوس بعمل اضافات أخرى ، ولكن المعبد لم يكمل قط . وكانت ايزيس أهم المعبودات التى كانت تعبد فى هذا المعبد بالاضافة إلى أوزوريس وحورس الطفل (هاربوقراط) . ومن بين المعبودات التى كانت تقدس هنا تلك الآلهة المألوفة بمصر العليا كخنوم وأمون رع وموت وحاتحور .

وحسب التخطيط الذى عمله جاو (١٨١٨) كان هناك رصيف على شاطىء النهر يؤدى إلى طريق طويل مرصوف يصل إلى الصرح الأول الواقع فى السور المحيط بالمعبد وبعد هذا الصرح صرح آخر عليه نقش فيلوميتر المشار إليه سابقا . أما الصرح الثالث فقد كان قائما حتى عام ١٨٩٤ ولكنه سقط نتيجة لغمر المنطقة بمياه الفيضان وبسبب سطو الأهالى على الأحجار . وخلف هذه البوابة الثالثة وعلى مسافة ٤٢ قدما منها تقوم واجهة المعبد الأصلى ، وتزين هذه الواجهة أربعة أعمدة تعلوها تيجان زهرية ويصل مابينها حوائط ساترة ، ولكن لم يبق من ذلك حالياً غير القليل . وعلى الأجزاء الباقية مناظر تمثل أغسطس أو طيبربوس أمام الآلهة . ويتوسط الواجهة باب يؤدى إلى صالة أمامية على جدرانها مناظر تصور أزخر أمون يتعبد للآلهة ، وعلى الجانب القبلى من هذه الصالة جناح أضيف بعد ذلك وقد أصبح الآن خرابا . ومن الصالة ندخل مقصورة أمامية ليس لها سقف وخالية من الزخرف ، ومنها يمر الزائر إلى قدس الأقداس حيث يوجد الناووس الجرانيتى الذى أهداه بطليموس السابع وزوجه كليوباترا وليست هناك أهمية خاصة لبقية المعبد رغم أنها فى حالة جيدة نسبياً . وعلى مسافة ميل غربى المعبد توجد المحاجر التى استخرج منها الحجر لبنائه ، وليس لها من الأهمية التى تستدعى زيارتها .

وعلى مسافة قليلة إلى الجنوب توجد قرية «دمرى» حيث نرى بقايا مبانٍ قديمة تضم جدارا لمرسى يبرز فى النهر . وعلى مسافة سبعة عشر ميلا ونصف جنوبى الخزان تقع دهميت . وعلى مسافة صغيرة إلى الجنوب منها بعض نقوش صخرية إحداها ترجع إلى عصر امنمحات الثانى من ملوك الأسرة الثانية عشر ، ونرى كذلك خرطوش سنوسرت الأول .

وبعد ذلك نقترب من قرطاس حيث يوجد على الشاطىء الغربى معبد صغير يحمل نفس الاسم . ويقع هذا المعبد على هضبة صخرية تطل على النهر[1] وهو بذلك يتميز عن بعض معابد النوبة المجاورة . والمعبد صغير جدا يشغل مساحة قدرها ٢٥ قدما مربعا ، ولكن موقعه يضفى عليه جمالا وروعة . ولمدخله الذى يتجه إلى الشمال عمودان يتوجهما

---

(١) أعيد بناء كشك قرطاس بالبر الغربى للنيل قبلى موقع السد العالى على جزيرة وذلك بجوار معبدى كلابشه وبيت الوالى .

رأس حاتحور . وتقع البوابة بين هذين العمودين . وتوجد أربعة أعمدة أخرى لها تيجان زهرية تسند عتبتين قصيرتين يسندان بدورهما سقفا مكونا من كتلة طويلة ذات كورنيش مقعر فى كلا الطرفين ولا تزال الجدران الساترة بين الأعمدة باقية باستثناء الجانب القبلى حيث زالت . وعلى أحد الأعمدة منظر يمثل الملك فى حضرة ايزيس وحورس أما باقى المعبد الذى يشبه كشك تراجان فخال من الزخرف . وإلى الجنوب من المعبد يقع المحجر الكبير الذى قطعت منه ومن المحاجر الأخرى الواقعة إلى الشمال والغرب من هذا الموقع الأحجار اللازمة لمعابد فيلة ويمكن الوصول إلى المحجر بواسطة ممر ضيق منحوت يشبه ممر جبل السلسلة ، وعلى جانبى هذا الممر لوحات متنوعة من بينها لوحتان كريستا لأوزوريس ويوجد بداخل المحجر ، بالإضافة إلى النقوش اليونانية والشخوص ، كوة كانت مخصصة لأحد تماثيل الآلهة ، وهى على شكل باب مصرى يتوجه حيات وقرص الشمس ـ المجنح وتزينه اعمدة على كلا الجانبين . وعلى كل من جانبى الكوة تمثال نصفى من عصر رومانى غير أن الوجه مهشم تهشيما كبيرا ، أما الكتابات فهى من عصر انطونيوس بيوس ، ومماركوس أورليوس ،وسيفروس ، وكاركالا ، وجوديان ، وهى موجهة إلى ايزيس وسر بتيخيس وبيروسيمونس ، وكلنا يعرف ايزيس أما سربتيخس وبيرسيموس فلهما مظهر غير معروف بعض الشىء ، ويبدو أنهما آلهان نوبيان وأن لهما بعض الصلة بقرطاس والتحجير وعلى مسافة ميل تقريبا جنوبى المعبد توجد قلعة قرطاس الرومانية التى تقع على حافة النهر ، وهى مبنى مستطيل الشكل له سور منحوت فى الصخر يبلغ ارتفاع بعض أجزائه ٢٠ قدما . وتقع البوابة الرئيسية ذات الكورنيش المقعر فى الواجهة الشمالية ، ولا توجد بوابات اخرى فى الجانبين القبلى والغربى . وفى الجانب الغربى يرى الخندق القديم وبقايا قلعة . وللسور الخارجى شكل معمارى مميز ، إذ أنه يتكون من جدارين بينهما فراغ مملوء بالدبش الذى زال حاليا . وتغطى مياه الفيضان كلا من المحجر والقلعة غير أنه يمكن الوصول اليهما بقارب خلال فصل الشتاء .

والموقع التالى هو طافا[1] وهى إحدى القرى الجميلة الواقعة على النيل وفى هذا الموقع نجد أن الجبال التى تقترب من النهر عند قرطاسى تنحسر قليلا تاركة خليجا بعرض ميل ونصف ، وتغمره مياه الفيضان عند ملء الخزان . وليس بطافا آثار ترجع إلى عصر أقدم من العصر الرومانى . وفى سنة ٣٠٠ ميلادية ، وقع المكان فى يد جماعة البلمى الذين كانوا يحاربون الرومان لمدة طويلة ، غير ان هذه القبائل المعادية ردت بدورها على اعقابها عندما اوقع بها الهزيمة سيلكو ملك النوبة المسيحى فى القرن السادس الميلادى .

---

(١) تم فك هذا المعبد واهدى إلى هولندة التى ستقيمه بجوار متحف ليدن وسيتم إعادة بنائه سنة ١٩٧٨

وحتى الفترة الواقعة بين عامى ١٨٦٠ , ١٨٨٠ كان بطافا معبدان غير أنه خلال هذه السنين العشرين اختفى أحدهما ، ولم يذكر لنا ماسبرو فى تقريره عن معابد النوبة كيف حدث ذلك ، غير انه يمكن ان نتصور أن ذلك قد حدث نتيجة للتخريب الذى أحدثه الأهالى بالمعبد بغرض استعمال أحجاره فى بناء منازلهم . ولا يزال المعبد الثانى محتفظا بشكله على وجه التقريب . ويذكر ما سبرو عنه : «ورغم ما تعرض له المعبد من تعديات فى الأزمان الأخيرة ، فإنه قد يكون أكثر معابد النوبة حفظا ، ومن المؤكد أنه من أجملها» . وتتجه واجهته إلى الجنوب ـ ويزينها عمودان ، وبين العمودين بوابة جميلة يزينها قرص الشمس المجنح وكورنيش مقعر وصف من الكوبرا ، وقد استحدثت بوابة اخرى فى الحائط الساتر الواقع إلى اليمين ، ويزين هذه البوابة ايضا القرص والكورنيش والكوبرا . وبداخل المعبد الذى يضم حجرة واحدة أربعة اعمدة اخرى ذات تيجان زهرية ايضا . وعلى الجانب الشمالى كوة كانت مخصصة لناووس أو لمذبح ، ولكنها خالية من الزخرفة ومن المحتمل انه كانت توجد صالة أمامية على الجانب الجنوبى . والمبنى كله مقام على منصة من ستة مداميك وهذا المعبد الصغير يعطينا مثالا كاملا شيقا لعمل من عصر متأخر ، ولذا فانه لبؤسفنا ان نراه مغمورا بالمياه .

ومن أعلى الصخور الجرانيتية الواقعة إلى الطرف الجنوبى من الخليج الذى تقع فيه طافا نرى ما أسماه وايجول «أجمل منظر فى مصر على وجه التقريب» ، «والمنظر من هنا» «كما يقول» جذاب حقا ، فإلى الشمال يمكن التطلع على قرية ومعبد طافا ، ومن وراء ذلك تقترب مياه النيل نحو التلال البعيدة . وإلى الجنوب والغرب تمتد كتل الجرانيت المتداعية والتلال غير المنتظمة إلى أبعد ما تراه العين ، وإلى الشرق يطل الإنسان على النهر ، وهو يتلوى بين الصخور الكالحة ، وبين مسافة واخرى تقع العين على خليج صغير ينمو فيه قليل من النخيل أو أشجار ذات خضرة جميلة تلقى بظلالها على الصخور ذات اللون القرمزى المائل إلى اللون البنى (دليل آثار مصر العليا ، ص ٥٠٠)[١] .

وإلى الجنوب من طافا يبدأ الممر المعروف بباب كلابشة حيث تقترب الصخور الجرانيتية الواقعة على جانبى النهر ، وتبرز الصخور السوداء اللامعة من بين سطح الماء مما يجعل الملاحة أمرا يحتاج إلى الحذر ، وعلى إحدى هذه الصخور نقش يسجل أن ايزيس سيدة فيلة تملك الأراضى لمسافة ثلاثين فرسخا تمتد بين الشلالين الأول والثانى وكلنا يعرف الكثير عن الصراع القصير الذى قام بين كهنة خنوم فى الفنتين وبين كهنة ايزيس فى فيلة رغم انه يجدر بنا أن نعترف أن كهنة ايزيس كانوا محقين فى تمسكهم بحقوق آلهتهم أو بحقوقهم وهناك

---

(١) Weigall, Guide to the Antiquities of Upper Egypt, p. 500

طريق مهجور بين طاقا وكلابشة مارا بقرية خرطوم ، وبعدها يمر فى واد على الجانب الايسر منه نقش يرجع إلى السنة الثامنة عشرة من حكم الملك طهارقة (الاسرة الخامسة والعشرون) .

وتقع كلابشة نفسها على جانبى النهر وتشغل موقع مدينة تاليس القديمة ، ومن المؤكد أن المدينة كانت قائمة أيام الأسرة الثامنة عشرة ، كما هو ظاهر من المناظر التى تمثل امنحتب الثانى ابن تحتمس الثالث على مقدمة المعبد الذى يحتمل أنه أسس على يد والده المعروف بكثرة منشآته فى النوبة ويذكر وايجول أن تمثالا يحمل اسم تحتمس قد شوهد داخل مكان حديث يقع بالقرب من المرسى ، ولكن لا يعرف ماذا حدث له[1] وقد كرس المعبد للإله النوبى ماندوليس الذى كان ممثلا على شكل إله الشمس ، وهو إله يلائم النوبة . وهو بحالته الحالية يرجع إلى عصر متأخر ، فقد حدده أحد البطالمة على انقاض أساساته القديمة التى ترجع إلى عصر الأسرة الثامنة عشرة ، ثم اعيد بناؤه فى حكم أغسطس مع اضافات متتالية لكاليجولا وتراجان . ولم يكن ماندوليس الإله الوحيد الذى كرس له هذا المعبد ، فكما هى العادة فى المعابد المصرية نجد آلهة أخرى من بينها بالطبع أمون رع ، وخنوم ، ومين ، ويتاح ، كما ان عبادة اوزوريس وايزيس والطفل حورس تبدو بارزة ايضا .

ويقول ماسبرو : «إن معبد كلابشه هو أجمل معابد النوبة»[2] ولا شك أنه استثنى من ذلك أبا سنبل ، وهو من طراز يختلف تماما عن كلابشة ، فضلا على انه أكثر منه روعة وما عدا ذلك فلا شك فى أسبقية كلابشة رغم خشونة زخرفته . وهو بصفة عامة فى حالة جيدة من الحفظ . وهو كمعظم معابد مصر العليا كان الوصول اليه من النهر[3] ، وللمعبد مرسى وطريق جذاب بعرض ٢٥ قدما وطول مائة قدم يصعد إلى واجهة المعبد . وأمام الصرح منصة يمكن الصعود اليها عن طريق بعض درجات . ويقوم المعبد على تلك الساحة قليلة الارتفاع والصرح فى حالة جيدة من الحفظ رغم فقد جزئه العلوى بما فيه الكورنيش ، وهو

---

(١) يوجد هذا التمثال الآن بالمتحف المصرى ، بمدينة فلورنسا بإيطاليا .

(٢) نقل هذا المعبد إلى البر الغربى من النيل على جزيرة قبلى السد العالى مباشرة وقد قام بهذا العمل المانيا الغربية مساهمة منها فى إنقاذ آثار بلاد النوبة .

(٣) يعتبر هذا المعبد باستثناء معابد جزيرة فيله من أكبر معابد إقليم النوبة المشيدة من الصخر الرملى . وإذا كانت أكثر جدرانه وصفحاته لم تزخرف كلها أو بعضها بما ينبغى لمثلها من نقوش ورسوم ، فإن ذلك لم ينقص من ضخامة المعبد وآلهته ولم يعف من جماله وروعته . ومن ثم إنقاذ المعبد بفكه ونقله وإعادة تركيبه على بعد خمسين كيلو مترا من موقعه الأصلى ، وهو يقوم الآن فى مواجهة السد العالى وبجواره معبد بيت الوالى ومقصورة قرطاس اللذين أنقذا كذلك بواسطة رجال مصلحة الآثار . ويجب هنا أن نذكر بالشكر الصادق والاعتراف بالجميل مابذلته حكومة المانيا الاتحادية من جهد وسخاء وعناية حين تدخلت فاسهمت فى إنقاذ هذا الأثر العظيم من تراث الانسان .

خال من النقش إذا استثنينا منظرين لآلهة على سمكى البوابة وينحرف الصرح بعض الشىء عن محور المعبد .

وإذا تركنا الصرح نجد أنفسنا فى الفناء الأمامى الذى كان فى الأصل محاطا بصف من الأعمدة من جوانب ثلاثة . وقد زالت الأعمدة الستة التى تلى الصرح ، غير أنه لا يزال هناك بالفناء أربعة أعمدة على كل من جانبى الفناء رغم أن بارسانتى لم يجد غير عمود واحد قائم فقط عند ترميمه للمعبد فى ١٩٠٧ ـ ٨ ، ١٩٠٨ ـ ٠٩ وللأعمدة تيجان مزينة بزخارف زهرية جميلة غير أنها مهشمة للأسف . ومن الفناء ندخل ـ بطريق البوابة الجميلة الواقعة فى وسط الواجهة ـ إلى صالة الأعمدة . وهذه الواجهة تتكون من أربعة أعمدة ذات تيجان زهرية ، ويصل ما بينها جدران ساترة . وعلى الجدار الساتر الواقع إلى الجنوب من البوابة نرى :

(١) الملك يطهره تحوت فى حضرة حورس أما الجدران الساترة إلى الشمال (الجانب الأيمن) فهى مزينة بنقوش اغريقية ، وإحداها وهو الموجود على الجدار الأول إلى يمين البوابة عبارة عن (٢) أمر من اوريليوس بساريون حاكم أومبـوس والفنتين حوالى ٢٤٨ (م) ، بابعاد الخنازير من تاليس المقدسة . وعلى الجدار الواقع إلى يمين الداخل نقش طويل لسيلكو (وهو نقش اغريقى فى حالة سيئة) ملك النوبيين حوالى القرن السادس الميلادى وفيه يشيد بانتصاره على جماعة البلمى ويبدأ كالآتى :

أنا ، سيلكو ، الملك القوى للنوبيين وجميع الأثيوبيين .
حضرت مرتين حتى تاليس وتافيس .
وحاربت البلمى ، ومنحنى الله النصر .
وتغلبت عليهم مرة ثانية ، وفى المرة الأولى .
حصنت نفسى هناك مع جنودى .
وانتصرت عليهم ، ورضخوا لى .
وعقدت الصلح معهم ، وأقسموا لى بآلهتهم .
وثقت بهم ، لأنهم قوم مؤمنون .
ثم عدت إلى أراضى فى الأقليم الجنوبى .
ولأننى ملك .
فأننى لا أسير فقط فى ركاب الملوك الآخرين .
بل إننى أتقدمهم .

ومن الواضح أن سيلكو كان مهتماً بإظهار أعماله ، وهو فى ذلك لايختلف عن كثير من الملوك الذين تركوا آثاراً أكثر روعة لتخليد أنفسهم فى مصر .

ولصالة الأعمدة اثنى عشر عموداً بما فى ذلك الأعمدة الأربعة لواجهتها ، وجميعها مزخرفة بتيجان زهرية . والمناظر التى لم تكمل تبرز الملك فى حضرة الآلهة . ويرى فى الركن الجنوبى خلف الجدار الساتر للواجهة منظر مغاير للمناظر المملة ، فهو يمثل منظراً مسيحياً(٥) لليهود الثلاثة فى أتون النار المتقدة بينما يقدم أحد الملائكة لهم سيفاً . وقد يكون هذا المنظر غير هام من الناحية الفنية ولكنه على أقل تقدير منظر مغاير . ويجدر بنا ملاحظة منظرين على الجدار الخلفى ، أحدهما على اليمين يمثل أمنحتب الثانى المؤسس الأصلى للمعبد يقدم القرابين للإله مين والآله المحلى ما ندوليس ، بينما على اليسار نرى أحد البطالمة يقدم أرضاً للآلهة إيزيس وماندوليس واله آخر .

ثم نمر بعد ذلك بأولى الحجرتين الأماميتين ، وهنا نرى مناظر ذات ألوان زاهية ولكنها خشنة الصنعة ، وهذه المناظر لم تكمل ، فى بعض الأحيان نرى الرسم التخطيطى فقط باللون الأحمر ، هذا ويرى الملك فى أسفل الجدران يتقدم موكباً من الهة النيل يحملون قرابين لمندوليس وأوزوريس وإيزيس وآلهة أخرى . وتنفتح هذه من الجانب الجنوبى على حجرة صغيرة بها سلم يصعد إلى السطح ، ومنه نصعد إلى السطح الأعلى للأجزاء الأمامية من المبنى بواسطة درجات أخرى . أما الحجرة الأمامية الثانية فتضم مناظر أخرى تمثل الأباطرة الرومان أمام الآلهة ، ومنها سلم يصعد إلى أعلى الجدار حيث تنزل بعض درجات قليلة لنصل إلى مقصورة فى سمك الجدار ويحتمل أنها كانت مخصصة لعبادة أوزوريس . وقد زخرف قدس الأقداس أيضاً بمناظر لاتزال فى حالة جيدة تحتفظ بألوانها . ورسم الأشخاص ردىء ومن الغريب أن نرى الطراز الزنجى سائداً هنا . ويبدو واضحاً أن الفنانين قد أسرفوا فى تنسيق الملابس وأغطية الرأس الخاصة بالآلهة والفراعنة للتعويض عن رسمهم الردىء . وحتى الآلهة يبدون بالملامح الزنجية السائدة ، فتقنعت إيزيس وحورس بوجوه سوداء . ويحيط بهذه الحجرات الداخلية سور يوازى سور الفناء الأمامى ، وبذا يتكون نوع من المشايات حول الجزء الخلفى من المعبد ابتداء من صالة الأعمدة فصاعداً . وعلى الجانب القبلى من هذا الممشى مقياس للنيل والسور المحيط بالمعبد يتمشى مع الصرح ويستند فى نهايته الأخرى على الصخر المقام عليه المبنى كله . وفى زاويته الجنوبية الغربية بقايا مقصورة صغيرة تضم حجرة منحوتة فى الصخر ، وفناء مكشوف مزين بأعمدة يصل ما بينها جدران ساترة ومن المحتمل أن هذا المبنى كان بيت الميلاد ويوجد فى الزاوية المقابلة بالقرب من الصرح مقصورة صغيرة .

وعلى مسافة قصيرة إلى الشمال الغربى من معبد كلابشة يوجد معبد بيت الوالى الواقع على طرف من التل(١) وهو يحوى فناء مكشوفا ، وصالة منحوته فى الصخر ، وقدس

---

(١) نقل هذا المعبد إلى موقع السد العالى على جزيرة فى البر الغربى من النيل بجوار معابد كلابشه وقرطاس - وللابحاث التى كتبت عن هذين المعبدين والمنطقة المحاطة بهما - أنظر- L . Christophe , Bibliographies , p . 84f , (6 , Nos , 316 — 333) .

الأقداس . وكان يوجد فى الأصل طريق صاعد إليه من السهل ، ولكنه خرب ، ولم يبق من الفناء- الذى كان جزء منه منحوتاً فى الصخر والجزء الآخر مبنياً- غير الجزء الصخرى . وقد زينت الجدران الصخرية بمناظر تمثل انتصارات رمسيس الثانى - مؤسس المعبد - فى حروبه ضد النوبيين والليبيين والآسيويين وتمثل المناظر على الجدار الجنوبى (الأيسر) انتصاراته على الأثيوبيين ويرى رمسيس فى عربته الحربية يهاجم فى عنف جيش الأثيوبيين الهارب مسدداً نحوه وابلا من السهام المنطلقة من قوسه . ونرى خلفه اثنين من أبنائه الذين لاعد لهم ، وهما أمون - حر - لو أعف وخع أم - واست فى عربتيهما الحربيتين مع رجالهما . ويرى حاملو الأقواس الزنوج مبعثرين أمام هجماته يحاولون الاختباء فى معسكرهم بينما تجرى النساء والأطفال فى هلع . ثم نرى بعد ذلك نتائج انتصاراته ، إذ نرى رمسيس جالساً تحت مظلة بينما يقدم نبلاؤه وحكامه إليه جزية الأثيوبيين المهزومين . ونرى حاكم كوش أمنحوتب بن بسيبور بشكل بارز كما هو طبيعى والجزيرة ممثلة فى صفين ، فى الصف الأعلى حلقات من الذهب وجلود الفهد والدروع والكراسى والمراوح والريش وأنياب الفيلة والثيران وأسد وغزال وجمع من الجنود الزنوج وفى الصف الأسفل أسرى وعجول يرى أحدها وقرناه كذراعين مرفوعتين بينهما رأس زنجى وقرود وفهد وزرافة ونعامة ونساء إحداهن تحمل أطفالها فى سلة تتدلى خلف ظهرها برباط حول جبهتها كما تحمل زوجة صياد السمك الأسكتلندى سلتها .

وعلى الجدار البحرى للفناء مناظر تمثل انتصارات الملك فى آسيا وليبيا . ويرى أولا واقفاً فوق عدوين واقعين ، وممسكاً بشعر ثلاثة من السوريين ، بينما يرفع بلطة فوقهم ، كما يرى أحد أبنائه يقود بعض الأسرى ، ونراه بعد ذلك يهاجم قلعة سورية ونشاهد القتلى يتساقطون من شرفات استحكاماتهم ، كما يشاهد محاربون آخرون يتضرعون إلى الملك ، بينما أحد أبنائه يندفع نحو باب القلعة ممسكاً ببلطته . ويظهر الملك ثانية فى عجلته الحربية يلهب ظهر جياده ، ويلقى بأعدائه الفارين على الأرض ومرة أخرى يرى وهو يقتل ليبياً ، ويهاجم أحد كلاب الملك . وأخيراً نرى رمسيس وهو متوج تحت مظلة وأسده الأليف عند قدمه ويتلقى الأسرى السوريين الذين قدمهم إليه ابنه الأمير أمون - حر - أو انمعت .

وينفذ من جدار هذا الفناء ثلاثة أبواب تؤدى إلى صالة الأعمدة وعلى الوجه الشرقى من الواجهة المنحوتة فى الصخر فوق الباب الأوسط يرى الملك وهو يرقص أمام أمون رع بينما نشاهده على البابين الجانبيين واقفاً أمام مين وخوفو وآلهة آخرين . وصالة الأعمدة منحوتة كلية فى الصخر ، ويسند سقفها عمودان مسلوبان تركت أربعة جوانب من جوانبهما دون زخرفة لتنقش عليها القاب الملك . وخلف حائط المدخل القبلى يرى الملك يضرب زنجيا مدللا بذلك على انتصاره على النوبيين . بينما على الجانب الشمالى من نفس الحائط يضرب سوريا مدللا بذلك على انتصاره على أراضى الشمال وهناك مناظر أخرى تمثله أمام

الآلهة كالعادة ، وعلى أحد سمكى البوابة المتوسطة نشاهد نائب الملك فى أثيوبيا المدعو «مسوى» ومن باب صالة الأعمدة ندخل إلى قدس الأقداس وبها كوة فى جدارها الخلفى كان يجلس فى الأصل ثلاثة تماثيل . وقد تحطمت هذه التماثيل ، غير أنه من المحتمل أنها كانت تمثل ثالوثا مقدساً لرمسيس جالساً بين اثنين من زملائه الآلهة . والألوان فى قدس الأقداس فى حالة جيدة تفوق تلك الموجودة فى كلابشة . والمناظر لا تلفت النظر ، فهى تقريباً تكرار للمناظر التى تمثل الملك أمام الآلهة المختلفة ، غير أن الاختلاف الوحيد هو تنوع الآلهة التى يمنحها شرف التطلع إلى محياه . والمناظر التاريخية تمثل موضوعاً آخر . ومما يبعث إلى الرضى أن نماذج منها - وقد لونت حسب ملاحظات م . بونومى فى الفترة الأولى من القرن الماضى - يمكن رؤ يتها بالمتحف البريطانى .

وقد استعملت الحجرات المختلفة فى العصر المسيحى الأول لأغراض العبادة المسيحية وبذلك تعرضت للنتائج التى ترتبت على ذلك ، ففوق جدران الفناء لاتزال ترى بقايا أقبية الكنيسة المسيحية التى بنيت باللبن فى الفناء . ولا تلفت مخلفات تالميس القديمة انتباه الزائر وتوجد فوق قمة التلال على مسافة من النهر بعض مقابر غريبة مستديرة مبنية بقطع صغيرة من الحجر ، وهى مصممة بحيث يدفن الجسم فى وضع مقرفص ويظن أنها من عصر الدولة الوسطى[1] .

---

(١) اتضح أن هذه المقابر لقبائل البليمى - ومنها البعض لرؤ سائهم أنظر : H . Riche et . als . ceusgrabnngenvon Khor — Dhmit , bis Bet Rl — wali , pp . 37ff .

الفصل الثامن والثلاثون
من كلابشة إلى كورسكو

وإذا غادرنا كلابشه وبيت الوالى لانرى شيئا يثير الاهتمام لمسافة طويلة ففى كوبو شاب بمنطقة أبى هور توجد بقايا جدار مرسى قديم مبنى من قطع مستصلحة من الحجر ، كما توجد آثار طريق ومعبد . ومن الواضح أن معبود هذه المنطقة كان ماندوليس ، وليس هناك ما يدعو زيارة إلى هذه المخلفات حيث أنها مغمورة بالمياه معظم الوقت فضلا عن أنها لا تستحق الزيارة .

والموقع التالى الجدير بالزيارة هو دندور على مسافة خمسين ميلا جنوبى الشلال الأول . وتقع المدينة الحديثة على الضفة الشرقية للنيل . أما المدينة القديمة - التى لم يبق منها غير أحجار وأوانى فخارية مهشمة - فتقع على الضفة الغربية . والمعبد الموجود بالمدينة[1] بناه اغسطس تقديسا لبطلين محليين يظهر أنهما عاشا فى مكان ما خلال الأسرة السادسة والعشرين وهما ابنا شخص يدعى كوبر . وقد يبدو غريبا أن نرى أغسطس يقدم فروض الولاء لبطلين زنجيين غير معروفين ، كما يصوره وضعه فى المعبد ، ولكن مثل هذه الفريضة لأغراض دينية محلية تتفق مع السياسة العامة للامبراطورية الرومانية . ومن الواضح أن البطلين باتسى وباحور كان ينظر إليهما نظرة أقل تقديسا من الآلهة والألهات القديمة إذ نراهما ممثلين يقدمان القربان للألهة ايزيس .

---

(١) فكت أحجار هذا المعبد ونقلت إلى نيويورك حيث سيعاد بناؤ ها فى صالة خاصة أقيمت فى متحف المتروبوليتان بهذه المدينة - وكان إهداء المعبد للولايات المتحدة الأمريكية اعترافاً من الحكومة المصرية بالدور الكبير الذى أدته هذه الدولة فى إنقاذ آثار بلاد النوبة .

وكان يتقدم المعبد مباشرة رصيف كبير راسخ البنيان يطل على النيل . وعلى الجانب الغربى من هذا الرصيف البوابة الرئيسية التى كانت فى الأصل صرحا بنى برجاه من اللبن أو كانت مجرد بوابة فى السور المحيط بالمعبد . وعلى مسافة قليلة خلف هذه البوابة يقوم المبنى الأصلى على منصته . ولابد أنه كان يتصل بالبوابة فناء أمامى مكشوف كانت جدرانه تكون جزءا من السور ، ولكنها اختفت ولم يبق شىء بين البوابة وواجهة المبنى الأصلى . وواجهة الحجرة الأمامية مكونة من عمودين يعلوهما تاجان مزخرفان بزخارف زهرية . وكان هذان العمودان متصلين أصلا بالجدران الجانبية بواسطة جدران ساترة وعلى البوابة مناظر (الوجه الشرقى) تمثل الأمبراطور أمام آلهة مختلفة والبطلين المؤلهين باتسى وباجور . وعلى الوجه الغربى مناظر متشابهة ، كما توجد مناظر أخرى على سمك البوابة رغم أنها تهشمت كثيرا . وعلى واجهة الحجرة الأمامية مناظر متشابهة بينما نرى هذه المناظر مكررة على الجدران بالداخل ولكن بشكل مغاير . وعلى الجانب القبلى من هذه الحجرة باب عليه نقش قبطى طويل يشير إلى تحول البناء إلى كنيسة مسيحية ، وربما حدث ذلك حوالى سنة ٥٧٧ ميلادية نتيجة لغيرة الملك النوبى ايزيانوحى وقد زين هذا الباب من الخارج بزخارف جميلة تمثل قرص الشمس المجنح والجبل المجنح هذا ونرى على كل من جانبى الباب ساقا من نبات البردى يلتفت من حوله ثعبان .

ثم نصل بعد ذلك عن طريق باب فى الجدار الخلفى للحجرة إلى الحجرة الواقعة أمام قدس الأقداس . وهى وقدس الأقداس خاليان من الزخرفة باستثناء باب وهمى فى الجدار الخلفى للحجرة الأخيرة عاليه منظر يمثل باتسى وباجور يتعبدان للآلهة ايزيس وعلى الجدران الخارجية للمعبد مناظر تمثل اغسطس أمام باحور (الجدار الشمالى) وباتسى (الجدار الجنوبى) بصحبة زوجته التى لم يذكر اسمها . وخلف المعبد وبالتقريب على خط مع محوره يوجد محراب صغير منحوت فى الصخر على شكل مقبرة ، ومن الواضح أن بابه مزخرف بكورنيش مقعر قد رمم بكتل من الحجر عندما بنى المعبد . وفى هذا الوقت بنى أيضاً فناء صغير أمامه . ومن المحتمل أن هذا البناء هو ، أو كما كان يظن فى ذلك الوقت ، المقبرة الفعلية للبطلين اللذين أهدى إليهما هذا المعبد ويجدر بنا أن نتذكر أن معبد دندور يغمر بالماء فى الشتاء مثله مثل كثير من معابد النوبة السفلى .

وإذا تركنا أطلال القلعة البيزنطية بسباجوره بالقرب من جرشه ، نصل إلى معبد جرف حسين على مسافة ستين ميلا تقريبا جنوب الشلال الأول[1] وقد أطلق المصريون القدماء

---

(١) لم يتسع الوقت لإنقاذ معبد جرف حسين فاكتفى بقطع بعض أجزائه التى رؤى أنها جديرة بالإنقاذ أما قلعة سباجورة فلقد غمرت بالمياه بعد أن تم بحث أجزائها واكتشاف ما هو هام بها وللأبحاث التى كتبت عن دندور وجرف حسين وسباجورة أنظر :— L. Christophe, Bipliographe , 85f (7 , Nos . 334 342) .

على هذا المعبد اسـم بر بتاح أى بيت بتاح . ويرجع تاريخ هذا المعبد إلى عهد أقدم من عهود معظم المعابد جنوبى الشلال الأول إذ أنه من عصر رمسيس الثانى والجسم الرئيسى للمعبد منحوت فى الصخر غير أنه يوجد أمام الجزء المنحوت فى الصخر من المعبد فناء أمامى مربع الشكل محاط ببواكٍ مسقوفة . ويدعى الموظف الذى أقام هذا المعبد لرمسيس ستاو نائب الملك فى اثيوبيا . ويبدو أن الموقع كان مقدسا منذ أزمان قديمة حيث توجد رسوم من عصر ماقبل التاريخ ومن عصر الدولة الوسطى على الصخور الواقعة جنوبى المعبد . ومن المحتمل أن اسم بر - بتاح قد أطلق على هذا الموقع بسبب عرف قديم عن عبادة بتاح فى الأماكن المجاورة .

وواجهة الفناء الأمامى مزينة بأعمدة ذات تيجان بشـكل زهـرى وبرعمى ، أمـا صالة الأعمدة ففى الجهة البحرية والقبلية منها فيها أعمدة مربعة تستند إليها تماثيل أوزورية الشكل لرمسيس الثانى . ولاتزال سبعة أعمدة والعتب باقية حتى الآن .

والجداران الشمالى والجنوبى للفناء مقطوعان جزئيا فى الصخر وهما يحملان بقايا مناظر غير واضحة تماما . وخلف الفناء تقوم الواجهة الصخرية للمعبد نفسه التى صممت على شكل صرح . وعلى هذه الواجهة نرى رمسيس يضرب أعداءه كالعادة ، ويرى أيضا ممثلا على جانبى الفناء كواحد من الثالوث المقدس المهشم الجالس فى كوة منحوتة فى الصخر .

وبالمرور بالبوابة ندخل الصالة الكبيرة ، وهى مربعة الشكل منحوتة فى الصخر طول كل ضلع من أضلاعها ٤٥ قدماً ، ويعتمد سقفها على ستة أعمدة أوزورية خالية من الجمال تمثل رمسيس ، وهى غير متناسبة ، ونحتها ردىء ، غير أن لحجمها تأثيرا كبيرا إذ يبلغ إرتفاعها ٢٨ قدماً . وعلى كل من جانبى الصالة أربع كوات تضم تماثيل رمسيس بين إلهين تؤلف ثالوثاً مقدساً فى كل حالة . وعلى الجانب الشمالى من البوابة نرى على الجدار الشرقى منظراً يمثل رمسيس يقدم القرابين لنفسه ولحورس وماعت على وجه الترجيح ويظهر جلياً ما للملك من روح مرحة بأن يرى نفسه وهو يقدم لنفسه كإله . والثالوث الذى يظهر فى الكـوات كالآتى : عـلى الجانب الشمـالى : أيوس - آس ورمسيس وحـورس ، إيزيس ورمسيس وحورس سيد عينية ساتت ورمسيس ونفرتم ، عنقت ورمسيس وخنوم ، وعلى الجانب الجنوبى : آمون رع ورمسيس وموت ، ثم حورس ورمسيس وحورس سيد بوهن (بتاح تانن ورمسيس وحاتحور وأخيراً بتاح ورمسيس وسخنت .

وإذا تركنا الصالة نصل الحجرة الأمامية وهى بعمق ١٧ قدماً وعرض ٣٦ قدماً وعلى سمك الباب من الجهة اليسرى نرى الملك أمام بتاح . ويستند سقف هذه الحجرة عـلى عمودين مربعـين وليس من السهل تبـين المناظـر الصغيرة . وتؤدى الأبـواب الشماليـة والجنوبية إلى حجرات صغيرة خالية من الزخرفة . وعلى كل من جانبى البـوابة الـواقعة

بالجدار الخلفى والتى تؤدى إلى قدس الأقداس باب يصل إلى حجرة صغيرة . ويتوسط قدس الأقداس قاعدة منحوتة فى الصخر لوضع المركب المقدسة عليها . ويوجد بالكوة الواقعة بالجدار الخلفى أربعة تماثيل تمثل حاتحور وبتاح تانن ورمسيس وبتاح . والمناظر على اليمين تمثل رمسيس على مركب حور آختى ، وعلى اليسار رمسيس على مركب بتاح ، هذا ونرى المركب المقدسة أيضا فوق الكوة . وعلى الرغم من رداءة نحت التماثيل وغيرها من التماثيل فلا شك أن المعبد كان فى الأول جذاباً بألوانه الزاهية وملحقاته ومرساه وفنائه الأمامى على حافة النيل ، والطريق الموصل إليه الذى تزينه على كلا الجانبين تماثيل أبى الهول الجانبية ، ودرجة الصاعد إلى النيل وصرحه بأعلى الدرج والفناء الأمامى من خلفه . وقد وصف بأنه «نسخة رديئة وصغيرة لمعبد أبى سمبل الكبير» وهذا وصف دقيق على وجه التقريب ، ولكن يجب أن نتذكر أنه من الممكن أن يوجد معبد يقل كثيراً عن أبى سمبل ولكن فى الوقت نفسه يعتبر جذاباً .

وعلى مسافة ثمانية أميال جنوبى جرف حسين نصل إلى كشتمنه حيث توجد بالقرب منها على الشاطىء الغربى قلعة كورى ، وهى قلعة قديمة تثير الاهتمام ويبدو أنها ترجع إلى عصر الدولة الوسطى ، ولكنها لما كانت مبنية باللبن فلا مفر من زوالها بتأثير المياه التى تغطيها معظم السنة .

وعلى مسافة سبعين ميلاً جنوبى الشلال الأول نصل معبد الدكة[1] والمدينة هى بسلكس اليونانية وبالقرب منها هزم القائد الرومانى بترونيوس الاثيوبيين الذين هاجموا الإقليم أيام مليكتهم « كانداس » أثيوبيا . وكانداس ـ كما أوضح جريفث ـ لقب وليس اسماً لشخص مثله لقب فرعون فى مصر . وقد حدثت الموقعة عام ٢٣ ق . م . وكان للمدينة فى ذلك الوقت تاريخ قديم من المحتمل أنه يرجع إلى عصور ما قبل التاريخ . وتدل الشواهد على وجود جماعة من السكان من عصر الدولة الوسطى كما أنه توجد هنا خراطيش لملوك من الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة ، ومن ذلك يمكننا أن نستنتج أنه كان للمكان تاريخ متصل خلال عصر الأسرات ولهذا فإن معبدها يعتبر حديثاً بالنسبة للمعابد المصرية فقد بناه أولاً (كما هو ظاهر فى المبنى الحالى) الملك النوبى أرجامنس (أركامون) وقد عاونه فى بنائه معاصره الملك بطليموس الرابع ، فيلوباتر ، وقد أضاف إليه إضافات متتالية بطليموس السابع ، افرجيت الثانى ، والأباطرة الرومان .

---

(١) فكت أحجار هذا المعبد وأعيد بناؤه فى منطقة فوق منسوب مياه تخزين السد العالى فى الجهة الغربية من الموقع القديم من معبد السبوع وتعتبر هذه المنطقة هى المنطقة الثانية لبناء معابد النوبة بعد فكها من مواضعها الأصلية .

والاسم الإغريقى للمدينة بسلكيس يوحى بأن المكان كان متصلاً فى وقت ما بعبادة سلكت ، الآلهة العقرب الممثلة فى مناظر بيت الوالى ، غير أن المعبد لم يكن مكرساً لهذه الآلهة بل كان مكرساً للإله تحوت رب ينويس . واتجاه المعبد غير عادى فهو يقع موازياً للنهر أى شمالاً وجنوباً بدلاً من أن يتجه شرقاً وغرباً كما هو المعتاد فى المعابد النوبية . والوصول إليه عبر طريق فيه روعة وفى حالة جيدة من الحفظ ، وهو فى الحقيقة يفوق فى تأثيره المعبد نفسه . ويبلغ ارتفاعه أكثر من ٤٠ قدماً وهو فى حالة حفظ جيدة ولا تظهر به آثار تخريب ، والطريق المؤدى طوله ١٧٠ قدماً بعرض ١٥ قدماً ، وهو ينتهى أمام الصرح برصيف ، ولاتزال الفجوتان الخاصتان بالأعلام ظاهرتين على البرجين ، ويعلو البوابة القرص المجنح والكورنيش المقعر الذى لا يزال أيضا محتفظاً بسلامته فوق البرجين . ويوجد بابان بداخل يؤديان إلى سلالم توصل إلى حجرات الحراسة وأعلى الصرح . والمنظر من أعلى البرجين جميل ولم تكمل المناظر على الصرح ، وتوجد عدة نقوش إغريقية على جدران المعبد مقدمة إلى ماندوليس من فرق من الجيش ، وعلى سمك البوابة على اليسار (الشرق) منظر لفرعون لم يذكر اسمه يقدم لتحوت وتفنوت وإيزيس .

وبين الصرح والواجهة الحالية للمعبد نفسه ما لابد أنه كان فناء أمامياً كالعادة ولكنه زال تماماً . ويزين واجهة المبنى عمودان يعلوهما تاجان زهريان ، وهما يتصلان بالجدران الجانبية بحوائط ساترة . وبالمرور فى البوابة بين العمودين ندخل حجرة مربعة الشكل مزينة بمناظر تمثل الملك يقدم للآلهة وبخاصة تحوت . وهذه الحجرة كما هو الحال فى الحجرة الأخرى التالية كانت فى حالة من التخريب لا يمكن وصفه عندما رممها بامارسانتى أثناء حملته لتقوية آثار النوبة فى بداية القرن العشرين (١٩٠٩) (أنظر المعابد المغرقة ص ٨٩ وما يليها)[1] . ولاتزال ترى بعض بقايا رسوم مسيحية ، إذ أن المكان استخدم لمدة ككنيسة . والبوابة المفتوحة فى الجدار الخلفى لهذه الصالة كانت فى الأصل المدخل إلى المعبد القديم الذى كان يشغل الموقع . وعلى سمكها على الجانب الشرقى منظر يمثل الملك يقدم تمثال ماعت لتحوت سيد ينوبس ، وعلى الجانب القبلى للبوابة نرى فيلوباتر يتعبد لعنقت وساتت وإيزيس وحاتحور ، وعلى العتب خراطيش أسرته .

أما الحجرة المتقدمة التى سندخلها بعد ذلك والتى أصابها التخريب عام ١٨٩٠ فقد رممت أيضا ، والحجرة تشغل عرض المبنى ، وهى ذات عمق بسيط نسبياً ، وليس بها ما يدعو إلى اهتمام خاص ، وبها سلم يؤدى إلى سطح المعبد . والحجرة الثانية المتقدمة تحتفظ بجزء من سقفها ، وبها مناظر لصور الملك أرجامون أمام آلهة متنوعة أحدها وهو الذى يلبس القلنسوة الحربية ، يوصف بأنه «فرعون سنمت» (بيجه) وعلى الجانب الشرقى من البوابة

---

(١) Barsanti , Les Temples Immerges , pp . 89 sq .

التى تؤدى إلى الهيكل منظر يمثل الملك أرجامون يقدم لإيزيس التى تحكى بأنها أعطته إقليم الدوديكا شونوى المتنازع عليه والذى أصبح موضوعاً مملاً بعض الشىء من كثرة ترديده . وعلى اليسار باب يفضى إلى حجرتين صغيرتين جانبيتين ، وفى الثانية منهما أسد الأمس واليوم وفوقهما قرد له رأس كلب يتعبد للآلهة تفنوت .

وعلى جدران الهيكل مناظر رومانية رديئة الصنع ، وهى تمثل إمبراطوراً لم يذكر اسمه أمام آلهة متنوعة . ولا تزال بالحجرة قمة الناووس المكسور ، وبالحجرة مناظر متكررة للإله حابى إله النيل يحمل الماء ويسوق الماشية رامزاً لأوقات الخصب . وعلى الجانب الشرقى من البوابة يظهر تحوت ممثلاً على شكل قرد مقوس تحت الشجرة المقدسة التى يسكب فوقها حابى الماء المطهر . وكان يحيط بالمعبد فى الأصل سور اختفى الآن ومعبد الدكة واحد من المعابد النوبية التى لا يمكن الوصول إليها إلا بفلوكه فى وقت الشتاء بسبب امتلاء الخزان .

وعلى مسافة قصيرة جنوبى الدكة تقع قلعة كوبان على الشاطىء الشرقى[1] ويرجع تاريخها إلى عصر الدولة الوسطى . وقد أقيمت هذه القلعة لتكوين حامية حصينة لحراسة نهاية رحلة قوافل الذهب من وادى العلاقى وقد ظلت مناجم الذهب هناك موردا هاماً لإمداد مصر بالذهب خلال عصور الأسرات حتى العصر الرومانى بل حتى العصور الوسطى ، وفى العصور الحديثة استؤنف تشغيلها . ولا شك أن حراسة الموقع أمر ضرورى حيث تخزن الحمولات الثمينة لقوافل الذهب لفترة معينة . وتدل شواهد وخراطيش ملوك الدولة الحديثة على أن فراعنة هذا العصر لم يكونوا أقل حماساً فى الاهتمام به من أسلافهم ملوك الأسرة الثانية عشرة . وقد عثر هنا على مشاهد لرمسيس الثانى يذكر فيه بفخر أن قوافل الذهب شكت من قلة الماء فى رحلاتها إلى المناجم والعودة منها ، «فقد لقى نصف رجالها حتفهم مع حميرهم بسبب العطش لأنهم لم يستطيعوا حمل عدد كاف من قرب الماء تكفى لرحلتهم إلى المناجم والعودة منها» وقد حاول سيتى الأول والد رمسيس الحصول على الماء ، ولكن بئره الذى حفره إلى عمق ١٢٠ ذراعاً لم يصل إلى الماء مما دعاه إلى تركه ، غير أن رجال حاشية رمسيس قالوا إنه ليس لديهم أى شك أنه لو استمر فى الحفر لتفجر الماء دون أى صعوبة « ويقولون مخاطبين مليكهم إذ قلت للماء اصعد إلى الجبل لتفجرت المياه السماوية بكلمة من فيك لانك تجسيد لرع وقد أمر رمسيس فعلا بالحفر على التو فحدثت المعجزة على التو ، وبذلك تم امداد المنطقة بالمياه للمستقبل وذلك بتعميق بئر سيتى القديم باثنى عشر ذراعاً» فقط .

---

(١) عن قلعة كوبان ووادى علاقى وقلعة أحمندى أنظر كتاب كريستوف سابق الذكر صفحات ٨٦ و٨٧ – وغنى عن البيان أن هذه الأماكن غمرتها المياه ولم يبق منها أى أثر اللهم الا ماسجل منها فى المؤلفات التى كتبت عنها .

وقد كانت قلعة كوبان - رغم أنها فى حالة تخريب شديد - إحـدى النماذج القليلة الرائقة للعمارة المدنية التى أبرزتها مصر .

وبعد تعلية الخزان عام ١٩١٢ لم يعد غير جزء منها فقط يمكن الوصول إليه خلال الشتاء وسوف تزداد صعوبة الوصول إليها نتيجة التعلية الحالية . وفى الواقع فان البناء الذى يشبه أبنيةأخرى من نوعه ، مبنى باللبن ، لا بد أن يختفى تدريجياً . وعلى مسافـة نصف ميل جنوبى القلعة توجد مخلفات معبد من أوائل عصر الدولة الحديثة وهذه المخلفات من القلعة بحيث لا يستحق الزيارة حتى فى وقت ظهورها والمعبد مكرس لحورس سيد كوباسر .

وعلى مسافة قليلة جنوبى كوبان على الضفة الغربية تقع قدرته حيث توجد بقايا معبد صغير لإيزيس ، وقد بنى فى وقت متأخر على انقاض معبد أقدم ، ولم يبق من المبنى غير التخطيط الخارجى للفراغ المستطيل الذى كان يشغله المعبد . وتقع المدينـة القديمـة إلى الغرب ، وتشهد الأكوام الموجودة على كبر حجمها .

وفى مقابلة قدرته تقع فى النهر جزيرة درار الكبيرة التى تعرف باسم جزيرة قورته وهذه الجزيرة كانت تعرف بتاكمبو القديمة التى كانت جارة إقليم الدود يكاشو بنوى الذى سنتركه الآن دون أسف .

وعلى مسافة تزيد قليلا على ميل جنوبى درار ، وإلى الجنوب مباشرة من قرية أوفيدينا تقع بقايا معبد المحرقة ، وهو معبد صغير من العصر الرومانى المتأخر ومنذ سنوات قليلة كان فى حالة تخريب شديد[١] وإن الذين شاهدوا الصور الفوتوغرافية لأجزائـه المتداعيـة من الجدران والبواكى يدركون حالة ما كان عليه المعبد وقت أن وقف أمامه بارسانتى عام ١٩٠٨ واسند سلمه لأول مرة على الدرج الحلزونى المتداعى الذى كان يؤدى إلى سطح الباكية ووجد البناء الحجرى يهتز بعنف تحت الثقل إلى حد انه كان يخشى فى كل لحظة أن ينهار على رأسه ورأس عماله (أنظر المعابد المغرقة ص ٩٩) . والآن وبعد انتهاء ترميمه أصبح معبد المحرقة فى حالة مرضية غير أنه لا يمكن الوصول إليه إلا بفلوكه . وبعـد كل ذلـك فإن الخسارة ليست كبيرة كما يبدو لأن المعبد من عصر رومانى فقط وهو مكون من صالة واحدة محاطة من جوانب ثلاثة ببواكٍ مكونة من أعمدة لها تيجان صممت على أن تكون زهرية الشكل غير أنها لم تكمل أبدا فالتيجان عبارة عن كتل خشنة أعدت لكى تشكلها التيجان وبين المبنى الرئيسى والنهر يوجد بناء آخر على جداره الشمالى منظر غريب للآلهة إيزيس فى ملابس رومانية جالسة تحت شجرة الجميز المقدسة بينما يقدم حورس النبيذ لها . ويـرى

---

(١) نقلت البقايا القليلة لهذا المعبد إلى الموقع الذى أقيمت فيه بعض المعابد غربى الموقع القديم لمعبد السفوح .

حورس متدثرا بعباءةومصحوبا بالآلهة سن وايزيس وسرابيس بملابس رومانية أيضاً وهذا المنظر موجود حالياً بالمتحف المصرى . والدرج الحلزونى الذى سبق الإشارة إليه فريد فى عمارة المعابد المصرية . والمحرقة هى هير اسيكاينوس «اليونانية أو مدينة شجرة الجميز المقدسة الممثلة فى المنظر الذى وصفناه . وهى تتقاسم مع تاكومبو الفخر فى كونها الحد الجنوبى لاقليم الدود بكاشو ينوى .

وقلعة مهتدى البيزنطية التى تقع على مسافة قليلة من المحرقة تخرج عن نطاق الزمن الذى نتكلم فى حدوده . ويكفى فقط أن نلاحظ كتلا منحرقة من الحجر الرملى وعلى احداها صورة لأمون رع ولابد أنها من معبد مجاور - استعملت فى إقامة بواباتها . وبداخل أسوارها تقع مساكن مدينة صغيرة تضم كنيسة ولا تزال تحتفظ بعض المنازل بأسقفها المقبية ويقول السيد/وايجول «يمكن للإنسان أن يتصور نفسه سائرا فى شوارعها الضيقة متلفتا يمينا وشمالا إلى الحجرات المهجورة المطلة التى تبدو وكأنها هجرت فقط من وقت قريب» (دليل الآثار المصرية ص ٥٣٢) .

ولما كان اهتمامنا لا ينصب على مثل هذه المخلفات الحديثة نسبياً ، فإننا سوف نستمر فى رحلتنا أعلى النهر حتى نصل بعد سبع ليالٍ أخرى تقريباً ، وعلى مسافة ٩٧ ميلا من خزان أسوان إلى معبد السبوع أو وادى السبوع الذى يرجع تاريخه إلى الأسرة التاسعة عشرة وقد بناه رمسيس الثانى تكريماً لآمون رع وحور آختى وبتاح ولرمسيس نفسه وهذا شىء بديهى . والمعبد من بعض الوجوه صورة مكررة لمعبد جرف حسين مع بعض الاختلافات فى التفاصيل[1] ولكن معبد السبوع احتفظ بكمية من اللبن والحجر أكثر من معبد جرف حسين ويحيط بالجزء المبنى من المعبد سور من اللبن تهدم جزء منه ، وفى وسط الواجهة الجنوبية لهذا السور بوابة من الحجر فى حالة مخربة على كل من جانبيها تمثال ضخم لرمسيس وقد نحت التمثالان من الحجر الرملى المحلى الخشن وصناعتها رديئة . ومن خلال هذه البوابة ندخل الفناء الأول الذى يتوسطه طريق على جانبيه ستة تماثيل لأبى الهول برءوس آدمية وتلبس التاج المزدوج . وإلى هذه التماثيل يرجع السبب فى الاسم المحلى للسبوع .

---

(١) نقلت أحجار هذا المعبد من محلها إلى حوالى خمسة كيلو مترات غرب الموقع الأصلى والعمل جار فى إعادة بنائه .

عن هذا المعبد وعن سياله أنظر كتاب كريستوف سابق الذكر فى الصفحات من ٨٨ إلى ٩١ - أنظر أيضاً المقال الذى لم يذكره كريستوف

Sh . Farid , Ecavations of the Antiquities

Department at El — sebu , (Forulles en Nubie) (1961 — 1963) , 1963 , pp .

— Weigall , Guide to Egyptian Antiquities , p . 532 .

وتقع خلف التماثيل أحواض من الحجر لأغراض التطهير . وإذا ما مررنا خلال صرح متهدم من اللبن ندخل الفناء الثانى ، وتمتد درجات سلم إلى المعبد الأصلى من منتصف هذا الفناء ويوجد بين قاعدة هذا السلم والصرح الذى مررنا به أربعة تماثيل أخرى لأبى الهول ، اثنان على كل جانب من الطريق المتوسط . ولهذه التماثيل رءوس صقر وتلبس التاج المزدوج وهى بذلك تمثل حور آختى . وفى الجانب الجنوبى الغربى من هذا الفناء تداخل معبد صغير من اللبن كما تداخل معبد رمسيس الثالث فى صالة فناء البوبسطيين بالكرنك وبهذا المعبد الصغير مذبح حجرى كرس لآمون رع وحور آختى كما الحقت به حجرة للتخزين .

ويؤدى سلم الفناء إلى شرفة مرتفعة يقوم إلى خلفها الصرح المبنى بالحجر وهو فى حالة حفظ جيدة غير أن بناءه ردىء ويبلغ عرضه ٨٠ قدما وارتفاعه ٦٥ قدما ولا يزال يحتفظ بلونه الذى يكاد يكون كاملا فى أحد البرجين والذى لم يبق غير أطرافه فى البرج الثانى . ومبنى الصرح ردىء جدا ولحامات الأحجار سيئة فهى فسيحة وبها فجوات ، وقد كانت فى الأصل مملوءة بالجص حتى يبدو السطح ناعما ولكن رداءة الصنعة قد تكشفت الآن بشكل أوضح نتيجة لأعمال الترميم . وكان يقوم أمام الصرح أربعة تماثيل ضخمة لرمسيس ولا يزال أحدها موجودا فى مكانه بعد أن قومه بارسنتى وهو يحمل علم آمون رع برأس كبش . أما التمثال الراقد إلى يمين البوابة فيمسك علم حور آختى برأس صقر . والمناظر التى لا تظهر بوضوح تام على واجهة الصرح تشمل رمسيس وهو يذبح أعداءه ، مرة أمام حور آختى ومرة أخرى أمام آمون رع ــ تمر خلال البوابة والتى تحمل مناظره فى حالة تهشيم كبير . تمثل الملك فى حضرة آلهة متعددة يصعب تمييز بعضها . وعلى سمك البوابة نرى صورا أخرى له أمام آمون رع وآلهة أخرى . والآن ندلف إلى صالة مكشوفة مساحتها ١٥ قدما مربعا ، على كل من جانبى الممر الذى يتوسطها خمسة أعمدة ذات تماثيل اوزورية مهشمة وفاقدة الرأس . وبين هذه الأعمدة والجدران الجانبية للصالة كان يوجد فى الأصل سقف وبذا كانت الصالة مكشوفة فقط فى الوسط . والمناظر من النوع المعتاد وليست بذات أهمية . ويقع بين جدار الصالة والسور الخارجى التى باللبن إلى اليسار حجرة الذبائح التى لاتزال تحتفظ بالأحجار المثقوبة التى كانت تربط إليها حيوانات التضحية .

ومرة أخرى نصعد سلما يؤدى بنا إلى شرفة ضيقة تمتد خلفها الواجهة الصخرية لصالة الأعمدة . وفى هذه الواجهة بوابة شغلها المسيحيون بباب مزدوج ذى اقواس مستديرة . وإذا ما مررنا بهذا الباب نجد أنفسنا فى الصالة المنحوتةفى الصخر التى تبلغ ٤١ قدما × ٥٢ قدما × ١٩ قدما ارتفاعا . وبها ستة أعمدة ذات تماثيل أوزورية لرمسيس تهشمت الآن ، وستة أعمدة أخرى مربعة الشكل خالية من الزخرف . وقد تحولت هذه الصالة إلى كنيسة ولا يزال القباب والمذبح موجودين حتى الآن مع بعض بقايا رسوم متقنة تزين الجدران . وخلف الصالة حجرة مستعرضة مع ملحقين أحدهما إلى الشرق والآخر إلى الغرب . وتمثل المناظر رمسيس يقدم القربان إلى آلهة مختلفة وإلى شخصه المؤله .

وتنفتح من الحجرة المستعرضة ثلاث حجرات ، تكون الوسطى منها الهيكل المزين بمناظر الملك وهو يقدم الزهور إلى مركب حور آختى إلى اليمين وإلى مركب آمون رع إلى اليسار وعلى الحائط الخلفى يمثل المنظر المتوسط مركب الشمس يتعبد اليه الملك وثلاثة قرود وفى الأسفل توجد الكوة التى تحمل الثلاثى المقدس المهشم المكون من آمون ورمسيس وحور آختى . وعلى كل من جانبى الكوة يقدم ثانية الزهور . وفوق الكوة وبينها وبين المركب المقدسة فى أعلى رسم المسيحيون بمهارة تستوجب الثناء القديس بطرس وهو يجاهد فى شجاعة ويحمل ثقل مفتاح ضخم لا يستطيع بتاتا إدارته فى قفل الفردوس أو الجحيم . وفن الأمبراطورية الحديثة - كما هو ممثل فى السبوع - بعيد كل البعد عن أن يكون من الطراز الأول ولكن المقارنة بينه وبين المحاولة التى قام بها المسيحيون بقصد حسن كما هى ممثلة فى رسم القديس بطرس تدعو إلى الحزن ، فرمسيس على كل من جانبى الكوة يبدو مثل شخص أصيل بينما يظهر القديس بطرس كالكابوس . ولا توجد آثار أخرى تسترعى الانتباه حتى نصل كوروسكو .

الفصل التاسع والثلاثون
كورسكو إلى أبى سمبل

كانت كورسكو خلال عشرين السنة الأخيرة من القرن التاسع عشر اسما معروفا لدى البريطانيين بصفتها مركز قيادة القوات فى النوبة السفلى ، ولكن القضاء على قوة الخليفة فى أم درمان كان نهاية أهميتها ، ومنذ ذلك الحين قلت أهمية المكان وأهم ذكرى دائمة للماضى هى تلك الجبانة الحربية البريطانية الواقعة فى الوادى وراء المدينة . وليس هناك ما يلفت النظر من الناحية الأثرية فى الأماكن المجاورة ، ولكن النيل الواقع خلف المدينة يشرف على منظر جميل لوادى النيل ، وعلى مسافة تسعة أميال ونصف جنوبى كورسكو تقع إحدى المخلفات القديمة الهامة للاستيطان المصرى فى النوبة ، ونعنى به معبد عمدا[1] يرجع تاريخ هذا المعبد الصغير إلى الأسرة الثامنة عشرة ، فقد أسسه تحتمس الثالث ، وزينه ابنه امنوفيس الثانى ، وزاد فيه حفيده تحتمس الرابع وأخيرا (حتى الأسرة الثامنة عشرة) أزيل اسم وشكل آمون - الذى كرس له المعبد ومعه حور آختى على أيدى عملاء امنوفيس الرابع (اخناتون) وبعد ذلك قام الملك المستقيم سيتى الأول بإصلاح الدمار الذى أحدثه اخناتون ، كما نرى أيضا خراطيش سيبتاح ومناظر للملكة تاومرت والمستشار باى على دهليز المعبد . وترجع أهمية المعبد التاريخية إلى وجود النقش الطويل لأمنوفيس الثانى الذى سنشير إليه توا .

---

(١) عن كورسكو وعمدا والدو كتب الكثير أنظر مؤلف كريستوف الذى سبق ذكره صفحات ٩٢ - ٩٣ أما عن معبد عمدا فلقد نقل من مكانه الأصلى إلى بضعة كيلو مترات قليلة إلى الغرب على نفقة الحكومة الفرنسية وكان نقله بطريقة فذة - إذ نقل بجملته على قضبان للموقع الجديد نظرا لأن احجاره قد غطيت بطبقة خفيفة من الجبس نقشت عليها الصور والكتابات وكان (إما - كى لاتلغى هذه النقوش نقل المعبد دفعة واحدة وكان المكان الذى نقل إليه المعبد المكان الثالث لإعادة بناء بعض المعابد .

والمعبد فى جملته غير جذاب من الخارج ، رغم انه يقع وسط بقعة رائعة مهجورة ، حيث تختلف عزلة الصحراء بالضفة الغربية التى أقيم فيها المعبد عن منظر الزراعة بالضفة الشرقية التى تقع خلفها سلسلة جميلة من التلال المسننة وهناك علامات فى المواقع المجاورة تدل على استيطان مصرى أقدم من المعبد فعلى مسافة ثلاثة أميال جنوبى المعبد توجد كتلة صخرية كبيرة مغطاة بنقوش من عصر الأسرة الثانية عشرة سجلها أعضاء البعثات المصرية التى كانت ترسل أيام سنوسرت الأول وسنوسرت الثالث واستحات الثالث . وعلى ذلك يمكننا أن نستنتج أن تحتمس الثالث - عند تأسيسه لمعبده هنا - كان يعيد مبنى يرجع تاريخه إلى حوالى خمسة قرون سابقة . حقا إن اسم سنوسرت الثالث مسجل بصفة خاصة فى المعبد وبهذا يمكن الأخذ بفكرة صلته بالمبنى الأصلى . والاحترام الذى كان يكنه امنوفيس الثانى لاسم والده - على الأقل فى الأيام الأولى من حكمه عندما كان مشغولا فى عمدا - يمكن ملاحظته بوضوح فى اشتراك خراطيش الملكية فى جميع أجزاء المعبد ، فهى توجد معا فى كل مكان ، فأى امتياز من حيث المكانة يتمتع به أحدهما ، إنما يقابله على الفور امتياز مشابه يتمتع به الآخر[1] فأمنوفيس الثانى كان فقط عند بداية حكمه عندما زين عمدا ، وكما ذكر وايجول ، فإنه كان يعلم دون شك أن اسم والده جدير بالتقرب إليه بينما لم يكن اسمه قد نال بعد شهرة النفوذ السريع والفعال فى المجال الذى يتصل بمجال تحتمس . وفى الوقت الذى سجل فيه النقش الطويل على الجدار الخلفى من الهيكل شعر أنه فى مركز يستطيع فيه أن يتحدث بقليل من التفاخر عن نفسه فيما يختص بحملته السورية واتبع ذلك بتقرير يدل على فظاعة لا يقوى تحتمس على ارتكابها وفى العصور المسيحية تحول المعبد إلى كنيسة وترتبت على ذلك عواقب مدمرة معتادة بتغطية المناظر بالبياض . وقد نتج عن بربرية المسيحيين الأوائل نتيجة هذا العمل المحافظة على اللون القديم ، والآن وقد انسلخ البياض أمكن رؤية المناظر ثانية بألوانها المحتفظة بنضارة اكثر مما لو كانت مكشوفة وكان للمبنى أصلا صرح عند البوابة الرئيسية الحالية . وقد اختفى هذا الصرح مما أعطى البوابة منظرها الحالى المنعزل إذ أنها فقدت البرجين على كل من الجانبين - اللذين كانا يكملانها ويوضحانها . وكان البرجان من اللبن مما يعلل اختفاءهما . وعلى المكتب الأيمن للبوابة (٢) نرى تحتمس الثالث وقد ضمه حور آختى الذى يقوم بمثل هذا العمل على الجانب الأيسر (١) لأمنوفيس الثانى . وتحت هذين المنظرين نقوش لحاكم كوش فى عصر الزعامة . وعلى كلا سمكى البوابة خراطيش سيتى الأول ، بينما على الجانب الأيسر (٣) منظر غير واضح لامنوفيس الثانى يقوده حورس إلى حضرة حور آختى وتحت ذلك نقش من ثلاثة عشر سطرا لمنفتاح

---

(١) اتضح من الأبحاث أن هذا الملك شارك الحكم مع أبيه لمدة سنة أو سنتين وقد يكون إقامة المعبد فى هذه الفترة أو بعد ذلك بقليل .

(الأسرة ١٩) يشير إلى حملته ضد الأثيوبيين . وعلى الجانب الأيمن نقش لستاو حاكم كوش ايام رمسيس الثانى يشير إلى زيارة المعبد .

وفى الأصل ، كما هو مخطط تؤدى هذه البوابة إلى فناء فى نهاية صف من الأعمدة مكون من أعمدة من النوع المسلوب ومحاط بجدران من اللبن .

وقد ساهم تحتمس الرابع فى المعبد بتحويل الفناء إلى صالة أعمدة باضافة اثنى عشر عمودا مربعا تنتظم فى أربعة صفوف تقع بين الأعمدة المسلوبة والصرح مع ربط اعمدة الصفين الجانبيين بجدران جانبية ، وبذلك أصبح حجم الصالة ٢/١ ٣٢ قدم طولا بعرض يتراوح بين ٢٦ و ٢/١ ٢٨ قدم عرضا وارتفاع ٢/١ ١٤ قدم . وهى لاتزال فى حالة جيدة . وعلى الجانب الأيمن من البوابة عند الدخول يوجد نقش يضم خرطوش تحتمس الثالث بينما يوجد على الجانب الأيسر ، للموازنة مع الجانب الأيمن ، خرطوش امنوفيس الثانى (٤) الذى أزاله اخناتون ، أو عدله إلى عا - خبرو - رع ، الاسم الشخصى لامنوفيس الثانى ، الذى لا يعرض الاسم المكروه لآمون ، واعيد كتابته بالشكل القديم على يد سيتى .

وعلى الأعمدة القائمة على جانبى البوابة ترى مناظر حاكم كوش يتعبد لخراطيش رمسيس الثانى (٥ ، ٥) الذى كان - كالعادة - يعمل على اثبات شخصيته فى مبنى لم يعمل به شيئا . وعلى صفى الأعمدة اللذين يكونان صحن الصالة خراطيش تحتمس الرابع الذى يرى وقد احتضنته عنقت إلهة الشلال وآمون رع وحور آختى وتاح . وعلى الأعمدة والجدران الساترة بالجانب الأيسر من الصالة نرى أولا (٦) نقشا يذكر فيه تحتمس الرابع انه محبوب سنوسرت الثالث ، وكان سنوسرت ينظر اليه عادة فى النقوش النوبية كاله بوصفه فاتح النوبة . وبعد ذلك (٧) يرى تحتمس الرابع تقدمه ساتت إلهة الشلال الأخرى إلى حور آختى ، ويقوده تحوت (٨) إلى آمون رع وتضمه ايزيس (٩) . وعلى جدران وأعمدة الجانب الأيمن يرى أولا (١٠) ضمه آلهتان فى حضرة خنوم إله الشلال وبعد ذلك (١١) يسجل تحوت سنى حكمه ، ثم منظر مشوه (١٢) يمثله راكعا أمام الشجرة المقدسة ، وأخيرا (١٣) يظهر فى منظر وقد ضمته إليها حاتحور سيدة منطقة أبى سمبل التى كانت مكانا مقدسا بحوالى قرنين قبل أن يحفر رمسيس الثانى معبده الكبير هناك .

والحائط الخلفى لصالة الأعمدة كان واجهة المعبد الأصلى عندما أقيم أولا . والمناظر على هذا الحائط تمثل على الجانب الأيسر (١٤) ، أمنوفيس الثانى مع حورس وإله آخر ، ومع حور آختى وعنقت . وعلى الجانب الأيمن يرى تحتمس الثالث يضمه خنوم ، ويتعبد لحور آختى ، ويضمه آمون رع (١٥) . وعلى جوانب الباب المؤدى إلى الحجرة التالية مناظر لتحتمس الثالث وأمنوفيس الثانى (١٦) وتحتها نقوش من عصر سيبتاح (الأسرة ١٩) تمثل الملكة تاوسرت وحامل الختم باى مع خراطيش سيبتاح ويذكر النقش أن الحفر عمل بأمر من

قائد فرق كوش بيتاى . ومن صالة الأعمدة ندخل إلى حجرة مستعرضة أو رواق ، وإذا اتجهنا لنرى المناظر على الوجه الآخر للحائط الذى مررنا منه توا ، فاننا نشاهد أمنوفيس الثانى يطهره حورس سيد إدفو وتحوت (١٧) وتحتمس الثالث (١٨) تضمه إيزيس ، وأمنوفيس يقدم لآمون رع (١٩) . وعلى الجانب الأيسر (٢٠) أمنوفيس يرقص أمام أمون رع ، بينما يرى على الجانب الأيمن (٢١) تحتمس يضمه حورس سيد ميام وحور آختى . وينفتح فى الجدار الخلفى للحجرة المستعرضة ثلاثة أبواب يؤدى الأوسط منها إلى الهيكل بينما يؤدى البابان الأيمن والأيسر إلى حجرات أخرى . وقد حافظت هذه على الموازنة فى التكريم بين تحتمس وابنه ، فقد نقش الباب الأيسر باسم امنوفيس بينما نقش الباب الأيمن باسم تحتمس ، أما باب الهيكل فيحمل خراطيش تحتمس ، وعلى الجانب الأيسر من هذا الباب (٢٢) يحتضن حور آختى امنوفيس وعلى الجانب الأيمن (٢٣) يحتضن امون تحتمس ، وبذلك لايجرح شعور أحدهما .

وإذا دخلنا الحجرة على الجانب الأيسر نجد نفس الموازنة المثيرة للتكريم بين الفرعونين فى حجرة الآلهة (٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦) أما الحجرة الواقعة على يمين الهيكل فهى ذات أهمية خاصة حيث أن مناظرها تصور الاحتفالات المتصلة بتشييد المعبد وأولى التضحيات التى قدمت فيه . هذا ويرى تحتمس يتعبد لآمون رع (٢٧) ، وسنشات وآمون رع (٢٨) يدقان الأوتاد التى تعين حدود المبنى ، والملك يقف أمام أمون رع (٢٩) وآمون رع وهو يحتضنه (٣٠) وتحت ذلك يرقص أمام حور آختى ، ويشد الحبل (وهو ما يطابق وضع حجر الأساس) أمام حور آختى ، وأخيرا يقدم لرع . وعلى الجانب الأيمن نرى دور امنوفيس فهو يقوم بتربية القطيع (٣١) للتضحية أمام آمون رع ، ويقدم قطيعاً مذبوحاً (٣٢) لآمون رع وحور آختى . وفى الصف الأسفل يحتضنه حورس وحور آختى ، ويرقص أمام حور آختى ، ويقدم الصولجان لحور آختى .

وإذا دخلنا الهيكل نجد امنوفيس مثابراً كعادته على الاحتفاظ بالموازنة الواجبة بين أبيه ونفسه ، فبينما يمثل الملك الأصغر غالبا واقفا أمام حاتحور وحور آختى (٣٣) ويقدم لآمون رع (٣٤) ، ويمنح الحياة بواسطة أمون رع وسانت (٣٥) ، ويقدم لحور آختى (٣٦) ، نجد خراطيش أبيه مسجلة على داخل الباب حيث يوصف بأنه محبوب من آمون رع . وأهم ما فى الهيكل تمجيد أمنوفيس لنفسه ، ذلك التمجيد المسجل فى النقش التاريخى المكون من عشرين صفاً[٣٧] . والذى تكرر فعلا فى معبد لبفنتين حيث توجد بعض أجزاء منه الآن فى فيينا والقاهرة . وقد أقيم هذا السجل فى السنة الثالثة من حكم امونيس ، وهو يتحدث أولا بفخر فى أسلوب شعرى عن القوة البدنية للملك الشاب ، وقد يرجع ذلك إلى أنه كان يعلم بأن هذه هى الميزة الوحيدة التى يمكن أن يقارن بها نفسه بوالده «إنه ملك ذوباع طويل ، فلا يوجد

أحد يستطيع أن يشد قوسه مثله من بين جنوده وشيوخ البلاد الجبلية أو من بين أمراء وتنو ، إن قوته أكبر من قوة أى ملك آخر وجد فهو كما لاحظ كارليل «ملك مهيب هو ذو القوة البدنية ويستمر امنوفيس فى وصف مجهوده فى المعبد» انظر ، لقد حمل جلالته المعبد - الذى أقامه والده ، ملك مصر العليا والسفلى » من خبر رع» (تحتمس الثالث) لآبائه ، جميع الآلهة ، وبناه بالحجر كعمل خالد . فالجدران المحيطة به من اللبن ، والأبواب من خشب الأرز المجلوب من أحسن الربى ، والبوابات من الحجر الرملى لكى يخلد الاسم العظيم لوالده ، ابن رع (تحتمس الثالث) فى المعبد إلى الأبد وعلى العموم فإن اهتمام امنوفيس الكبير ليضمن لوالده حصة لائقة من الفضل فى عمدا - وقد يكون ذلك إلى حد ما مجرد تقييم عن عرف - يعطى الإنسان صورة جميلة لخلق الرجل القوى .

ولكن للأسف فإن ذلك قد ألغته فورا تلك الفقرة الختامية من النقش التى تتحدث عن وحشيته فى معاملته للأسرى الأسيويين الذين أسرهم فى حملته إلى سوريا . «عندما عاد جلالته بقلب مسرور إلى والده آمون ، ذبح بسلاحه الأمراء السبعة الذين فى إقليم تخس وثبتهم فى وضع مقلوب فى مقدمة سفينته الملكّية . . وقد علق ستة من هؤلاء الأسرى المذبوحين أمام جدران طيبة ، واياد لهم بالمثل . أما القتيل السابع فأرسله جنوبا إلى النوبة حيث علق على جدران نباتا لكى يعلن انتصارات جلالته إلى الأبد فى كل أراضى وبلاد الزنوج (برستد ، النصوص القديمة - الجزء الثانى ، ٧٩١ ـ ٧) . ولم يكن تحتمس الثالث هكذا فى معاملة اسراه فقد كان محاربا أعظم رغم أنه لم يكن فى استطاعته ثنى قوس ابنه ، وأن مجرد الشهوة إلى إراقة الدماء عند الرجل الأصغر التى تتناقض مع الصفح البعيد النظر عند الأكبر ليكشف لك إلى أى حد كان امنوفيس - رغم كل احترامه لاسم والده ، أقل منه فى العظمة الأصلية .

وتنفتح حجرتان من الهيكل ، وقد قسمتا بعناية ، فيما يختص بمناظرها بين أمنوفيس ووالده محافظة على العهد الصادق إلى النهاية .

وعلى سطح المعبد نقش يونانى يتضمن رواية كاذبة سرعان ما صححها زائر آخر . فتذكر الرواية : «هيرودوت من هاليكارناسوس رأى وأعجب» بينما يقول التصحيح : لا ، لم ير ولم يعجب » وهذا هو الواقع الصحيح حيث أن هيرودوت لم يذهب قط إلى عمدا . وبين المعبد والنهر بقايا قليلة من مبنى صغير يبدو أنه كان بمثابة رواق كانت تجرى فيه عملية التطهير قبل دخول المعبد الكبير . وهو يرجع إلى عهد سيتى الأول حسب ما ذكره جوتييه (١٩١٠) ويوجد طريق من اللبن يصل المعبد برصيف . وبالجملة فإن معبد عمدا - بموازنته النادرة بين حقوق تحتمس الثالث وامنوفيس الثانى ، وبمناظره التى ترجع إلى الأسرة (١٨) ممتع بشكل ظاهر ، ونحته بصفة خاصة لافت للنظر ، ونوعيته تنعش النفس بعد رؤية الأعمال الرديئة التى مررنا بها كثيرا .

وعلى مسافة صغيرة جنوبى عمدا ، وعلى الضفة المقابلة - التى يمكن أن نستمر فى تسميتها الضفة الشرقية رغم أنها تعتبر الضفة الجنوبية بسبب انحناء النهر عند هذه النقطة - تقع مدينة ومعبد الدر على مسافة ١٢٠ ميلا جنوبى خزان أسوان و٧١٥ ميلا جنوب القاهرة . والمعبد منحوت فى واجهة الصخر خلف القرية . ولما كان الصخر من نوع ردىء فإن حالة المعبد غير جيدة[١] ويمكن القول أن تدخل الانسان قد سارع فى عملية تخريبه ، فمن المحتمل أن المسيحيين الأوائل قد خربوا بعض نقوشه ، كما أن المبنى قد استعمل لعدة أجيال كمستودع لقاذورات المدينة وحيواناتها . وكانت الدر تعرف بإقليم النوبة اسم ميام[٢] التى كانت على مايظهر مكانا مقدسا إذ أن أكثر من اله وعلى سبيل المثال حورس ، كان ينتمى إليها . والمعبد من عمل رمسيس الثانى ، وكان يطلق عليه : «معبد رمسيس فى بيت رع» وقد كرس لرع وآمون رع وحور آختى ، كما كان بتاح مقدسا أيضاً وله مكان فى الهيكل وليس هناك دليل على نشاط أى فرعون آخر بعده ، ويبدو أن تاريخ المعبد قد بدأ وانتهى أيام رمسيس .

وقد اختفى الصرح والفناء الأمامى اللذان كانا على مايرجح من اللبن وعليه فإن ما نراه الآن فقط هى صالة الأعمدة ، وصالة الأعمدة الثانية أو الصالة التى تتقدم الهيكل ، والهيكل بحجرتيه الجانبيتين . وقد أغلق الباب الجانبى الذى كان يدخل منه الزوار إلى المعبد بواسطة بارسانتى أثناء قيامه بعملية التنظيف والتقوية ، وأصبح الدخول حاليا من المدخل الرئيسى أولا ندخل صالة الأعمدة الكبيرة التى فقدت سقفها والأجزاء العليا من جدرانها المنحوتة فى الصخر مثل أجزائها الباقية . وكان يسند السقف اثنا عشر عمودا فى ثلاثة صفوف . وكانت الأعمدة الأربعة الأخيرة ذات أشكال أوزورية وقد دمرت عمدا بحيث لم يبق فيها غير أقدامها . وكان هذا الصف من الأعمدة يكون فى الأصل رواق الصالة التى تقع خلفه . وعلى الأجزاء الباقية من الجدران مناظر على جانب من الأهمية ، فعلى الجدار الشرقى الواقع إلى يسارنا عند اتجاهنا نحو الهيكل مناظر متتالية للمعارك فأولا نرى منظرا يكاد يكون قد اختفى تقريبا ، لأسرى يساقون إلى حضرة رمسيس (١) ثم يرى الملك نفسه يهاجم وهو فى عجلته الحربية ، بينما يفر الأعداء أمامه أو يداسون تحت أقدام خيله (٢) ثم وهو يترجل من عجلته ويمسك بشعر أربعة من أعدائه (٣) وأخيرا وهو يقود الأسرى إلى حور آختى (٤) ويظهر رمسيس على الصف الواقع فوق هذه المناظر الحربية أمام آلهة مختلفة لايظهر فيها حاليا غير آتوم سيد هليوبوليس . وعلى الجدار الغربى لم يبق غير منظر واحد

---

(١) نظفت جدران هذا المعبد فظهرت ألوانه زاهية وبعدئذ قطعت أحجاره وأعيد بناؤها بجوار معبد عمدا .

(٢) ميام تعنى عنيبه وليس الدر

واضح وفى هذا المنظر يرى رمسيس فى عربته يصوب سهامه نحو القسم الأوسط من أعدائه الهاربين (٥) . ويرى رماة السهام من الزنوج يرتدون إلى مخيمهم بين التلال والأشجار ، وقد حمل بعضهم أحد زملائهم من الجرحى بينما ينبه بعضهم النساء للهرب . ويرى بعض الضباط المصريين يحضرون الأسرى ، بينما تنتظر إحدى أسر العدو مصيرها وسط ماشيتها . وفى الصف الأعلى مناظر مهشمة لرمسيس فى عربته ، يصحبه أسده الأليف ، يقود أسراه إلى حضرة أمون رع ويقدم الضحايا إلى نفس الإله وفى الطرف الشرقى للجدار الشمالى (المدخل) كانت توجد أصلا مناظر حربية ولكنها زالت كلية تقريبا . وعلى الجدار الخلفى (الجنوبى) تمثل المناظر على الجانب الأيمن من الباب (٦) رمسيس يذبح أعداءه أمام آمون رع ، بينما يرى أسده الأليف بجانبه ، وكذا الملك أمام بتاح وتحوت وعلى يسار الباب (٧) يرى أيضاً وهو يذبح أربعة من الأثيوبيين أمام حور آختى ، بينما يمسك أسده بأحد الأسرى ، وكذلك يرى الملك أمام خنوم وأسفل المناظر الموجودة على الجانب الأيمن يرى تسع من بناته العديدات ، وعلى الجانب الأيسر تسعة من أبنائه كنوع من الاختيار الممثل لأسرته الكبيرة حيث أن جعبة رمسيس مملوءة بشكل يسترعى الالتفات . وعلى الأعمدة يرى الملك أمام آلهة متنوعة . ولم يبق من أعمدة الصفين الأماميين فى هذه الصالة غير قواعدها بينما تركت فقط أعمدة الصف الثالث الأوزورية المشوهة قائمة .

والآن ندخل الصالة الثانية ، وهى مقطوعة كلية فى الصخر ومربعة الشكل وبها ستة أعمدة . والمناظر فى هذه الصالة وعلى الأعمدة لا تثير الاهتمام قطعيا مثل تلك التى فى الصالة الأولى ، فهى جميعا ذات صبغة دينية ، وتمثل الملك فقط امام آلهة مختلفة أو وهو يقدم للمراكب المقدسة ، وهى موضوعات أصبحت مملة بعض الشىء للزائر العادى . وعلى جدار المدخل من اليسار يقدم حور ايزيس وإله آخر رمسيس إلى حور آختى ـ واحدى الالهات وعلى نفس الجدار من اليمين (٩) يقدم لنيت ويمسحه بالطيب حور ايزيس وتحوت (من المحتمل) . وعلى الجدار الغربى (الجانب الأيمن) (١٠) يقدم لمركب حور آختى ويباركه (١١) امون رع الذى تصحبه زوجته موت ، بينما يلازم الملك تحوت ومونتو وحورس وكل منهم يحمل رمز الأعياد . وعلى الجدار الشرقى (الجانب الايسر) يقدم للمركب المقدس (١٢) ثم وهو يتعبد لامون رع (الممثل بشكل مين) وايزيس (١٣) ، واخيرا وهو يقف بجانب الشجرة المقدسة فى حضرة بتاح وبسخمت وتحوت (١٤) وعلى الجدار الجنوبى او الخلفى على الجانب الأيسر يرى وهو يتعبد لحور آختى وحاتحور ، وعلى الجانب الايمن (١٥) يظهر امام امون رع وشخصه فى الشكل المؤنه وموت . وكان السقف فى الأصل مزينا باشكال العقاب والخراطيش ولكن هذه الزخرفة قد زالت تقريبا .

وبالهيكل أربعة تماثيل مهشمة فى نهايته الجنوبية (١٦) وهى لبتاح وآمون رع ورمسيس نفسه وحور آختى . وعلى الحائط الأيسر (١٧) يرى الملك وهو يقدم للمركب المقدسة ويقف

امام بتاح ، وعلى الحائط الأيمن (١٨) يرى أيضا يقدم للمركب المقدسة وحور آختى ، وعلى سمك الباب (١٩) يقف امام حور آختى وآمون رع . وتضم الحجرتان الجانبيتان مناظر متشابهة ، فى الحجرة الشرقية (إلى اليسار) يظهر رمسيس امام اتوم وآمون والملك نفسه مجسما بشكل الهى برأس صقر (٢٠) وامام حور آختى وآمون رع (٢١) وامام تحوت وموت (٢٢) بينما هو أيضا يرقص أمام شخصه المؤله فى المركب المقدسة . وفى الحجرة الغربية (إلى اليمين) يظهر امام بتاح وآمون وحور آختى (٢٣) ويقف فى حالتين امام شخصه المؤله كما سبق (٢٤) ويرقص امام اوزوريس وايزيس وحورس ويتعبد لحور آختى (٢٥) .

وعلى مسافة قصيرة شمالى المعبد توجد لوحة متآكلة من عصر الرعاة وأخرى عليها صور حاكم اثيوبيا المسمى امن ام حاب يتعبد لحورس سيد عنيبة ، وهذه اللوحة من عصر رمسيس الثانى كما يدل على ذلك الخرطوش الموجود أعلاها ، كما توجد ايضا بالقرب منها رسوم لغزلان ومراكب وزراف وخلافه .

وإلى الجنوب من الدر لا يوجد شىء ذو أهمية كبيرة يستهوى النظر لمسافة قليلة عدا النقوش الصخرية خلف قريةتوماس[1] ، وهى فى بعض الحالات قديمة جدا ترجع إلى عهد الدولة القديمة (الأسرتان الخامسة والسادسة) ، كما توجد أيضا نقوش من عصر الدولة الحديثة منها اثنان لستاو حاكم اثيوبيا أيام رمسيس الثانى ، وهو موظف سبق ان التقينا به قبل الآن وعلى الضفة المقابلة إلى الجنوب قليلا وجد السيد/وايجول لوحة عليهامنظر حورس سيد عينيه جالسا بينما يقدم اليه رمسيس إناءين من الدهون ويشير النقش إلى تقاديم قام بها تحتمس امير عينيه إلى تمثال رمسيس . ومع هذا النقش منظر للحاكم ستاو يتعبد فى اسفل اللوحة مما يدل على انه هو الذى قام بعمل الأثر .

وعلى مسافة نصف ميل تقريبا من النهر وراء الجزء الشمالى من قرية ابريم يوجد معبد الليسيه الصغير المنحوت فى الصخر والذى يرجع إلى السنة الثالثة والأربعين من حكم تحتمس الثالث[2]. وهو معبد صغير جدا . ويحتوى فقط على حجرة مستعرضة بها كوة صغيرة . وقد زينت واجهة هذا الهيكل الصغير بعدة نقوش بالاضافة ـ إلى لوحة تحتمس التى تذكر التاريخ الذى أشرنا اليه توا . وعلى لوحة تحتمس منظر يمثله وهو يتعبد لحورس سيد عينيه وساتت . هذا وقد ترك ستاو النشط أثرا له هنا فهو يتعبد راكعا أسفل لوحة يظهر عليها رمسيس الثانى وهو يقدم لآمون وحورس سيد عينيه .

---

(١) جمع كريستوف فى كتابه سالف الذكر ٢٩ مرجعا عن توماس - اللبسيه ارعم وعينية .
(٢) منحت الحكومة المصرية جمهورية إيطاليا هذا الأثر وهو الآن مقام فى المتحف المصرى فى تورين

ويوجد خرطوش تحتمس الثالث فوق الباب . وكانت الحجرة فى الأصل مزينة بمناظر جميلة اصبحت حاليا غير واضحة تقريبا ، فيرى الملك يقدم لحورس ، ويضمه دون احد آلهة النوبة ويقف امام سنوسرت المؤله وآلهة أخرى مختلفة . وفى الكوة ثلاثة تماثيل مهشمة ربما تمثل تحتمس بين حورس سيد عنيبة واله آخر . وعلى جدران الكوة يقف امام حورس سيد عينيه وآمون رع وساتت وتحوت . وعلى مسافة ميلين تقريبا جنوبى المعبد ، خلف قرية ابريم كشف السيد وايجول نقشين صخريين لاثنين من الملوك المجهولين باسم كارع وساان رع يصحبهما فرعون يلبس التاج المزدوج .

وعلى الضفة الغربية من النيل ، وفى مقابلة ابريم تقريبا ، توجد قلعة كار انوج المخربة التى يرجع تاريخها إلى القرن الثالث أو الرابع الميلادى رغم أنها من المحتمل قد بنيت فوق اساسات اثيوبية أو رومانية متقدمة . وهى جديرة بالذكر لبروزها حيث أنها لا تزال قائمة بارتفاعها الشاهق . وقد قام السيدان راندال وماكيفر وولى بحفائرها فى ١٩٠٩ وقد وجدت فى المقابر الهرمية المبنية باللبن الموجودة بالصحراء خلف كارانوج وعنيبة نقوش تدل على أن هذا الموضع كان مركز المنطقة المعروفة باسم عنيبة التى ورد ذكرها مرارا فى الصفحات القليلة الأخيرة . ومقبرة بنوت التى تعتبر أهم أثر من عصر الاسرات فى عنيبة مقطوعة فى جانب التل على مسيرة نصف ساعة من النهر وعلى مسيرة ربع ساعة خلف المقابر الهرمية المبنية باللبن التى سبق ذكرها توا والتى تخص أفراداً من عائلته[1] وقد كانت مقبرة بنوت التى تعتبر أهم اثر من عصر الاسرات فى عنيبة مقطوعة فى جانب التل على مسيرة نصف ساعة من النهر ، وعلى مسيرة ربع ساعة خلف المقابر الهرمية المبنية باللبن التى سبق ذكرها حاليا والتى تخص افراداً من عائلته . وقد كان بنوت موظفا فى عصر رمسيس السادس وكان يتولى وظيفة المشرف على معبد حورس سيد عنيبة وكانت زوجته المسماة تاخا مقيمة فى المعبد . وقد كان ككل المصريين الطيبين ، حريصا على أن تقتفى أسرته خطواته الوظيفية ، وقد شغلوا وظائف مثل المشرف على الخزانة الملكية فى النوبة السفلى ، وكاتب الخزانة ورئيس كهنة ايزيس . وكان له صغير يحمل نفس اسمه وقد تزوج السيدة باك ساتت .

وتتكون مقبرة بنوت من حجرة واحدة مستطيلة بها كوة صغيرة تضم ثلاثة تماثيل مهشمة منحوتة فى جدارها الصخرى الخلفى المواجه للمدخل والمناظر فى الحجرة ذات صنعة جيدة ، ولا تزال تحتفظ ببعض ألوانها ولكن المقبرة مشوهة كثيرا . وعلى الجانب الأيسر من الباب مناظر لبنوت وتاخا مع نقش . وعلى الجدار الغربى فى الطرف الشمالى نقش يحكى عن الاراضى التى سلمت من بنوت إلى الملك للصرف منها على الكهنة والضحايا التى تقدم إلى التمثال الملكى فى معبد ميام . وقد احيط النقش من الجانبين بالأشكال الإلهية لبتاح

---

(١) نقلت أحجار هذه المقبرة ليعاد بناؤها بجوار معبدى عمدا والدر فى منطقة عمدا .

وتحوت وآمون رع وموت وخنسو . وعلى الجدار الشمالى ، فى الصف الأعلى ، يقدم حاكم أثيوبيا الولاء لرمسيس السادس المتوج تحت المظلة ، ويخبره عن الهدايا التى قدمها بنوت . وبتسليم بنوت إناءين من الفضة ويبدو إنه كان على وشك ان يتسلم تمثالا من الفضة للملك كان الحاكم يفحصه . وتحت هذا المنظر يرى اجتماع شمل الاسرة . وعلى الحائط الخلفى شمالى الكوة ، يقف بنوت وتاخا بصحبة ابنائهما الستة أمام حور آختى المتوج وعلى الجانب الجنوبى يقف بنوت وتاخا أمام خبرى . وبعد ذلك يركع بنوت أمام حاتحور التى تظهر على شكل البقرة الخارجة من الجبل الغربى ، بينما تمسك الإلهة تاورت جعرانا فى يد وصولجانا فى اليد الاخرى وفى الصف الأسفل يقف بنوت وتاخا امام بتاح سوكر ، ويظهر حورا آختى متوجا ، بينما يقوم انوبيس وتحوت بتطهير بنوت ، كما يرى بنوت امام اوزوريس . وعلى الجدار الجنوبى فى الصف الأعلى ، يقف انوبيس بجانب سرير بنوت ، بينما تندبه ايزيس التى ترتدى لباسا ابيض ونفتيس التى ترتدى اللباس الأحمر . هذا ويقود حورس بنوت وتاخا إلى عرش اوزوريس . وعلى الصف الأسفل ترى حقول الفردوس وفيها بنوت وتاخا فى مركب فوق احدى القنوات يتعبدان لحور آختى وآتوم وخبرى ويحصدان فى الحقول السماوية . وعلى النصف الجنوبى من الحائط الغربى منظر وزن القلب وآخر جنازة بنوت ومومياؤه منتصبة أمام باب المقبرة والكهنة والأصدقاء يقدمون الشعائر الاخيرة بينما تبكى النساء الراحل .

وعلى الضفة الشرقية من النيل ، وفى مقابلة عنيبة وعلى مسافة قليلة إلى الجنوب منها ، تشرف قمم عالية من الصخر الصلد ، توج اوسطها بخرائب مدينة وقلعة قصر ابريم التى تشرف من هذا الموقع الرائع على الوادى لمسافة اميال فى جميع الاتجاهات وتكون احدى المعالم المثيرة . والقلعة من العصر الرومانى وكانت تسمى خلال الاحتلال الرومانى باسم بريمس بارفا وقد برز اسمها فى التاريخ اثناء التمرد الأثيوبى عندما هاجم الاثيوبيون تحت قيادة ملكتهم الملقبة كانداس فى ذلك الوقت المقاطعة الرومانية . ولعلنا نذكر ان بترونيوس هزم الملكة وجيشها الضخم فى الدكه ، ثم واصل انتصاراته باقتحام قصر ابريم حيث كانت تعسكر حامية اثيوبية . ومنذ ذلك الحين ورد ذكرها فى الحروب مرتين على الأقل . وفى اوائل القرن السادس عشر ترك السلطان سليم حامية مكونة من جنود من البوسنه فى القلعة القديمة ، وعلى ما ظهر اسدل عليهم النسيان اذ استمروا هم وخلفاؤهم يعيشون فى هذا المكان حتى القرن التاسع عشر عندما طرد المماليك المتقهقرون جنود البوسنة واستولوا على القلعة التى اخلاهم عنها اخيرا ابراهيم باشا ابن محمد على .

ويمكن الوصول إلى القلعة من الجهة الجنوبية الغربية بطريق قديم تتخلله فى مسافات متقطعة درجات منحوتة فى الصخر ، غير أن البوابة الوحيدة تقع فى الجانب الشمالى الشرقى حيث توجد بوابة مصرية غربية منحوتة فى الصخر ومتوجة بكورنيش مقعر وقرص الشمس

المجنح . ولا تزال جدران الجانبين الجنوبى والغربى قوية ، وكذا جدران الجانب الشرقى والأجزاء المتينة البنيان ، وهى من تاريخ أقدم ، وتضم فى عمارتها كتلا ضخمة يظهر أنها أخذت من مبنى أقدم قد يكون معبدا ، توجت بأحجار صغيرة رديئة الصنع من عصر متأخر . وبداخل الأسوار توجد المدينة البوسنية وهى عبارة عن مجموعة مشوشة من المنازل بنيت من كل أنواع الحجر من كتل كثيرة قديمة فضلا عن أجزاء من أعمدة حولت إلى أغراض جديدة . وهناك شوارع تتجه إلى نقطة واحدة فوق الفضاء بأعلى التل الذى كان مشغولا بكنيسة حولت فيما بعد إلى مسجد وهو مبنى بالحجر ولا تزال ثلاثة من جدرانه قائمة . ويوجد المذبح فى كوة دائرية فى الطرف الشمالى الشرقى ، كما توجد باكية من ثلاثة أقواس جيدة البناء . وفى الجانب الجنوبى الشرقى كانت فى الأصل باكية أخرى مشابهة تقابلها فى الجانب الآخر . وفى الركن الشمالى الغربى من القلعة خرائب قليلة من معبد مصرى غير مزخرف وخال من النقوش . وكان رجال الحامية وأسرهم يحصلون على الماء من النهر ، وقد قطعت درجات فى الجانب القائم الانحدار من التل لتسهيل عملية نقل الماء وتوجد عدة صهاريج مقطوعة فى الصخر لخزن كميات كبيرة من المياه .

وبأسفل القلعة فى واجهة الجبل ، على ارتفاع قليل من شاطىء النهر توجد خمس مقاصير ترجع إلى الأسرتين الثامنة عشر والتاسعة عشر والوصول إليها صعب ولكنها جديرة بالزيارة ، حيث أن بعضها يحمل مناظر طريفة كما أن السقوف تستحق الرؤية . وأول مقصورة هى الواقعة فى أقصى الجنوب وقد عملها «نحى» حاكم أثيوبيا أثناء حكم تحتمس الثالث . وترى خراطيش تحتمس على خارج الباب كما كتبت أيضا ألقاب «نحى» ولكنها الآن غير واضحة . وبداخل المقصورة يرى على الحائط الجنوبى الملك تحتمس ومن خلفه من آله فقط بينما توجد مناظر أخرى فى حالة مهشمة حاليا ونقش يضم ألقاب نحى مكررة بالإضافة إلى الاشارة إلى إحضار جزية الجنوب من الذهب والعاج والأبنوس فى السنة الثانية والخمسين من حكم الملك . وعلى الحائط الشمالى مناظر لعنقت وساتت آلهتى الشلال ، وحورس سيد كوبان وحاتحور ، وحورس سيد بوهن ، وحورس سيد عنيبة ، وآمون ويلاحظ أن اسم آمون قد نحى وأعيد ثانية ، وهى حقيقة تكشف لنا كيف كانت متواصلة ومتقنة عملية إزالة اسم آمون فى عصر إخناتون إلى حد تعقب اسمه الكريه فى مقصورة قليلة الأهمية فى أعماق النوبة وفى الحائط الخلفى للمقصورة ثلاثة تماثيل مشوهة يحتمل أنها كانت تمثل تحتمس جالسا بين ساتت وحورس .

والمقصورة الثانية تقدم لنا أيضا صديقنا القديم ستاو حاكم أثيوبيا أيام رمسيس الثانى . وكما كان رمسيس نفسه لا يفوت فرصة لاعلان مفاخره وأفضاله فإن موظفيه كانوا متأثرين بمثل هذا الشعور فى تخليد أعمالهم . وكما سبق أن شاهدنا فإن ستاو كان دائم المثابرة فى تخليد سيده وشخصه . والمناظر على جدران المقصورة عبارة عن إعلان عن ولاء ستاو

ومساعديه لفرعونهم الذى يرى متوجا إذ يرى الحاكم الطيب ، والكاتب حور محب ، وكاتب الفرق أمن أم أدبت ، والكاتب حور نخت ، والكاتب ياسر ، وكاتب الشون خرحيت بجانب آخرين لا تظهر أسماؤهم بوضوح ، يقدمون فروض الطاعة له ، وعلى الجدار الخلفى من المقصورة توجد أيضا ثلاثة تماثيل مشوهة تمثل رمسيس بين الهين .

والمقصورة الثالثة تكشف عن حالة أخرى لما يمكن أن تصل إليه حالة الحقد فى مصر القديمة ، ففى الأصل كانت توجد خراطيش كل من تحتمس الثالث وحتشبسوت ولا بد أنها كانت ترجع إلى الحكم المشترك لهذين الحاكمين ولكن خرطوش حتشبسوت قد أزيل وفى كل مرة حيثما وجد . وقد بذل تحتمس جهدا كبيرا للوصول إلى غرض صغير جدا ، ولم يكن لديه حتى عذر الحماس الدينى الذى قاد إخناتون إلى محو اسم آمون . وكانت التماثيل الأربعة القصيرة السمينة التى تشغل الحائط الخلفى - وهى الآن مطموسة المعالم تمثل تحتمس وحتشبسوت بصحبة حورس سيدعنيبة وساتت سيدة الفنتين ولا تزال المقصورة محتفظة بألوانها بصورة مرضية وبخاصة فى رسومات السقف .

أما المقصورة الرابعة فهى أهم المجموعة . وعلى الباب من الخارج خراطيش أمنوفيس الثانى . وبأسفل الأكتاف نقوش تشير إلى الابن الملكى أو سر ساتت «ويرى على الحائط الجنوبى من المقصورة أمنوفيس متوجا» ومن خلفه حامل المروحة ، وبجانبه ساتت سيدة الفنتين وأمامه موظفان يحملان مراوح وأقواساً كما يوجد نقش ممحى يشير إلى جزية الحيوانات التى ظهر بعضها على الحائط . وعلى الحائط الشمالى يرى أمنوفيس بصحبة حورس سيد بوهش فى حضرة ثالوت الشلال المكون من خنوم وساتت وعنقت بالإضافة إلى نخبيت وسويد وحاتحور سيدة الفنتين . وعلى الحائط الخلفى ، كالعادة ، ثلاثة تماثيل مهشمة تمثل أمنوفيس بين إله وإلهة . وعلى جانبى الكوة التى تضم التماثيل رسم ضاعت ألوانه لفرعون . أما المقصورة الخامسة فهى خالية من النحت .

ويضم الرأس الصخرى الثالث من مجموعة قصر أبريم ، وهو الواقع جنوبى القلعة ، لوحة كبيرة لسيتى الأول منحوتة فى واجهة ملساء ، وهى تقص علينا انتصاراته[1] . وقد تهشم الجزء الأعلى من اللوحة ، ولم يبق غير الجزء الأسفل من المنظر الذى يمثل سيتى وبجانبه تقف عربته الحربية ، يذبح أسيرا فى حضرة أحد الآلهة . وأسفل المنظر اثنا عشر صفا افقيا وثلاثة صفوف رأسية من النقوش مع صورة صغيرة لمن أم أوبت نائب سيتى فى اثيوبيا . هذا وتوجد بالقرب من اللوحة مناظر من العصر القديم لفيلة وزراف وحيوانات أخرى .

---

(١) قطعت أجزاء مختارة من المقاطعة - كما قطعت لوجه سيتى توطئة لإعادة بنائها بجوار معبد كلابشه أو السبوع .

والوصول إلى لوحة سيتى لا يكون من الجنوب حيث أنه يوجد طريق جيد من الشمال وهو أيضا أسهل جانب للوصول إليها بعد زيارة قصر أبريم .

وعلى مسافة ثمانية أميال تقريبا جنوب قصر أبريم ، وإلى الجانب الجنوبى الغربى من أحد التلين اللذين يرتفعان فوق هضبة صخرية شاهقة توجد سلسلة صخور داخلة فى البحر قطعت خلفها واجهة الصخر بشكل أملس حيث نحت ولون منظر صغير للملك سنوسرت الثالث وهو يذبح زنجيا ، ويشتهر سنوسرت الثالث فى التاريخ المصرى بأنه الفرعون الذى أرسى قواعد النفوذ المصرية فى أثيوبيا بعد فترة من الزمان كان فيه الزنوج على ما يظهر مصدر قلق لمصر وعلى ذلك فقد عبد ، وبخاصة فى منطقة كوش المصرية ، كإله محلى ، ولكن من المحتمل أن هذا المنظر كان نموذجا أصيلا لعمل معاصر ، ولم يكن حالة لاحقة لعبادته ولا تزال المناظر تحتفظ ببعض ألوانها الأصلية . ومن المحتمل أنه بسبب وجود نقش من عصر الأسرة الثانية عشرة ، نحت منظر أيام الأسرة الثامنة عشرة على الصخرة المجاورة يضم عددا من الصور والنقوش وتمثل الشخوص الآلهية فى نهاية المنظر حورس سيد عنيبه ، وسنوسرت الثالث ورشب وهو إله حرب من أصل سورى . ويلبس سنوسرت تاج مصر العليا ويحمل لقب «الملك القوى ، يحيا إلى الأبد» ويلبس حورس التاج المزدوج ويمسك بالصولجان الآلهى ، أما رشب فيلبس تاج مصر العليا ويلوح بدرع ودبوس . ويقف أمام هذا الثالوث خمسة شخوص آدمية . فأولا يجىء رجل يقدم القربان للثالوث ويدعى نبسى وتتبعه زوجته «ثاباو» والشخص الثالث هو ابن الزوجين الأولين ، ويشغل وظيفة «صياد الملك» ويحمل قوسه وسهامه ، ويمسك غزالا صاده ليقدمه كقربان . ويتبعه ابن آخر لنبسى ويشغل وظيفة «حارس ماشية حورس ، سيد ميام» واسمه سنوفر ويتبعه شخص آخر وصف بأنه«تابع الملك وحارس الأبواق الملكية» ويحمل عصوين للرماية[1] وتحت هذه المجموعة من الصور نحت يمثل الكبش المقدس يلبس قرصا بين قرنين ، ويتناول غذاءه من مذبح ، وكذا نقش مقدم لآلهة النوبة السفلى . والعمل متقن جدا ، ولا بد أن نبسى كان قادرا على أن يستغل خدمات نحات يتسم بمهارة لا يمكن توقع وجودها فى مثل هذه البقعة النائية ولكن المنظر كله مثل صادق للتدين المحلى ومن هنا اكتسب أهميته .

وعلى بعد ميل تقريبا من هذا الموقع توجد عدة نقوش ورسوم أخرى بعضها من تاريخ قديم جدا تصور زنجيا يحمل قوسه وسهامه وقوارب مختلفة وحيوانات ، كما يرى نقش متأخر يضم ألقاب الملكين المجهولين كاكارع وسا ان رع .

وخلف قرية توشكا ثلاث مقابر صخرية مقطوعة فى رابية صخرية منعزلة[2] وهى فى

---

(١) قطعت أجزاء هذه النقوش الهامة توطئة لإعادة تركيبها فى مكان بعيد عن مياه التخزين .
(٢) عن الآثار الواقعة بين عنيبه وأبى سمبل كتب نحو ٤٠ بحثا وأهم الآثار المكتشفة مقبره .
أنظر كتاب كريستوف المنوه عنه صفحات ٩٥ - ٩٨ .

حالة مخربة بحيث لم تعد ذات أهمية خاصة ، رغم أنه توجد آثار تدل على أنها قد كسيت بالملاط تمهيدا للرسم عليه . ولا ترى بها أعمال نحت أو نقش من أى نوع وقد كشف يونكر عام ١٩١١ - ١٢ جبانة نوبية من عصر الدولة الوسطى بالقرب من القرية ، كما تكشف عن جزء من جبانة مسيحية شاسعة وكانت توشكا اسما معروفا لفترة قصيرة خلال المراحل الأولى للصراع مع الخليفة عندما تقدم واد النجومى قائد الخليفة فى دنقلة شمالا فى محاولة لغزو مصر . وقد التحمت القوات المصرية التى كانت تحت إمرة السير فرانسيس جرينفيل والضباط البريطانيين بجيشه ودمرته على الجانب الغربى من النهر على مسافة سبعة أميال تقريبا من القرية .

وعلى مسافة تتراوح بين ثلاثة وأربعة أميال جنوبى توشكا وبين هذه القرية وأرمنا كشف السيد/وايجول نقشا يرجع إلى تاريخ الحرب ضد الهكسوس ، وهو يلقى ضوءا على هذا الصراع . يختلف بعض الشىء عن نظرتنا المألوفة عنه ويقرأ النقش : «ملك مصر العليا والسفلى ودج خبر رع ابن الشمس ، كاموزا ، معطى الحياة . ملك مصر العليا والسفلى نب بحتى رع ، ابن الشمس . . تينى ، الابن الملكى . . وقد نفهم وجود أحمس هنا ولكن واحدة من شكاوى كاموزا كتبت على لوحة تعرف بلوحة كارنافون تذكر : «يوجد أمير فى افاريس وآخر فى كوش ، بينما أنا أجلس بين أسيوى وزنجى» ويتبين من النقش النوبى أن الأحوال لم تكن بالسوء الذى ذكره كاموزا أو أنه نجح فى ازاحة الزنجى عن كرسيه فهذا النقش يعنى أن حملته قد وصلت إلى نقطة لا تقل كثيرا عن حدود سنوسرت الثالث .

ومن هذه النقطة ، ولمسافة بضعة أميال لا يوجد شىء ذو أهمية كبيرة يستحق الملاحظة إلى أن نصل على مسافة ١٦٦ ميلا جنوبى خزان أسوان إلى المعبدين اللذين يعتبران أعظم مخلفات السيطرة المصرية على النوبة والحافز الوحيد غالبا للكثيرين على مواصلة رحلتهم بعد فيلة ونعنى بهما معبدى أبى سمبل الصخريين .

الفصل الأربعون
أبو سمبل

قطع معبدا أبى سمبل الصخريان فى واجهة ربوتين من الحجر الرملى تشرفان على النهر عند نقطة تبعدبنحو ١٦٦ ميلاً جنوبى خزان أسوان ويعتبر أكبر هذين المعبدين أعظم وأجمل عمل من نوعه قام به مهندس مصرى ويفصل أحدهما عن الآخر واد ضيق يتدفق فيه سيل دائم من الرمل ولما رآهما بلزونى لأول مرة ، كان المعبد الكبير مدفوناً فى الرمال بحيث لم يكن يظهر منه غير رأس أحد التماثيل الضخمة فوق الرمال الساقية التى غطت الباب والواجهة بأعلاه بحيث كان تمثال حور آختى بأعلى الباب مدفوناً حتى الرقبة (حكايات ، صفحات ٧٩ , ٨٠)[١] وفى زيارته الثانية عام ١٨١٧ ، وفق المكتشف الكبير فى تنظيف واجهة المعبد بدرجة كافية تسمح بدخوله إلى الحجرات ، وبذا كان أول الأوروبيين ممن نفذوا إلى المعبد ، ذلك أن بور خاردت الذى كان أول من لفت النظر إليه بعد زيارته له عام ١٨١٢ لم يستطع أن يرى أكثر مما رآه بلزونى فى زيارته الأولى (حكايات ، صفحات ٢٠٣ - ١٣) ومنذ أيام بلزونى تكرر تنظيف المعبد بدرجة تكاد تكون تامة على يد لبسيوس عندما قام على رأس بعثة كبيرة فى ١٨٤٢ - ٤٥ ، وماريت فى ١٨٦٩ وأخيراً بارسانتى فى ١٩١٠ (المعابد المغرقة ، صفحات ١٣٧ - ٧٠)[٢] وقد كانت أعمال التنظيف الأخيرة أكملها ، ومما أسفرت عنه من

---

(١) — Belzoni , Narrative , pp . 79 , 80 .

(٢) — Barsanti , Les Temples Immeres , pp . 137 — 70 .

نتائج كشف مقصورة فى الجانب الشمالى من الواجهة . وقد قام بارسانتى بحماية المعبد مما كان يهدده مرة أخرى من سيل الرمال التى لاتهدأ وذلك بأن بنى أسواراً فوق الهضبة المرتفعة التى يتدفق منها سيل الرمال وذلك لصد وإبعاد التيار الجارف من الرمال ولكن يخشى أن تكون الحرب التى يشنها الإنسان هنا ضد الطبيعة - كما فى أى مكان آخر حرباً خاسرة فى النهاية وأن المعبد الكبير سوف يدفن أخيرا لكن نهاية مصيره لن تجىء إلا إذا توقف الانسان عن تقييم أحد الأعمال العظيمة فى الماضى الجديرة بالحماية والصيانة[1] .

ولم يتخير رمسيس الثانى ، المسئول عن هذين المعبدين ، هذا الموقع لإقامتهما لمجرد وجود واجهات صخرية ملائمة ، لقد كانت المنطقة المجاورة مقدسة منذ خمسة قرون على الأقل قبل أن يفكر فى مشروعه العظيم . ويؤيد ذلك وجود نقوش من أواخر الدولة الوسطى . ومن المحتمل أن صفتها المقدسة ترجع إلى عصر أقدم ، يحتمل أنه عصر الدولة القديمة[2] وقد كانت معبودة هذه المنطقة هى معبودة السلالة الغربية الشهيرة التى كانت تدعى هنا «حاتحور سيدة أبشك» ولما لم يكرس المعبد الكبير لها بل لآمون رع رب طيبة ولحور آختى بصفة خاصة ، فإن المعبد القريب منه قد كرس لتكريمها فقط .

وكلا المعبدين من عمل رمسيس الثانى . ويمكن القول إنه إذا كان قد ترك على الدوام بصماته على أعمال عظيمة ورائعة مثل تلك الموجودة فى أبى سمبل ، لكانت شهرته اليوم أعظم بحيث تتناسب مع أطماعه . وبداخل المعبد نقش مؤرخ فى السنة الخامسة والثلاثين من حكمه الطويل ، ولابد أن المعبد كان حينذاك فى حالة تكاد تكون تامة وعليه يمكن إرجاعه إلى ١٢٥٧ق .م تقريباً وبعد خمسين عاماً ، فى حكم سيتى الثانى ، نجد أن الطبيعة قد بدأت فعلا حربها الطويلة ضد هذا الأثر الذى يمثل الكبرياء الانسانى ، فقد قام هذا الملك بترميم أول التمثالين إلى الشمال من الباب وكانت تظهر عليه بوادر التداعى . ولا يمكن تحديد الوقت الذى سقط فيه الجزء الأعلى من التمثال المقابل الواقع إلى الجنوب ويحمل الساق الأيسر من هذا التمثال المشوه النقش اليونانى المعروف الذى كان الإسهام

---

(١) كان من الأعمال العظيمة التى تضافرت فيها جهود الكثير من الدول للقيام بها إنقاذ معبدى أبى سمبل وقد قامت مشروعات مختلفة لنقل المعبدين اللذين كانا مهددين بالغرق إلى مكان فوق منسوب مياه التخزين - واستقر الرأى أخيراً على قطع أجزاء المعبدين إلى كتل تزن حوالى ١٥ طنا لنقلها على قمة الجبل الذى نحت فيه منذ ٣٢ قرناً من الزمان - على أن تنقل هذه الكتل إلى السطح الذى يعلو حوالى ستين مترا - وأمكن إعادة بنائها بالشكل الذى كانا عليه وعمل فوقهما قبة متسعة ثم غطيت هذه القبة بالرمال والأحجار ليعطيا للمعبدين نفس المظهر الذى كانا عليه - ولقد قامت بعض الشركات وأهمها شركة خوختيف الألمانية بهذا العمل على أحسن وجه - كما نقلت عشرات اللوح الصخرية المحيطة بالمعبدين .

(٢) وصلت هناك بعض نقوش من ضمنها نقش لموظف من الأسرة السادسة الدولة القديمة .

الثانى فى تاريخ هذا المعبد العظيم[1] وقد كتب هذا فى عهد بسماتيك الثانى من الأسرة السادسة والعشرين (حوالى ٥٩٣ - ٥٨٨ق .م) ويجرى كالآتى : «عندما حضر الملك بسماتيك إلى الفنتين ، هكذا كتب الذين صحبوا بسماتيك بن ثيوكليس ، وواصلوا التقدم مارين بسيرس إلى المدى الذى سمح به النهر وكان ويناسمتو قائداً للأجانب وأحمس (أماسيس) قائداً للمصريين . كتب هذا أرجون بن أمونيخوس ويليكوس بن أودامس» وبعد مضى حوالى ٢٥٠٠ عام مرت بهذا الطريق حملة عسكرية أخرى يقودها وينتظم فيها أجانب مثل الحملة السابقة وتركت لوحتها التذكارية عن معركة توشكا الانجليزية والغربية لتكون مصاحبة لنص أرمون ويليكوس ومن حسن الحظ أن الكتاب المحدثين كانوا يتمتعون بذوق أفضل ممن سبقوهم فلم يخطوا بيانهم على التماثيل التى احتملت طويلا بل نقشوه على لوحة من الرخام تبثت على الصخر أمام المقصورة الصغيرة التى كشفت فى ١٨٧٤[2] ومع ذلك فمن العسير أن نرى صلاحية وضع لوحة تذكارية عن معركة حديثة يمكن "تول عنها دون حرج بأنها لاتذكر بجانب سجل انتصارات رمسيس الذى يرجع تاريخه إلى ثلاثة آلاف سنة . وربما لم تكن معاركه محكمة مثل معركة توشكا ولكنه نجح فى جعلها أكثر إثارة بحيث تصبح المقارنات غير عادلة .

وقد قام بارسانتى باعداد طريق متقن للوصول إلى المعبد من النهر لم يراع فيه تماما ملاءمته مع الآثار الواقعة خلفه ، ولكن اعتبارات الصيانة يجب أن تجىء فى المقدمة ، فقد كسا الجسر المنحدر بالحجر كما أقام درجاً يصعد إلى الساحة الأمامية الواقعة أمام واجهة المعبد المحاطة من الجهتين الشمالية والجنوبية بأسوار قديمة من اللبن رممت فى السنوات الأخيرة ، وينفذ فى الجدار الطويل الواقع إلى الشمال بالقرب من النهر بوابة من الحجر من عهد رمسيس[3] .

ويقوم خلف الفناء واجهة المعبد التى تعتبر من أروع الأعمال فى ذاتها ، وفى ارتباطها العجيب ببيئتها التى كان على العمارة المصرية أن تبرزها . وأمام الواجهة شرفة يرقى إليها بواسطة درج قديم يتوسطه طريق منحدر . وعند زاويتى السلالم الأولى لهذا الدرج كوتان صغيرتان ربما استعملتا لأغراض التطهير وعليها نقوش ومناظر ، فعلى الكوة إلى اليمين منظر

---

(١) اتضح أن الملك الذى قام بهذا الترميم الملك امن مسى ـ وهو الذى اغتصب الملك من سيتى الثانى فلما مات محى هذا الملك الأخر اسم سيتى من كل مكان وجد فيه ونقش اسمه بدله .

(٢) نقلت اللوحة والمقابر إلى أسوان قبل المدينة الحديثة .

(٣) كتبت عن معابد ونقوش أبى سمبل حوالى خمسة وثلاثين بحثا سردها كريستوف فى كتابه سالف الذكر فضلا عن بعض الكتب التى نشرت عن كيفية إنقاذ هذين المعبدين ورفعهما للموضع الحالى نذكر منها على الأخص كتاب .Concluding Engineers and Architects —

— The salvage of the Abu simbe Temples , (1970) .

لرمسيس يقدم البخور والزهور إلى آمون رع وحور آختى بينما يرى على الأخرى إلى اليسار منظر للملك يقدم لأمون وبتاح وسخمت ولواجهة الشرفة كورنيش مقعر وقد زينت بصفوف من الأسرى كما توجت بدرابزين يقوم خلفه صف من الصقور وتماثيل للملك على هيئة أوزوريس وخلاف ذلك . وقد شغلت مقدمة القسم من الشرفة ببقايا الجزء الأعلى من التمثال الذى تحطم نتيجة لسقوطه لدرجة أن بارسانتى لم يحاول إعادته إلى موضعه الأصلى فى عام ١٩١٠ خشية أن يتفتت إلى ذرات من الرمل أثناء العملية .

ويبلغ عرض الواجهة الفعلية للمعبد ١١٩ قدماً بارتفاع يزيد على ١٠٠ قدم . ومعظم هذا الحيز مشغول طبعاً بالتماثيل الأربعة الضخمة ، وهى مثل باقى المعبد منحوتة فى الصخر الحى بارتفاع يزيد على ٦٥ قدماً وبهذا فهى من نفس حجم تمثالى ممنون لأمنوفيس الثالث فى طيبة فارتفاعهما الأصلى فى مثل ارتفاعها . والمقارنات فى الأوجه الأخرى مستحيلة حيث أن تمثالى ممنون قد تعرضا للتقلبات الجوية وعوامل أخرى أكثر مما تعرضت له تماثيل أبى سمبل . ويبلغ مقاس تماثيل أبى سمبل من الكتف إلى المرفق ١٥ ١/٢ قدم أى نفس مقاس تمثالى ممنون ، و٢٥ قدماً ما بين الكتفين أى بزيادة ٥ أقدام عن تمثالى ممنون ، أما الأذن فمقاسها ٣ ١/٢ قدم أى نفس مقاس أذن التمثال المحطم لرمسيس فى الرمسيوم .

وقد انقسمت الآراء فيما يختص بالقيمة الفنية لهذه التماثيل ، فقد كان النقد القديم بالطبع واقعا تحت التأثير العام للأثر لم يتناول التفاصيل ، وكان التقييم الذى أعطى لنوعية التماثيل أكبر بكثير مما هو الآن . وبالفعل لم يتردد بعض النقاد المحدثين فى التحدث عن «فظاعة أبى سمبل وشناعة أبى سمبل» (هول ، التاريخ القديم للشرق الأدنى صفحة ١٦٣)[١] . وبهذا نحكم على التماثيل حكما قاسيا ، ناسين حقيقتين عن تكوينها ، فى المقام الأول كانت المادة التى نتحدث فيها تعوق إمكانية الحصول على الدقة فى التقدير ، ولم يكن فى الامكان أكثر من معالجة جريئة ومختصرة فى الحجر الرملى الخشن . وفى إطار هذه الحدود كان على النحات أن ينقل على الأقل ، بالإضافة إلى ما يوحى به الوجه الملكى ، انطباعا على جانب كبير من الاعتبار ربما كان الشىء الأساسى الذى يهدف إليه . ولم يخطىء السير فلنرز بترى فى حماسه ولكنه ربما كان أقرب إلى الحقيقة من الانتقاص الزائد الذى أصبح شائعاً حديثاً «لقد عولج الوجه بشكل مرض بقدر ما يمكن فى مثل هذه المادة» فنون وحرف مصر القديمة ، ص ٢٨)[٢] . كذلك يجب أن نتذكر أن هذه المجموعات الضخمة من التماثيل الملكية التى كان يقصد منها أن يجلس إلى الأبد أمام المعابد الكبيرة ، لم تكن تعتبر بمثابة صور

---

(١) — Hall , Ancient History of the Near East, p . 163

(٢) — Petrie , Arts and Crafts of Ancient Egypt , p . 28 .

شخصية للملك بالمعنى الدقيق بقدر ما كانت أجزاء من مشروع معمارى . ومن الغباء أن ينظر إليها نظرات تمحيص فى التصور أو التنفيذ . فإذا كانت قد ملأت بشكل مناسب مكانها فى الشكل العام لواجهة المعبد ، ونقلت إلى الناظر وقع البأس والمركز الطاغى للفرعون الذى أمر بعملها ، فإنها بذلك تكون قد أرضت كلا من الفنان والملك . وإن استطاعة تماثيل أبى سمبل ، رغم عيوبها وفجاجتها التى لا شك فيها ، نقل مثل هذا الوقع لم يكن قط موضع شك فى أى وقت . وعلى ذلك فلنا الحق أن نعتبرها أنها قد أوفت بالغرض الذى أقيمت من أجله بل أكثر من ذلك وليس هنا ما يدعو إلى التساؤ ل . وعندما يستنفد النقد طاقته فيما يختص بعيوبها تبقى الحقيقة فى أن هذه التماثيل الماردة الأربعة ، التى تطل كما كانت تطل منذ أكثر من ثلاثة الآف سنة على النهر المشرق والأجـ ال العابرة من الناس ، وهى واحدة من أكثر المناظر إثارة بين كل عجائب وادى النيل .

وتبرز ظهور التماثيل من الواجهة الصخرية التى تعلو ٢٠ قدما أو أكثر فوق قمة التاج المزدوج لرأس التمثال الأول ، وهى تنتهى من أعلى بكورنيش مقعر يحمل خراطيش رمسيس محاطة بالحيات وصور آمون وحور آختى وتحت هذا نص يختص بالتقديم لنفس الآلهة . وفوق الكورنيش صف من القرود المقدسة لدى الشمس المشرقة ، تجلس على طول الجزء الأعلى من المعبد تؤدى عملها كراصدة للشروق . وبين التمثالين الواقعين إلى الشمال والآخرين إلى الجنوب تنفتح البوابة العظيمة للمعبد ، وتوجد حول وفوق البوابة الخراطيش الملكية وصور آلهة مختلفة ومناظر لرمسيس يرقص أمام آمون وموت وأمام حور آختى وزوجته «ورت - حكاو» الممثلة برأس أسد وفى اعلى البوابة فجوة تضم امتزاجا عجيباً من التقوى والكبرياء ، فالتمثال الذى يتحكم فى الفجوة هو تمثال رع حور آختى الممثل برأس صقر والمتوج بقرص الشمس ، ولكن على أحد جانبيه الصولجان أوسر برأس ابن آوى ، وعلى الجانب الآخر رمز ماعت ، فإذا أخذ نازع حور آختى كممثل لرع تصبح المجموعة الكلية عندئذ تمثيلا للاسم الشخصى لرمسيس ونعنى به أوسر - باعت - رع ورمسيس هو بالتأكيد الملك الوحيد الذى يستطيع أن يجعل تقواه وكبرياءه يسيران معا بهذا الاسلوب . وعلى جانبى الفجوة مناظر للملك يقدم للتمثال الممثل لغروره المحكم .

وتوجد حول وبين سيقان التماثيل كالعادة أفراد الأسرة المالكة فعند التمثال الأول (أقصى الجنوب) تماثيل الأميرة بنت - تاوى ، والأميرة بنت - عنت ، وأميرة غير معروفة . وعند الثانى تماثيل الملكة توى أم الملك وزوجة الملك نفرتارى وابنه الأمير أمون (حر) خبشف . وعند الثالث الملكة نفرتارى مرتين والأمير رمسيس . وعلى جوانب عرش التمثالين المتوسطين القريبين من البوابة مناظر آلهة النيل تطوق شعارى مصر السفلى والعليا (البردى واللوتس) حول رمز الوحدة ، بينما يظهر خرطوش رمسيس فوق الرمز . وباسفل تمثيل للاسرى الزنوج (الجنوب) والاسيويين (الشمال) .

ويكون النص الاغريقى لارجون وبليكوس الذى سبق الاشارة إليه واحدا من عدة نقوش مسجلة على التمثالين الجنوبيين . ويمكن ترك المعالم الاضافية خارج المعبد التى تضم المقصورتين والشواهد لاعتبارات خاصة حتى ننتهى من وصف المعبد من الداخل .

وإذا اجتزنا البوابة الكبيرة نجد أنفسنا فى صالة الأعمدة وعرض هذه الصالة ٥٤ قدما بعمق ٥٨ قدما ويفصل صحنها عن جناحيها صفان من التماثيل الاوزورية التى تمثل الملك . وفى النصف الشمالى يلبس التاج المزدوج ، بينما يلبس فى الصف الجنوبى التاج الأبيض لمصر العليا . ويبلغ ارتفاع هذه التماثيل حوالى ٣٠ قدما ، وهى فى حالة رائعة من الحفظ وتكاد تكون وجوه ثلاثة من تماثيل الصف الشمالى فى حالة تامة وبخاصة التمثالان الأول والرابع . ولا شك أن التأثير الذى تحدثه هذه التماثيل الضخمة فى المساحة المحدودة نسبيا للصالة تأثير قوى ، وهى تستحق التقدير الكبير من حيث التنفيذ . ورسوم سقف الصحن التى تمثل العقبان ذات الأجنحة المنشورة فى حالة جيدة ومدهشة جداً . أما رسوم سقف الجناحين فهى تمثل النجوم . وعلى الأعمدة خلف التماثيل مناظر للملك أمام آلهة متعددة آمون رع ، حور آختى ، بتاح ، حورس ، أتوم ، نحوت ، مين ، خنوم والهتى الشلال المتصلتين به ونعنى بها ساتت وعنقت ، حاتحور ربة ابشك ، ايزيس ومعبودات أخرى .

ومناظر الجدران ذات أهمية وحيوية كبيرتين ونبدأ بجدار المدخل على جانبى البوابة فنجد على الجانب الشمالى (إلى اليمين) رمسيس يضرب أمام حور آختى الذى يسلمه السيف المقوس رمز الملكية المصرية وفوق الملك تحوم العقاب نخبيت وخلفه رمز قرينته (الكا) . وتحت هذا تسع من بناته العديدات يحملن الصلاصيل . وفى الركن أسفل المناظر نص قصير يذكر أن هذا المنظر «عمله نحات رمسيس ، محبوب رع ، المدعو بياى بن خع نفر» وهذا مثل آخر يرينا ما يخصص من مساحة صغيرة للوقائع المعتادة فيما يخص الاغفال العام للفنانين المصريين . وعلى الجانب الجنوبى (إلى اليسار) من البوابة يضرب رمسيس الأسرة أمام أمون رع ، وتحته ثمانية من أبنائه الكثيرين .

والآن نعود إلى الجدار الشمالى المزين بسلسلة من المناظر التى سبق أن تعرفنا عليها تقريباً فى أبيدوس والاقصر والرمسيوم ، فهى تمثل أول مسيرة الجيش المصرى تحت أمر رمسيس إلى قاديش حيث وقعت المعركة المتعادلة التى عاش رمسيس على ذكراها بقية عمره المديد ، وبعد ذلك نشاهد بين الأبواب المؤدية إلى الحجرتين الأولى والثانية الجانبيتين منظر نصب الخيم المصرى بسورة الواقى ، والجنود وهم فى حالة استرخاء والجياد وهى تطعم ، والمظاهر العامة بالأمان ، وتحت ذلك منظر يهيىء لنا المفاجأة التى وثبت فوراً على المصريين ، فالجاسوسان يجلدان ، وقد أبانت الشهادة التى اعترفا بها لرمسيس أنه على شفا كارثة حيث

أن العدو الذى ظن أنه فى حلب يعسكر فى كمين خلف قادش وأنه على وشك الانقضاض عليه . وفى منظر آخر يرى مجلس الحرس الذى دعى على عجل ، ثم يأتى الالتحام بين القوتين فيظهر رمسيس فوق عجلته الحربية منقضا على العدو الذى كانت عجلاته تطوقه . وترى أيضا مدينة قادش وشرفاتها والنهر الذى يحيط بها والحيثيون وهم يتقهقرون ورجال الحامية يرقبون سير المعركة من الشرفات كما يرى انقضاض رمسيس فى الصف الأعلى . وبعد ذلك نرى رمسيس مع ضباطه وهم يحصون أمامه أكواما من أيدى القتلى ، ويسوقون إليه الأسرى .

وبعد ذلك نصل إلى الجدار الخلفى (الغربى) وهنا نرى فى الطرف الشمالى (اليمين) من الجدار الملك وهو يقود الأسرى إلى حور آختى ، وأورت حكاو ، وشخصه المؤله ، بينما يرى - بعد الباب الذى يؤدى إلى الحجرة التالية - وهو يقود شرذمة أخرى إلى أمون وشخصه المؤله وموت . وتمثل المجموعة الشمالية الأسرى الحيثيين ، والجنوبية الزنوج . وعلى جانبى الباب فى الجدار الخلفى يرى رمسيس أمام بتاح وحور آختى وآمون ومين بينما يظهر فوق الباب وهو يرقص أمام حور آختى واورت - حكاو .

وإذا تركنا الجدار الخلفى إلى الجدار الجنوبى نلاحظ بين التمثالين الثالث والرابع فى الجانب الجنوبى لوحة مؤرخة فى السنة الخامسة والثلاثين من حكم الملك ، وتقص بالتفصيل كيف أقام رمسيس معبداً فى منف لبتاح وقدم الهدايا له . والصف الأعلى من الجدار القبلى مشغول بمناظر من النوع الدينى الشكلى تظهر رمسيس فى حضرة الإله مرمتيف الممثل برأس كبش والإلهة ورث - حكاو الممثلة برأس أسد ، ويقدم الهدايا من القمح لآمون ويحرق البخور أمام بتاح ، هذا وتقوم سشات بتسجيل سنى عمره بينما يركع تحت الشجرة المقدسة بصحبة تحوت وحور آختى ، وأخيراً وهو يتعبد أمام آمون الذى تبرز من عرشه حية كبيرة والصف الأسفل أكثر إثارة إذ يحوى ثلاثة مناظر للمعركة حيث يصوب الملك - وهو واقف فى عجلته الحربية - سهامه نحو قلعة مقامة فوق تل ، ويرى بعض القتلى من رجال الحامية يتساقطون من الأسوار ، وآخرون يتوسلون طلباً للرحمة ، بينما يسوق أحد الرعاة ماشيته إلى مخبأ يحتمى فيه . ويرى ثلاثة من أبناء رمسيس آمون (حر) خيشف ورمسيس وبرا - حر - ونامف يتبعون والدهم فى عجلاتهم . ويوجد نقش يمتدح شجاعة وبأس الملك ، ويصفه وهو يقهر العصاة فوق تلالهم وفى وديانهم . وفى المنظر التالى يرى الملك وهو يطأ بقدميه أحد الأعداء ويطعن آخر برمحه ، ويحكى النص الخاص بهذا المنظر كيف خرب إقليم الأقواس التسع ، ودمر الأراضى الشمالية ، وأجبر الزنوج على الرحيل إلى الشمال ورجال الشمال إلى النوبة . وكيف أحضر للمعبد الغنائم من سوريا والرتنو وأخيراً منظر رمسيس وهو يدخل منتصراً على عجلته الحربية ويجانبه أسده الأليف ،

بينما يقود أحد الضباط صفين من الأسرى إليه ، ويمثل الصف الأعلى أسرى من الزنوج الأصليين ، بينما يمثل الصف الأسفل نوبيين من ذوى البشرة الأقل سواداً من الزنوج . وتذكر الكتابات على الأعتاب أن رمسيس أقام هذا المعبد من أجل والده حور آختى ، السيد الكبير لتاركنس «ومن أجل والده آمون رع سيد الآلهة» .

وفى الجدار الشمالى (إلى اليمين) بابان ينفتحان على حجرتين جانبيتين وفى الحجرة الأولى نرى الجدار الغربى فقط مزيناً بالمناظر المعتادة التى تصور الملك أمام معبودات مختلفة ، أما الحجرة الثانية فجميع جدرانها مزخرفة تماماً بمناظر متشابهة تبعث على الملل . وفى الجدار الخلفى ثلاثة أبواب يؤدى الأوسط منها إلى صالة أعمدة أخرى أصغر من الأولى . ويؤدى البابان الجانبيان إلى مجموعتين كل منهما يضم ثلاث حجرات ، وقد زينت جدران الحجرات الست بكثير من المناظر الدينية المتقنة التى لا تختلف عن النمط العادى بدرجة كافية تجعلنا نهتم بوصفها إلا أنه يمكننا أن نلحظ ثانية - ما سبق ملاحظته هنا وفى أى مكان آخر فى أعمال رمسيس - التخيل الغريب الذى يظهر به رمسيس الملك أى «الاله الطيب» باستمرار فى حضرة رمسيس الإله الذى يشارك على قدم المساواة «الآلهة العظام» . وهذا يشبه ما يقال عن سياسى يتولى منصبى رئيس وزراء ووزير خارجية حين يكتب خطابات من شخصه كوزير خارجية إلى شخصه كرئيس للوزراء .

وصالة الأعمدة الثانية التى ندخلها الآن ذات أحجام أقل من تلك التى تركناها تواً ، فهى بعرض ٣٦ قدماً وعمق ٢٣ قدماً وبها أربعة أعمدة مربعة ذات مناظر تصور الملك فى حضرة الآلهة أو وهى تحتضنه . وعلى حائط المدخل رمسيس يقدم للإله مين - آمون وشخصه وإيزيس (الجانب الشمالى من الباب) وللإله آمون وشخصه وموت (الجانب الجنوبى من الباب) . وعلى الحائط الشمالى يمثل بصحبة الملكة نفرتارى يقدم للمركب المقدس المحصول على أكتاف الكهنة . وعلى الجدار الجنوبى هو ونفرتارى ثانية يقدمان للمركب المقدس . وعلى الجدار الغربى (الخلفى) يرى أمام حور آختى (الطرف الشمالى) ويتعبد لآمون رع (الطرف الجنوبى) . وعلى كتفى الباب المؤدى إلى الحجرة التالية وعلى سمكى الباب وعلى العتب مناظر دينية متشابهة .

والآن ندخل الحجرة المستعرضة التى نسبق الهيكل ، ومناظرها ليست إلا تنوعاً آخر من الموضوع اللانهائى للملك فى حضرة الآلهة ، وهى بذلك لا تستحق الوصف . وتنفتح ثلاثة أبواب فى جدارها الخلفى ، يؤدى اثنان منها إلى حجرتين صغيرتين خاليتين من الزخرف أما الباب الأوسط فيؤدى إلى قدس الأقداس ، ولا تزال هذه الحجرة تضم القاعدة المكسورة للمركب المقدسة فى وسط الأرضية . وفى الحائط الخلفى الكوة التى تضم أربعة تماثيل

مقدسة جالسة لبتاح وآمون ورمسيس نفسه وحور آختى ، وهى ليست قطعاً فنية ولكن عند الشروق عندما يضربها شعاع النور تصبح هذه التماثيل مؤثرة وممتلئة قوة ولا أحد يشاهد إقبال هذا الشعاع من الضوء يشك أنه نتيجة محسوبة ، وأن الحفر كان موجهاً لزاوية واحدة خاصة للوصول إلى ذلك (مس إدواردز ، ألف ميل فوق النيل ص ٣٠٤ ، طبعة ١٨٩٩) .

ويبلغ طول المعبد الكبير ١٨٠ قدماً من عتبة البوابة الأولى حتى الحائط الخلفى من قدس الأقداس ، وهذا بالطبع مقطوع كله فى الصخر الحى .

والآن نعود إلى خارج المعبد الكبير لنرى الآثار الخارجية التى لم تذكر بعد ، فعلى الجدار الصخرى من الجهة اليسرى من الشرفة لوحة تمثل رمسيس جالساً تحت مظلة بين الهين ، بينما يتعبد إليه ملك الحيثيين وابنته وتحت ذلك نص زواج الملك بالأميرة الحيثية . ويمكننا أن نخمن أن حادثة التعبد لم تكن موجودة إلا فى خيال الملك المصرى . وعلى الجانب الغربى (الخلفى) من الفجوة الواقعة بين التمثال فى أقصى الجنوب وبين الصخر لوحة أخرى تتوجها الحيات ، وعليها منظر لرمسيس فى حضرة آمون وحور آختى ومن تحته نقش طويل شاعرى . وعلى الجانب من هذه الفجوة توجد المقبرة المنفردة للميجر «تدزول» الذى لقى حتفه أثناء حملة النيل عام ١٨٨٤ وإنه لقدر غريب ، ذلك الذى لقيه هذا الجندى الإنجليزى ، أن يرقد هكذا بين آثار فى مثل هذه العظمة والتأثير وهى آثار غريبة عنه .

وعلى الجدار الخلفى للفجوة المقابلة فى الشمال لوحة أخرى تصور رمسيس فى حضرة حور آختى ، بينما يوجد على الجدار الشمالى إلى اليسار من الباب المؤدى إلى المقصورة المكشوفة لرع حور آختى نقش للفرعون سيبتاح مع صور له تمثله يقدم لآمون وموت وحور آختى . وقد كشف هذه المقصورة المكشوفة المكرسة لإله الشمس بارسانتى أثناء قيامه بترميم أبى سمبل ١٩١٠ . وجزء منها مقطوع فى الصخر والجزء الآخر مبنى . وهى تقع إلى الجانب الشمالى من المعبد الكبير وقد توج جدارها الشرقى ببرجين بحيث أصبح شكلها كالصرح ويمكن الوصول إليها من الباب الجنوبى من باب مفتوح من شرفة المعبد الكبير وقد زين هذا الباب بافريز مقعر وقرص الشمس المجنح ، وخراطيش رمسيس . وعلى الجدران مناظر مشوهة جداً للملك فى حضرة آمون وحور آختى وآلهة أخرى . وبداخل المقصورة مذبحان أحدهما - وهو الواقع إلى الجنوب - له درج يصعد إليه وإفريز وأربعة قرود متعبدة واقفة عليه فضلاً عن مسلتين صغيرتين على زاويتى واجهته الشرقية ، بينما وجد فى المذبح الشمالى عند كشفه ناووس يضم تمثالى خبرى وتحوت بشكل جبل وقرد . وهذه نقلت إلى المتحف المصرى مع المسلتين الصغيرتين اللتين سبق ذكرهما تواً (رقم ٨٢٨ الطبقة السفلى صالة ١٤ - الشمال) .

وفى الموقع المقابل فى الجانب الجنوبى من واجهة المعبد مقصورة صغيرة كشفت فى ١٨٧٤ بمعرفة مس أمليا ادواردز وزملائها فى الرحلة النيلية التى أثمرت كتاب مس ادواردز الممتع «ألف ميل فوق النيل» وقد قدمت المؤلفة فى كتابها وصفا حيويا لكشف وجه هذه المقصورة الصغيرة وكذا المحاولة التى قامت بها مع زملائها فى إعادة وجه التمثال فى أقصى الشمال إلى لونه الطبيعى الذى فقده منذ أن أخذ السيد/هاى القالب الكبير الموجود حاليا فى المتحف البريطانى . وكان اللون الرئيسى فى عملية التجديد هو اللون البنى ، ولكن التمثال ارتد إلى لونه الطبيعى الذى فقده/هاى القالب الكبير الموجود حاليا فى أن هذه المقصورة كانت بيت الولادة ، وهى تضم صالة خارجية مقاسها ٢٥ × ٢ ١/٢ قدم ذات جدران من اللبن ، وهيكلا مقطوعا فى الصخر بعرض ٢١ قدما و ٢ ١/٢ بوصة وعن ١٤ قدما و ٨ بوصات ، وقد زين الهيكل بمناظر متقنة ذات ألوان نضرة . وعلى حائط المدخل على جانبى الباب يظهر الملك وهو يدخل المعبد ، فعلى الجدار الشمالى (الأيمن) يرى الملك ومعه قرينته يقدمان لمركب حور آختى ، وعلى الجدار الأيسر (الجنوبى يرى رمسيس وقرينته إلى المركب المقدس لتحوت . أما الجدار الخلفى فيصوره يهدى خرطوشه لآمون رع ، ويقدم الماء المقدس لرع حور آختى .

وعلى مسافة قصيرة شمال المعبد الكبير يقع المعبد الصغير لأبى سمبل ويفصلهما عن بعضهما واد ضيق من الرمال . وهذا المعبد من أعمال رمسيس الثانى أيضا ، وكرس للإلهه حاتحور سيدة أبشك وحجمه أقل بكثير من زميله فعرض واجهته ٩٢ قدما فقط بارتفاع ٣٩ قدما .

وعلى الرغم من ذلك فهو قطعة رائعة من الفن ، وإذا لم يكن المعبد الكبير موجودا فإنه كان يعتبر إحدى العجائب ، وحتى مع وجود زميله فإنه لم يفقد أهميته ، وعلى كل من جانبى البوابة التى تتوسط الواجهة المفضلة الملكة نفرتارى التى تظهر فى هذا المعبد فى صورتها المؤلهة ، مثلها مثل رمسيس فى المعبد الكبير . وارتفاع التماثيل بتيجانها وريشها ٣٨ قدما ، وهى منفصلة عن بعضها بواسطة أكتاف ضخمة من الصخر تحمل الخراطيش الملكية ، وبجانب كل تمثال بعض أبناء وبنات الملك ، فبجانب الملكة أميرتان هما مريت آمون ، وحنت تاوى ، وبجانب التمثالين الداخلين للملك الأميران آون (حر) حبشف ويارع ـ حر ـ ونامف بينما يقف بجوار التمثالين الخارجيين الأميران مرى اتوم ومرى رع ، وعلى الكتف الأول بالجانب الشمالى من البوابة نص يذكر بأن الملك « أقام هذا المعبد على شكل حفر فى النيل كأثر خالد فى أرض تا ـ كنس » ، ويكرر الكتف الثالث فى نفس الجانب هذا النص مع الإضافة الصغيرة التى لا يقدر أى مصرى أصيل على إغفالها فى نقش على أى أثر قام به « لا شىء مثل هذا عمل من قبل » .

وعلى سمكى البوابة يرى الملك أمام حاتحور سيدة أبشك (الجنوب) والملكة أمام ايزيس (الشمال) . وندخل صالة الأعمدة التى تضم ستة أعمدة مزينة من الأمام بصلاصل

تحمل رؤوساً حاتحورية ، بينما تزدان الجوانب الأخرى بمناظر الملك والملكة ومعبودات متعددة . وعلى حائط المدخل إلى اليمين يرى الملك يضرب ليبيا أمام حور آختى . وإلى اليسار يضرب زنجيا فى حضرة آمون رع . وعلى الحائط الشمالى (الأيمن) يقف الملك أمام بتاح ويتعبد لحريشف رب هيرا كليوبوليس (اهناسيا) وتقف الملكة أمام حاتحور ويصب الملك الماء المقدس امام حور آختى وعلى الحائط الجنوبى (الأيسر) يقف رمسيس امام حاتحور سيدة ابشك ، وبين مست سيد امبوس وحورس وتتعبد الملكة لعنقت ، ويتعبد الملك لآمون رع . أما الحائط الخلفى فقد كرس بأكمله للملكة . وحتى الآن رغم ان هذا هو معبدها تقريبا ـ فان رمسيس قد احتفظ لنفسه بنصيب الأسد كما فعل على الواجهة حيث يظهر مرتين ويقابل مرة لنفرتيتى . والآن فان الملكة تحتفظ لنفسها بحائط باكمله . وتظهر جنوبى الباب (الأيسر) امام حاتحور والى الشمال (اليمين) امام موت .

وتؤدى ثلاثة أبواب إلى صالة عرضية تحوى مناظر ليست بذات أهمية كبيرة ، فعلى حائط الدخول بالجانب الشمالى يظهر الملك والملكة أمام حاتحور ، وبالجانب الجنوبى ترى الملكة بين حاتحور سيدة ابشك وايزيس بينما تظهر خراطيش الملكة فوق الأبواب . ولكى لا تختص الملكة بالكثير لشخصها تعادلت الأمور بظهور الملك على كلا الجدارين البحرى والقبلى حيث يتعبد للمركب المقدسة التى تضم البقرة حاتحور بداخلها . ويوجد باب فى كل من الجدارين يؤدى الى حجرة صغيرة خالية من النقش . وعلى الحائط الخلفى بالطرف الشمالى (الأيمن) يظهر الملك أمام حور آختى ومنظر آخر يصور الملكة امام خنوم وساتت وعنقت ، وعلى الطرف الجنوبى من الجدار الخلفى يظهر الملك امام آمون رع ومنظر أصغر يمثل الملك فى حضرة ثلاثة اشكال من حورس سيد غيبة وسيد كوبان وسيد بوهن ويؤدى باب يحمل صور الملك مع صور صغيرة فى أعلاها لكل من الملك والملكة أمام حاتحور إلى قدس الأقداس .

والحائط الخلفى لقدس الأقداس كوة تسندها صلاصل ـ تضم تمثالا بارزا للبقرة حاتحور يحمى رمسيس تحت رأسها كأنه فى حمايتها الآلهية ، وكلا التمثالين مهشم . وعلى الجدار الشمالى يقف الملك أمام شخصه المؤله والملكة المؤلهة ، وعلى الجدار الجنوبى تظهر الملكة أمام موت وحاتحور . ولم يكمل العمل فى هذا الجزء من المعبد حيث إنه كان من المقرر أن يكتنف قدس الأقداس كالمعتاد حجرات جانبية ، فعلى الجدار للصالة العرضية مساحات خالية تركت للأبواب التى كان من المفروض أن تؤدى إلى هذه الحجرات ، ولكنها لم تنفذ أبدا .

وعلى الجانب الشمالى من معبد حاتحور مجموعة من النقوش ، فنائب الملك فى اثيوبيا (النوبة) ينحنى امام رمسيس الثانى ويذكر النقش : «عمل بمعرفة نائب الملك فى كوش ، آنى ، من أهالى هيرا كليوبوليس» وعلى مسافة غير بعيدة لوحة يصعب الوصول إليها تظهر

نائبا آخر منحنيا أمام آمون ورمسيس وحـور آختى وحورس . وبـأعلى الجبـل نقش يقرأ كالآتى : «عمل بيد كاتب المعبد وحمى الملك وأشرف على الماشية والامير والكاهن الأعظم ، احمس المدعو «تورو» ومما يبرهن على أن الصلة بين أبى سمبل ومصر لم تبدأ بالاسرة التاسعة عشرة وجود ثلاثة نقوش صخرية تضم اسماء معروفة من الدولة الوسطى كسوبك حتب ومنتوحتب . وعلى الجانب الجنوبى من المعبد الكبير ثلاث لوحات ، الأولى منها تصور نائب الملك فى أثيوبيا يتعبد لرمسيس ، والثانية تصور الملك فى حضرة تحوت وحور آختى وشبس ، أما الثالثة فتصور الملك آمون ورمسيس وحور آختى بينما يرى أسفل موظف اسمه نختو امام الملكة . وعلى مبعدة من هذه اللوحات توجد لوحات أخرى لا ترى الا من النهر فقط . وبين الصخور التى نحت فيها المعبد الكبير والجرف التالى خليج رملى به مقبرة صغيرة منحوتة فى الصخر بها لوحة مشوهة تمثل شخصين فى حضرة اوزوريس[1] .

وكلما سرنا جنوبا نلتقى بنقوش صخرية ليست بذات أهمية خاصة . وعلى مسافة أميال قليلة جنوبى أبى سنبل صخرة بارزة ترتفع من النهر على الضفة الشرقية نحت فيها معبد أبى عـوده الصخرى الـذى يسمى أحيانـا معبد جبـل عدا . وقـد أقامـه حـور محب (نهايـة الأسرة ١٨)[2] ، فهو بذلك أقدم قليلا من المعابد التى كنا بصددها ، ولكن ليس له أهمية كبيرة ، ويضم مدخلا نصل إليه بواسطة درج قصير ، وصالة بها أربعة أعمدة ذات تيجان على شكل براعم البردى ، وحجرتين جانبيتين وهيكلاً . ومن الهيكل يوجد بئر يهبط إلى مخبأ وقد استعمل ككنيسة مسيحية وقد غطيت مناظر الأسرة الثامنة عشرة بملاط ورسومات قبطية لا تزال تغطيها فى بعض المواقع ولكنها تساقطت فى مواضع أخرى بحيث أصبح فى الامكان رؤ ية المزيد من العمل القديم وعلى حائط مدخل الصالة على جانبه الأيمن يرى حور محب أمام تحوت وعلى جانبه الأيسر يرى وهو يرضع من عنقت فى حضرة خنوم . وعلى الحائط

---

(١) نقلت أغلب هذه النقوش إلى مواضعها الجديدة وقد روعى أن تكون على مسافات متساوية من المعبدين كما كانت عليه قبل نقلها .

(٢) ضحى بهذا المعبد فترك فى مكانه بعد اقتطاع أهم الاجزاء فيه . عن هذا المعبد وعن جبل الشمس أنظر الكتاب سالف الذكر - صفحتى ١٠٢ - ١٠٣ حيث أشار المؤلف أيضاً إلى المؤلفات الخاصة بمناطق بلانه وقسطل - وهى التى اكتشفت أثناء الحملة الخاصة بإنقاذ بلاد النوبة قبل الثانية - وانتهت باكتشاف مقابر الملوك الذين حكموا تلك المنطقة سواء من القرن الثالث إلى القرن الخامس من الميلاد - وفيها من الآثار الهامة ما يعتبر أهم آثار اكتشفت حتى اليوم - ومن ضمنها الملك والملكات والحلى الذهبية وغيرها وبها من الأحجار نصف الكريمة ما يؤكد حضارة القوم الذين عاشوا فضلا عن مئات القطع الأخرى ولعل أهمها سروح الجبل التى ضحى بها لتكون فى خدمة الملوك أنظر : Emery — Kuwan

The Royal Tombs of Ballana and Qustul, 1938. .

أنظر أيضاً . Sh. Farid Excavations at Ballana , (1958 — 1959) , 1963

الشمالى (الأيسر) يظهر الملك أمام تحوت وثلاثة أشكال من حورس سيدعنيبة وسيدبوهن وسيد محا (أبى سنبل) ، وفى الطرف الشرقى من نفس الحائط يظهر حور محب بين ست وحورس . وعلى الحائط الجنوبى (الأيمن) نلاحظ أن معظم المناظر قد اختفت تحت الرسوم المسيحية ، ولكن يوجد فى النهاية الشرقية منظر لحور محب أمام آمون ، وعلى الطرف الجنوبى من الحائط الخلفى يظهر حور محب أمام حور آختى بينما يظهر على الطرف الشمالى أمام آمون رع . أما الهيكل فيزدان بمنظر على الحائط الشمالى يمثل حور محب يتعبد للمركب المقدسة . أما مناظر الحائطين الجنوبى والشرقى فقد اختفت .

ولاتزال الرسوم القبطية تحتفظ بألوانها فى حالة طيبة ، وهى تضم صور السيد المسيح (فوق الباب وعلى السقف) والقديسين والملائكة على السقف والباب ، وقديسين آخرين بعضهم يمتطى جيادا وثابة وأحدهم يطعن تنينا برمحه وهذا القديس يلبس تاجا مطعما بأحجار الياقوت ويرتدى ثوبا فاخرا . ولكن هذه الصور من الفن القبطى لا تدخل فى نطاق موضوعى رغم مافيها من تشويق وبين أبى عوده وحدود السودان ترى فى جبل الشمس مقصورة صغيرة بها تمثال مهشم لإله ونقوش للأمير «باسر» الذى كان حاكما للنوبة ومشرفا على بلاد الذهب الخاصة بامون أيام الملك حور محب . وعلى جدران المقصورة يظهر باسر جالسا يتقبل فروض الولاء من أصدقائه أو متعبدا للتمثال وهذه المقصورة بالإضافة إلى لوحة أو لوحتين ليست ذات أهمية عامة (عدا ذلك المنظر الموجود على إحدى هاتين اللوحتين والذى يمثل باسر يتعبد لسنوسرت الثالث المؤله وأنوبيس وسبك رع وعنقت) تكون باختصار الآثار المحلية إلى أن نصل إلى إدندان ، حيث تقع الحدود الإدارية بين مصر والسودان على مسافة ميل أو ما يقرب من ذلك منها .

وهنا ، إذا ، على سبيل الحصر ينتهى موضوعنا[1] غير أن السنين القليلة الأخيرة شهدت كثيرا من الأعمال الهامة فى السودان ، كما القيت أضواء كثيرة على الممالك الأثيوبية التى ازدهرت فى الفترة بين قيام الأسرة الخامسة والعشرين والعصر الرومانى ، ولذا رأينا أن نواصل رحلتنا جنوبا حتى نباتا ومروى لنرى مخلفات الحضارة المصرية الليبية التى نمت فى أواخر عصر الأسرات .

---

(١) بقى أن نذكر أن بين فرس ووادى حلفا أجريت قبل إنهاء السد العالى كثير من الحفائر فى عكشا حيث عثر على معبد من أيام رعمسيس الثانى وسيتى الأول وفى دبيزه شرق حيث عثر على مقبرة نحوتى حتب من عصر حتشبسوت فى .Kush; VIII, 1960, pp. 25 ff كما أجريت فى أماكن أخرى فى الحدين الشرقى والغربى فى النوبة السودانية . أنظر كتاب كريستوف سالف الذكر الصفحات ١٠٩ - ١١٠ .

الفصل الواحد والأربعون
وادى حلفا إلى كرما

بين الحدود ووادى حلفا ثمر بقلعتين ، الأولى عند « فرس » على الضفة الغربية ، ولابد أنها كانت معقلا ذا أهمية كبيرة . والجدران المتخلفة التى يصل ارتفاعها فى بعض الأماكن إلى مايزيد على ٣٠ قدما بسمك متساو مبنية باللبن الذى يستقر فوق قاعدة من البنيان بارتفاع ١٣ قدما . والسطح الكلى المسور بقرى من ١٠٠٠× ٦٠٠ قدم ، وكان به قلعة تشرف على الجميع ويعتقد أنها ترجع إلى حوالى بداية العصر الرومانى ، غير أن كتل حجارتة تحمل أسماء رمسيس الثانى وتحتمس الثالث يعتقد أنها من معبد - قد وجدت داخل السطح المسور ، وتشير إلى أن الموقع قد شغل على الأقل فى عصر الدولة الحديثة .

وفى سارا على الضفة الشرقية توجد بقايا معقل يرجع إلى الدولة الوسطى . ولم تكن هذه القلعة فى حجم قلعة فرس فمسطحها حوالى ٣٥٠ × ٢٥٠ قدما فقط . وتوجد فى المواقع المجاورة نقوش صخرية من الدولة الوسطى تقودنا إلى ملاحظة سوف نستوعبها توا ، ونعنى بها قوة النفوذ المصرى على هذا الجزء من البلاد أيام الدولة الوسطى .

- يجب الاشارة هنا إلى أن الأعمال الخاصة بآثار النوبة التى تم إنقاذها فيما بين جبل عداد والحدود وذلك قبل إنهاء المرحلة الثانية لتعلية خزان أسوان انتهت باكتشاف مقابر منسقة لملوك النوبادين الذين حكموا النوبة القبلية فى القرون من الثالث ق .م . حتى بعد الميلاد - أما الأعمال التى أجريت قبل إقامة السد العالى فقد أسفرت فى نفس المنطقة عن وجود مقابر من الدولة الحديثة تدل على ازدهار الحضارة المصرية فى ذلك العهد - وبين الحدود ووادى حلفا عثر على آثار هامة من الدولة الحديثة والعصر المسيحى فى فرس أنظر Chriotophe صفحة ١٠٦ ـ ١٠٩ ، ١١١ ـ ١٣٢ إذ إنها تمثل المسيحية فى عصورها المختلفة .

وعند وادى حلفا يبدأ الخط الحديدى الحكومى إلى الخرطوم ، وعلى المسافر أن يختار بين أن يأخذ هذا الطريق إلى أبى حمد ، ومنها بطريق الخط الفرعى إلى كاريما حيث يمكنه زيارة جبل برقل - نباتا القديمة المعروفة بصلاتها بالمملكة الأثيوبية الأولى ليمر ، بمعابدها وأهراماتها ، أو يأخذ طريق النيل مارا بالآثار التى يلتقى بها . والطريق الثانى أكثر مشقة وتعقيدا فى ترتيباته إلا أن الأول يفوت علينا فرصة رؤية المواقع الأثرية فيما بين وادى حلفا وكاريما . وسوف نتبع طريق النهر فى وصفنا .

يقع وادى حلفا على الضفة الشرقية وليس به مايثير اهتمامنا . وإلى الجنوب منه تقع المدينة القديمة بوهن التى يمكن الوصول إليها بسهولة بالمركب وهى تقع على الضفة الغربية وكانت إحدى مراكز السيادة المصرية فى السودان فى كل الحالات منذ عصر الدولة الوسطى . ولاتزال توجد بها خرائب معبدين احدهما وهو المعبد الشمالى اقامه احمس فى بداية الأسرة الثامنة عشرة على انقاض مبنى لسنوسرت الأول من الدولة الوسطى ، وقد جدده امنوفيس الثانى ، ولكن لم يكن قط ذا أهمية كبيرة ، فهو مبنى من اللبن بصفة عامة ماعدا بعض العناصر البارزة مثل أعمدة صالته واكتاف بانه التى بنيت من الحجر الرملى . أما المعبد الجنوبى فهو أكثر أهمية ، ويقع على مسافة قصيرة جنوبى زميله الأقدم . وفى عام ١٩٠٥ قام الجنرال ونجت بصيانته بوضع سقف من الخشب لوقاية المناظر الحائطية . وقد بناه تحتمس الثانى وتحتمس الثالث والملكة حتشبسوت غير أن خراطيش وصور حتشبسوت قد طمست كالمعتاد على يد شريكها وخلفها النشط[1] . ولاتزال الحوائط والأعمدة من الحجر الرملى تحتفظ بارتفاع يقرب من خمسة اقدام . وكان للمعبد صرح من اللبن لم يبق منه بالقرب من شاطىء النهر وصالة أمامية على أحد أعمدتها نقش لتحتمس الثالث يصف شجاعته فى أول حملة له فى آسيا ويرجع تاريخها إلى السنة الثالثة والعشرين التى تدخل فى سنى خضوعه لسلطان حتشبسوت . ووصف شجاعة جلالته وصفاً شاعرياً جدا : « الملك نفسه ، قاد مسيرة جيشه ، قوى فى مقدمته ، مثل لهب النار ، الملك الذى أمسك بسيفه سار قدما ، لا أحد يشبهه ، يذبح البرابرة ، يضرب التتنو ، ويحضر أمراءهم كأسرى أحياء ، عجلاتهم مصنوعة من الذهب ، مربوطة إلى جيادهم » . (برستد الوثائق القديمة ، الجزء الثانى ، ٤١١ - ٣٧) . ويقع المعبد الأصلى خلف هذه الصالة وظهره يستند إلى الجبل ، وجوانبه الثلاثة الأخرى محاطة بأعمدة من الطراز المسلوب . وهو يضم

---

(١) نقلت أجزاء المعبد البحرى وكل عناصر المعبد القبلى وأعيد بناؤها فى حديثه متحف الخرطوم الجديد كما كتب عن المعبدين ونقوشهما وعن الاكتشافات التى تمت بجوارهما وفى قلعة بوهن المجاورة حيث عمل الأستاذ والتر أمرى - أنظر المؤلفات الخاصة بتلك الأعمال كذلك عماتم فى كور وأبى صير وعبد القادر فى كتاب كريستوف صفحة ١١٠ .

(٢) — Brested , Ancient Records , II , 4II , 37) .

صاله مستعرضة وهيكلا وحجرات جانبية ومناظر الحوائط ليست بذات أهمية كبيرة ، فهى مجرد مناظر تقليدية عادية تمثل الملك فى حضرة الآلهة ولكنها لاتزال تحتفظ بالوانها فى بعض المواضع .

وترجع أهمية بوهن الرئيسية إلى أنها أول حلقة فى سلسلة القلاع الممتدة من بوهن حتى سمنه وقمة . تلك القلاع التى مكنت المصريين من السيطرة على كل إقليم الشلال الثانى ومراقبة كل الطريق النهرى الصاعد أو الهابط . ويحمى مدينة بوهن المحصنة جهاز متقن من أسوار مزدوجة تتخللها ، على مسافات أبراج وخندق مقطوع فى الصخر الصلد بعرض ٦ أمتار وعمق ٢/١ ٣ متر . ويبلغ سمك السور العظيم ما يزيد على ٢٧ قدما عند قاعدته ، وتبرز الدعائم بمقدار خمسة أقدام أخرى . ويضم هذا الاستحكام المنيع المعبدين السابق ذكرهما وإذا تتبعنا النهر فى صعوده نلتقى على مسافة ميل ونصف من هذا الاستحكام بموقع آخر محصن محاط بسور مزدوج ذى أبراج مبنى بالدبش واللبن . ولابد أنه كان يحيط بمدينة كبيرة إذ أن السور الداخلى يمتد بطول أكثر من ١٠٠٠ ياردة .

وعلى مسافة صغيرة من هذه المدينة المحصنة تقع قلعة مايا نارتـــى[1] التى تقوم على جزيرة تتحكم فى المدخل إلى الشلال . وقد دل اللبن والفخار الذى عـثر عليه السيـد/ سومرس كلارك فى هذه القلعة على أنها ترجع إلى نفس عصر قلعة بوهن ، وقد كانت هذه الجزيرة فى يوم ما مزدحمة بالسكان . وهناك حقيقة غريبة هى أنه خلال الحرب مع الدروايش أعيدت القلعة إلى الغرض القديم الذى أنشئت من أجله ، وأقيم فوق المبانى المصرية القديمة متراس مثقوب يتسع لمدفع أو مدفعين ، ويعمل متجاوباً مع قلعة أخرى على الضفة الشرقية ليعوق حملة المهدى .

ويذكر السيد/سومرس كلارك أن العمل الحديث كان رديئا جدا ولكن مما يبعث على الإثارة أن نرى أن عودة الظروف الحربية المتشابهة أسفرت عن العودة إلى الأساليب القديمة فى التصرف فيها (يمكن هنا الإشارة إلى أن كلمة «آرتى» تعنى باللهجة النوبية«جزيرة») .

وعلى مسافة ميل تقريبا جنوبى مايانارتى تأتى الحلقة التالية من سلسلة القلاع ونعنى بها قلعة دور حانيارتى التى بنيت من اللبن ، ولكن لما كان الجزء الأسفل من السور معرضاً للخطر فى أن يكتسحه النهر ابان الفيضان العالى فقد دعم بالدبش ، ويبلغ طول القلعة

---

(١) كتب عن هذه القلعة بحثان أحدهما لنجم الدين الشريف فى. Kush XII p . 249f والاخرKush والآخر Kush, pp . 148 — 176 .

حوالى ٢٠٠ ياردة بعرض ٨٥ ياردة . وعلى مسافة ١٢ ميلا جنوبى وادى حلفا تقع قلعة «ماتوكا» على الضفة الغربية . وإلى الجنوب منها على الضفة الغربية أيضا تقع قلعة مرجسه وكانت هذه - كما هو واضح - مركزا هاما فى خطط الاستحكامات خلال الدولة الوسطى مقاسها أكثر من ٣٠٠ × ٢٠٠ ياردة ويبلغ مسطحها المحاط بالاسوار الداخلية حوالى ١٨٠ الف قدم مربع . والقلعة مقامة على قمة جرف عال على ارتفاع ٧٥ قدما تقريبا ، وبذلك تتحكم فى النهر وبخاصة أن هناك قلعة أخرى هى دانبارتى تقع فى مقابلتها على وجه التقريب ، وبذلك يمكن غلق المجرى عند الطلب بين القلعة المقامة على اليابسة وزميلتها القائمة فى الجزيرة . ومرجسة محصنة ليس فقط بالمنشآت التى تحميها بل بموقعها الطبيعى حيث أن السور الشرقى يرتفع فوق الصخرة المواجهة للنهر أما الأسوار الشمالية والجنوبية بالإضافة إلى ازدواجها - فهى محمية بخنادق تهبط إلى النهر ، وبذلك يكون الحائط الغربى هو النقطة الوحيدة تقريبا التى يمكن اقتحامها . وبداخل السور الثانى فى زاويته الشمالية الغربية توجد بقايا معبد صغير بناه سنوسرت الثالث ، ومن المحتمل أن امنوفيس الثالث قد أضاف إليه . والخرائب القائمة وهى قلما تصل فى ارتفاعها إلى أكثر من ١٨ بوصة ، تمثل بقايا حجرة متوسطة على جوانب ثلاثة منها أربع حجرات أخرى توحى بأنها هيكل وحجرات إضافية وقد بطن الهيكل بالحجر أما باقى المعبد فقد بنى باللبن .

وفى مواجهة مرجسه تقع على وجه التقريب دامنارتى أو دابا ، وهى جزيرة ضيقة ، وتمر مجارى المياه فى متاهات الصخور بالقرب منها ، وبذلك يمكن للنيران المنطلقة من مرجسه ودانبارتى أن تتحكم فى الممر تماما[1] وتغطى القلعة تماما كل المساحة الموجودة فى الجزيرة . ومقاسها حوالى ٩٥٤ × ١٩١ قدماً ، وكالعادة مبنية من اللبن ، ولكن مثل قلعة دور جاينارتى كسيت فى أسفلها بالدبش لحماية اللبن من أن يكتسحه النهر عند ارتفاع النيل . وفى واجهة سرس ، وعلى الضفة الغربية تقوم قلعة « شالفك » فوق قمة مرتفع صخرى يسمح لها بالتحكم فى النهر فى كلا الاتجاهين . وطريق الوصول إليها من جميع جوانبها شديدة الانحدار وصعبة ، وعلى ذلك فلابد أن مهاجمتها كانت عملاً شاقاً . وهى نسبياً صغيرة فمقاسها ٩٦ × ٥٣ قدماً فقط ، ولكن موقعها يجعلها تستطيع أن تبلغ إشاراتها إلى أورو نارتى التى يمكنها بالتالى تبليغ إشاراتها لسمنة - غربه أو شرقه عند الطرف الجنوبى من السلسلة الطويلة .

---

(١) قام المسيوجان فى كوتيه بأبحاث مستفيضة هو ومساعدوه فى مرجسه أنظر كتاب كريستوف صفحات ١١٣ - ١١٤ - كذلك يشمل البحث جزيرة داينيرتى أنظر :— Kuby — Kush XII , pp . 34 — 56 .

وبعد ذلك تأتى جزيرة الملك الصخرية أو أورونارتى[1] التى تكون مع قلعتى سمنة شرقاً وغرباً أول جهاز للدفاع فى إقليم الشلال ضد غزوات قبائل البدو . وتشكل قلعة أورونارتى مثلثا طويلا له بروز يمتد بطول الحافة الجنوبية للجزيرة . وتفتح بوابتها البرية فى برج كبير يتوسط الجانب الجنوبى الضيق من المثلث وهناك قلعة صغيرة خارجية وتلاصق الجانب الجنوبى ويجدر بنا أن ننقل وصف الدكتور ريزنر لعمارتها حيث أنه يطابق وصف القلعتين الأخريين فى هذه المنطقة . وقد أقيمت القلاع الثلاث سمنة شرق وسمنة غرب واورونارتى من نفس المواد وبنفس الطراز المعمارى ، فالأسوار تقوم على قاعدة من الدبش الجرانيتى ذات سطح خارجى منحدر ، أو على الصخر حيث يرتفع الصخر عن القاعدة . وهذه القاعدة المقامة من الدبش تسوى المستويات غير المنتظمة فى السطح الصخرى . وقد كانت الأسوار الضخمة الخارجية للقلعة تبنى من اللبن فوق القاعدة بسمك يتراوح بين خمسة وثمانية أمتار وبارتفاع عشرة أمتار أو أكثر . وكان البناء اللبنى يقوى بطبقات من دعامات خشبية ترص بشكل مواز للأسطح ، وبطبقات من كتل ودعامات خشبية ترص بشكل أفقى أيضا ، ولكن بزاوية عمودية مع الأسطح . وقد جعلت هذه الدعامات مهمة تقويض أو اختراق الأسوار عملية شاقة جدا ومستحيلة عمليا وكانت الأسوار الضخمة ترتد فى الجانب الخارجى ، وتدعم بأبراج فى الأركان وعند البوابات وفى مواضع أخرى ، ولم يعثر قط على الأجزاء العليا من الأسوار ولكنها كانت طبعا مسطحة ومزودة بمتاريس لحماية المدافعين . وتقع البوابات البرية فى الأبراج وهى مزودة بأبواب خشبية مزدوجة وقوية . ومن الواضح أن مثل هذه القلاع ـ التى كانت تزود المئونة والماء ـ كانت منيعة ، مادامت تساندها حامية قوية ومستوفية ، ضد أى اعتداء يمكن أن تقوم به القبائل النوبية وكان الحصول على الماء بواسطة طرق مغطاة تفضى إلى النهر وبذلك يمكن لأفراد الحامية من الحصول على الماء دون التعرض للخطر . وبالجملة لا نستغرب ما قاله الدكتور ريزنر «على قدر ما نعلم لم يحدث أن استولى عدو على إحدى هذه المعاقل خلال الأسرة الثانية عشرة» (مجلة متحف الفنون الجميلة ، بوسطن ، المجلد ٢٧ ، عدد ١٦٣ ، ص ٦٩)[2] .

وفى أورونارتى نلتقى بأول حاكم للنوبة بعد أن فتحها الفراعنة الأوائل للدولة الحديثة ، واسم هذا الحاكم تورو وهو يصف نفسه فى أورونارتى : «الأمير الوراثى ، الكونت ، حامل الختم الملكى ، الرفيق الوحيد ، المقرب من الملك فى الأراضى الجنوبية ، الابن الملكى» . ويرجع تاريخ هذا النص إلى السنة الثامنة من حكم أمنوفيس الأول ، وفى

---

(١) أنظر نفس المؤلف صفحة ١١٤

(٢) — Bulletin of the Museum of Fine Arts , — Boston , Vol . XXCll , 163 , p . 69 .

السنة السابقة لحكم هذا الملك سنجده فى سمنه يصف نفسه بأنه الابن الملكى للأقاليم الجنوبية . وفى أوائل حكم أحمس الأول لم يكن قد وصل إلى مركزه الكبير إذ يصف نفسه فى بوهن كحاكم لبوهن فقط ، وكان لايزال يتولى منصبه الهام عند تولية تحتمس الأول للعرش وأقام فى بوهن نصبا تذكاريا ملكيا يعلن فيه القاب الفرعون الجديد ، واستمر حتى حكم حتشبسوت عندما توارى اسمه .

وبعد ذلك نأتى إلى القلعة الكبيرة سمنة غرب[1] ، أهم قلاع الحدود المصرية وأكثرها جلالا . وقد قال السيد/سومرس كلارك : «لا يوجد مثيل لها فى مصر أو فى النوبة» . وخرائبها متقنة بدرجة كافية لتبرير مثل هذا الرأى ، رغم أن التجديد الغريب والخيالى الذى قام به السيدان بيرو وشبيز لم يعد مقبولا حيث أنه لا يطابق الواقع . وتقوم قلعة سمنة غرب على جرف صخرى يطل على النيل . وبين هذه القلعة وقلعة سمنة شرق الواقعة على الضفة المقابلة مسافة تقرب من ٥٠٠ ياردة ، وبذلك يمكن توصيل رسالة بالنداء من قلعة إلى أخرى ـ ويعترض النهر هنا حاجز من الصخور البلورية التى تكون فقط مختفية تحت الماء عندما يرتفع النيل . وعندما يكون النيل متوسط الارتفاع أو منخفضا فانه يتحول إلى قناة ضيقة بعرض ١٢٠ قدما تقريبا وفى هذا الطريق الضيق يمر النهر المتدفق وبذا يكون خطرا . والقلعتان تقعان فوق نهاية تلال الحاجز الصخرى على الضفتين الغربية والشرقية ولكن هناك مبالغة عجيبة فى ارتفاع موقعيهما إذ يذكر كتاب كوك أن القلعة الشرقية مقامة على ارتفاع ٤٠٠ قدم . والغربية على ارتفاع ٣٠٠ قدم بينما يذكر الدكتور بول فى مسحه الجيولوجى لشلال سمنه أن الارتفاع بالنسبة لسمنه شرق هو ٦٠ قدما تقريبا وحوالى ٤٤ قدما بالنسبة لسمنه غرب (١٨ ، ١٤ مترا) وحتى فى حالة هذا الارتفاع المنخفض فان هاتين القلعتين قد أقيمتا بشكل عجيب بحيث تشرفان على النهر .

والطراز المعمارى المستعمل فى سمنه غرب هو نفس طراز أورونارتى وسمنة شرق ، وقد سبق وصفه . والتخطيط يمثل بوضوح متانة المبنى ، فالقلعة على شكل حرف بينما يواجه الجانب الخارجى أو الطويل من الحرف النيل والجنوب ، وبذا لا تحتاج واجهة النيل إلى خندق إذ أن مسقط واجهة الصخر للنهر تحول دون الهجوم من هذا الجانب ، أما الجوانب الثلاثة الأخرى فيحيط بأسوارها من الخارج خندق جاف يتميز بعرضه وعمقه . وقد كسى سطحها بمواد جافة وخلفه أحدوركسى أيضا بالحجر . وقد عمل سطحه بزاوية قدرها ٦٠° بحيث بقى رماة السهام المدافعين فوق قمة الأسوار وبداخل هذا الأحـدور والخندق ترتفع

---

(١) نقل معبد سمنه (غرب) وسمنه شرق (كومه) إلى الخرطوم وأعيد بناؤهما فى حديقة المتحف وسوف ينشر عن نقوشهما قريباً الأستاذ ريكاردو كامينوس الذى ندين له بتسجيل ونشر نقوش معابد السلسلة أبريم وبوهن .

الأسوار المبنية باللبن فوق أساس من الحجر والتى تقوم دعامات على مسافات فى وضع أفقى بمحاذاة واجهة السور وزاوية عمودية معه - إلى ارتفاع غير معروف طبعاً نتيجة لـزوال الأجزاء العليا من المبنى ، ولكن من المحتمل أنه كان يتراوح بين ٣٠ ، ٤٠ قدماً ، وقد يكون أكثر من ذلك فى المواضع التى يكون فيها الارتفاع ضرورياً لغرض التحكم ، ويبدو أن ما تصوره بيرو وشيينه عن أن المبنى بإقامة بناء شاهق مكسوه بمداميك علوية ليس فى الحقيقة إلا محض خيال .

ويهدف تخطيط القلعة إلى استغلال كل ميزة للهضبة الصخريـة التى تقوم عليهـا ، وتغطية هذا كلية بحيث لا يترك سطحاً مستوياً يسمح للعـدو أن يوطـد نفسه لتقـويض الأسوار . والوصول إلى الشرفات على قمة الأسوار كان يتم إما بسلالم أو منحدرات وكانت الأسوار ، حتى عند القمة ، عريضة بحيث يصبح الاتصال بين الأجزاء المختلفة من القلعة سهلاً على طول الممشى العريض خلف المتاريس بدون حاجة إلى النزول إلى داخل القلعة والصعود ثانية . وفى الداخل ينقسم المبنى إلى قسمين شرقى وغربى وكما أن القسم الغربى ينقسم إلى جزءين شمالى وجنوبى . وهناك بناء إضافى - لا يعرف بالضبط الغرض منه إلا إذا كان يقصد تغطية الصخر على نحو كاف - يـرى وراء الزاويـة الشماليـة الشرقيـة . وبداخل الأسوار الخارجية الضخمة ملء الفراغ بمبان من اللبن لسكنى الحامية بملحقاتها ومخازنها . ولقلعة سمنة غرب بابان من جهة اليابسة أحدهما فى السور الشمالى والآخر فى السور الجنوبى ويتصلان ببعضهما بواسطة طريق رصف بألواح من الجرانيت ، وتقع مباشرة فى اتجاه طريق القوافل الكبير إلى الجنوب على طول الضفة الغربية ، وبذلـك كان هـذا الطريق محمياً تماماً - مثله مثل الطريق المائى - بواسطة القلعة فكانت القوافل النوبية توقف خارج البوابة بينما يرحب بالقوافل المصرية التى كانت تجد لها مأوى داخل الأسوار . ومن المظاهر البارزة داخل الأسوار معبدان أحدهما من الحجر الرملى وهو مجرد حجرة واحـدة مقاسها حوالى ٣٠ × ١٢ قدماً وخالية من الزخرف وقد أقامه تحتمس الثالث على موقع معبد أقدم أسسه سنوسرت الثالث من الاسرة الثـانية عشـرة . ويجرى نص تكـريس تحتمس كالآتى : «الآله الطيب ، من خبر رع (تحتمس الثالث) : أقامه كأثره لوالده «ددون» الآله النوبى) ، حامى النوبة ، ولملك مصر العليا والسفلى خع كاو رع (سنوسرت الثالث) ، أقام من أجلها معبداً من حجر النوبة الجميل الأبيض ، حيث أن جلالتى وجده فى حالة مخربة ، وكما يعمل الابن حسب الرغبة التى رغبها والده ، الذى منحه الإقليمين ، الذى رباه ليكون حورس ، سيد هذه الأرض » .

وعلى الجدار الغربى للمعبد ، بالداخل ، يجيب ددون بلطف على هذا التكريس : «ابن المحبوب ، من خبر رع ، كم هو جميل هذا الأثر الجميل الذى عملته لابن المحبوب ، ملك مصر العليا والسفلى ، خع كاو رع ، إنك خلدت اسمه للأبد ، لكى يعيش» من يلقى

نظره إلى هذا المبنى الصغير يشعر أن أدون قدم شكره مقابل انعامات صغيرة . وقبل إعادة معبد سنوسرت على يد تحتمس الثالث كان يوجد معبد من عهد أقدم بناه تحتمس الأول ، ولكن لم يبق منه غير قليل من الأحجار المتساقطة وأساسات حجرة واحدة . وبعد ذلك أقام طهارقة من الأسرة الخامسة والعشرين معبداً من اللبن (٦٨٨ - ٦٦٣ ق . م) وقد بنى الطريق المغطى المؤدى إلى النهر والمورد المائى بمبان قوية زودت بسقف من ألواح ضخمة وهذه ضرورة فى حالة الحصار .

وتقع سمنة شرق (تعرف غالباً باسم كمه) على الضفة الشرقية للنيل على مستوى أعلى قليلا من جارتها الأكبر على الجانب المضاد . ولكنها ليست فقط أصغر من سمنة غرب ، بل إنها أقل إحكاماً فى تخطيطها . وبينما نجد أن مقاسات قلعة سمنة غرب حوالى ٧٤٧ × ٥٨٥ قدماً ، فإن مقاسات سمنة شرق ٣٨ × ٢٢٨ قدماً فقط ، فهى عبارة عن مساحة غير منظمة تحيط بها أسوار بسيطة ذات متانة كبيرة . ويبرز برج بالقرب من الزاوية الشمالية الشرقية . ويمتد حائط سميك نحو الجنوب ليغطى بروازاً فى الهضبة الصخرية الصغيرة ويمنع أى عدو محتمل من الوقوف على أرض ثابتة . ولكن الموقع قوى من الناحية الطبيعية بحيث لا توجد حاجة إلى مثل هذه الإضافات الفنية التى تشاهد فى سمنة غرب . وقد بنى تحتمس الثالث وحتشبسوت المعبد الصغير فى الزاوية الشمالية الغربية وكرساه لخنوم وسنوسرت الثالث . وبعد موت الملكة العظيمة قام خلفها تحتمس الثالث بمحو اسمها ووضع اسم تحتمس الثانى بدلا من اسمها . وقد تجدد بناؤه على يد أمنوفيس الثانى الذى لم يبد احتراماً لاسم والده أكثر مما ابداه تحتمس الثالث لحتشبسوت .

هذه هى سلسلة القلاع التى تحكم بواسطتها الفراعنة المصريون فى هذه المسافة من النهر المضطرب والمنطقة المهجورة . والمنطقة نفسها ليست شيئا يذكر ، واسمها المحلى «بطن الحجر» يعكس بدرجة كافية وحشتها التامة ، ولكنها هامة بسبب طريق القوافل الذى يخترقها إلى الأراضى الغنية فى أقصى الجنوب بما فيها من ذهب وعاج وأبنوس وريش النعام ، بينما كان الطريق المائى لايزال أكثر ضرورة لأنه يسمح بالمرور بحرية للأساطيل التجارية والموظفين فى طريقهم إلى أقاليمهم فى المنطقة وقد كان الشلال الثانى هو أكثر النقط المعرضة للهجوم فى الطريق إلى الجنوب ولذلك فإننا نشاهد تلك السلسلة من القلاع كل قلعة تستطيع إبلاغ إشارة الخطر لزميلتها المجاورة لها - تتحكم فى المسافة كلها وتستطيع حماية القوافل أو الأساطيل المصرية فى مرورها أو ضد النوبيين غير المرغوب فيهم والحاميات التى كانت تضمها تلك القلاع كانت على الأرجح صغيرة ، ويقدر الدكتور ريزنر عدد الأفراد بمائة وثلثمائة ومائتين فقط على التوالى فى قلاع اورونارتى وسمنة غرب وسمنة شرق التى ربما كانت أهم المحطات فى الخط كله حيث أنها تتحكم فى أصعب ممر وكان عليها أن

تتحمل العبء الأكبر من الهجوم الأول للنوبيين . ولابد أن الحياة فى هذه النقط الأمامية المنفردة كانت موحشة بدرجة تكاد تكون غير مقبولة رغم الزيارات التى كانت تتم فى مناسبات خاصة بمعرفة الموظفين القادمين من العالم الكبير خارج الصحراء القاسية ، ولكن يبدو أن خط القلاع قد قدم الغرض الذى أقيم من أجله . والقوة المحاربة التى يمكن أن يضعها قائد سمنة غرب فى الميدان لصد أى غزوة عارضة من النوبيين تقدر ما بين ١٥٠ و٢٠٠ رجل ولاشك أن مثل هذه القوة من الفرق المنظمة تكفى لوقف أى غزوة عادية تهدف إلى مجرد النهب . أما فى الحالات الأخطر مثل التمرد المتكرر من «كوش الخسيئة» ضد غزاتها ، فإن على القائد أن يبلغ الخط الطويل من القلاع حتى يمكن تنفيذ بلاغ التمرد بواسطة مراكب سريعة من أسفل الشلال ، ويتعين عليه أن يسحب حامياته خلف أسوارها القوية التى يمكنها أن تنتظر بداخلها حتى يكل النوبيون من نطح رءوسهم فى الحجر واللبن أو إلى أن تصل النجدة من مصر وتشتت أعداءهم .

ومما يجدر ملاحظته تلك التسجيلات لمنسوب فيضان النيل على الصخور على جانبى ممر سمنه ، فعلى الصخرة بأسفل سمنة شرق توجد ١٨ من هذه التسجيلات وعلى الضفة الغربية ٩ أخرى وبذلك يكون مجموعها ٢٧ تسجيلا ١٩ منها من عصر أمنمحات الثالث الذى خلف سنوسرت الثالث بانى القلاع وواحد من عصر أمنمحات الرابع ، وواحد من عصر سبك نفرو و ٤ من أيام سنحم خوتاوى رع - سبك حتب من الأسرة الثالثة عشرة . وبهذا تكون ٢٥ من هذه التسجيلات من عصر الدولة الوسطى ، وتتفق جميعها فى تسجيل منسوب الفيضان بما يزيد على ٢٥ قدماً عن منسوب الفيضان الحالى .

ويمكن تعليل ذلك بأنه فى حكم سخم خوتارى رع - سبك حتب أو بعده بقليل حدث أن تسبب تآكل الصخر فى الجانب الغربى من القناة الغربية للنهر فى تفتت كتلة من الصخور الغربية بحيث أن فيضان النيل لم يعد يرتفع ثانية إلى المنسوب المسجل على الصخور قبل هذا التغيير وتوقفت التسجيلات عن المحافظة على هذا المنسوب .

ويصعب على السائح العادى الوصول إلى الآثار جنوب سمنة وبين هذه النقطة وكرما مسافة ٢٠٠ ميل تقريباً ، غير أنه يمكن الوصول إليها بالقوافل أو المراكب وبعد جهد وتكاليف باهظة . ومن كاريا إلى ما بعد ذلك يمكن الوصول إلى ما يمكن رؤيته جنوبى هذه النقطة بأخذ القطار إلى أبى حمد من وادى حلفا ، ومن ثم تأخذ الخط الفرعى إلى كاريا حيث يمكن تأجير مراكب لزيارة منطقة أهرامات نورى وكورو وتسير باخرة مرة واحدة أسبوعيا خلال الشتاء إلى كرما (على المسافرين أن يأخذوا معهم زادهم من الطعام) . وهذه المنطقة كلها غنية بالذكريات السريعة الزوال - عن المحاولة لامداد الجنرال غوردون وحرب النهر التالية التى انتهت بمعارك عطبرة (٨ إبريل ١٨٩٨) ، وأم درمان (٢ سبتمبر ١٨٩٨) . وقد

كانت أسماء عكاشه وفيركا وكوشا وسووندا وجنيبس معروفة لدى الشعب البريطانى فى الأعوام بين ١٨٨٤ و ١٨٩٩ ولكنها أصبحت الآن تنسب إلى ماض بعيد . . ومن سمنة - على مسافة ٤٣ ميلا من وادى حلفا- إلى جزيرة سای لانجد - لمدى ٩٠ ميلا من الوحشة التامة - أى مخلفات هامة . وفى سای خرائب معبد صغير من الأسرة الثامنة عشرة به نقوش لتحتمس الثالث وابنه أمنوفيس الثانى وعلى الضفة الشرقية فى مواجهة الطرف الشمالى من نفس الجزيرة كان يوجد حتى ١٩٠٥ مخلفات المعبد الصغير بعمارة الذى بنته إحدى ملكات الدولة المروية أو النوبية الجنوبية . وقد اختفى الآن كلية إذ استخدم الأهالى أحجاره لأغراض البناء . وعلى مسافة اثنى عشر ميلا بعد ذلك يوجد القليل مما تبقى من معبد سدنحا الذى بناه أمنوفيس الثالث تكريما لزوجته التى كان يؤثرها بحبه والتى جعل منها الإلهة الراعية للنوبة وبعد إثنى عشر ميلا أخرى إلى الجنوب يقع أثر أكثر أهمية ونعنى به المعبد الكبير لصولب أكثر المعابد المصرية فى النوبة العليا حفظا وبنى المعبد امنوفيس الثالث تكريما لآمون رع ولشخصه المؤله . ويصف الملك ذلك فى النقش الموجود على لوحته الكبيرة من الجرانيت الأسود التى اغتصبها منفتاح من بعده وسجل عليها أنشودة النصر التى تحوى أول إشارة مكتوبة عن أبناء إسرائيل ، فهو يقول : أقمت آباراً أخرى لآمون لم يسبق لها مثيل . لقد أقمت لك بيتك لملايين السنين - لآمون رع ، رب طيبة المسمى « المضىء فى الحق » ، وكم هو فخم ، فقد صنع من الالكتروم إنه استراحه لوالدى فى كل الاحتفالات وقد صقل بالحجر الرملى الأبيض الجميل ، وقد شغل بالذهب فى جميع الأماكن ، وزينت أرضيته بالفضة وأبوابه جميعها من الذهب ، كما أقيمت مسلتان فى كلا الجانبين . وعندما يشرق والدى بينهما أكون فى أثره (برستد - النصوص القديمة ، الجزء الثانى ٨٩٠) ومن المؤسف أن وصف الملك لمعبده لم يهتم بذكر الخصوصيات إذ أنه انغمس فى الايحاءات الغامضة عن الفخامة التى نعرفها فى كل نقوش المبانى . ولكن يمكن الاستدلال على المظهر العام للمبنى الكبير من الخرائب المتخلفة . وكان الوصول إليه بطريق مزين بالكباش . وبالقرب من الصرح الأول أو بينه وبين الصرح الثانى وضع تمثالان رائعان لأسدين من الجرانيت الأحمر ، وهما الآن بالمتحف البريطانى . وبين الصرح الأول والثانى كان يوجد فناء ذو ستة أعمدة بمقاس ٧٠ × ٤٥ قدما . ومن هذا الفناء يؤدى سلم صاعد إلى بوابة الصرح الثانى الذى بعرض ١٦٧ قدما وتفضى بوابته إلى فناء آخر بمقاس ٩٠ × ١١٣ قدما كان محاطا من جميع جوانبه الأربعة ببوائك من ثمانية وعشرين عمودا . وخلف الفناء الثانى نجد صالة الأعمدة الأولى تليها صالة ثانية بمقاس ٧٨ × ١١٣ قدما تضم اثنين وثلاثين عمودا . وبذلك يتضح لنا أن معبد صولب لا بد أنه كان على جانب كبير من الأهمية ، وهو وان كان أصغر حجما من المعابد الضخمة فى طيبة غير أنه ليس من الصغر بحيث يبدو قزما حتى فى وجودها ، على أنه إذا أخذنا الأسود الجرانيتية الموجودة بالمتحف البريطانى كنموذج لزينة المعبد فإن معبد صولب يقف فى مصاف معابد مصرية قليلة من ناحية الفخامة .

ويجرى النقش الموجود على أحد الكباش التى تزين المدخل كما يأتى :
ليعيش الإله الطيب ، تب ماعت رع ، بن رع ، إمنوفيس (الثالث) أقامه كأثره من أجل صورته ، نب ماعت رع ، سيد النوبة ، الإله العظيم رب السماء ، أقام له قلعة ممتازة محاطة بسور ضخم تلمع شرفاته أكثر من السموات مثل المسلات الضخمة التى أقامها الملك إمنوفيس ، حاكم طيبة لملايين من السنين إلى الأبد . ليعيش الإله الطيب - أقامه كأثره من أجل والده ، آمون ، سيد طيبة ، أقام له معبدا مهيبا ، كان كبيرا جدا فى اتساعه وضخامته ، وكان جماله فى تزايد . انه يرى على جانبى النهر يضىء الأرضين (برستد - النصوص القديمة ، الجزء الثانى ، ٨٩٤) وكل هذا - رغم أنه منمق جدا - لا يحتمل ماهو أبعد . ويحمل أحد الأسدين بالمتحف البريطانى خرطوش توت عنخ آمون الذى يحكى أنه هو «المجدد لأثر والده »إمنوفيس الثالث . لهذا فليس هناك شك فى أن الأسدين كما هو متوقع من عمل إمنوفيس الثالث . وقد محى اسم صاحبهما ابان الثورة الدينية لاخناتون الذى قاده تعصبه إلى تحريم الاسم المكروه لأمون حتى فى مثل هذا المكان البعيد ، ولم يمنعه احترامه النوى من انتهاك اسم أبيه .

وعلى مسافة ١٩٠ ميلا جنوبى وادى حلفا ، وعلى الضفة الغربية ، تقع سسبى حيث أطلال المعبد الأثيوبى « جم - أتون » الذى كرسه أخناتون لإلهة ، أتون ، جريا وراء سياسته فى إعلاء شأن الهه وحده فى كافة الامبراطورية . وسسبى هو أيضا المعبد الوحيد باسم جم - أتون الذى بقى ، حيث أن مقابلة السور لم يعثر عليه بعد ويبلغ مسطح الأطلال الحالية ١٣٠ × ٦٥ قدما ، وعلى ذلك لم يكن المعبد من معابد الدرجة الأولى من حيث الحجم . ولم تبق غير ثلاثة أعمدة فى صالته الأولى . وكما هو متوقع فإن مناظر أخناتون لم تلق معاملة أفضل من تلك التى عامل هو بها بقسوة مناظر العقيدة الأقدم ، فقد اغتصبها سيتى الأول وبذلك عادت ثانية إلى العقيدة الصحيحة .

وعند رأس الشلال الثالث ، وعلى مسافة ٢٠٠ ميل من وادى حلفا تقع جزيرة تومبوس التى حصنها تحتمس الأول بعد فتحه للنوبة العليا وجعلها نقطة للحدود للامبراطورية المصرية فى الجنوب . وكان يمكن أن يصبح لنقش تومبوس الهام هنا أهمية أكثر لو أن الكاتب وجه اهتمامه إلى الحقائق الصخرية بدلا من توجيهها إلى اهتمامه بالأساليب البليغة فنتيجة لاهتمامه غير الموفق بالأساليب الرنانة ، فإن كل ما يمكن معرفته من النص هو أن تحتمس الأول فتح النوبة حتى هذه النقطة حيث أقام فيها قلعة لحماية الحدود ، وكانت إمبراطوريته الأسيوية قد أصبحت فعلا ممتدة حتى الفرات وتذكر الفقرة الخاصة بالقلعة ما يأتى : « قام كبار رجال البلاط ببناء قلعة لجيشه سميت » لاأحد يستطيع أن يقاومه بين الأقواس التسعة معامل فهو صغير السن بين القطيع الهارب ، وقد أعمتهم شهرة جلالته » . أما فيما يختص بحدوده الآسيوية ، فقد أصبح معروفا عن وصفها الغريب للفرات «الماء المقلوب الذى

يجرى هابطا فى سيره صاعدا » وهذا الوصف ساذج إذا تذكرنا أن المواطن المصرى ليس لديه أى فكرة عن نهر عظيم غير نهر النيل الذى يجرى شمالا وبناء على ذلك فإن الفرات عند منحنى قرقيش الكبير يبدو للمصريين من أول نظرة له وهو يتدفق فعلا نحو الجنوب كأنه قلب تام للنظام العام للأشياء .

وعند كرما على مسافة ٢٤٦ ميلاً من وادى حلفا نصل إلى نقطة - رغم أنها قليلة الأهمية من ناحية المظاهر الخارجية - كانت ذات أهمية قصوى فى توسيع مجال إدراكنا عن صلات الدولة الوسطى بالسودان ونوع الحضارة التى سادت الإقليم الجنوبى أيام الفراعنة العظام للأسرة الثامنة عشرة . وقد قام الدكتور ريزنر رئيس بعثة هارفرد بوسطن باكتشافات ألقت ضوءاً كبيراً على هذه النقاط فى أعوام ١٩١٣ - ١٥ ففى كرما توجد كومتان كبيرتان من اللبن تفصل إحداهما عن الأخرى مسافة ميلين تقريباً وهما متشابهتان فى مظهرهما الخارجى ويرجع تاريخها إلى الدولة الوسطى . وإحداهما وهى التى يطلق عليها محلياً دفوفة الغربية «كانت محطة تجارية حصينة من ذلك الطراز الذى كان يطلق عليه أجدادنا فى الأيام الأولى من «شركة جون» فى الهند اسم وكالة . وقد أسفرت الحفائر عن كشف عدد كبير من الأختام الطينية مما يدل على أنها كانت تستعمل مستودعاً لتجارة الإقليم ، كما عثر على كميات كبيرة من الأدوات التى لم تكمل والفخار والخرز وقطع من القاشانى بالإضافة إلى المواد الخام التى كانت تستخدم فى عمل مثل هذه الأشياء . وكانت القلعة مبنية باللبن فى معظم أجزائها الباقية ، ولكن الحجرات بالجانب الشرقى دلت على أن الموقع قد تعرض لحرائق مدمرة . ومن المحتمل أن ذلك يحدد نهاية الاحتلال المصرى أيام الدولة الوسطى عندما تفككت الامبراطورية إلى أجزاء أيام الفراعنة الضعفاء الذين خلفوا الملوك الأقوياء للأسرة الثانية عشرة - فوقعت مصر السفلى فى أيدى الهكسوس ، وقام السودان بثورة ناجحة ضد سادته المصريين . ومما لاشك فيه أن الوكالة التجارية قد اقتحمت وأحرقت وزال الحكم المصرى حتى أن كاموس فى الأسرة السابعة عشرة تذمر من أنه يجلس فى طيبة بين أسيوى وزنجى .

ولكن مما يثير منا اهتماماً أزيد هو تلك الأكوام الثلاثة الجنزية الكبيرة المشكلة على شكل طبق منبسط والتى كشفت مع أخرى من نفس الطراز ولو أنها أقل أهمية - وقد دلت على أنها مقابر الحكام المصريين الثلاثة للسودان أحدهم وهو أمير أسيوط حب جفا «الذى سبق أن رأينا مقبرته الصخرية فى مسقط رأسه . والآن وضح السبب الذى من أجله اهتم حب جفا بصفة خاصة بتحرير عقود مع الكهنة الجنزيين بأسيوط بمداومة إقامة طقوسه الجنزية ولماذا اهتمت تلك العقود بإلزام الكهنة بتقديم القرابين لتمثاله ، وليست لقرينه . وفى تحريره هذه العقود كان حب جفا يعلم أنه سيذهب إلى السودان وأنه سيدفن هناك وليس فى أسيوط . ولرغبته فى التأمين على نفسه فى كل الحالات حرر العقود بتقديم القرابين لتمثاله لعلمه أنه إذا دفن فى السودان فسوف لا يكون قرينه فى أسيوط لتناولها ولكن تمثاله سيحل مكانه .

وقد تحقق ما تنبأ به سابقاً ومات فى السودان ودفن فى الكومة رقم ٣ من أكوام كرما . ومعه دفن تمثاله (ليس بالطبع تمثال أسيوط) الذى وجد المكتشفون قاعدته مع تمثال زوجته سنووى وأن العثور على اسمها على التمثال الأخير واسم والده الأمير «اديو» على قاعدة تمثاله أكد شخصيته حيث أن كلتا السيدتين ذكرتا فى النقوش الموجودة بمقبرة حب جفا بأسيوط .

وتختلف مقبرة كرما كثيراً عن مسكنه الأبدى اللائق الذى أعده لنفسه فى أسيوط ولاشك أنها فى تصور أهل السودان أكثر فخامة ، ولكن فخامتها كانت من اللون الذى يمكن تسميته بربرياً ، وهذا هو أقل وصف يمكن أن توصف به .

ووصف الدكتور ريزنر فيه الكفاية كما تدل على ذلك المظاهر التى تتحدث عن نفسها : «إن المقابر الكومينة للحكام المصريين من طراز غير معروف فى مصر تصور دائرة قطرها تتراوح بين ثمانين وتسعين متراً تخطط فوق السطح الصحراوى الصلب وتحدد بسور من اللبن ارتفاعه عشرة سنتيمترات فقط ويقطعها من الشرق إلى الغرب جداران طويلان من اللبن يكونان دهليزاً عرضه متران أو ثلاثة . ومن خارج هذا الدهليز تمتد جدران عرضية مقامة على مسافات تتراوح بين متر ومترين إلى محيط الدائرة . وهذه الجدران التى تبدأ بارتفاع عشرة سنتيمترات عند محيط الدائرة تأخذ جميعها فى الارتفاع فى خط منحنٍ إلى ارتفاع مترين أو ثلاثة فى الوسط . وقد ملئت جميع الفراغات فى الدائرة ماعدا الدهليز بالرديم . وتنفتح من وسط الجانب الجنوبى من الدهليز حجرة ذات سقف مقبى من اللبن وبذلك تصبح المقبرة معدة للدفن وقد أقيم حفل جنزى كبير ضحى فيه بأكثر من ألف ثور دفنت رءوسها حول النصف الجنوبى من الدائرة من الخارج . وبعدئذ دفن جسد الأمير فى الحجرة المقبية مع قرابينه ثم أغلق الباب الخشبى . وكانت الضحايا الآدمية وجميعها من النوبيين المحليين إما أن تخدر بعقار أثناء الحفل وإما أن تخنق وتحضر لترقد فوق أرضية الدهليز وقد يتراوح عددها بين مائتين أو ثلثمائة من الرجال والنساء والأطفال . ومع هؤلاء النوبيين كانت توضع بضعة أوان وقدور وغالباً أدوات الزينة الخاصة بهم . وبعد ذلك يملأ الدهليز بالرديم مكوناً كومة واطئة مقبية وقد غطيت القمة بأرضية من اللبن كما وضعت هريمة (هرم صغير) من حجر الكوارتزيت فوق القمة . وإنى أعتقد أن هيكلاً من اللبن كان يبنى حول الحجر «مجلة متحف الفنون الجميلة ، بوسطن الجزء ١٣ ، رقم ٨٠ ، ص ٧٢)[١] .

---

(١) — Reisner, Bulletin of the Museum of Fine Arts , Boston , (Vol . XIII , No . 80 , p . 72) .

ومما لاشك فيه أن حب جفا وزميليه الحاكمين الآخرين بالإضافة إلى نواب أو حكام الأقاليم الذين شغلوا أكواماً صغيرة فى الجبانة وأفراد عائلاتهم الذين بدأوا بعد دفن الأمير مباشرة استعمال مقبرته الكومية لجبانة فرضت فيها نقش الضحايا البربرية من النوبيين على نطاق أقل[1] التمسوا العذر لأنفسهم بأنهم إنما كانوا يتبعون العادات الوطنية ، وأن مثل هذا الأمير المصرى لا يرتضى لنفسه أقل مما اعتاد الأمراء الوطنيون أن يظفروا به من أتباعهم ولكن الإنسان يستطيع أن يدرك أن إباحته مجزرة بشرية من أجل حاكم وطنى قد تكون شيئاً غير محبب عندما يفرضها ممثل أجنبى لشعب من الفاتحين المكروهين ولسنا فى حاجة إلى أن ننظر بعيداً لنعرف السبب الذى أدى إلى اقتحام المركز التجارى وإحراقه عندما ضعفت قوة مصر . إنما الشىء الغريب هو أن نرى مصرياً مستنيراً فى عصر متحضر من عصور تاريخ بلاده يسمح لنفسه بالتفكير فى العودة إلى الأعمال الوحشية فيما يتصل بمراسيم دفنه ولكن مثل هذه العودة لها مثيل فى تاريخ معاملات الشعوب المتحضرة مع تلك التى أقل منها تحضراً ، فالنور لا يقهر دائماً الظلام ، فقد يكون العكس هو الصحيح غالباً .

أما عن البقية فالأشياء التى عثر عليها الدكتور ريزنر فى جبانات كرما كانت ذات طراز وصناعة مصرية ، ولكن من مواد محلية . ومن الواضح أن المصانع المحلية أخرجت تحت إشراف الصناع المصريين النماذج المألوفة فى مصر . أما الأشياء غير المصرية فكانت من صناعة محلية وقد دلت على مهارة كافية فى الصنعة أعظم بكثير من تلك الأشياء التى تنسب إلى المدرسة الوطنية للصناعة قبل الاحتلال المصرى . ومن الواضح أن النوبة تعلمت من مصر ، ولكن مما يؤسف له أن مصر تعلمت أيضا من النوبة فالعادات التى أخذتها عنها لم تكن حسنة .

---

(١) الفكرة الشائدة الآن أن حب جفا لم يكن سببا فى دفن النوبيين بعد فضيحتهم بسبب موته فى كرما .

الفصل الثانى والأربعون
نباتا (جبل برقل) ومروى

قبل أن نصل إلى الأطلال الهامة للمملكة الأثيوبية الأولى فى كورو ونباتا ونورى ، يحسن بنا أن نورد وصفاً مختصراً للقصة الغريبة لقبيلة الليبيين الذين يحتمل أنهم غزوا اثيوبيا من الواحات الغربية حوالى ٩٥ ق . م واتخذوا لأنفسهم التقاليد المصرية وعبادة آمون التي وجدوها هناك منذ الأسرة العشرين من الأسرات المصرية وأصبحوا يعتبرون أنفسهم تدريجياً الحماة الحقيقيين للعقيدة الخاصة لآمون والورثة الحقيقيين للحضارة المصرية وأخيراً تحت قيادة الفاتح المشهور بيعنخى - فتحوا أرض مصر جميعها التى كانت تعانى وقتئذ من إحدى سقطاتها الدورية من الشقاق ووجدوا تحت إمرتهم - لفترة ما - وادى النيل كله من البحر الأبيض المتوسط حتى الخرطوم ولم يكن ملوك الأسرة الخامسة والعشرين أو الأثيوبيين موفقين فى محاولتهم التى جاءت متأخرة كثيرا إذ كان عليهم أن يستعدوا للدخول فى صراع مرير مع القوة الضاربة تحت إمرة اسار حدون وآشور بانيبال التى برهنت بما لا يدعو إلى الشك على تفوقها عليهم ، ولكن مع ذلك فإن تطلعهم لإقامة امبراطورية كان شيئا رائعاً وبخاصة إذا أخذنا فى الاعتبار الأساس الواضح البعيد الذى قدمت منه فضلا عن قلة سكان المملكة الأثيوبية الذين قدموا القوات التى أقامتها .

ويجدر بنا أن نتذكر أنه بعد انتهاء الأسرة العشرين استولى كهنة آمون على عرش الرعامسة وأقاموا - لفترة ، اقتسم فيها نس بانبدد (سمندس) فى تأسيس حكم مصر مع الملوك الكهنة فى طيبة - حكماً ضعيفا وشائناً لمدة مائة وخمسين عاماً تقريباً . وخلال الجزء

الأخير من حكمهم أخذت سيطرتهم على الدلتا وحتى مصر الوسطى تفلت منهم تدريجياً ، واستطاع أحد رؤساء التمحو الشماليين أو الليبيين - وكانوا لفترة طويلة مصدر تهديد لحدود مصر الغربية - أن يقيم نفسه حاكماً فى هيراكليوبوليس . وقد خلف بويا واوا فى هيراكليوبوليس عدة رؤساء من أسرته ، وأخيراً انتهز أحدهم وهو شيشنق فرصة ضعف الأسرة الواحدة والعشرين فأقام نفسه فى بوبسطه كفرعون للبلاد بأجمعها . وقد أصابت الأسرة التى اقامتها ، وهى الأسرة الثانية والعشرون بعض النجاح لمدة مائتى عام تقريباً . وقد خلفتها الأسرة الثالثة والعشرون وهى أيضاً من أصل ليبى وقد حكمت مصر الضعيفة والمنقسمه لعدة سنوات غير محددة ربما لا تزيد عن ثلاثين عاماً أما الأسرة الرابعة والعشرون فتتكون من الملك الوحيد باك - أن - رنف أو بوخوريس الذى حكم فقط لمدة ست سنوات أو ما يقرب من ذلك عندما انتهت حياته واسرته فجأة ، وكانت سيطرته غير كاملة إذا كانت مصر فى ذلك الوقت قد وقعت ثانية فى حالة الانقسام التى أنقذها منها لفترة ما الملوك البوبسطيين الأوائل فى الأسرة الثانية والعشرين وكانت فى حالة من الفوضى لا يمكن وصفها إذ كان يجلس على عرشها مستعبدون صغار فى صورة ملوك يحتفظون لمدة قصيرة بالسيطرة على مقاطعات صغيرة إلى أن يلتهمهم مستعبدون آخرون من طبقة مماثلة . وقد وضع الغزو الأثيوبى - الذى سنتحدث عنه الآن - على الأقل نهاية لهذه الفوضى مؤقتا . وإذا كان الفراعنة الأثيوبيون قد فشلوا أخيراً فى صد أشور ، فليس هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن الطغاة المتنازعين الذين سبقوهم كانوا يستطيعون حتى أن يعملوا أو يكافحوا مثل ما عملته الأسرة الخامسة والعشرون .

ولنا أن نقول إن هؤلاء الرؤساء الليبيين الذين ننظر إليهم كمتسلطين على السكان الأصليين مع أنه لم يكن لهم صلة بهم كما فعل النورمانديون فى صقلية قد وجدوا فى نباتا حضارة لها أصولها المصرية القوية مالكة لهذه الأرض فلقد رأينا الدولة الوسطى فى مصر قد تشربت نقيها وصناعتها كمركز ثان لحضارتها ولكن بعيداً عن أرض الوطن وهذا الاحتلال الرسمى والتجارى قد محى بالعصور المضطربة للعصر المظلم المعروف باسم الاضمحلال الثانى وباحتلال الهكسوس للبلاد . ولقد سبق ورأينا عوامل الاضمحلال ظاهرة فى المحطة التجارية التى أحرقت فى كرما - على أن قيام الأسرة الثامنة عشر قد شاهدت تثبيت أقدام الاحتلال المصرى للسودان وكان توزى أول حكام أثيوبيا عام ١٥٥٠ ق .م وهو الذى سجل اسمه فى أورانارتى - ولمدة خمسة قرون كانت البلاد محتلة من مصر يديرها الحكام الذين لدينا كشف كامل عنهم وإن كان ناقصا بعض الشىء فى الأسرة العشرين .

ومدة خمسة قرون فترة طويلة نسبياً ، وهى فترة تعود بنا فى بلادنا إلى أيام احفكوريت تقريباً ، وقد حدث الكثير فى ذلك الوقت ويمكن أن ندرك كم كان تمصير أثيوبيا مؤثراً ومنتشراً نتيجة للتواجد الراسخ والضغط فى مثل هذه الفترة لحضارة حية وقوية على بلاد سبق

آن خضعت فى ماضيها لعصر أقدم له مثل هذا التأثير . وقد نزل الدخلاء الليبيون فى بلاد سبق أن تسربت إليها الفنون والصناعات المصرية والعادات الدينية والأفكار المصرية ، ولم يكن فى الإمكان أن يمر زمن طويل دون أن يتجلى الأثر المصرى على الأجانب وفضلا عن ذلك فإن الوقت الذى كانت فيه القوى الليبية تنمو فى أثيوبيا كان هو نفس الوقت تماماً الذى كان فيه تأثير كهنة آمون فى أوج قوته فى كل من مصر وأثيوبيا . ومنذ بداية تدهور الأسرة العشرين كانت مصر الجنوبية والنوبة فى الواقع تحت سيطرة كهنة آمون فى طيبة . ومهما كان ضعف الملوك الكهنة فى الأسرة الواحدة والعشرين - مثل كل ملوك الكهنة - فإن كهنة آمون فى مصر وأثيوبيا نجحوا فى أن يثبتوا بين الأثيوبيين العقيدة الراسخة بأن أثيوبيا كانت منطقة نفوذ خاص لآمون ، وهو اعتقاد وجد فى النهاية توضيحاً فى الرواية القائلة بأن أثيوبيا كانت الموطن الأصلى لآمون وعبادته بل والشعب المصرى وكان ينظر إلى جبل برقل ، تلك الصخرة المنعزلة العجيبة التى ترتفع فوق أطلال نباتا ، كأنه الجبل المقدس لآمون . وكانت إرادة آمون كما عبر عنها كهنة معابده فى أسفل سيناء الأثيوبية أقوى من صولجان ملوك البلاد الليبية الذين لم يفكروا قط فى الوقوف أمام مشيئة آمون بل على العكس من ذلك تقبلوها واستخدموها فى التصديق على خططهم وبخاصة مشروع فتح مصر .

وعندما دخل الملوك الليبيون لأثيوبيا مصر بجيش فاتح فإنهم ظهروا كمدعين غيورين لعقيدة آمون القديمة ضد الالحاد والبدع الدينية التى كانت تقسم مصر . وكان انتصارهم انتصاراً لعقيدة صحيحة أكثر تحفظا من عقيدة طيبة نفسها ، ولهذا فسوف نرى أن غزو مصر على يد الاسرة الأثيوبية كما تسمى لم يكن غزو بربرية وسط افريقيا - كما توصف أحياناً بحضارة قديمة ، بل على العكس من ذلك كان غزو شعب ، لم يكن إثيوبيا أصلا ، يحكم ويستعمل لمصالحه الخاصة القبائل الوطنية بالبلاد . لقد كان غزواً - ليس لأغراض بربرية ، تتعارض مع الحضارة ، بل لأهداف الحضارة المصرية نفسها على أيدى أناس تقبلوا الحضارة المصرية وادعوا أنهم فرسان لحضارة يمثلونها فى إخلاص أكثر من المصريين الذين حاربوهم .

وفاتح مصر هو بيعنخى بن كاشتا وكان قد أمضى عدة سنوات فى التهام مصر العليا وسيطر عليها فى عام ٧٢١ أو ٧٢٢ق . م عندما اثارته المنازعات المستمرة واعتداءات أمراء الدلتا فعمل على أن يضع حدا لها ويستعيد وحدة البلاد بالاستيلاء عليها وقد سجل قصة حملته على لوحة أقامها فى نباتا عند عودته وهى الآن بالمتحف المصرى (رقم ٩٣٧ ، القاعة ٣٠ بالطابق السفلى ، شرق) وفى هذا النقش الرائع كشف بيعنخى عن نفسه كشخص غير متبربر ولكن كحاكم متحضر وكريم ، يتصف بالرحمة بأعدائه عند استسلامهم وكذا برقة القلب نحو الحيوان وبخاصة الجياد التى يكن لها شعورا خاصا كما سنرى وفوق ذلك إخلاصه لآلهة مصر وبخاصة آمون ومثابرته على خدمتها .

وكان من الممكن أن يوفق هو وخلفاؤه فى إقامة نهضة مصرية لولا الحقيقة بأن عملهم بدأ بالكاد قبل أن يضطروا إلى ملاقاة قوة أشور . وكانت المسابقة بين الفريقين غير عادلة تماما وربما كانت كذلك حتى ولو لم تكن مصر قد أصابها الضعف كما كانت . وقد حاول شباكا خليفه بيعنجى ومشباتاكا وطهارقه وتانوت آمون الوقوف فى وجه الجيوش الاشورية ولكنهم جميعا فشلوا وكان أمام كل من طهارقه وتانوت آمون بارقة من الأمل ولكن لم يكن لديهما الرجال أو التدريب الكافى للوقوف أمام الجنود الأشوريين المحترفين . وفى النهاية تغلب عليهما الأشوريون . وأخيرا كف تانوت عن الكفاح اليائس وتراجع نهائيا إلى نباتا تاركا مصر للغزاة الأشوريين الذين لم يكن مقدرا لهم أن يضعوا ايديهم عليها لمدة طويلة .

ويبدو أن تانوت آمون توفى فى ظل هزيمته حيث إن هرمه فى كورو كان متواضعا جدا ، وعليه فإن مدة امبراطورية الفراعنة الاثيوبيين كانت قصيرة جدا لم تستمر أكثر من خمسة وثمانين عاما ولكن اثيوبيا رغم أنها أصبحت الآن مجردة من امبراطورية لم تتمكن من الاحتفاظ بها لمدة طويلة فى أى حال انتعشت بعد هزيمتها واستمر فرع من الملوك الأثيوبيين الليبيين فى نباتا لمدةثلاثمائةوستين سنة (٦٦١ ـ ٣٠٠ ق .م) عندما انتقلت السلطة إلى الفرع الجنوبى من السلالة الذى حكم فى مروى حتى السقوط النهائى فى ٣٥٠ ميلادية وعليه فاننا نرى فى المملكة الأثيوبية تاريخ حضارة مصرية أكدت نفسها لقرون عدة تحت حمى قبيلة من الليبيين فى وسط البربرية النسبية للسودان .

ويمكننا تتبع الخطوات التدريجية التى احتفظت فيها الحضارة المصرية فى البداية ولمدة طويلة فى نقاء نسبى عن طريق الاحتكاك المستمر مع المقاييس والأصول المصرية وأخيرا تدهورت وأصبحت شيئا فشيئاً فاسدة إلى أن ابتعدت عن مستوى سلفها وأصبحت تقريباً أكثر سوءا من البربرية . وقصة المملكة الأثيوبية قصة طريفة وجديرة باهتمام أكثر مما يبذله عادة دارس التاريخ المصرى القديم ونحن مدينون بالكشف عن الكثير من المادة التى تبرزها وتؤكدها إلى أعمال الدكتور ريزنر التى سنذكرها الآن .

وإذا تتبعنا مجرى النهر صاعدين نلتقى بأول اتصال بمخلفات المملكة الأثيوبية فى كورو رغم أن المسافر الذى يتخذ الخط الفرعى من أبى حمد إلى كاريما سوف يصل طبعا إلى نباتا ونورى أولا . ونقع كورو على مسافة ثمانية أميال تقريبا شمالى كاريما ، وعلى بعد دقائق قليلة سيرا من النيل على الضفة الشرقية . وفى مقابلها تقريبا على الضفة الغربية تقع ما يسمى منطقة أهرام تانجى التى لا تستحق هذا الاسم إذ أن مقابرها ليست إلا مجرد مقابر كومية من تاريخ متأخر . ونفس هذه الملاحظة تنطبق أيضا على منطقة أخرى تسمى خطأ منطقة أهرام روما التى تقع على الضفة الشرقية على مسافة قليلة جنوب غرب منطقة أهرامات كورو. وأهرامات كورو هى أهرامات حقيقية وبجوارها عدد من المصاطب والمقابر الكومية من تاريخ أقدم ، وهنا كشف الدكتور ريزنر فى ١٩١٨ ـ ١٩ أهرامات لأربعة من

أهم ملوك الأسرة الخامسة والعشرين ونعنى بهم بيعنجى وشباكا وشاباتاكا وتانوت امون وهذه الأهرامات ضئيلة ومخربة ولكن أهميتها أكبر من حجمها أومما توحى به حالتها وبالإضافة إلى ذلك فإن بعض معابد أهراماتها مثل معبد المقبرة المتواضعة لتانوت آمون العاثر الحظ لا تزال تحتفظ بمناظرها وتستحق الزيارة كمثل للصناعة المصرية فى أماكن بعيدة . أما طهارقة الملك الأخر فى الأسرة الخامسة والعشرين فليس هنا إنما فى نورى . ويرجع تاريخ أكبر هرم فى كورو إلى عصر متأخر كثيرا عن الأهرامات التى سبق ذكرها إذ يقع تاريخه بين الملك التاسع عشر والعشرين من سلسلة الملوك الذين وجدت أهراماتهم فى نورى أى أنها ترجع تقريبا إلى نهاية الأسرة الملكية النباتية .

وأهرامات ملوك الأسرة الخامسة والعشرين الذين دفنوا فى كورو صغيرة ، فمثلا مساحة هرم شباكا المعروف بكو ١٥ حوالى ٣٩ قدما مربعا فقط ، كما أن مبانيها رديئة ، وهى من النوع النحيل الذى يختلف تماما فى المظهر عن النوع الأكثر رسوخا بمنطقة الجيزة ، ويمكن الوصول إليها بواسطة درج ينفتح خارج باب معبد الهرم وقد كان بيعنخى الفاتح أول ملوك الليبيين الأثيوبيين الذى استعمل الطراز الهرمى لمقبرته ، أما والده كاشتا فقد بنى مصطبة كما فعلت الأجيال الثلاثة من الحكام الذين سبقوه وقد استخدم الجيلان السابقان لهذه الأجيال طريقة للدفن أكثر بساطة من المصطبة فقد أقام الجد الأول للحكام الليبيين مجرد مقبرة كومية مستديرة أما الجد الثانى فقد احتفظ بالشكل الكومى غير أنه كسا الكومة بالحجر الأبيض الجميل وأحاطها بسور على شكل حدوة الحصان كما أقام معبدا جنازيا من اللبن . وبذلك أبرزت مقابر كورو سبعة أجيال من المبانى الجنائزية فالجبلان الأولان منها من الطراز الكومى والثلاثة التالية من طراز المصطبة والسادس من نفس النوع ولكن اتجاهه من الشرق إلى الغرب أما السابع فمن الطراز الهرمى الذى استمر كطراز عادى للمقابر الملكية حتى نهاية الأسرة النباتية التى تلتها الأسرة الجنوبية فى مروى .

ويتوج قمة الرابية فى كورو كومة من الدبش غير مرتفعة تميز المقبرة الكومية « للجد الأول » وعلى جانبى هذه الكومة وأمامها على المنحدر المتجه إلى النهر توجد خمس مقابر كومية أخرى ، وبعد ذلك تقوم بين هذه المقابر والهرم الكبير للملك المتأخر ثمان مقابر من طراز المصطبة تمتد مباشرة إلى واجهة المنحدر . وأمام هذه تقوم أهرامات بيعنخى وشباكا وتانوت آمون بينما يقع هرم شباتاكا بعيدا إلى الخلف وراء نهاية صف المصاطب . وبالقرب إلى الجنوب والشمال تقع مجموعات مقابر الملكات ، ولسوء الحظ نهبت المقابر تماما ، ومع ذلك فإن الأشياء التى وجدت بها تشهد بوضوح على استمرار نفس الحقيقة التى تشاهد فى كرما إبان عصر الدولة الوسطى ، بمعنى أن الحضارة والفن الممثلين لم يكونا محليين بل كانا مصريين صميمين ، وتدريجيا أصبح التقليد الجميل للفن والصناعة المصرية ملطخا وغامضا بمرور الزمن ، ونتيجة للاتصال المستمر بالمحيط الوحشى . ولكن فى نهاية الأسرة النباتية

ظهر بصفة قاطعة مصريا . وقد أخذت الأسرة المروية التى تلتها النسخة الأثيوبية للتقاليد المصرية التى أقلعت عنها نباتا .

ومن المظاهر التى تلفت النظر فى كورو جبانة الجياد التى وجدت على مسافة قصيرة من مقابر زوجات بعنخى ، فهى تحوى أربعة صفوف من مقابر الجياد أولها يضم أربعة جياد لبعنخى ، وفى الصفين الثانى والثالث ثمان مقابر لجياد شباكا وشباتاكا ، أما الصف الرابع فيضم أربعة جياد لتانوت آمون وبذلك يكون لكل ملك أربعة جياد . ومن الجلى أن الجياد الأربعة كانت تضحى لتذهب أرواحها مع ملكها فى العالم الآخر لخدمته هناك ، كما فعلت أرواح مئات الخدم الذين قدموا ضحية فى مقبرة حب جفا . وكانت جميع الجياد الأثيرة تدفن واقفة ورؤوسها تتجه إلى الجنوب المحلى ، ولم يعثر على عجلات وقد نهبت جميع المقابر ، ولكن ما كشف يكفى للدلالة على أنها كانت مزودة بالسروج المحلاة ومعظمها من الفضة المذهبة . ومن الطريف أن نذكر أن بعنخى الذى بدأ عادة دفن الجياد كان هو نفسه مغرما بها كما يبدو من غضبته عندما وجد ـ بعد أن استسلمت مدينة أحد الحكام المصريين بعد حصار طويل ـ أن الجياد فى اسطبلات عدوه تكاد تموت جوعا « كما أعيش ، وكما أحب رع ، وكما تتنفس أنفى الحياة ، فكم يحز فى قلبى هذه الأشياء ، جوع جيادى أشد قسوة من أى سوء عملته فى تحقيق أمنيتك» . وقد يشك فيما إذا كانت الجياد الأربعة المختارة تقدر شرف موتها لترافق الملك بعنخى ، ولكن مما لا شك فيه أنه كان يقصد الخير .

ويمكن مشاهدة مقابر كورو بواسطة الخفير ، ولكن لابد من أخذ تصريح بذلك من المسئولين فى مروى .

وعلى مسافة ميل ونصف تقريبا جنوبى كاريما تقوم صخرة الحجر الرملى الكبيرة المسطحة القمة بطول يزيد عن نصف ميل وارتفاع يزيد عن ٣٠٠ قدم وتعرف باسم جبل برقل الذى يطل على مدينة نباتا عاصمة الملوك الأثيوبيين الأوائل والتى تقع على جانبى النيل .

وقد سبق أن شرحنا كيف أن الإقليم الأثيوبى أصبح قلعة لعبادة آمون وكيف ينظر إلى جبل برقل كأنه الجبل المقدس لعبادة آمون وقد كان أعظم وأزهى عصور نباتا هو - دون شك - عصر الأسرة الخامسة والعشرين عندما كان ملوكها الليبيون يحكمون فعلا مصر كما كانوا يحكمون أثيوبيا ، وعندما كان بعنخى وشباكا وشباتاكا وطهارقه وتانوت آمون حكاما عظاماً رغم سوء الطالع الذى حل بالملوك المتأخرين أثناء صراعهم مع أشور . وبعد سقوط المقاومة الأثيوبية أيام تانوت آمون يبدو أن رخاء المملكة تدهور لفترة قصيرة ولكن خلفاءه ، رغم أنهم لم يعودوا يطالبون بالسيطرة على مصر عملوا على استعادة قدر من الرخاء لأرضهم ، ربما لأنهم لم يعودوا قادرين على حمل مسئولية المحافظة على سيطرتهم على إمبراطورية شمالية أكبر من أن يسيطروا عليها وقد ترك بعض الملوك المتأخرين مخلفات هامة

من أعمالهم فى نباتا تدل على أنهم كانوا يسيطرون على موارد كبيرة حصلوا عليها من سيطرتهم على طرق التجارة إلى الجنوب وإلى مناجم الذهب .

وقد كان معروفا منذ زمن طويل وجود آثار هامة فى نباتا . ومن أوائل الزائرين لهذه المنطقة هانبرى وواد نجتن وكايو ، وآخرهم كان الوحيد الذى أضاف الكثير إلى معلوماتنا عن (الأثيوبيين الذين لا غبار عليهم) . وقد قام لبسيوس بمسح المنطقة أثناء بعثته الكبيرة عام ١٨٤٤ غير أن فضل الكشف العلمى المنظم للمنطقة يرجع إلى الدكتور ريزنر الذى بدأ حفائره فى يناير ١٩١٦ بتنظيف الأهرامات الصغيرة التى تقع خلف جبل برقل وبالكشف عن المعابد المختلفة التى تقوم بالقرب من الجبل المقدس ، وقد واصل الكشف عن منطقة أهرامات نورى فى ١٩١٦ - ١٨ ومنطقة أهرامات كورو ، التى سبق ذكرها ، فى ١٩١٨ - ١٩[1] .

وقد أسفر العمل فى الأهرامات الصغيرة خلف جبل برقل - التى كشفت أولا - عن نتائج مخيبة للآمال ، فقد نهبت جميعها منذ مدة طويلة ولم يعثر فيها إلا على سوار مطعم بالذهب وبعض القطع المهشمة . وقد أثبتت على أنها ليست مقابر الملوك النباتيين بل إنها ترجع إلى العصر المروى حوالى القرن الأول قبل الميلاد . أما معابد نباتا فقد حققت نتائج مجزية فمعبد آمون العظيم الذى يقع إلى جانب الجبل المقدس بالقرب من النهر دل على أنه «مكان متسع يضاهى أياً من المعابد المصرية الكبيرة فيما عدا الكرنك» (ريزنر - مجلة متحف الفنون الجميلة ، بوسطن ، الجزء الخامس عشر ، رقم ٨٩ص ٢٨) . وكان موقعه معروفا بالطبع منذ مدة طويلة وقد شاهد الزوار الأوائل للمنطقة قاعدة المذبح المصنوع من حجر الجرانيت الأسود والرمادى الذى يحمل على التوالى اسم بعنخى الفاتح واسم طهارقه الذى لم يكن حسن الحظ كسلفه لأن خصمه لم يكن أقل كفاءة من سناحاريب ولم يبق من المعبد الأصلى إلا القليل مما لا يهم غير عالم الآثار ، فقد دمرت الحجرات المختلفة ولم يبق منها غير أساساتها . وقد أظهرت حفائر الدكتور ريزنر أن المعبد أسس أولا فى الأسرة التاسعة عشرة بواسطة حور محب وسيتى ورمسيس الثانى وقد بنى رمسيس مقصورة إضافية فى الجنوب (الجنوب المحلى) كما كسا بعنخى المعبد كله بالحجر الرملى الأحمر وأعاد بناء أعمدة الفناء ومن المحتمل أنه حول صالة الأعمدة إلى ثلاث حجرات ، وهذا التعديل قد يكون من عمل طهارقه . وقد جدد المعبد فيما بين ٥٥٠,٥٠٠ق.م . ونقلت التماثيل المحطمة للعديد من الملوك الأثيوبيين من المعبد لتكتشف على يد ريزنر وسنشير إلى ذلك توا . وقد أعيد بناء المعبد ثانية فى العصر الرومى المبكر وانتهى تاريخه المتغير فيما يخص بالبناء بتجديد جدرانه بطلاء رمادى فى العصر الرومانى .

---

(١) أكمل التقارير الخاصة بالحفر مساعده دوزدنهام .. Dowes Dunhamولازال يقوم بالنشر عنها رغم أنه تجاوز الخامسة والثمانين والآن يقوم الأستاذ سيرج دونادونى بالحفر والكشف عن آثار أخرى .

وفيما عدا تتبع تاريخ المعبد الكبير ، فإن أهم نتائج الحفر كان كشف التماثيل المحطمة للملوك التى وجدت ملقاة خارج المعبد أثناء تجديده فى المدة ما بين ٥٥٠ - ٥٠٠ق.م . وقد عثر على قطع التماثيل الملكية مبعثرة فى كل مكان ، ولكن أثناء الحفر ظهرت قطع معقودة فى حالة جيدة حتى أنه أمكن فى النهاية تجميع خمسة تماثيل كاملة لطهارقة وتانوت آمون وامون أنال وأسبالتا وسنكا - آمون - سكن ، وذلك بالإضافة إلى أربعة تماثيل دون رؤ وس منها اثنان لتانوت آمون وواحد لأمون أنال وواحد للملكة آمون مرنفر وتماثيل طهارقه وتانوت آمون وآمون أنال وأسبالتا «هى صناعة مصرية بالدرجة الأولى وتبرز بوضوح تام كيف استمرت التقاليد المصرية للفن فى أزمانهم» أما التماثيل المتأخرة الخاصة بسنكا آمون سكن والملكة آمون مرنفر «فتظهر تدهوراً واضحا يتمثل فى فقدان المهارة وفقدان الوسائل التى يمكن بها استخدام المهارة (ريزنر - مجلة متحف الفنون الجميلة - بوسطن ، الجزء الخامس عشر رقم ٨٩ص ٣٠) .

والمعبد الذى يطلق عليه معبد سنكا - آمون - سكن الذى كشف أخيرا ثبت أنه أسس فعلا وتم بناؤ ه تقريبا فى عهد ملك يدعى اتلانرسا الذى أتى بين أسبالتا وسنكا آمون سكن وحكم حوالى سنة ٦٥٠ق.م أو بعد ذلك ويقع هذا المعبد بالقرب من معبد تحتمس الرابع (الأسرة ١٨) الذى يحتمل أنه كان متهدما عندما بنى المعبد الأحدث ولم يكن إتلانرسا موفقا فى اختيار موقع معبده إذ كان قريبا من الجبل بحيث أنه تخرب جزئيا فى أكثر من مرة نتيجة لتساقط صخور كبيرة من قمة الجبل المقدس ولابد أن التساقط الثانى للصخور قد اقنع الكهنة بأن آمون غاضب لإقامة المعبد بالقرب من موطنه بدليل أنه هجر منذ هذا الوقت واستخدم أخيرا كمحجر ومنذ أيام لبسيوس أظهر سقوط آخر للصخر أن آمون لم يسعد بالتخريب التدريجى للمعبد السىء الطالع . هذا ويقع معبدان صغيران منحوتان فى الصخر بعيدا عن الجانب الأيسر من المعبد الكبير عند زاوية الصخرة الكبيرة ، كما يقع معبد صغير آخر قريبا من المعبد الكبير على الجانب الأيسر منه ، ويبدو أن هذا المعبد قد أقامه كاشتا أو ربما بعنخى ، وأعيد بناؤ ه من الحجر الرملى المائل إلى الحمرة على يد ملك متأخر ، من المؤكد بعد عام ٥٠٠ ق.م . وأخيرا أعيد بناؤ ه فى العصر المروى بعد القرن الأول الميلادى .

وعلى بعد أربعة أميال جنوبى كاريما تقع قرية نورى ومنها أخذت مجموعة الأهرامات التى تقع فى الصحراء على بعد ميلين من القرية ، اسمها وهى تضم هرما كبيرا يبلغ حجمه ضعف أى من الأهرامات الأخرى وأربعة عشر هرما من أحجار متساوية تقريبا أو أكثر من عشرين هرما صغيرا وقد بدأت بعثة هارفرد - بوسطن عملها فى نورى فى نهاية موسم ١٩١٦ وسرعان ما تكشف لها أن الهرم الذى كشفته أولا هو هرم الملك أسبالتا خليفة تانوت آمون ، وقد بنى هذا الهرم بالحجر الرملى الرمادى الجيد ، ونهب فى العصور القديمة . ولكن من

المحتمل أنه نتيجة انهيار سقف إحدى الحجرات اضطر اللصوص إلى الهروب السريع تاركين أشياء قليلة مما سلبوه مبعثرة على الأرضية .

وتقع أهرامات نورى على هضبة واطئة غير بعيدة من النيل . وللهضبة شكل حدوة الحصان طرفها المفتوح يتجه نحو الجنوب المحلى أى المجرى الصاعد (تحدد الاتجاهات محليا ليس بالشمال الحقيقى وغيره بل بجريان النهر ، فالمجرى الهابط هو الشمال والمجرى الصاعد هو الجنوب أما الشرق والغرب فهما على يمين ويسار النهر . ولما كان المجرى عند نورى يسير إلى الجنوب الغربى الحقيقى فإن ذلك يعنى بوجه التقريب أن مؤشرات البوصلة تكاد تكون معكوسة) ، ويحيط بالهضبة من الجانبين الشمالى والجنوبى واديان وعلى جانبها الشرقى نجد أن مجموعة أهرامات حدوة الحصان يشرف عليها الهرم الكبير السابق الاشارة إليه والذى تبلغ مساحة قاعدته حوالى ١٦٩ قدما مربعا وهو محاط من جوانبه الثلاثة بمجموعة كبيرة من الأهرامات الصغيرة مقاساتها بين ٧ ، ١٢ مترا مربعا (حوالى ٢٣ , ٣٩ قدما) ومقدمة حدوة الحصان وجانبها الغربى مشغول بأربعة عشر هرما كبيرا وخمسة أهرامات صغيرة .

والهرم الكبير هو أول ما كشفته بعثة موسم ١٩١٦ فى ٢٦ أكتوبر وقد وجد أن معبده قد خرب تماما ، غير أن قطعة من تمثال حجرى وجدت فى درجة كانت تحمل اسم طهارقة ترهاقه ملك كوش ، كما ذكر فى سفر الملوك الثانى بالإصحاح التاسع عشر ، خليفة شباتاكا . وقد نحتت حجرات الهرم فى الصخر الصلد ويؤدى السلم إلى حجرة أمامية صغيرة ، ومنها يؤدى ممر إلى صالة متوسطة كبيرة قسمت بواسطة ستة أعمدة مربعة إلى طريق متوسط وجناحين جانبيين . وعلى جانبى الباب المؤدى إلى الحجرة الأمامية مدرج قصير يصل إلى دهليز يحيط إحاطة تامة بالصالة المتوسطة ، وينفتح منه فى الخلف باب يؤدى إلى مدرج نازل قصير . وكانت الصعوبة الكبرى فى الحفر هو غمر الحجرات بمياه رشح النيل ، ولكن أمكن التغلب على ذلك مؤقتاً ، ورغم أن المقبرة قد نهبت فقد عثر على مايربو على ألف تمثال مجاوب (شوابتى) وقطع قليلة من تابوت ، وأدوات جنزية تضم أناءين من الأوانى الكانوبيه ، وحلى قليلة من الذهب سقطت من اللصوص إثناء أسراعهم فى الهرب ، وكلما تقدم الحفر تبين أن الأهرامات التسعة عشر التى تقع فى مقدمة حدوة الحصان وعلى الذراع الغربى كانت مقابر ملكية تنسب إلى خلفاء طهارقة من الفرع النباتى ، بينما كانت الأهرامات الصغيرة على الذراع الشرقى بجانب هرم طهارقه وعددها ثلاثة وخمسون هرماً - مقابر ملكات وأميرات من نفس الفرع . والنتيجة الخالصة للحفائر التى استمرت أعوام ١٩١٦-١٧-١٨ هى أن جميع مقابر ملوك وملكات أثيوبيا من الفرع الشمالى قد تم كشفها ما عدا مقابر ملوك وملكات الفرع الذين دفنوا فى كوروكما سبق وصف ذلك . . ونعنى بهم كاشتا وبعنخى وشاباكا وشباتاكا وتانوت آمون وزوجاتهم .

وأهرامات نورى مثل أهرامات كورى من النوع النحيل لها بزاوية قدرها ٦٨° تقريباً وكل منها مقام داخل حوزة صغيرة ، وله مقصورة للقربان تقع فى واجهته الغربية (الاتجاه المحلى) وفى النهاية الشرقية (الاتجاه المحلى) من المقصورة وضع شاهد فى الواجهة كما وضعت مائدتا قربان ومذبح فى وسط أرضية المقصورة أمام الشاهد . وخارج باب المقصورة يهبط درج طويل إلى الحجرات السفلية وعددها عادة اثنتان أو ثلاث . وتضم الحجرة الداخلية التابوت المصنوع من الخشب عادة وفى حالتين من الجرانيت ، وفيه كانت توضع المومياء وكان التابوت يوضع داخل تابوتين أو ثلاثة بهيئة المومياء . وكانت ترص حول جدران هذه حجرة تماثيل الشوابتى وصناديق متنوعة تحوى الأدوات الجنزية ، أما الأوانى الفخارية فكانت تخزن عادة فى الحجرات الخارجية . وقد نهبت كل هذه الأشياء ومن المحتمل بعد هجرة الجبانة ، ولابد أن هذا قد حدث حوالى ٣٠٠ - ٢٥٠ق .م أى بعد انتقال العاصمة مباشرة من نباتا إلى مروى . وقد أغفل اللصوص بعض الأشياء فى كل مقبرة وكان نتيجة كشف مثل هذه الأهرامات الملكية الكثيرة - تجمع مجموعة كبيرة من الأدوات على جانب كبير من الأهمية حيث أنها تمثل أحسن ما أنتجته صناعة أثيوبيا الممصرة ، ومن المحتمل أنها تمثل كل ما ظهر من أعمال الفنانين والصناع الذين عملوا فى خدمة البيت الملكى الذى حكم - لمدة ثمانين عاماً أو نحو ذلك - مصر وأثيوبيا والذى سيطر لمدة ثلاثة قرون أخرى على أثيوبيا سيطرة كانت تتضاءل تدريجياً مع التدهور المتدرج للتقاليد المصرية . يقول الدكتور ريزنر » هذه الأشياء هى كل المخلفات التى يمكن للإنسانية أن تحصل منها على معظم الصناعات الأثيوبية فى هذا العصر « مجلة متحف الفنون الجميلة ، بوسطن ، الجزء ١٦ ، رقم ٩٧ ص ٨٢) . وعلى ذلك فإن قيمتها لاتقاس بقيمتها الذاتية او بمستوى صناعتها المتواضع نسبياً بل تقاس باعتبار أنها الشاهد الوحيد لحدث من أغرب الأحداث ، إن لم يكن أيضاً من أكثرها إهمالا - فى تاريخ مصر القديمة والشرق القديم .

(يضم متحف مروى الصغير بعض التماثيل التى كشفت بمعابد جبل برقل ومن بينها تمثال بالحجم الطبيعى من الجرانيت الأسود لطهارقة كما يضم تابوتا من الجرانيت للملك أنلامان نورى . وهذه الآثار يجب رؤيتها لأخذ فكرة عن الفن المصرى الأثيوبى فى العصر النباتى) .

وهناك موقع آخر فقط يستحق اهتماماً ونعنى به مروى عاصمة الفرع الجنوبى للأسرة الليبية الذى توطد فى أثيوبيا فى الفترة التى تبدأ حوالى ٧٢٠ق . م ومن الواضح أن هذا الفرع وطد سلطانه فى مروى حوالى نفس الوقت الذى ثبت فيه الفرع الآخر من نفس الأسرة أقدامه فى نباتا ، ولكنه لم يصل إلى الحكم إلا بعد أن بدأ الفرع النباتى فى السقوط . وقد شهدت بذلك حفائر الدكتور ريزنر فى منطقة أهرامات مروى التى تقع على مسافة ميلين ونصف تقريباً شرقى خط سكة حديد أبى حمد - الخرطوم ، وعلى مسافة قليلة شمال -

شرقى محطة الكابوشية على هذا الخط ، توجد هناك مجموعات من هذه الأهرامات أطلق عليها الدكتور ريزنر الجبانة الشمالية والجبانة الجنوبية والجبانة الغربية ، وهذه الأهرامات من النوع النحيل سبق رؤيته فى نباتا ، ولها مقاصير أمامها بها مناظر تكشف عن التدهور التدريجى للمستوى المتدهور أيام الملوك النباتيين المتأخرين وقد ثبت أن الصلة بين هذه المجوعات الثلاث هكذا : الجبانة الجنوبية كانت أقدم الجبانات الثلاث إذ كانت أقدم جبانة عائلية للفرع المروى للعائلة المالكة وتضم مقابر تتدرج زمنياً من حوالى ٧٢٠ إلى ٣٠٠ق .م ولم تصبح جبانة ملكية إلا بوجود المقابر التسع الأخيرة ، وقد استنفدت هذه الأهرامات التسعة كل الفراغ الممكن بحيث اضطر الملوك المرويون إلى البحث عن أرض جديدة لأهراماتهم .

وقد وجدوا هذه الأرض فوق جرف من الحجر الرملى شمالى الجبانة الجنوبية وعلى مسافة ٢٠٠ ياردة فقط منها . وفى هذه الجبانة الشمالية أقاموا واحداً وأربعين هرماً ، اثنين منها فقط لأولياء العهد وخمسة لملكات ، أما الباقى فقد خصص للملوك ويبدو أن الملكات الخمس المدفونات هنا كن نائبات للملك ، ومن المحتمل أيضاً أن أولياء العهدالمفضلين كانوا يباشرون السلطات الملكية ، وخلافاً لذلك تكون الجبانة خاصة جداً . وتبدأ هذه الأهرامات الخاصة بالحكام ونوابهم بانتهاء العمل بالجبانة الجنوبية حوالى ٣٠٠ق .م . وتنتهى حوالى ٣٥٠ ميلادية . أما المجموعة الثالثة من الأهرامات فتسمى بالجبانة الغربية ، وقد بدأت حوالى نفس الوقت الذى بدأت فيه الجبانة الشمالية عندما أصبحت الجبانة الجنوبية ممتلئة بحيث لم تعد تصلح لتكون جبانة ملكية أو عائلية ، وهى تضم مقابر العائلة الملكيةما عدا مقابر الملوك أو نوابهم الذين دفنوا فى الجبانة الشمالية بعيدين عن أفراد العائلة قليلى الأهمية .

ومن هذه الأهرامات وغيرها من أهرامات كورو ونورى ونباتا تمكن الدكتور ريزنر من إعادة ترتيب التسلسل الملكى لفرعى الملوك الأثيوبيين . ويبدأ الفرع النباتى - كما رأينا - بالملك كاشتا والد بعنخى الفاتح وينتهى بناستاسن الملك السادس والعشرين من سلسلة الفرع ، وعلى ذلك فإنه يمتد لمدة ٤٤٢ سنة من ٧٥٠ إلى ٣٠٨ق .م . أما الفرع المروى فانه يشغل التسلسل بصفة فعلية منذ انتهاء التسلسل النباتى ويمتد من ٣٠٠ق . م إلى ٣٥٥ ميلادية وعدد ملوك هذا الفرع واحد وأربعون . وقد عرف كل ملك من الفرع النباتى اسمه ورغم أن هذا لايصدق على الفرع المروى ؛ فإن تقدماً كبيراً قد حدث بسبب هذا التعريف .

وقد حفرت خرائب مدينة مروى نفسها فى ١٩٠٩-١٤ على يد الأستاذ جارستانج ، ويشطرها خط السكة الحديد . ويقع معبد الشمس الذى يحتمل أن أسسه الملك أسبالتا من الفرع النباتى على مسافة قصيرة من الخط ويحوى عدة شرفات يقوم فى

أعلاها الهيكل الذى يضم بقايا مسلة ، وعلينا أن نتذكر أن المسلة كانت تعتبر دائماً رمزاً للإله الشمسى ، وفى معابد الشمس التى أقامتها الأسرة الخامسة كانت تستخدم بشكل خال من الجمال والزخرفة لغرض العبادة ، وقد غطيت أرضية الهيكل وجوانبه ببلاطات من القاشانى الأزرق والأصفر . ويوجد أيضاً شرقى خط سكة الحديد معبدان صغيران كرس أحدهما للملك الأثيوبى الممثل على شكل أسد ، ويحرس سلم الدخول تمثالان لأسدين بينما وجدت تماثيل أخرى لأسود أثناء عملية التنقيب ، أما المعبد الآخر الصغير فقد كرس للالهة حاتحور .

وبالقرب من قرية البجراوية على الجانب الغربى من خط السكة الحديد تقوم خرائب المعبد الكبير لآمون الذى كان على وجه التقريب فى حجم معبد نباتا وقد بنى حوالى ٣٠٠ق . م . عندما كان الفرع المروى يتقدم نحو السلطة بعد أن حل التدهور بالفرع النباتى ، وطوله ٤٤٣ قدماً بينا يبلغ طول معبد نباتا حسب تقدير هوسكنس ٥٠٠ قدم ، ولم يبق غير القليل من هذا المبنى الكبير الذى يبدو أنه بنى فى الغالب من اللبن ، ولكن عرش تمثال آمون الذى كان ينطق بالوحى بإيماءة من رأسه عند اجابته للأسئلة التى توجه إليه لايزال يرى مع المذبح . وصناعة الفرع المروى هى قطعاً طريفة مثل الصناعة الأولى للفرع النباتى فيما خلا ما تظهره من تدهور تدريجى للتقاليد المصرية الأصلية التى كانت أساس الحضارة اللبيبة الأثيوبية .

ويحسن بنا أن نشير إلى الأطلال الأثيوبية المتأخرة فى نجعه على مسافة ٢٢ ميلا جنوبى شرقى محطة سكة الحديد واد بنجعه ولكنها ليست هامة بالقدر الذى يدعونا إلى زيارتها . وهناك ثلاثة معابد وعدة مقاصير صغيرة بالاضافة إلى مقصورة رومانية . وأكبر هذه المعابد كرس لآله أثيوبى على شكل أسد له ثلاثة رؤوس ، ويرجع تاريخ المعبد إلى بداية القرن الأول الميلادى ، وتظهر رسومه كيف ابتعد المرويون عن روحهم الأصلية وقت أن كانوا يقتفون أثر التقاليد المصرية القديمة .

وقد قال الدكتور جونسون مرة لمسز ثرال «إن رؤية اسكتلنده - ياسيدتى - هى رؤية فقط لأنجلترا بشكل أسوأ إنها رؤية الزهرة تذبل تدريجياً حتى الساق العارى» وليس هناك ما يلزمنا لأن نوافق على هذه الهرطقة المروعة ولكن لابد للانسان أن يعترف أنه فى طريقنا بطول أثيوبيا كنا نقتفى أثر نفس المسيرة كما جاء فى وصفه الموجز ، ورأينا أن زهرة الحضارة المصرية «تذبل تدريجياً حتى الساق العارى» .

محتويات الجزء الرابع

الموضوع — الصفحة

الكتاب الخامس من طيبة إلى أسوان

الفصل الثامن والعشرون : أرمنت (هرمونيش) والجبلين وإسنا ٩
الفصل التاسع والعشرون : الكاب والكوم الأحمر (ايليثيا) سيوليس وهيرالبنوليس ١٨
الفصل الثلاثون : ادفو معبدها وتاريخها ٣٤
الفصل الحادى والثلاثون : ادفو إلى السلسلة ٤٤
الفصل الثانى والثلاثون : جبل سلسلة : محاجره وآثاره ٤٩
الفصل الثالث والثلاثون : كوم أمبو ومعبدها ، كوم أمبو إلى أسوان ٦٠
الفصل الرابع والثلاثون : اسوان والفنتين / نبذة تاريخية ٧١
الفصل الخامس والثلاثون : أسوان والفنتين : آثارهما ٨٥

الكتاب السادس ـ فيلة إلى الخرطوم

الفصل السادس والثلاثون : فيلة ١١٠
الفصل السابع والثلاثون : من فيلة إلى كلابشة وبيت الوالى ١٢٦
الفصل الثامن والثلاثون : من كلابشة إلى كورسكو ١٣٥
الفصل التاسع والثلاثون : كورسكو إلى أبو سمبل ١٤٥
الفصل الأربعون : أبو سمبل ١٥٩
الفصل الواحد والأربعون : وادى حلفا إلى كرما ١٧٢
الفصل الثانى والأربعون : نباتا (جبل برقل) ومروى ١٨٦
لوحات فنية وتاريخية

<ParReaSeu cfgsuMt, ocGlfor, cGfgsuSMR, cSeR cSeR cfgsuMt, cGfgsSeSR cSeSR cSeR cGfgsuMt, cSfSSSR cSeSR cSeR cGfgsuMSR cSfSSSR cSeSSR cSfSSSR cSeSSR cSeSSSR cSeSSR cSeR cSfSSSR cSeSSR cSeR cSfSSSR cSeR cSeR cSfR cSeR cSeR cSfR cSeR cSeR cSf

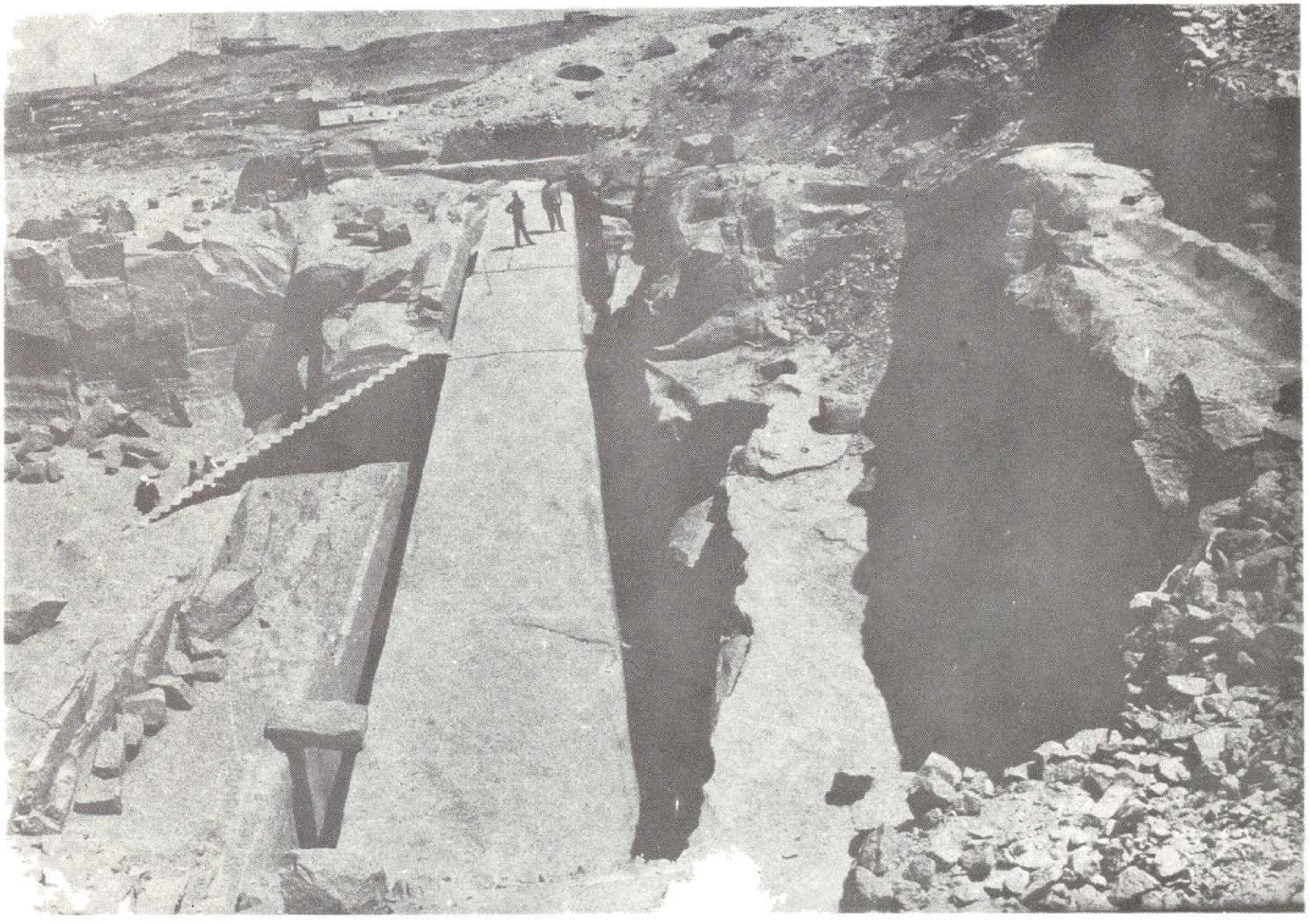

٢ ـ المسلة الناقصة ـ محاجر اسوان

٣ ـ معابد فيلة قبل الانقاذ (أسوان)

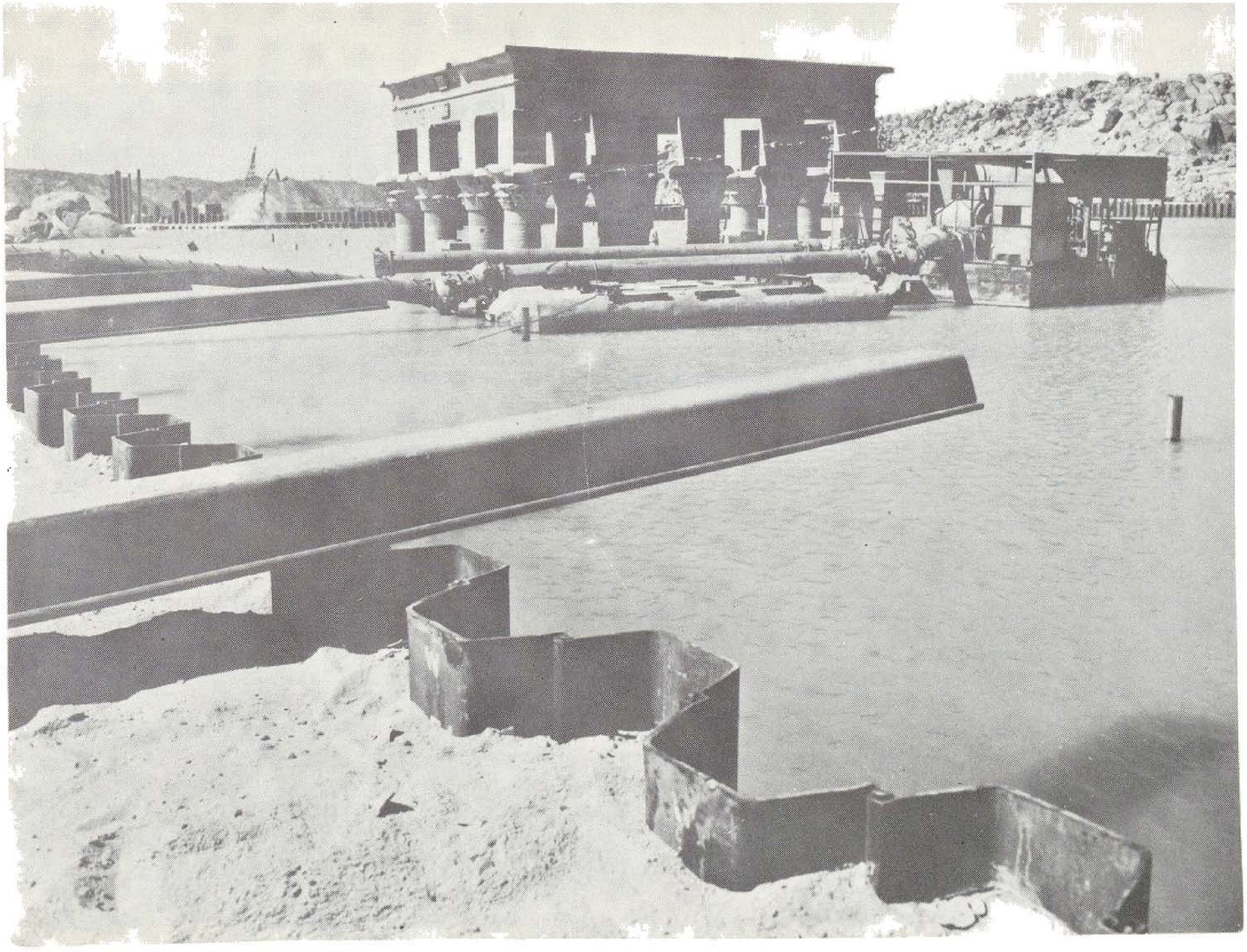

٤ ـ منظر لكشك تراجان اثناء عمليات انقاذ معابد فيلة

٥ ـ معابد فيلة بعد الانقاذ

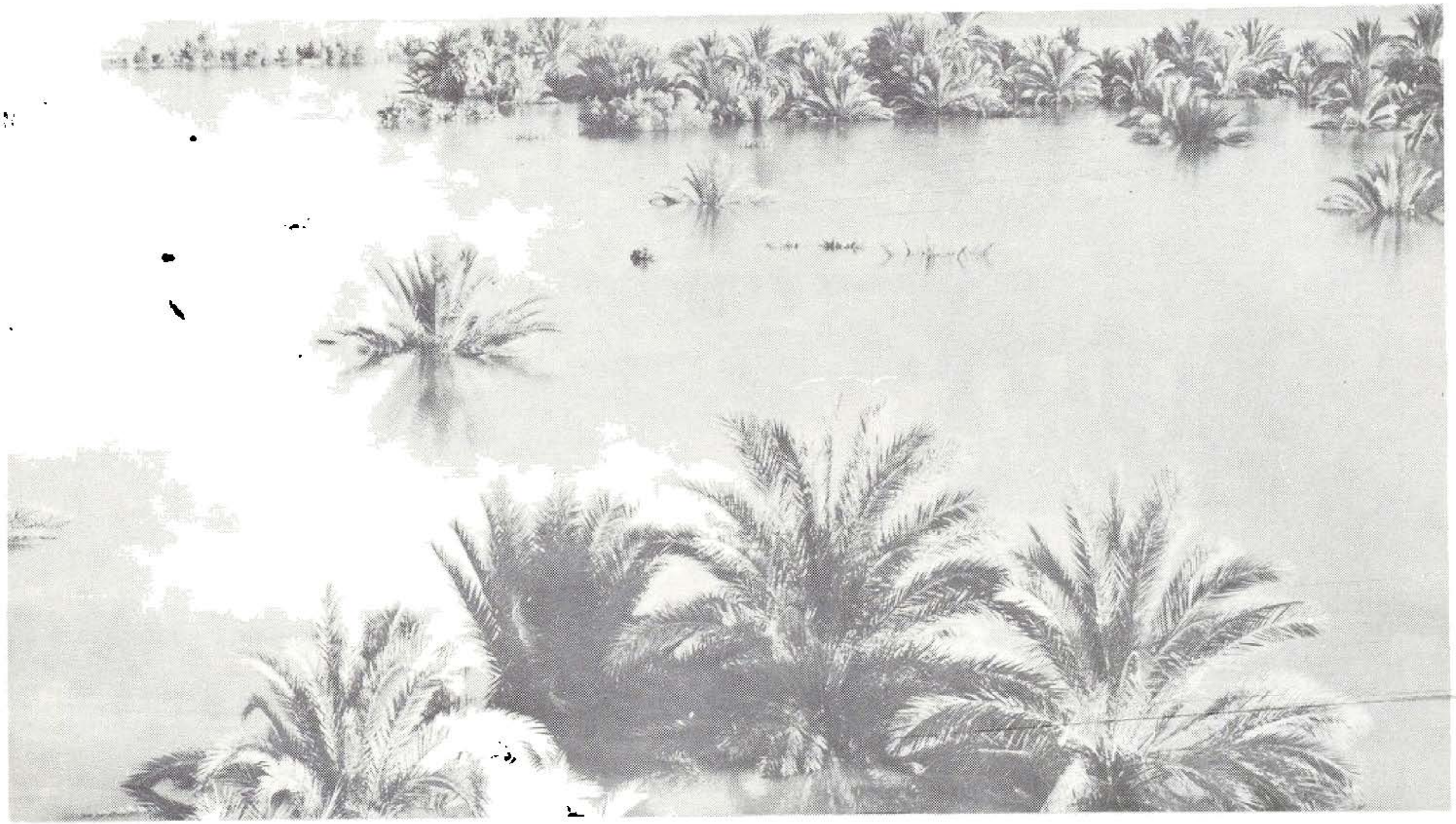

٦ ـ النوبة بعد إقامة السد العالى

٧ ــ الحفائر بكل مكان بلاد النوبة أثناء حملة انقاذ آثار النوبة

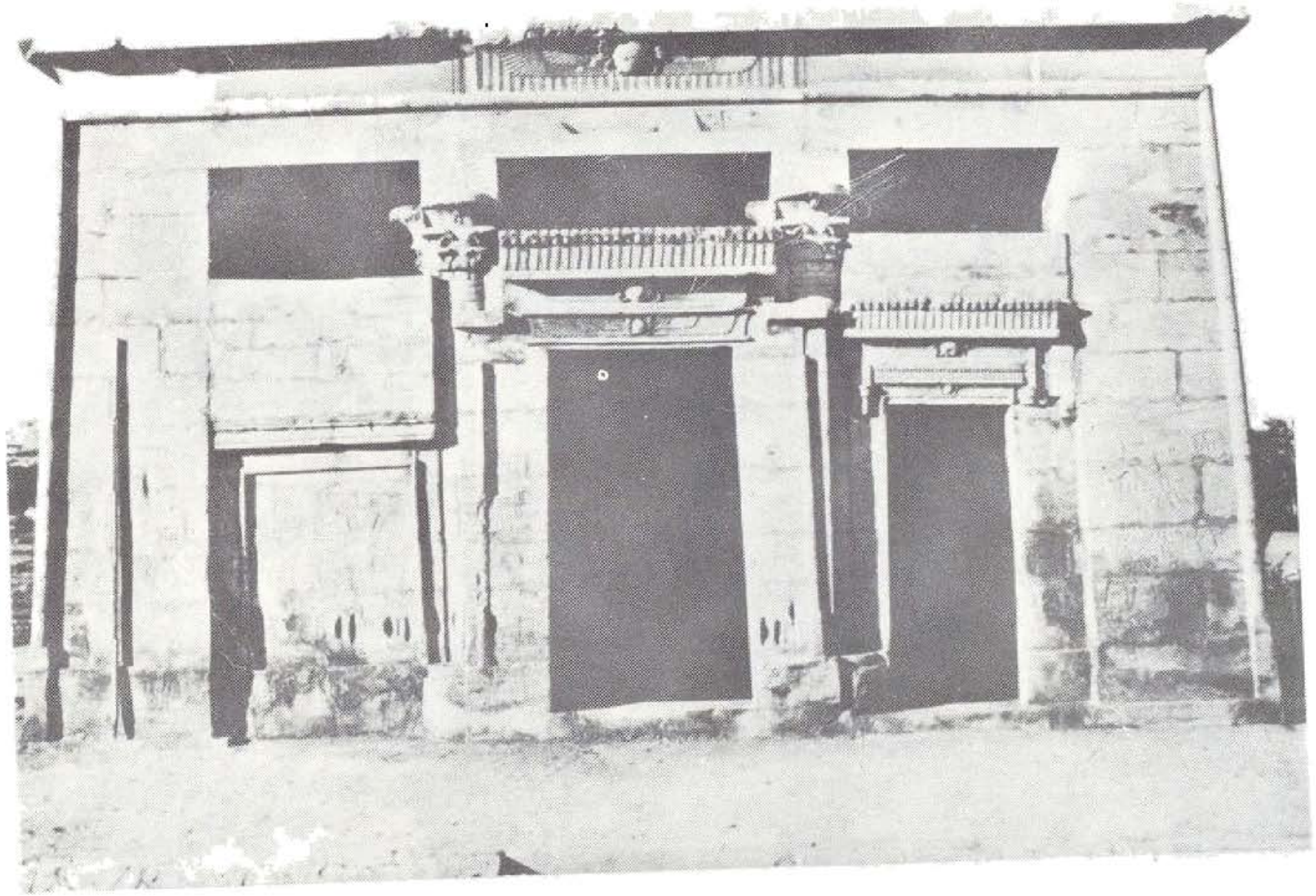

٨ ـ معبد طاقة (بلاد النوبة)

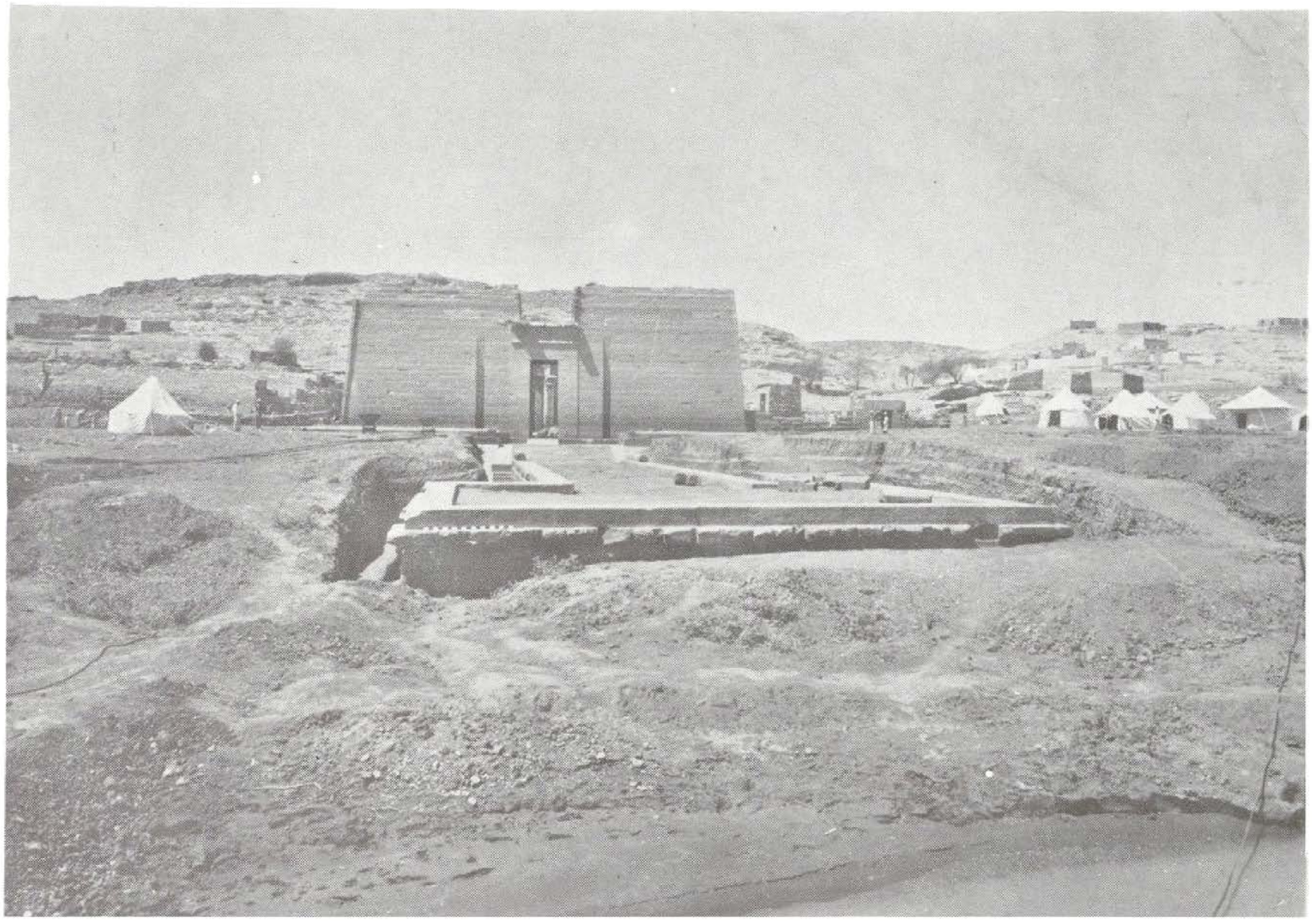

٩ ـ معبد كلابشة (النوبة)

١٠ ــ منظر من معبد بت الوالى (النوبة)

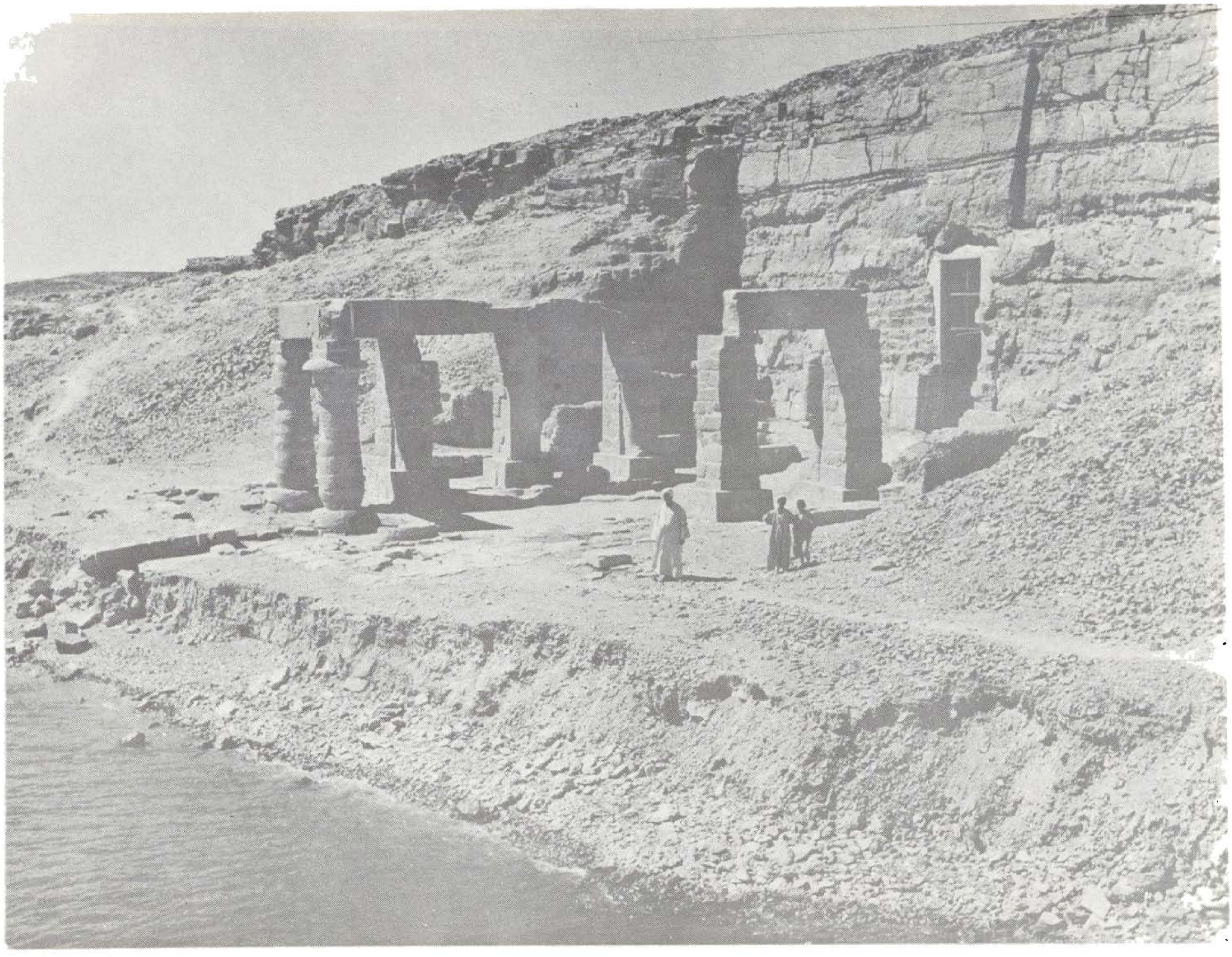

١١ ـ معبد جرف حسين (النوبة)

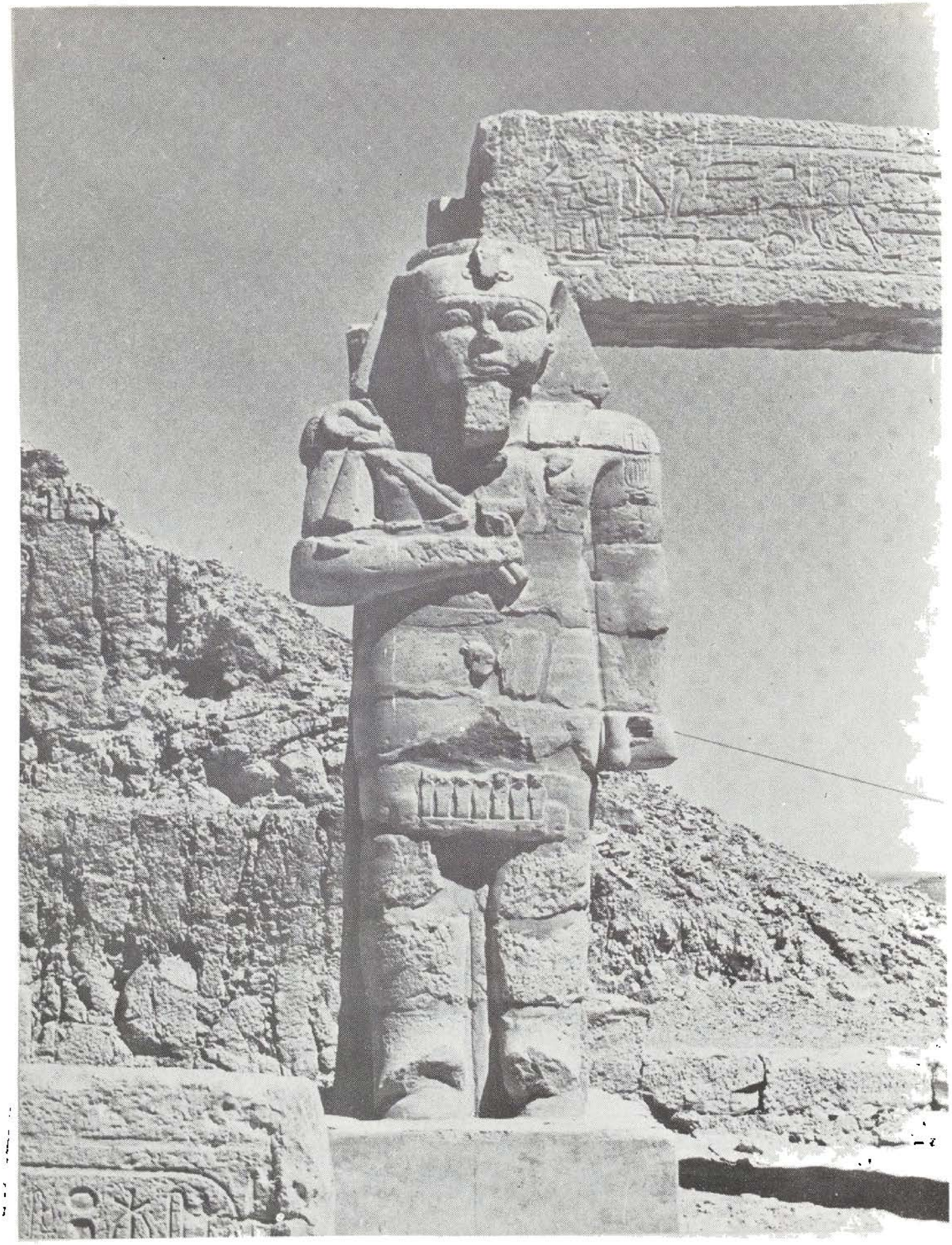

١٢ ـ معبد جرف حسين (النوبة)

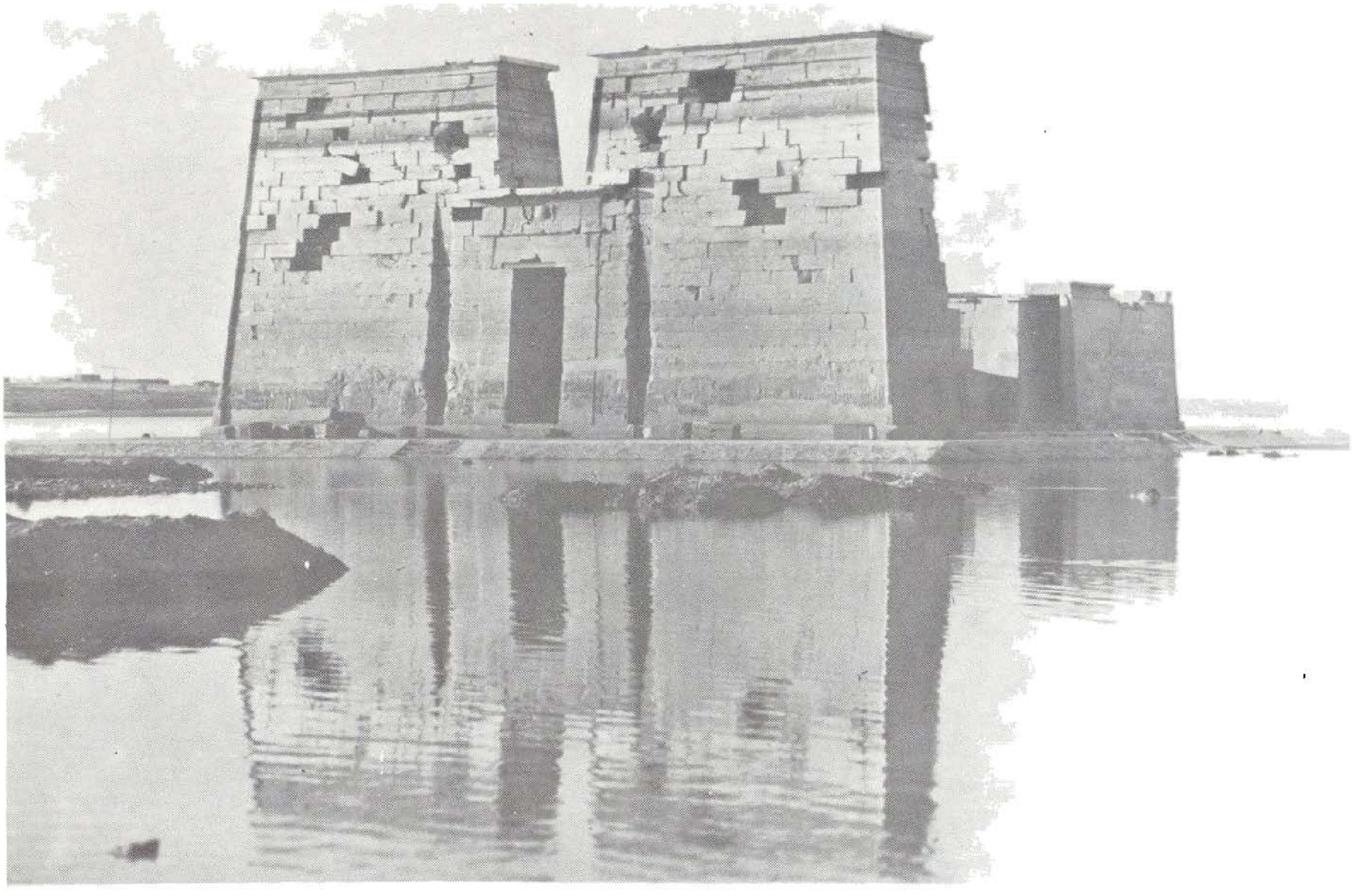

١٣ ــ معبد الدكا (النوبة ـ قبل انقاذه)

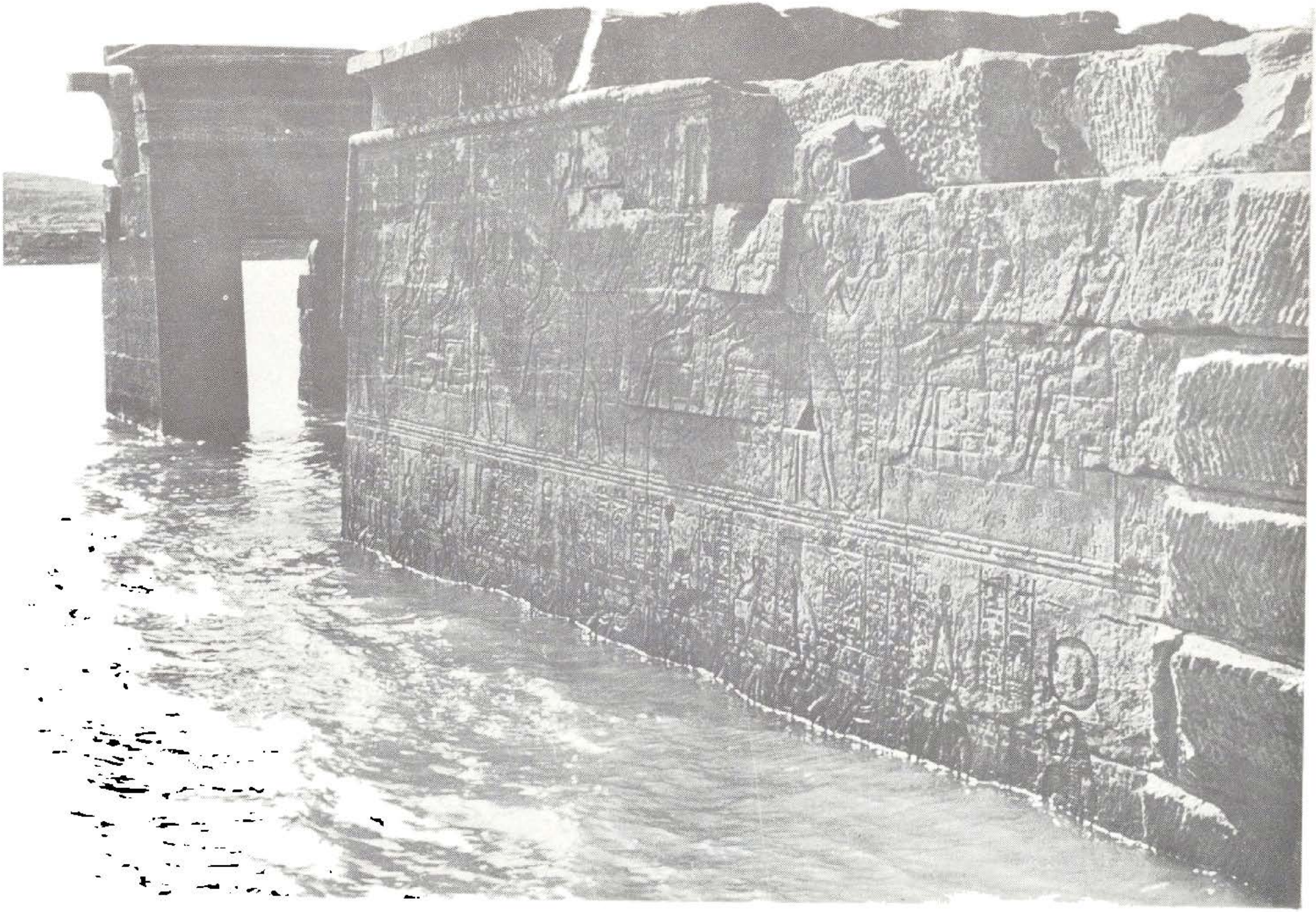

١٤ ــ معبد دندور (النوبة ـ قبل انقاذه)

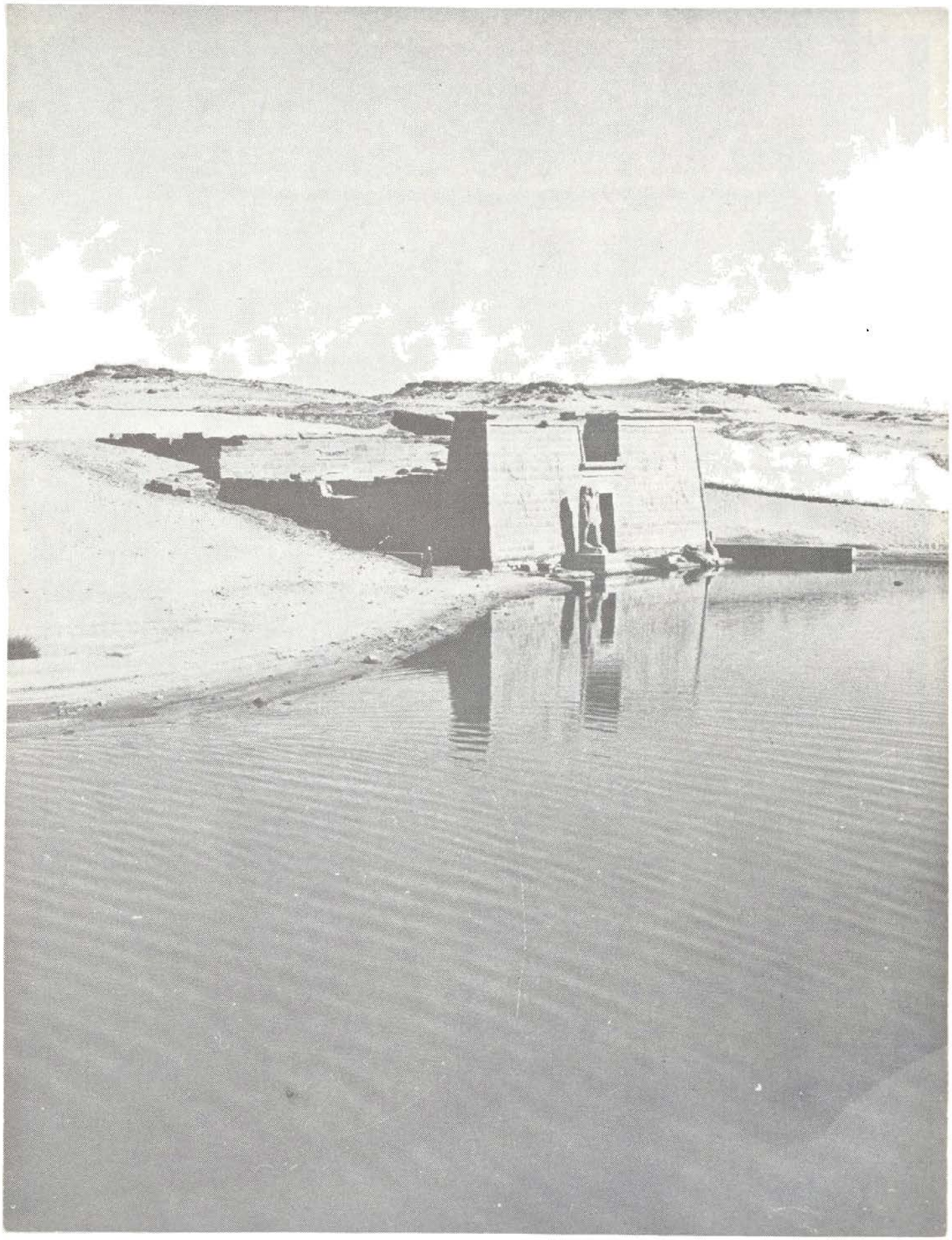

١٥ ـ معبد وادى السبوع (النوبة ـ قبل انقاذه)

١٦ ــ معبد وادى السبوع من الداخل (النوبة)

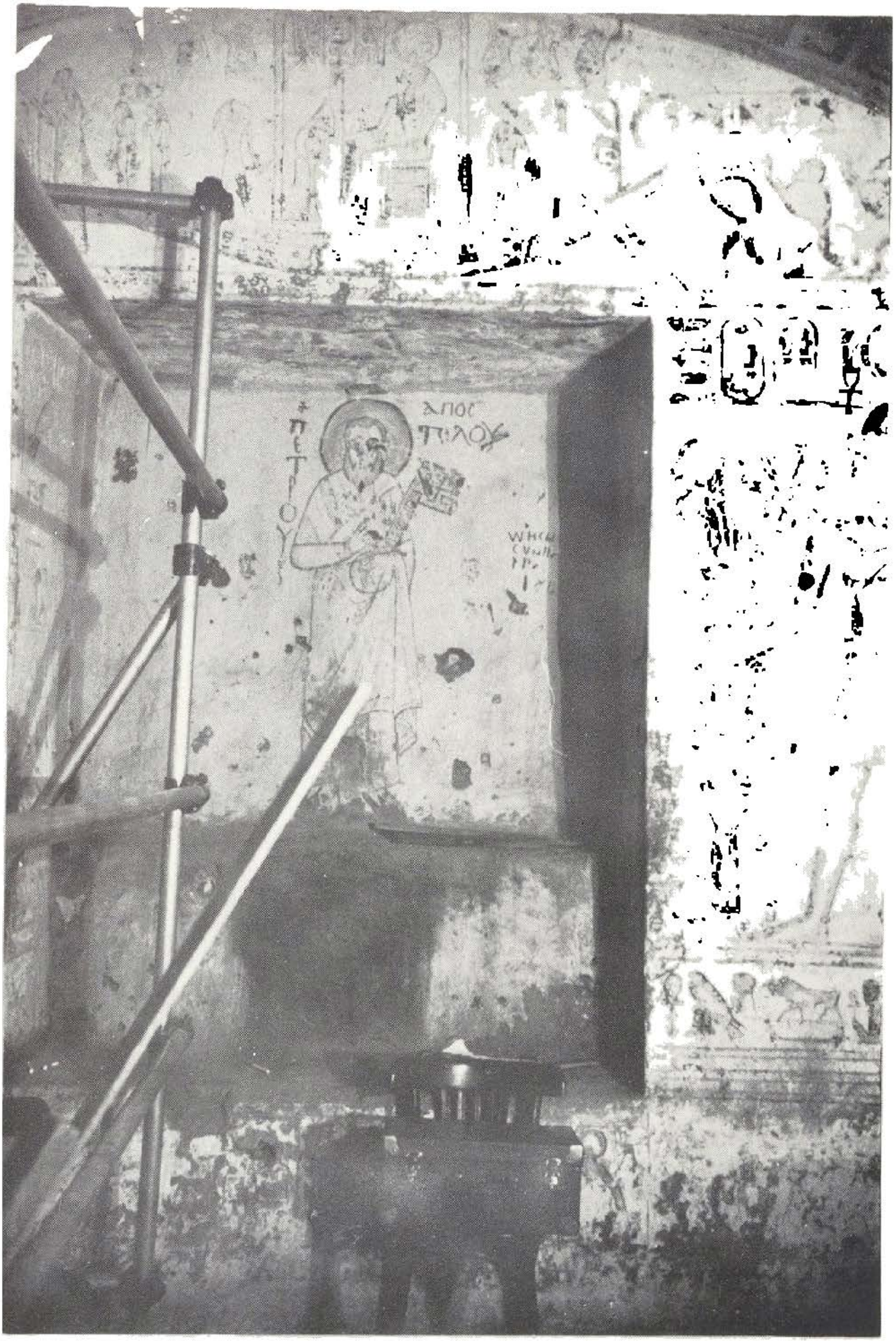

١٧ ـ منظر لقدس الأقداس بمعبد وادى السبوع بالنوبة
الذى حول الى كنيسة بعد انتشار المسيحية

١٨ ــ معبد عمدا (النوبة)

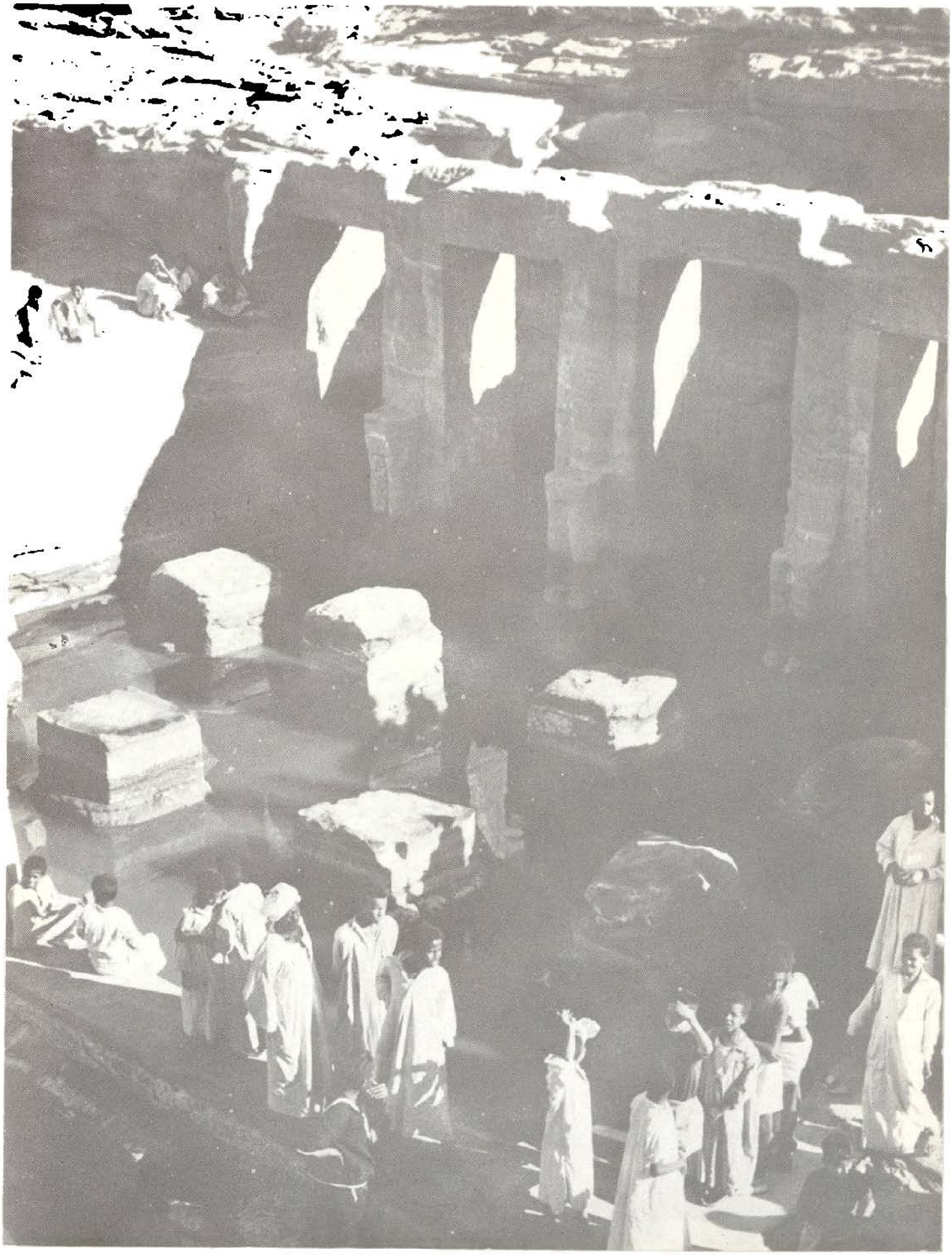

١٩ ــ معبد الدر (النوبة ـ قبل انقاذه)

٣٠ ـ مقبرة بنوت (النوبة)

٢١ ـ المعبد الكبير بأبى سنبل (النوبة)

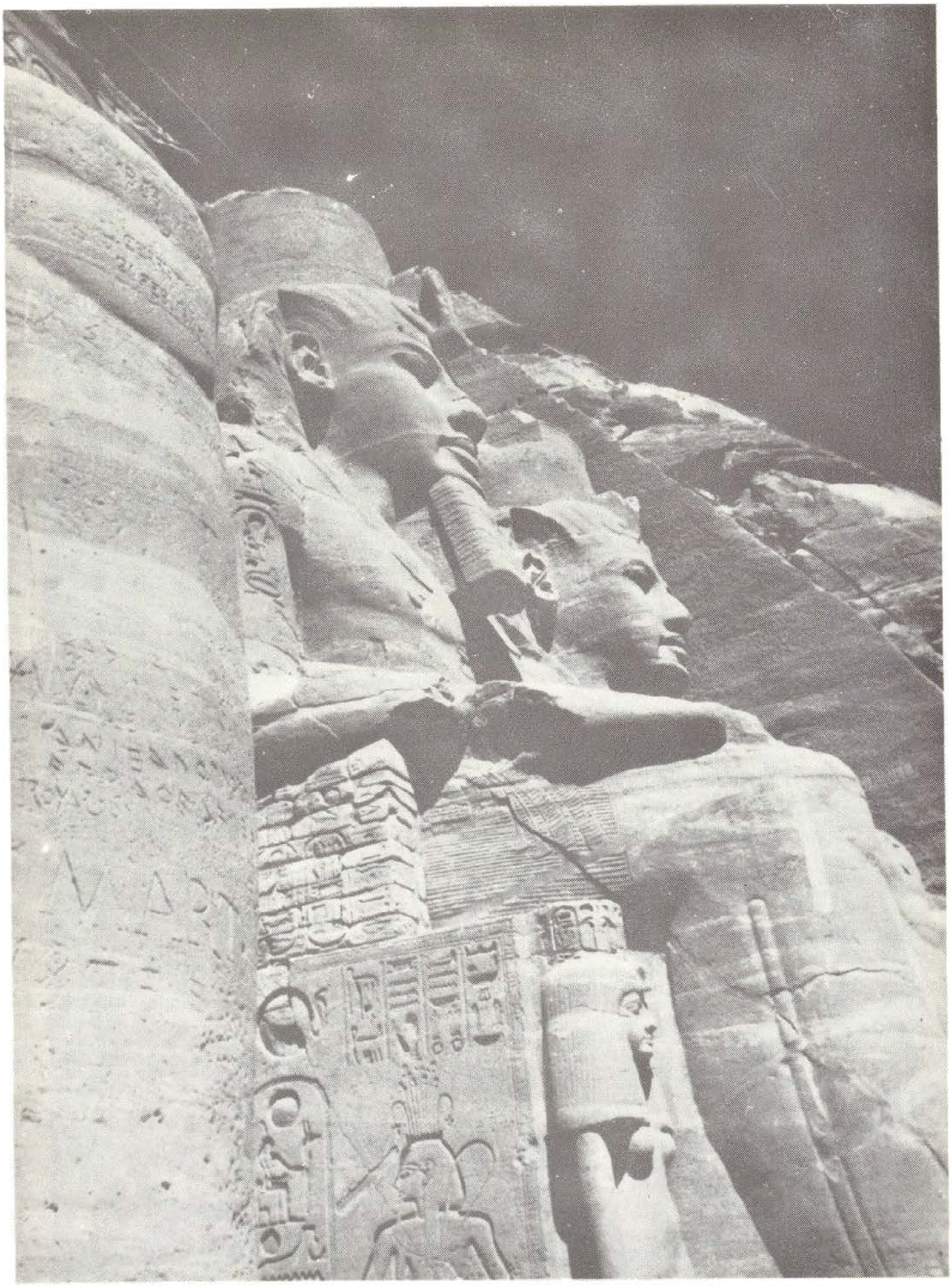

٢٢ ـ معبد ابو سنبل الكبير

٢٣ ـ رمـــيس الثانى يؤدب العصاة بين يدى آمون (معبد أبو سنبل الكبير)

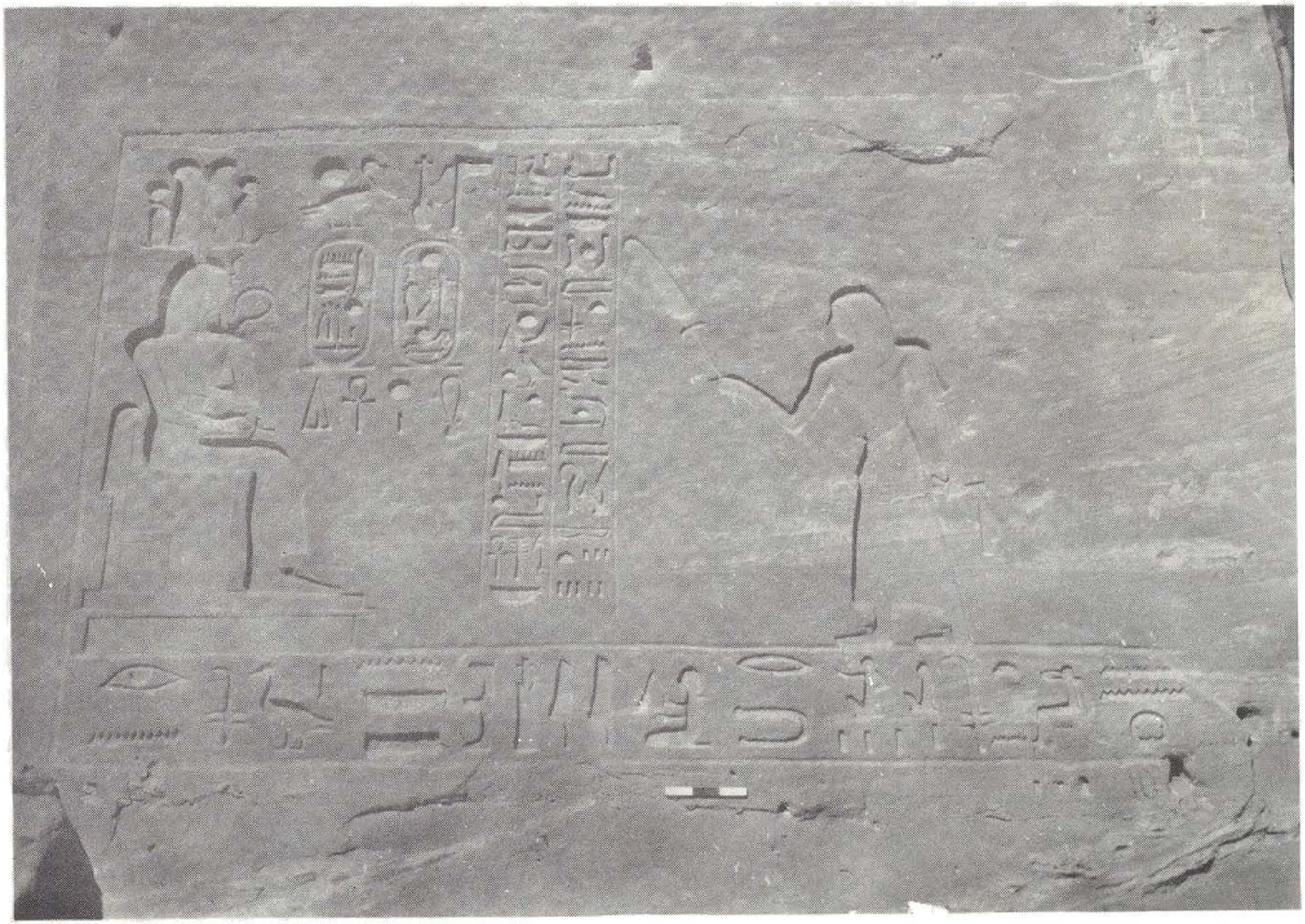

٢٤ ــ لوحة جوار معبد ابو سنبل الكبير

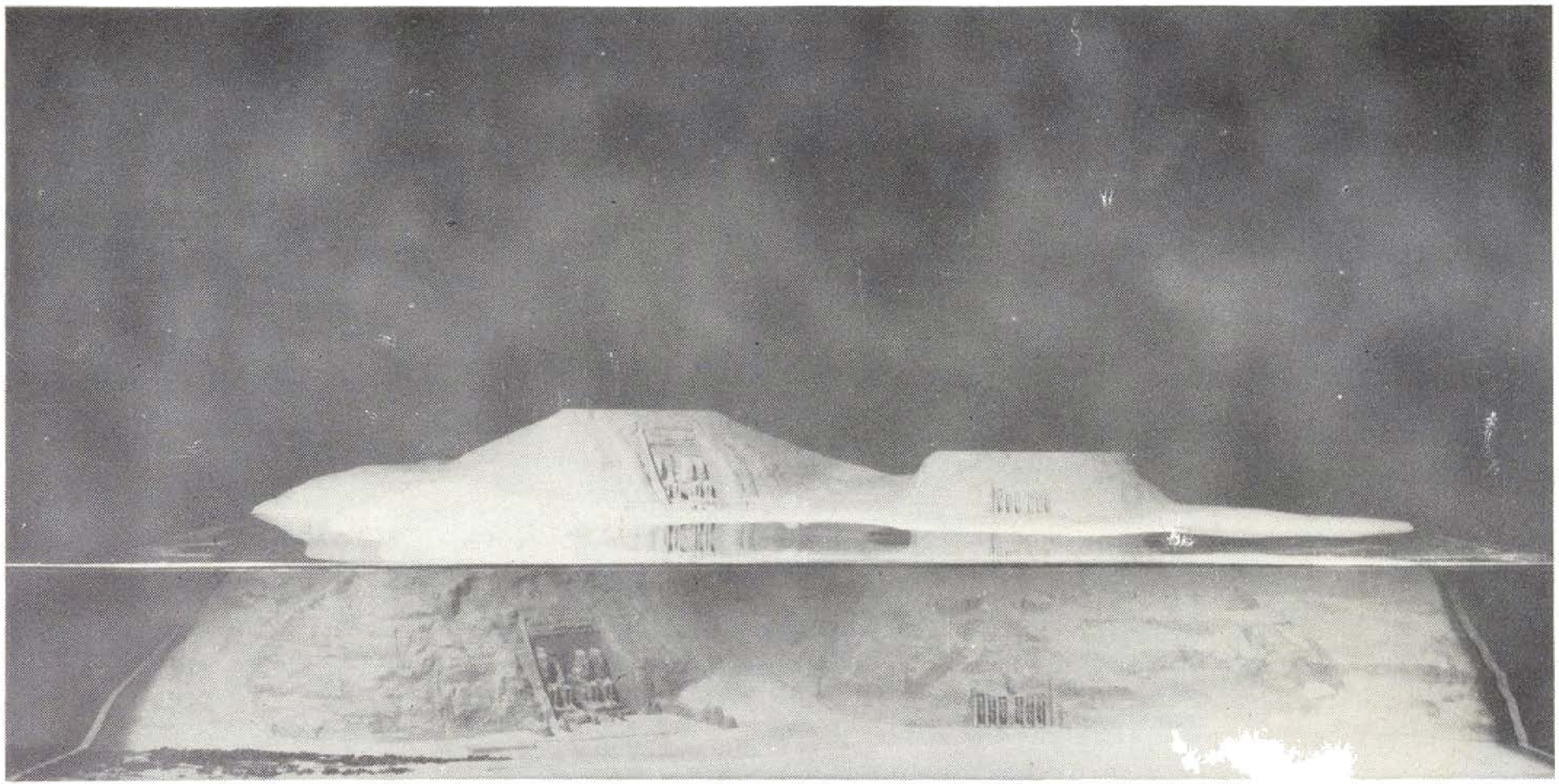

د ٢ ــ منظر تخيلى يمثل معبدى أبى سنبل فى موقعهما ؛ القديم أسفل ، الجديد (اعلى)

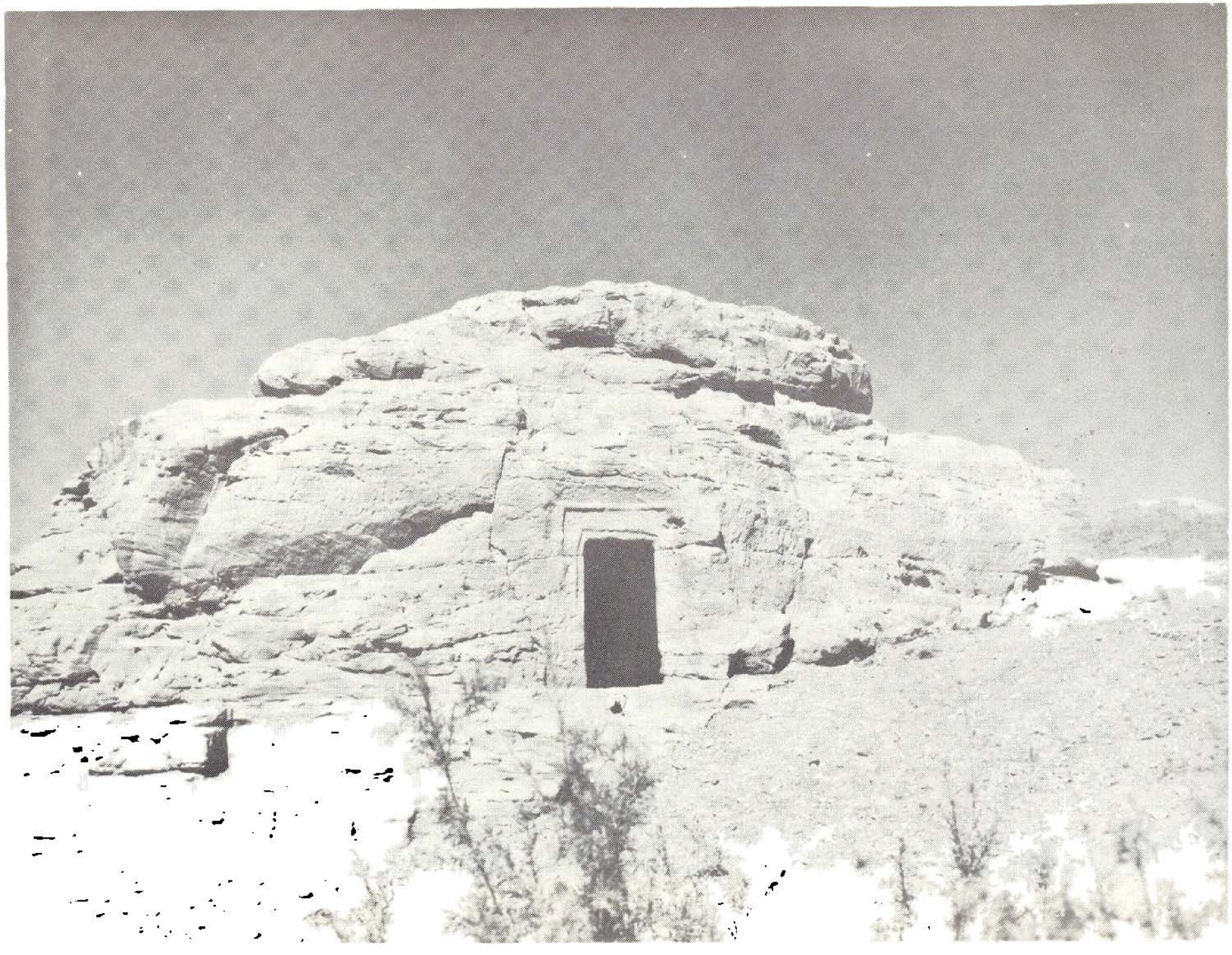

٢٦ ـ فرس : معبد فرعونى مكرس للآلهة حتحور ـ النوبة السودانية

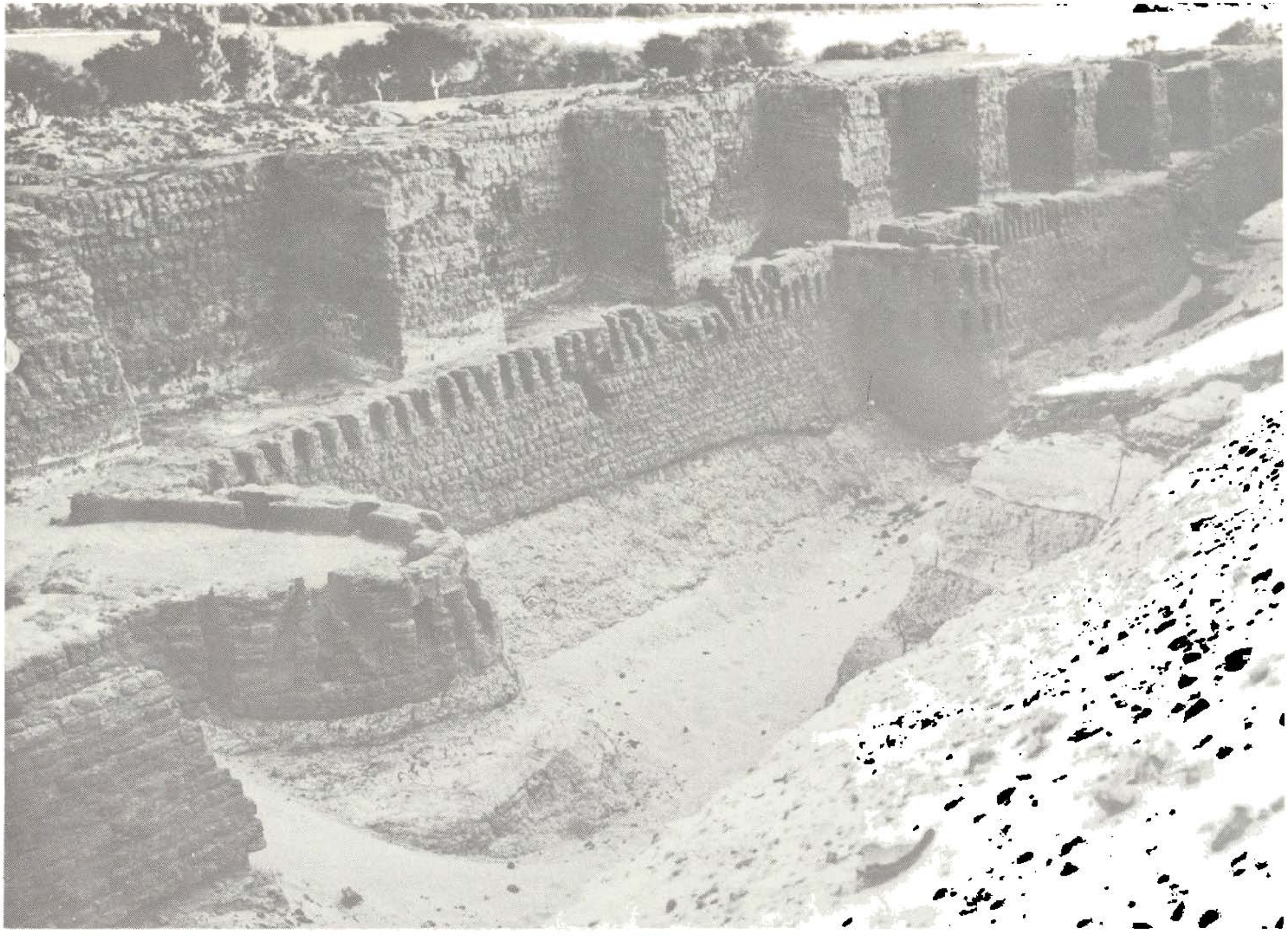

٢٧ ـ جانب من قلعة بوهن ـ النوبة السودانية

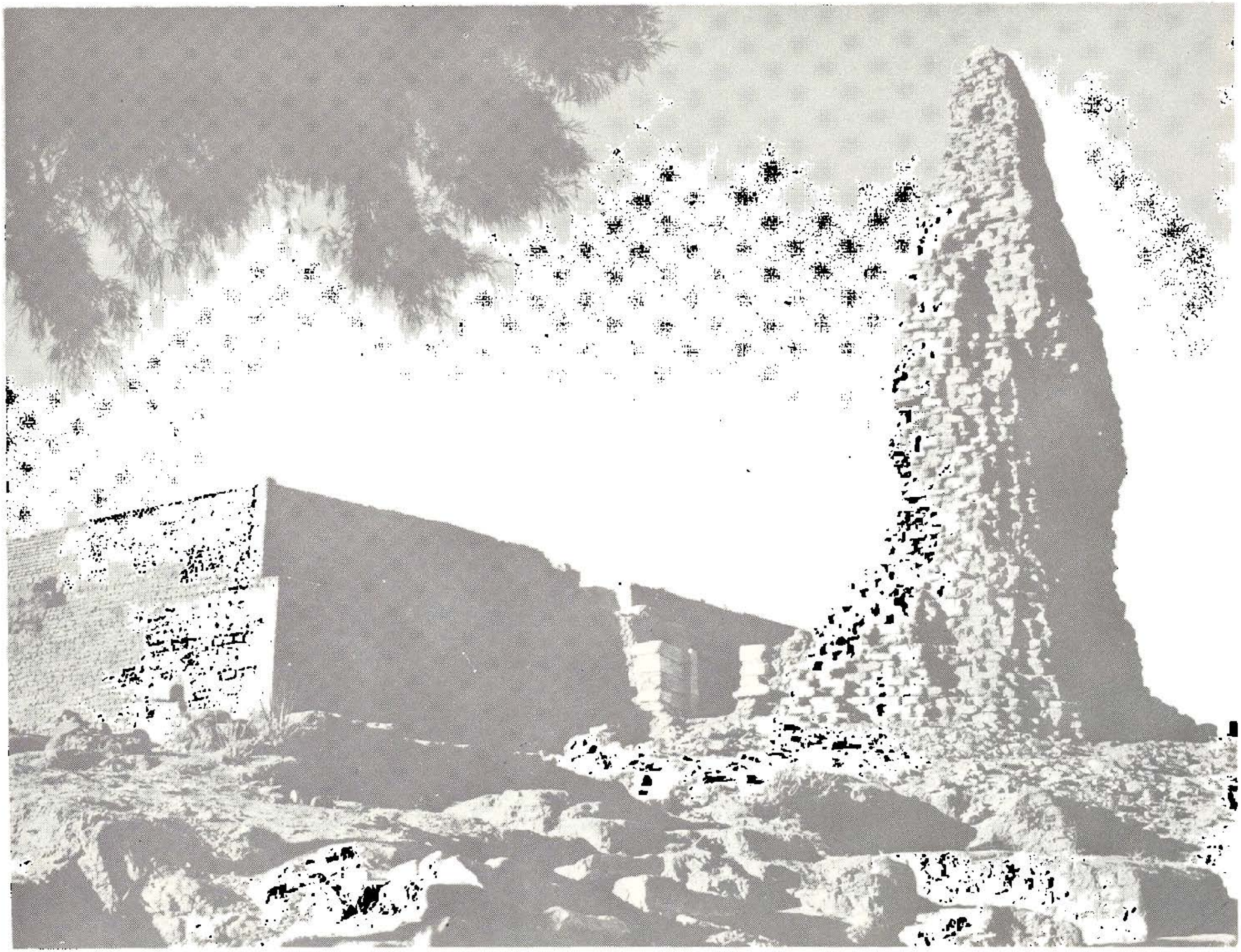

٢٨ ـ قلعة بوهن : النوبة السودانية

٢٩ ـ بوهن معبد حورمن من الأسرة الثالثة عشر : النوبة السودانية .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

يتحدث المؤلف عن الآثار المصرية فى وادى النيل حيث يطوف بنا فى مناطق الآثار الواقعة بين منطقتى طيبة وأسوان . . حيث يبدأ بمدينة أرمنت التى كانت مركز عبادة منتو أو مونت إله الحرب المحلى وآثار الكاب ومنها السور العظيم الذى يرجع إلى عصر الدولة الوسطى . . ثم ينتقل بنا إلى ادفو ومعبدها العظيم . .

وهكذا يستمر الكاتب فى رصد وتقييم الآثار فى هذه المناطق الهامة والتى ما زالت تفيض بكنوزها الثمينة التى بهرت العالم .

٣٢٥ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب